

جمهورية السودان
جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
كلية اللغة العربية
قسم الأدب والنقد

السيد محمد رشيد رضا حياته وأدبه

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد الطالب/ أحمد عبده أحمد
إشراف الأستاذ الدكتور/ بابكر الجزوبي عثمان
٢٠٠٧م - ١٤٢٨م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
نَحْنُ نَسْأَلُكُمْ مَا سَأَلَنَا

الاستهلال

(الْمَرْتَنْ كَيْفَ ضَبَ اللَّهُ مِثْلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَّةً طَيِّبَةً
 أَصْلُهَا ثَابِتٌ فَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ)

(سورة إبراهيم: ٢٤)

إهداء

إلى سرح والدي المرحوم، تقبله الله في الصديقين
والشهداء والصالحين .. وإلى والدتي العزيزة، أطال الله
عمرها بالصحة ودوار التوفيق في من ضاها الله، أهدي ثمار
هذا الجهد، وفاءً لهم ..

كلمة شكر

في ختام هذا البحث أتوجه بالشكر الجزيل ، والامتنان الصادق ، إلى فضيلة الأستاذ الدكتور / بابكر الجزولي عثمان ، الذي أشرف علىّ في البحث ، وأفادني بعلمه وتوجيهاته ما أعايني على التغلب على كثير من صعوبات البحث ، فجزاه الله عني ، وعن زملائي الطلاب خير الجزاء .

كما أشكر أسرة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في ثيکا - كينيا ، إدارة وأساتذة ، وطلاباً على دعمهم لي ، وتحملهم غيابي عن التدريس ، رغم ما تعانيه الكلية أصلاً من شح في هيئة التدريس ، وأشكر كل من أعايني - وما أكثرهم ! - على إنجاز هذه المهمة الجليلة ، على أي وجه كان هذا العون ، سائلًا المولى أن يجزيهم عني جميعاً خير الجزاء .

تمهيد

يقول السيد رشيد رضا (رحمه الله) : "إن الصنائع القولية والعلمية تنمو بنمو الأمم وترتقي بارتقاءها ، والشعر صناعة من الصناعات اللفظية ، لكنها لم ترق مع رقي العرب في مدنיהם التي أفادها لهم الإسلام إلا قليلا ، حتى هبطت من أوج عزها ، وكادت تدرس رسومها ، وتمحى أطلالها بالكلية ، صدمها بعد صدمة اللغة المعروفة صدمة أخرى خاصة بها ، أوقعتها في موقف ضيق حرج ، وهو وصف الأناسي أحياء (بالمدح والهجاء) وأمواتا (بالرثاء) " ^١

والصدمة الأولى التي يشير إليها رشيد رضا ، هي سقم طريقة تدريس علوم العربية وأدابها ، وانحرافها عن تدريس نصوصها إلى العناية بضبطها بقواعد منطقية جافة ، لا تتمي ملكات المتأدبين ، وإنما تخرج متعلمين يحفظون نظريات وقواعد لا يحسنون تطبيقها. حدث ذلك عندما ملك الأعاجم زمام الأمور في عهد الدولة العباسية الثانية ، فلما آلت الأمور إلى العثمانيين ، وتحولت عاصمة الخلافة إلى بلد أعمجي ، وأصبحت البلاد العربية مناطق طرفية تدور في فلك القسطنطينية ، دخلت اللغة العربية وأدابها في غيوبة طويلة ، لم تستيق منها إلا بأصوات مدافعي الحملة الفرنسية على مصر ، وأبواق أجراس الكنائس الغربية ، التي غزت الشام بجيوش منبعثات التبشيرية ، المتغافلة على تسخير العباد والبلاد لمصالح دولها ، وبما صاحب هاتين الحملتين من وسائل المدنية الغربية الصاعدة ، وأفكارها ومبادئها الغازية ، فنشأت الصحف ، وانتشر التعليم المدني ، فتبه العقلاة على حال أمتهم السيئة ، ويدعوا يتسللون تحت أنقاض ركام عصور التراجع والتخلف ، وما إن أخذوا يتلمسون الطريق ، ويهتدون إلى علاج دائهم ، ويقبلون على بناء مؤسساتهم الحضارية ، التي عفا عنها الزمن على أسس جديدة حتى هجم عليهم الاستعمار الغربي ، فسلب الأرض ، وصادر الحريات ، وخيم على البلاد من جديد ليل دامس ، ولكنه ليل لا يرقد فيه أهله كلهم ، بل يتحرك في أرجائه المفكرون والأبطال ، ومن لم تنطفئ بصائرهم ، ولم تخب نار حماسهم بأفول شمس الحرية ، يجاهدون الغزاة بالسيف والقلم ، فأبلوا بلاء حسنا في إيجاع العدو ، وإيقاظ أقوامهم من السبات التي

^١ - السيد رشيد رضا ، مجلة المنار : ١٥٠/٩/١

أخلدوا إليها ، وكانت النتيجة أن كسبوا المعركة بإصرارهم ، وقوة عزائمهم ، وعظم تضحياتهم كما تتبأ رشيد رضا الذي لم يشهد ميلاد الحرية في بلده :

سل النفوس إذا ما ثار ثائرها هل ترتضي بدلًا عن حقها الدرر
لا والذى تملك الأكون قبضته إن الشباب إذا ما أقدم انتصرا

كان الأدب دائمًا في موكب فكر المجتمع ووعيه ، فإن ضعف كان شاهدا عليه ، ودليلًا ينطوي على ضعفه ، وإن صحا من غفوته ، وبرئ من عللها وأسقامه انطبع ذلك في صفحة شئونه ، وانعكس في مرآة أحوله ، ولئن صادفت نشأة رشيد في عصرٍ ، أصدق ما يوصف به ، قول رشيد نفسه ، في شاعر معاصر له : "ولكن مجال الشعر في عصر نشأته كان ضعيف المساحة ، وحرية الكلام كانت في الدولة التركية قليلة المساحة ، والباعث على إجاده المنظوم كان في حكم المدعوم." ^٣ ، فقد أدرك في آخر عمره عصراً ، وصف أدباءه بقوله "إن الفئة الراقية من كتاب مصر ، وأدبائها في هذه السنين ، أرقى في النقد اللغوي ممن قبلهم ، من كبار كتاب هذا العصر وأدبائه ، بل لم يوجد النقد الدقيق إلا في هذا العهد من عصرنا". ^٤ وبين هذين العصرتين (الثالث الأخير من القرن التاسع عشر والثالث الأول من القرن العشرين) عاش السيد رشيد رضا ، ولئن أدركه شيء من سيئات العصر الأول ، بسوء التعليم والتربية ونحوها ، فقد تفتحت عيناه في ظل اليقظة ، التي كان من روادها جيل أسانتته ، ومن بينهم شيخه حسين الجسر ، الذي أخذ بيده في نشأته الأولى ، وجمع له التفقة في العلوم النقلية والعلقية ، وتبصيره بمعارف العصر ، ومفاهيم المدنية الحديثة ، ثم استفاد من صحبة شيخه الثاني ؛ الإمام محمد عبده ، ما لم يجده عند غيره ، من توسيع فكره ، وتنقيف عقله وتدريبه على فلسفة الإصلاح الإسلامي ، مما جعله أهلاً لخلافته في نظر كثير من الباحثين.

كان السيد رشيد رضا بحكم ثقافته الدينية العميقة ، وفكره السلفي المنزع ، وبحكم المرحلة الزمنية التي نضج فيها ، ينتمي إلى طائفة الأدباء الإحيائين ، الذين

^٢ - السيد رشيد رضا ، ديوان السيد ، دار الطباعة الحديثة بمصر ، ص ٦٩

^٣ - المنار : ٦٧/١٣٠

^٤ - السيد رشيد رضا ، شبيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدن ، دمشق ، ١٩٣٦ م ، ص ٦١٤

حرروا الأدب من براثين الجمود ، وانتشلوه مما تردي فيه من مهاوي الزخارف الاصطناعية والمماحكات اللفظية الركيكة ، وذلك باستلهامهم من التراث الأدبي الرفيع في عصور ازدهاره ، ومحاكاتهم لطرائق فحول شعرائه ، وكتابه ، فمهدوا الطريق أمام الجيل الذي بعدهم ، وكان هؤلاء الرواد على الرغم من استمدادهم من معين الأدب العربي الكلاسيكي ، واتكائهم على النصوص الشعرية والثرية العالية منه ، بالمعارضة والاستهام والتضمين حتى استعادوا للشعر العربي ديناجته القديمة ، ونضارته المعهودة – كانوا إلى جانب ذلك يتقدموه ببطء في ساحات التجديد ، لأن الأديب "يتأثر ببيئته ومجتمعه والطبيعة المحيطة به وبثقافة العصر وأحداثه".^٥ مهما بلغ تحفظه والتزامه بالقواعد والتقاليد الفنية الصارمة ، وكان السيد رشيد رضا بفضل مشروعه الإصلاحي الشامل من أكثر أدباء عصره تقبلاً للتجديد والإبتكار ، وانفتاحاً على روح العصر ، وعندما ظهر التيار التجديدي ، وتنوعت اجتهاداته ، ما بين متكررين للتراث جملة وتفصيلاً ، ومجدين على صوئه بتعقل وروبة ، وقف رشيد رضا إلى جانب التراثيين ، دون أن يغمض عينيه عن التجديد ، الذي لا بد منه في ضوء التطورات الفكرية ، والثورة العلمية ، والفلسفات الحديثة ، التي عصفت بكثير من المسلمات التي سادت في العالم القديم ، وهذا ما سوف يظهر صداؤه في أدب رشيد بجميع أشكاله وأنواعه ؛ من شعر ونقد ومقالات ومؤلفات ، ومع الأسف لم يعرف أكثر الباحثين السيد رشيد رضا أدبياً ، بقدر ما عروه مفكراً ، ومصلحاً رائداً ، وعالماً دينياً واسع الشهرة ، فتوارى أدبه في مطاوي مجلته الموسوعية القابعة في أرفف المكتبات وفي كتبه التي لم تجدد طبعاتها الأولى باستثناء القليل منها.

^٥ - نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية ، د. عبد المنعم إسماعيل ، مكتبة الفلاح – الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٩١ م ، ١٤٩١

مقدمة

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوْجَانَا) ^١ ، والصلوة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وبعد..

فلم تزل عناية الباحثين والدارسين متصلة بهذه اللغة الشريفة ، منذ أن اختارها الله وعاء لكتابه العزيز ، ولساناً لدینه الحنيف ، وفتحاً لمناجاته بمختلف الشعائر وأنواع العبادات ، التي شرعها لعباده ، فعظمت منزتها ، وكبر شأنها ، فعكف العلماء على دراستها ، ودراسة ما قام عليها من علوم وفنون ، حتى غدت من أغنى اللغات الحية ، وأكثرها ثراء ، وأنصعها تاريخا ، بل لا تكاد توجد لغة أخرى ، حفظت تراث أهلها ، على ما يربو أربعة عشر قرنا ، مثلاً حفظت العربية تراث الإسلام ، وما ذلك إلا بكل الله وحفظه لها ، بحفظ القرآن والذكر الذي هو روح اللغة العربية (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^٢

تعثرت الحياة السياسية في الخلافة الإسلامية منذ عهد الدولة العباسية الثانية وتدھورت الأوضاع في شتى المجالات ؛ بالتنافس المذموم على السلطة والمنافع الدنيوية الآنية ، وأدى صراع الأسر الساعية إلى احتكار السلطة إلى استعانة بقوى أعمجية ، لما يدخل الإيمان في قلوبهم ، ولم تطلق ألسنتهم بلغة الذكر الحكيم ؛ مفتاح الحضارة الإسلامية ، فتسلطوا على جميعهم ، واستبدوا بالأمر دون أهله ، فزادت غرية الإسلام في أرضه ، وأخذت منابع الحضارة الإسلامية الفياضة في الكمون ، وتوارت عقليّة الإسلام المبدعة ، الهاوية المهدية ، خلف جدران الانحراف السياسي ، ومع ذلك ظل العلماء يؤدون واجبهم في حفظ التراث الإسلامي دون كلل أو ملل ، وشهدت أكثر العصور تخلفاً وجموداً وضناً بالعلم وأهله ميلاد الموسوعات الإسلامية التي كان حظ علوم العربية منها وافرا . أما الأدباء والشعراء فلم يجدوا ما

^١ - سورة الكهف : ١
^٢ - سورة الحجر : ٩

يحفزهم على الإبداع ، فسكنوا ، حتى قيض الله لهم في عصر النهضة من نبؤهم من غفلتهم ، وبصرهم بالطريق الذي ضلوا عنه في سرى ليل التخلف الطويل.

شهد السيد رشيد رضا تباشير فجر النهضة ، وتنتمذ على روادها ، واستمع إلى تنبئاتهم وتوجيهاتهم كما يشرحه بقوله : "هذا ما نبه أفكار الفضلاء وأهل الغيرة على الآداب العربية ، وحذا بهمهم إلى حلّ الشعر العربي من عُقله وإطلاقه من قيوده فأرشدوا الناس إلى التصرف في المعاني الجديدة والنظم في المواضيع الشريفة على ما تقتضيه حالة هذا العصر .

طرقَ هذا التنبئ مسامع منشئ هذه الجريدة في أوائل طلبه للعلم من أستاذنا العلامة الشهير الشيخ حسين أفندي الجسر ، فجذبت النفس للعمل ، وكان أول نظم نظمته في ذلك قصيدة أشرت فيها إلى مذاهب المتأخرین في الشعر بصيغة الإنكار وшибت ذلك بالمعاني الجديدة التي تعطیها الفنون والصناعات العصرية .^٣

يتكون البحث من مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة ، وفهارس.

تناولت في المقدمة شرف العربية ، وجهود العلماء - بما فيهم علماء عصر رشيد رضا - في دراستها ، وتسهيلها على المتعلمين ، وأوجزت في التمهيد رحلة الأدب العربي حتى وقت رشيد رضا . أما الفصل الأول - وهو من مباحثين - فهو شرح لعصر رشيد ، وما تميز به من الملامح السياسية والفكرية ، وفي المبحث الثاني دراسة خاصة بالسيد رشيد رضا ، ترصد سيرته ، وحياته العلمية ، وحياته الفكرية ، في ثلاثة مطالب تحمل هذه العناوين على التوالي ، ويدرس الفصل الثاني أدب رشيد رضا من شعر ، ونشر فني ، ونقد أدبي دراسة عامة ، ومباحثه ثلاثة تدور في الجزئيات السابقة . أما الفصل الثالث فهو خاص بالدراسة الفنية النقدية لأدبه ، وهو كسابقة ذو مباحث ثلاثة ، وتتضمن الخاتمة أهم نتائج البحث ، والجديد الذي توصل إليه الباحث ، وما يراه من المقترنات بعد دراسة أدبه .

وأخيراً عملت أربعة فهارس . هي فهرس الآيات القرآنية ، وفهرس الأحاديث الشريفة ، وفهرس الأشعار ، وفهرس الموضوعات .

وفيما يلي بعض المصطلحات الخاصة بالبحث :

^٣ - المنار ، السيد رشيد رضا ، ١٩٤/١١/١

- ١- عنوان الرسالة : السيد محمد رشيد رضا حياته وأدبه ، وعند كتابة الفصول والباحث اختصرت فحذفت "محمد" ، وفي عنوانين المطالب اكتفيت بالضمير عن ذكر الاسم.
- ٢- عند ذكر المصدر أو المرجع في هامش البحث ، أذكر اسم الكتاب لا المؤلف ، لأنه يغني عن المؤلف ، إذا ذكر له أكثر من كتاب.
- ٣- رتبت الصادر والمراجع على حسب أسماء الكتب بالترتيب الهجائي.
- ٤- إذا تكرر المصدر أو المرجع في الصفحة الواحدة ، أكتب بدلا عن اسمه كلمة "السابق" لتشمل المصدر والمرجع.
- ٥- أكتب كل البيانات المتعلقة بالمصدر أو المرجع عند وروده الأول ، ولا أعيد ذلك إذا تكرر.
- ٦- أكتفي بالتاريخ الميلادي حيث يحتاج إلى ذكر التاريخ .
- ٧- عند العزو إلى مجلة المنار اقتصرت على "المنار"

مصادر البحث :

أهم مصادر البحث هي مؤلفات السيد رشيد رضا ومكتوباته ، من مقالات ورسائل وتضم مجلة "المنار" أكثر مقالاته ، ومن ثم فهي المرجع الأساسي لدراسة نثره الفني ، وآرائه النقدية في اللغة والأدب ، كما اشتملت على طائفة من أشعاره ، ويمثل تفسيره للقرآن الكريم "تفسير المنار" ومؤلفاته الدينية الأخرى ، جزءا مهما من نثره التأليفي ، ومن أهم مصادر رسائل رشيد رضا كتاب "السيد رشيد رضا" لأمير البيان شكيب أرسلان ، حيث ضم هذا الكتاب أكثر من مائتي رسالة بلغت صفحاتها أكثر من خمسمائة ، ومن مصادر الدراسة أيضا ما كتب عن رشيد رضا من الكتب ، التي سأشير إليها في "الدراسات السابقة" .

أهمية البحث

كان السيد رشيد رضا عالما دينيا ، ومفكرا إسلاميا ، وسياسيا مناضلا ، وصحفيا بارعا ، وأحد بناء النهضة العربية والإسلامية الحديثة ، وقد ذاعت شهرته في هذه المجالات السابقة بحيث اتجهت إليها الأقلام التي تناولته بالدراسة ، واستبدلت بالدراسات التي قامت عليه ، وقلاها التفت دارسوه إلى أدبه شعراً أو نثراً ، لأن ذلك ليس باليسور إلا لمن يطلع على مجلدات جرينته القابعة في أرفف الدوريات المحفوظة ، أو وقع بيده ديوانه الوحيد "ديوان السيد" الصغير الحجم ، الذي لم يطبع على ما يبدو إلا مرة واحدة في حياة رشيد رضا في عام ١٣٤٥هـ ، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة ، لتتبه الدارسين إلى أدب رشيد ومظانه إن لم توفق - كما يرجو الباحث - في تقديم هذا الأدب بطريقة علمية وموضوعية إلى الدارسين.

أسباب اختيار الموضوع

كان الباحث بصدده دراسة النثر الفني في مجلة العروة الوثقى ، التي صدر منها ثمانية عشر عدداً بقلم السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، لتكون موضوع أطروحته الدكتوراه ، وبينما هو متعدد حيال العروة الوثقى لقلة أعدادها وصغر حجمها ، إذ به يطلع في مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية على مجلة المنار ، فيجدها أنساب بالدراسة ، لأنها أوفى أعداداً وأغزر مادة ، ثم استشرت أساتذة قسم الأدب فأشاروا على بدراستها.

أهداف البحث

تتلخص أهداف البحث في الكشف عن أدب رشيد وطبيعته وحجمه ومصادره ، ثم دراسته دراسة علمية وموضوعية ، راجياً أن تسهم هذه الدراسة في تعريف هذا الأدب إلى الدارسين ، وفاءً لحق هذا العالم الموسوعي ، الذي أنسى الاشتغال ببعض علمه بعض الآخر.

صعوبات البحث

من أشد الصعوبات تأثيراً على البحث في أثناء إعداده :

١- صعوبة الحصول على المراجع ذات الصلة القريبة من موضوع البحث ،

لأن الباحث يقيم في بلد غير عربي ، تتدرب فيه مادة الثقافة العربية

والإسلامية على العموم ، ناهيك عن المراجع الأدبية ذات الصلة المباشرة

بموضوع البحث ، كما أنه لم يصبح من الشائع بعد ، خلق مكتبات

الإلكترونية في شبكات "الإنترنت" ، تلبى احتياجات الباحثين ، وأغلب ما فيها

لا يعود عن كونه قوائم أسماء الكتب في المكتبات المختلفة ، أو كتابات

تعريفية مقتضبة .

٢- بُعد الباحث عن مشرفه ، بحيث لم يكن من السهل عليه الاتصال به بصورة منتظمة ، مما حرمه كثيراً من مزايا القرب منه ، وسهولة الرجوع إليه .

٣- اتساع نطاق البحث ، وتشعب موضوعاته ، وتنوع مجالاته ، إذ لم يكن في

تصور الباحث عند اختيار الموضوع أنه سيدرس ما في مجلة المنار من

النثر الفني ، فتكتشف له أن لرشيد رضا شعراً مدوناً ، وأن أدبه النثري فوق

الحجم الذي كان في باله ، وإنما ، لا يقتصر على جانب منه من جوانبه

المتعددة .

منهج البحث

المنهج الذي سلكته في إنجاز هذا البحث في دراسة حياة وأدب السيد رشيد رضا هو المنهج النقيدي التكاملـي .

وبما أن أدب رشيد رضا غزير ومتتنوع - لأنـه شاعـر موهـوب ونـاـثر بـارـع - فقد

الـتـرـمـتـ بـدـارـسـةـ كـلـ ما وـقـتـ عـلـيـهـ مـنـ شـعـرـهـ لـأـنـهـ لـيـسـ بـالـكـثـيرـ ،ـ وـتـتـبـعـتـ آـرـاـهـ النـقـيـدـيـةـ

فـيـ كـتـبـهـ وـمـؤـلـفـاتـهـ الـمـطـبـوـعـةـ الـتـيـ مـنـ أـهـمـهـ مـجـلـةـ الـمـنـارـ ،ـ أـمـاـ نـثـرـهـ فـقـدـ اـكـتـفـيـتـ مـنـهـ

بـدـرـاسـةـ نـمـاذـجـ اـخـرـتـهـ عـلـىـ أـسـاسـ مـنـاسـبـتـهـ لـمـوـضـوـعـاتـ أـوـ أـنـوـاعـ النـثـرـ الفـنـيـ الـتـيـ

اسـتـخـلـصـتـهـ مـنـ نـثـرـ الغـزـيرـ الـذـيـ حـوـتـ مـعـظـمـهـ مـجـلـةـ الـمـنـارـ ذاتـ الـخـمـسـةـ وـالـثـلـاثـيـنـ

مـجـلاـ .

الدراسات السابقة

حظي السيد رشيد رضا باهتمام كبير من الباحثين والدارسين يليق بمقامه العلمي وكفاحه في نصح الأمة الإسلامية والعربية ، فتناولوه بالدراسات الأكاديمية وغيرها ، وانصببت معظم البحوث التي أنجزت فيه على المجالات العلمية والفكرية والnazaliyah التي برع فيها ، فمنها ما تناول جهده في تفسير القرآن الكريم ومنها ما بحث في اتجاهه العقدي ، ومنها ما درس فكره السياسي ، ومنها تعرض لإصلاحاته الدينية والاجتماعية ، ومنها ما بحث في أدبه. ومن هذه البحوث الكثيرة ما اختص به وحده ، ومنها ما ترجم له ضمن الطائفة التي يصنف فيها أو في المجال الذي يسهم فيه بعلمه أو فكره أو نضاله وكفاحه.

ومن الدراسات التي خصصت له :

- ١- السيد رشيد رضا أو إخاء الأربعين سنة ، لصديقة أمير البيان شبيب أرسلان ، وفيه ترجمة السيد رشيد رضا ، ملخصة من ترجمة رضا لنفسه في كتابه "المنار والأزهر" وحديث مقتضب عن العلاقة بينهما ، وعن حفلات التأبين ، وعن منزلة رشيد رضا ، ثم أورد من آثار السيد رشيد رضا مقصورته الموسومة بالقصورة الرشيدية ، ورسائله التي بعث بها رشيد إلى شبيب أرسلان على مدى الأربعين سنة التي دامت فيها صداقتهما.
- ٢- الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح ، للدكتور محمد بن عبد الله السلمان ، (١٩٩٣م) والكتاب في الأصل رسالة ماجستير بعنوان : "رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب" ثم استخلص منها هذا الكتاب الخاص برشيد رضا مركزا على سلفيته وإصلاحاته.
- ٣- الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل ، سمير أبو حمدان (١٩٩٢م) ويتناول الكتاب الجانب السياسي في جهود رشيد رضا الإصلاحية ، ويرز اعتدال خطاب رشيد السياسي.
- ٤- السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية ، محمد أحمد درنيقة (١٩٨٦م) ويبحث الكتاب في إصلاحات رشيد الاجتماعية التي من أهمها

الإصلاح التربوي والتعليمي ، ومنها اهتمامه في النهوض بوضع المرأة المسلمة ، كذلك يبحث الكتاب في إصلاحات رشيد الدينية التي تناولت تفسير القرآن الكريم ، حيث أخرج تفسيرا ميسرا مناسبا لطبيعة العصر ، ثم جهوده في إصلاح الأزهر ، فجهوده في إصلاح الفرق والمذاهب الإسلامية والطرق الصوفية.

٥- ديوان النهضة (نصوص في الفكر والسياسة مختارة من مجلة المنار) ، اختارها أدونيس وخالدة سعيد (١٩٨٣) ويبين الكتاب أن إصلاح السيد رشيد رضا كان إصلاحاً للمجتمع الإسلامي في ضوء تعاليم الإسلام ، ولم يكن إصلاحاً لتعاليم الإسلام بإعادة النظر فيها في ضوء المستجدات الحضارية.

٦- رشيد رضا صاحب المنار عصره وحياته ومصادر ثقافته ، للدكتور أحمد الشريachi (١٩٧٠) والكتاب ترجمة وافية لصاحب المنار تتناول عصره وحياته الخاصة ، ومصادر ثقافته ، التي ذكر أنها مصدراً ؛ التراث الإسلامي ، والثقافة المعاصرة التي حصل منها شيئاً بسبب مطالعاته الخاصة ، ولم يتسع الكتاب في الجوانب العلمية أو الفكرية التي برع فيها صاحب المنار .

وفي كلام الشريachi ما يشير إلى أنه كتب في أدب رشيد رضا ، وذكر الأستاذ أنور الجندي في كتابه "ترجم الأعلام المعاصرين" أن الدكتور أحمد الشريachi أعد أطروحة علمية عن أدب السيد رشيد رضا ، ولم أثر على هذا الكتاب رغم البحث عنه في مكتبات السودان وال سعودية.

ومهما كتب عن السيد رشيد رضا فإنه بغزاره إنتاجه ، وتنوع اهتماماته ، وجهوده الإصلاحية ، ونضاله السياسي ، يتسع لكثير من الدراسات ، كما "أن الشخصية الواحدة قد تعني بالنسبة لعصر خلاف ما تعنيه بالنسبة لآخر" ومن ثم يمكن أن ينظر كل جيل إلى الشخصية الواحدة من منظور خاص به

٤ .

الفصل الأول

عصر وحياة السيد رشيد رضا

المبحث الأول :

عصر السيد رشيد رضا

المبحث الثاني :

حياة السيد رشيد رضا

المبحث الأول : عصر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : الحالة السياسية في عصره

عاش السيد رشيد رضا في عهد الدولة العثمانية التي ظهرت أول ما ظهرت إمارة صغيرة في غربى الأناضول إثر ضعف دولة سلاجقة الروم ثم أخذت تتمو وتوسعت على حساب الإمارات التركمانية المجاورة لها حتى غدت في أقل من قرن إمارة قوية وخلالها الجو في الأناضول ^١ ثم اتجهت غربا إلى البر الأوروبي الذي لم يكن يفصلها عنه إلا مضيق مائي صغير فشنت غاراتها على أراضي الدولة البيزنطية في الجزء الأوروبي بعد أن سيطرت على أراضيها في الأناضول ، واكتسحت في مدة زمنية وجية مناطق شاسعة في شرق وجنوب الدولة البيزنطية ^٢ . وكان الجو مهياً والظروف مواتية لما سيحققه العثمانيون من فتوحات عظيمة إذ كانت العناصر البشرية المقاتلة الشديدة الحماسة إلى الفتوحات متوافرة ، وكانت هذه العناصر مزيجاً من القبائل التركمانية المهاجرة من أواسط آسيا والجماعات التي كانت مرابطة من أجل الجهاد في سبيل الله في تخوم الدولة السلجوقية الرومية التي بلغت من الضعف بحيث خضعت للدولة الإلخانية في إيران ^٣ .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية تعاني من الصراعات السياسية على السلطة ومن الخصومات المذهبية بين الأرثوذكس والكاثوليك فاستغل العثمانيون هذا الظرف المواتي وأحسنوا تنظيم دولتهم ورفعوا شعار الجهاد وساروا في رعيتهم سياسة عmadها العدالة وطبقوا مبادئ الشريعة السمحنة على الشعوب التي خضعت لهم وأشركوها في الحكم ولم يحاولوا تترىك ولا أسلمة أحد بقوة السلاح كما فعل بالمسلمين في الأندلس ^٤ "وبسبب سياسة التسامح الدينية هذه نجحت الحضارة العثمانية في فرض

^١ - السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: أورخان محمد علي ، دار الوثائق ، الكويت ، ط١ ، ١٩٨٦ م. ص ١٦

^٢ - الإسلام الأمس والغد: محمد أركون ولويس غارديه ، ترجمة علي المقلد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٩٨٣ ص ٨١

^٣ - العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي) : نادية محمود (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦ م. ص ٥٩

^٤ - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: أكمـل إحسـان الدين أوـغـلي (بـمـشارـكة) ، مـركـز الـأـبـاحـاثـ لـلـتـارـيخـ وـالـفـنـونـ وـالـقـاـفـةـ إـلـاسـلامـيـةـ بـإـسـتـانـبـولـ (إـرـسـيـكـاـ) ، ص ١١٦ م. ١٩٩٩ م ، ص ١١٦

نفسها ، وفي بعض جوانب الحياة في البلقان ، بحيث يمكن القول بأن الأتراك هم الذين أرسوا اللبنات الأولى لحضارة مدنية. ^٥

ولم تزل الدولة العثمانية تشن الغارة تلو الأخرى ، وتضغط على الدولة البيزنطية ، وتطيل الحصار على عاصمتها القسطنطينية حتى انهارت أخيرا وسلمت عاصمتها إلى السلطان العثماني محمد الفاتح ^٦ وتحقق له بذلك حلم كبير كان يراوده ، ويتسابق إلى تحقيقه السلاطين العثمانيون ، ومن قبلهم الفاتحون المسلمين منذ العصر الإسلامي الأول ، لما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من إشادة بمن سيفتح هذه المدينة المهمة. ^٧ ويسقط القسطنطينية في أيدي العثمانيين طويت صفحة الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية أطول إمبراطوريات العالم عمرا حيث دامت أحد عشر قرنا. ^٨ وتتبه البابا وملوك أوروبا إلى الخطر الذي تمثله الدولة العثمانية فتعاونوا على إيقاف زحفها ، فجيشوا الجيوش وجدوا كل الطاقات واستنفروا المقاتلين من مختلف البلاد الأوروبية وبدأوا يرسلون الحملة تلو الأخرى غير أن أيا من هذه الحملات التترى لم تحقق نصرا ، ^٩ بل تواصل الزحف العثماني حتى ضم كل الأراضي البلقانية في الشرق كما ضم في جبهة الغرب أراضي اليونان وجزر قبرص وكريت ورودس وضربت القوات العثمانية الأمامية في أقصى الشمال حصارها على فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية. ^{١٠}

وبعد أن ثبتت الدولة العثمانية أقدامها في أوروبا الشرقية اتجهت إلى الشرق الإسلامي الذي كانت تتوزعه دول ضعيفة أقواها دولة المماليك في مصر والشام والجaz والدولة الصفوية في إيران والعراق فأوقعت بهما أما دولة المماليك فقد أزالـ حكمها وضمت جميع أراضيها وأما الدولة الصفوية فلم تـه وجودها بل أضعفـتها

^٥- تاريخ الدولة العثمانية: روبيـر مـانـترـان (بـمـشارـكـة)، الـاجـتـهـاد، العـدـدـان ٤٢-٤١، السـنـةـ ١١١١ـعـامـ ١٩٩٩ـمـ، صـ ٤٠١

^٦- فتحت القسطنطينية في عام ٤٥٣مـ. انظر: السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده: ٢٠

^٧- لقوله صلى الله عليه وسلم : "لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش". مـسـنـدـ الإـمامـ أـحـمـدـ ، صـ ٣٣٥ـ/ـ٤ـ

^٨- العـصـرـ الـمـمـلـوـكـيـ ، صـ ١٠٥ـ-١٠٦ـ

^٩- نـظمـ الـأـورـبـيـونـ حـمـلـاتـ ضـدـ الـأـتـرـاـكـ فـيـ سـنـوـاتـ ١٣٦٤ـ، ١٣٧١ـ، ١٣٩٦ـ، ١٣٨٩ـ، ١٣٦٤ـ، وـكـلـهـاتـ بـاعـتـ بالـفـشـلـ.

^{١٠}- انظر: السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عصر: ١٨-١٧

^{١١}- حـوـصـرـتـ فـيـنـاـ عـدـةـ مـرـاتـ كـانـ أـخـرـهـاـ فـيـ عـامـ ١٦٨٣ـمـ

وأخذت منها العراق ^{١١} كما دانت لها دول الشمال الإفريقي من غير قتال. ومع دخول الشام ومصر والجaz في حوزتها تبأة الدولة العثمانية دون منازع زعامة العالم الإسلامي. "ونجحت الدولة العثمانية في أن تمزج في بوتقة واحدة بين عناصر بشريّة مختلفة اللغات والأديان والأعراف والثقافات وتجمع بين هؤلاء في جو من الهدوء والاستقرار على مدى قرون عدّة". ^{١٢}

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية إمبراطورية ، تحكم مناطق شاسعة ، تمتد في ثلاث قارات " وتنقق التحليلات الغربية والعربية على حد سواء ، أن الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني (١٥٦٦ - ١٥٢٠ م) كانت مركز العالم ، وأقوى دولة ، وأن السلطان سليمان كان أعظم شخصية في التاريخ العثماني ، ووصلت الإمبراطورية في عهده إلى أوج اتساعها وقوتها براً وبحراً ، حيث اجتمعت الدولة - إلى جانب خصائصه الشخصية - عناصر القوة العسكرية والاقتصادية والإدارية والتي كانت تفوق ما لدى الدول الأوروبية المعاصرة لها". ^{١٣}

بداية ضعف الدولة العثمانية

ثم مالت شمس الإمبراطورية العثمانية عن كبد السماء إلى الزوال ، وأخذت أسباب الضعف تسرى رويداً رويداً في جسدها المترهل منذ عهد سليمان القانوني ^{١٤} وكان من أكبر ما أصبت به الدولة العثمانية إهمالها للعلم ، وتنصيرها في تطوير أداتها الحربية وتنظيم جيشه لقرون عدّة ^{١٥} كما أن موقعها الجغرافي في وسط الدول الأوروبية المتربصة بها ، كان يزيد من الأخطار المنتظرة لها ^{١٦} ولم تنتبه إلى فداحة قصورها ونتائج إهمالها إلا عندما هزم جيشه أمام الجيش الروسي في عام ١٧٧٤ م

^{١١}- العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الجاز: د. بكر فائق الصواف ، مطبع سجل العرب ، ١٩٧٨ م ص ٣١-٢٧

^{١٢}- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: xx11

^{١٣}- العصر العثماني: نادية محمود مصطفى (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ص ٢١ ، ١٦٠

^{١٤}- يقول رشيد رضا: "توالت جرائم الضعف في الدولة العلية في عهد سليمان القانوني" المinar: ٧٣٥/٣٧/١

^{١٥}- مَاذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوبي ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، دار القرآن الكريم ، بيروت - لبنان ، ١٩٧٨ م ص ١٤٨

^{١٦}- السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: ٢٨

، واضطررت إلى توقيع معاهدة مهينة ^{١٧} وكان الروس من قبل أضعف أعدائها ، إلا أنهم واجهوا آلة حربية متطورة وجيشا نظاميا عالي التدريب ، ولم يستطع العثمانيون فقط أن يسدوا الفجوة التقنية والتنظيمية والعلمية بينهم وبين القوى الأوروبية الصاعدة ، لأنها كانت فجوة قرون ، ولم تكن فجوة سنوات معدودة ^{١٨} ولأن الإصلاحات التي هرع إليها السلاطين المخلصون واجهت تحديات عاتية من الجبهة الداخلية التقليدية ، ومن القوى الأوروبية الماكنة ، وأودت بحياة بعضهم وبعرش بعضهم الآخر . ^{١٩} والجدير بالذكر أن النهضة الأوروبية الحديثة أخذت خيوطها تتجمع منذ القرن السادس عشر الميلادي بظهور الاهتمامات البحرية التي أدت إلى اكتشاف عالم جديدة وطرق بحرية جديدة إلى العالم القديمة وبالإصلاحات الدينية والإدارية لأنظمة الحكم التي مهدت لقيام دول قومية متنافسة ، كما ظهرت بوادر النظام الرأسمالي بفضل السياسات التجارية للدول القومية . ^{٢٠}

كل ذلك كان يحدث في أوروبا في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية قد ترعرعت على عرش العالم بوسائلها التقليدية غير معنية بما كان يجري من تغيرات خطيرة في الجانب الأوروبي الذي يقع فيه أهم شطري إمبراطوريتها ^{٢١} ولم تعتبر بسقوط دولة الأندلس في جنوب غرب القارة في الوقت الذي كانت تصارع أهلها في جنوب شرقه ^{٢٢}. "فكان بدأة الأتراك في التاريخ الإسلامي إذن من نقطة ضعف أساسي ، لقد قامت الدولة العثمانية تقريبا في الزمان الذي كان الارتفاع الفكري والنهضة العلمية قد أرهص بناؤه في أوروبا. ومع أن الأتراك العثمانيين رفعوا راية الإسلام عالية في الدنيا ، وألقوا مهابته في نفوس العالم ، بما هزمو أوروبا مارا متكررة في القرنين أو أكثر منذ قيام دولتهم ، كانوا هم كذلك يسيرون في وجه

^{١٧}- المسألة الرقيقة : الامتيازات الأجنبية وتأثيرها على الإمبراطورية العثمانية: شفيق محسن ، الاجتهد ، العدد ٤ ، السنة ١١ ، عام ١٩٩٩ ص ٢٢٨

^{١٨}- السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: ٣٠

^{١٩}- حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني: محمد البحراوي ، مراجعة محمد غشام ، الاجتهد ، العددان ٤٦-٤٥ ، السنة ١١ ، عام ٢٠٠٠ ، ص ٤١٠-٤١١

^{٢٠}- الدولة العثمانية ودمجها في النظام الرأسمالي العالمي: الفضل شلق ، الاجتهد ، العددان ٤٥-٥٦ ، السنة ١١ ، عام ٢٠٠٠ ، ص ١١-٨

^{٢١}- الإسلام الأمس والغد: ٨١

^{٢٢}- المسلمين في تاريخ الحضارة: ستانورد كب ، ترجمة محمد فتحي عثمان ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط ٢٥ ، ص ١٩٨٥

الانحطاط كعامة الأمة المسلمة في هذا الزمان بينما الأمم الأوروبية التي تقابل الأمة التركية في الميدان كانت تسير الخبب في طريق الرقي المادي والتقدم الفكري .^{٢٣}

محاولات الإصلاح

استمرت الدولة العثمانية في الانحدار رغم المحاولات الكثيرة للإصلاح منذ السلطان عبد المجيد الأول وتنوعت اجتهادات المصلحين غير أن القوى الداخلية ومن أخطرها الإنكشارية (قوات الدولة التقليدية) كانت بالمرصاد لأي إصلاح فقد تمردوا في عهد عثمان الثاني ، ومصطفى الثالث ، وإبراهيم ، وأحمد الأول ومصطفى الرابع ، وكل هؤلاء السلاطين إما خلعوا أو قتلوا على أيدي الإنكشارية .^{٢٤} وبعد التغلب على الإنكشارية وعلى جميع القوى المعارضة صدرت تشريعات يقصد بها الإصلاح وكان من أكبرها تأثيرا (خط كلخانة ١٨٣٩م) الذي أتى بتعديلات جوهرية في إدارة الدولة وتنظيم الجيش على الطريقة الأوروبية مع المحافظة على الشريعة الإسلامية كما نص بتحفظ على بعض الإصلاحات. ثم صدر (خط حمايو ١٨٥٧م) وكان أكثر جرأة على تغيير نظام الدولة ، حيث تضمن مساواة رعايا الدولة أمام القانون ، كما نص على تغييرات اقتصادية من أهمها إلغاء النظام الضريبي القديم المعروف بنظام "اللتزام".^{٢٥} غير أن كل هذه الإصلاحات لم تؤد إلى نتائج إيجابية لأنها لم تعالج الضعف السياسي الذي مدار كل إصلاح ، كما يؤكد عليه باحث معاصر إذ يقول : " والأرجح أن الخيارات المؤدية للتقدم تتعلق قبل كل شيء بإحراز القدرة على تعبئة المجتمع وشحذ الإرادة ، ولا ينفصل ذلك عن القدرة التنظيمية والإدارية ، وكل ذلك مرهن بالإرادة السياسية ، والفرق بين أمم أحرزت تقدما وأخرى عجزت عنه هو الفرق في التعاطي السياسي في كل منها".^{٢٦}

^{٢٣}- نحن والحضارة الغربية: أبو الأعلى المودودي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ١٩٨٣ م ، ص ١١

^{٢٤}- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، د. قيس جواد العزاوي ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الثانية ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠٣ م ، ص ١٢٣ . وانظر كذلك : حركة الإصلاح العثماني ، في عصر السلطان

محمود الثاني: ٤١٠-٤١١

^{٢٥}- سياسات العصر العثماني: جوستين ماكارثي ، الاجتهد العددان ٤٥-٤٦ ، السنة ١١ ، عام ٢٠٠ ، ص

٧٦

^{٢٦}- الدولة العثمانية ودمجها في النظام الرأسمالي العالمي: ١٤

"إن الإصلاحات التي ترمي إلى تحديد البنية الاجتماعية السياسية للدولة عن طريق إلقاء التشريع القديم وإعادة بناء الإدارة كلها وفق الأسس الدستورية والمدنية والمساوية المعتمدة في أوروبا أدى إلى تفسخ وتحلل نظام الملل العثماني وأتى على التوازن الإسلامي المسيحي التقليدي القائم على التسامح والتعايش بين الأديان ، لأنه من العبث البحث عن نموذج للإصلاح عن طريق وضع أنظمة لا تتناسب وأوضاع الإمبراطورية التركية." ^{٢٧}

ومع أن كثيرا من السلاطين الجادين قد حاولوا الوقوف في وجه الضعف والانحلال ، الذي لازم الإمبراطورية منذ مالت إلى الانحدار ، إلا أن جهودهم لم تكن ذات نتائج حاسمة ، ويرى بعض المؤرخين الأوروبيين ، ومن سار على دربهم ، أن السبب في ذلك ، هو عدم تطبيقهم للنظرية الأوروبية بحذافيرها – كما فعل أتاتورك – ومحاولتهم الانتقاء منها ، يقول جوستين كارثي : " فالشعوب التي ترغب في الحصول على رعاية صحية ممتازة ، ومواد استهلاكية متوفرة ، وجيوش قوية ، لا ترغب عادة في أن تفك ، وتعمل مثل الألمان ، أو الأمريكان من أجل الحصول على هذه المنافع .. فالغنى الغربي قد تطور في محيط محدد يتفق وثقافات وتاريخ الغرب الأوروبي والأمريكي ، وأطلق عليه جماعيا اسم "الثقافة الغربية" ، والتطور الاقتصادي لم يكن إلا جزءا بسيطا من هذه الثقافة . فهل بإمكان دولة أن تتنقى وتختر من الثقافة الغربية فتأخذ فقط التكنولوجيا والاقتصاد ، وتترك وراءها الفلسفة والتقاليد ؟ " ^{٢٨} وفاتهم أن أتاتورك لم يحقق للأتراك التقدم المنشود برغم مرور نحو مائة عام على تغريبه للشعب التركي المسلم ، ولا تزال تركيا في قائمة الدول المختلفة ^{٢٩} كما فاتهم أن اليابان وصلت إلى قمة التقدم ، مع الاحتفاظ بتقاليدها الدينية ، وأنماط حياتها الشعبية. ^{٣٠}

^{٢٧}- المسألة الشرقية : الامتيازات الأجنبية وتأثيرها في الإمبراطورية العثمانية: شفيق محسن ، الاجتهد ، العدد ٤ ، السنة ١١ ، ١٩٩٩ م ، ص ١٥٦

^{٢٨}- سياسات الإصلاح العثماني ، ص ٦٣ ، الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب: الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي ، مطبع قطر الوطنية ، الدوحة – قطر ، ١٣٩٨ هـ ، ص ١٥

^{٢٩}- حقيقة القومية العربي وأسطورة البعث العربية: محمد الغزالى ، مطبعة حسان ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٧ م ، ص ١٧٢

^{٣٠}- التحديث والاغتراب في اليابان ، د. ياسومازا كورودا ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) ن مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ١ ، ١٩٨٥ م ، ص ٢٢٣

أسباب فشل الإصلاحات

والحق أن الدولة العثمانية كانت من الناحية الواقعية أسيرة لأعدائها بسبب عدة عوامل ، منها: المعاهدات والامتيازات الكثيرة ، التي كانت تتال كثيرا من سيادتها ومنها الامتيازات التجارية الجشعة ، التي كانت وباستمرار وراء تدمير اقتصادها ^{٣١} يقول أحد الباحثين مصورا ما كان يعانيه العثمانيون لكسر الطوق الاقتصادي والعسكري المفروض عليهم : " بشكل أو باخر كانت الإمبراطورية العثمانية في حالة حرب مع المستعمرتين الأوروبيتين انتهت بانتصارهم . مصالح الطرفين كانت متقاضة جذريا ، العثمانيون أملوا من الاستعمار تطوير صناعتهم الأوروبيون أملوا في الحصول على أرباح قصوى من الزراعة ، حيث مصدر الأرباح الأساسية للدولة ، العثمانيون أملوا أن يصبحوا أقوياء عسكريا واقتصاديا بينما الأوروبيون سمحوا للعثمانيين بالاستمرار بمستوى يسمح لهم بدفع فواتيرهم فقط ، وبعبارة أخرى أن تأخذ أقصى ما يمكن فعليا دون قتل البطة الذهبية". ^{٣٢}

ومنها محاولة العثمانيين الفاشلة في التثبت بمناطق شاسعة من الأقاليم الأوروبية التي يعلمون أنها ستتفصل عنهم قريبا وكان الإصرار على الاحتفاظ المؤقت بها مكلفا ماديا وعسكريا ^{٣٣} ومبينا للتدخلات الدولية المغرضة من أجل مصالحها الخاصة فكانت تنتزع كل دولة من الدول الأوروبية الكبيرة من الدولة العثمانية بسبب هذه التدخلات منافع جديدة ، ^{٣٤} فلو تخلت الدولة العثمانية من الأول عن كل المناطق التي لم تستطع هضمها لخففت من كثير من المشاكل ولاستطاعت أن تصمد أمام القوى الطامعة فيها ، ولشقت طريقها في التقدم بالطريقة التي تراها مناسبة لها ، أما الحال هذه فلم يكن أمامها كثير من الخيار في الإصلاح الذي تتشده.

^{٣١}- سياسات الإصلاح العثماني ، ص ٧٦

^{٣٢}- المصدر السابق ، ص ٩٨

^{٣٣}- يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته السياسية : "إن ضعف الدولة العثمانية نابع من اتساع رقعتها ، فاجتماع كثير من الشعوب تحت راية واحدة جعل إدارة هذه الشعوب أمرا صعبا." انظر : السلطان عبد الحميد الثاني (مذكراتي السياسية ١٨٩١-١٩٠٨) مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢م ، ص ٧٨

^{٣٤}- العصر العثماني: ١٩٢

عاصر الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥م) ستة من سلاطين بني عثمان هم على الترتيب عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) ، مراد الخامس (١٨٧٦) عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) ، محمد الخامس (١٩١٨-١٩٠٩) ، محمد السادس (١٩١٨-١٩٢٢) ، عبد المجيد الثاني (١٩٢٢-١٩٢٤) كما شهد إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية في عام ١٩٢٤م على يد مصطفى كمال أتاتورك ، مؤسس الدولة التركية الحديثة ، بعد احتلال دول التحالف في الحرب العالمية الأولى لإسطنبول ؛ عاصمة الخلافة ، وإنها الحكم العثماني الذي دام أكثر من ستمائة

وكان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين الفعليين، الذين عاصرهم رشيد رضا وأطولهم عهدا ، أما السلاطين الذين جاءوا بعد خلعه ، فكانوا لا يملكون من أمر الدولة أكثر من لقب "ال الخليفة" ،^{٣٦} ولهذا يعتبر السلطان عبد الحميد محور الأفكار والسياسات الخصبة التي ظهرت في هذه الفترة الفاصلة بين العهدين القديم والجديد ، فلما استولت جمعية الاتحاد والترقي الحكم ، وتبنت سياسة تترك الشعوب المنضوية تحت الإمبراطورية العثمانية ، لم يعد أمام تلك الشعوب إلا الوقف في وجهها بغض النظر عن أجناسها وأديانها.^{٣٧}

جاء عبد الحميد الثاني إلى الحكم في فترة حرجة جداً ، بعد إقالة السلطان عبد العزيز ثم اغتياله ، وجنون خلفه السلطان مراد الثاني الذي نصبه الثائرون على سلفه فلم يجدوا بداً من السلطان عبد الحميد الثاني لعدم وجود بديل عنه في الأسرة وأملوا عليه شروط بيعتهم له فقبلها على مضض وكان من أهم ذلك تطبيق^{٣٨} الدستور الذي أعدوه قبل ذلك – ولم يكن صالحًا للتطبيق لقصوره الذاتي ولطبيعة ظروف الإمبراطورية – كما أكرهوه على إمضاء الحرب التي أشعلوها ضد الروس فمنيت الإمبراطورية بأسوأ هزيمة تعرضت لها في تاريخها الطويل قبل سقوطها غير

^{٣٥} - تصادم السياسات ومصائر الجماعات القومية ، فايز سارة ، الاجتهد ، العددان ٤٥-٤٦ ، السنة ١١ ، عام ٢٠٠٠ ، ص ٢٣١

^{٣٦} - **حياة الشرق** دولة وشعوبه وماضيه وحاضرها: د. محمد لطفي جمعة ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة - مصر ، ص ١٣٤٧

- ٢٣٧- تصادم السياسات ومصائر الجماعات القومية: ٢٣١
- ٢٣٨- السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده: ٢٣٧

أن السلطان تمكن من استعادة سلطاته فألغى الدستور ، وحل البرلمان الذي رأه غير مؤهل لأداء دور فعال في تلك الفترة الصعبة ، وحكم الإمبراطورية بطريقة مركبة فترة مديدة تبلغ ثلاثة وثلاثين سنة . تميزت بالاستقرار وبالنمو التدريجي الشامل.^{٣٩}

إنصاف السلطان عبد الحميد الثاني

ومع التسليم بالنظرية القائلة بأن ما قام به عبد الحميد الثاني من الإصلاحات لم يكن أكثر من مجرد إطالة عمر دولة أصبحت أيامها معدودة^{٤٠} فإن السلطان عبد الحميد لم يأل جهدا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه وكان موفقا - في نظر كثير من المؤرخين - في معظم إصلاحاته في مختلف المجالات. يقول ج. مكارثي في تقييم سياسة عبد الحميد: "وقد تمكن من إحباط أي حرب يمكن أن تجر كارثة على بلاده. وأسباب الحروب المستقبلية كانت كثيرة .. إن السياسة الخارجية المحافظة التي اتبعها السلطان وببراعة دبلوماسيته ساهمت في المحافظة على حياة الإمبراطورية خلال تلك الفترة".^{٤١} ثم قال وهو يناقش ما اتهم بالسلطان عبد الحميد من الاستبداد والتفرد بالسلطة ، وذلك بعد أن صور ما كانت تعانيه الدولة من الفوضى السياسية ، وما تواجهه من مؤامرات ودسائس ، والتنوع العرقي الذي كان ينذر بالانفصالات : "البديل الوحيد كان في وجود حكم فردي مطلق نسبيا قوي وعادل ، وكان هذا بالتحديد ما فعله عبد الحميد.. والبرهان على صحة مثل هذه السياسة كان في نجاح عبد الحميد. وبعد حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ مع الروس وخلال فترة حكم عبد الحميد لم تخسر الإمبراطورية أية أرض. وكما أوضحنا أعلاه فإن البنى التحتية للإدارة والاقتصاد العثماني قد تطورت بشكل غير متوقع".^{٤٢}

^{٣٩} - السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده: ٢٣٧

^{٤٠} - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: ١٢٦

^{٤١} - سياسات الإصلاح العثماني: ٩٣

^{٤٢} - السابق: ١٠٤

وضع المناطق العربية في عهد الدولة العثمانية

دأبت الحكومة العثمانية في تاريخ فتوحاتها على الاكتفاء بالسيطرة السياسية والعسكرية للبلاد المفتوحة ، وإساح مجال واسع لأهل البلد لإدارة شؤونهم ومؤسساتهم التعليمية والدينية والاجتماعية ، وكانوا يفضلون دائماً التعاون مع الزعماء المحليين ، وترك السلطات السياسية المحلية في أيدي أصحابها والاكتفاء بولائهم للدولة الجديدة.^٣ وهذا ما سار عليه العثمانيون في المناطق العربية التي دخلت في سيادتهم ، وذلك بعد أن "أقاموا نظاماً إدارياً في هذه البلاد انسجم على نحو عام مع النظام الإداري العام في الدولة العثمانية ، وهي الميزة التي حققتها الدولة العثمانية في فترة القوة ، والتي أهلت العثمانيين لتحقيق إنجازات ملموسة في بعض البلاد العربية ومن ذلك كانت الحركة العمرانية التي تركت جوامع ومدارس وتكايا (جمع تكية) وقصور".^٤

منذ أن أصبحت المنطقة العربية جزءاً من الدولة العثمانية واعتبرت ولايات من الولايات العديدة التي تكون منها الإمبراطورية العثمانية ارتبط نصيتها من التقدم والخلف وحظها من الازدهار والتدحرج بحال وظروف الدولة العثمانية التي هي جزء منها ، ولم تعتبر الولايات العربية في يوم من الأيام مناطق طرفية هامشية أقل شأنها وعناية لدى الدولة من أي من الولايات الأخرى ، بل كانت الدولة توليها عناية خاصة لأهميتها الاستراتيجية وقدسيّة أراضيها (مكة المكرمة - المدينة المنورة - القدس الشريف)^٥ وأهمية شعبها ، ولكونها مهبط الوحي ومهد الحضارة الإسلامية ، وما يدل على هذه المكانة المتميزة أنه كان "يعتبر أمير أمراء مصر في التركيبة الإدارية أعلى سلطة وهيئة إدارية في البلاد بعد سلطة السلطان في الآستانة".^٦ لهذا كانت الدولة العثمانية تتخير لها الولاية ، وتحرص على استقرارها ، تبذل قصارى جهدها في خدمة مدنها المقدسة وعواصمها الحضارية ، وفي كل ترك السلاطين العثمانيون بسمات التطوير والتعمير .

^٣- مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر: سيد محمد سيد ، مراجعة ياسر زغيب ، الاجتهد ، العدد ٤٤ ، السنة ١١ ، عام ١٩٩٩ م ، ص ٣٨

^٤- العرب والعثمانيون: عبد الكريم رافق ، الاجتهد ، العدد السابق ، ٢٣

^٥- العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز: ٤٥

^٦- مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر: ٢٥٦

ورغم الجدل بين المؤرخين في وضع السلاطين العثمانيين الديني في نظر رعاياهم المسلمين ، وخاصة أهل المنطقة العربية منهم ، "ومهما كانت النوايا والتحليلات التي اهتمت بنفي صفة الخلافة عن الدولة العثمانية فإن وجود دولة إسلامية قائدة تتحمل مسؤولية الدفاع عن الإسلام والتوحيد بين دوّله ضرورة مهمة." ^{٤٧} وهذا ما تكفلت به الدولة العثمانية واستحقت به المرجعة الإسلامية.

حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يعود بالدولة التي قطعت شوطاً كبيراً في درب التغريب إلى الساحة الإسلامية ، فجمد البرلمان ، وقرب العرب والعناصر المسلمة الأخرى غير التركية ^(٢) ودعا إلى التضامن الإسلامي ، وأطلق شعار الجامعة الإسلامية ، فالتف حوله العلماء والمصلحون المخلصون من أمثال جمال الدين الأفغاني وغيره ، ولكن (لات حين مناص) ^{٤٨} فقد وصل حال الدولة الإسلامية إلى مرحلة من الضعف تعددت فيها الاجتهدات في كيفية إنقاذها ، فرأى قوم من المتعلمين الأتراك أن الخلاص في تقليد أوروبا في التحاكم إلى الدستور وتطبيق الحياة النيابية وإطلاق الحريات لمختلف القوميات التي تتكون منها الإمبراطورية كي تقوم كل فئة عرقية بإدارة شؤونها بالشكل الذي تراه مناسباً لها في إطار تعددية في ظل السيادة العثمانية العامة . "لقد اعتقدوا بأنه لو سمح للمجموعات العرقية المتنوعة في الإمبراطورية العثمانية بانتخاب ممثليهم فإنهم سيتغاضون عن مشاعرهم القومية ، ويتحدون في ظل القومية العثمانية متناسين نظام الملل وأفكارهم القومية الجديدة المستوردة من أوروبا." ^{٤٩}

ترىك الدولة العثمانية

وازداد الطين بلة عندما تحولت هذه الدعوة إلى نعرات قومية متباغضة ، وتولى كبر هذه الطامة حزب الاتحاد والترقي ، الذي أجبر الخليفة عبد الحميد على التحيي والاستقالة ، ومهّد الطريق إلى سقوط الخلافة الإسلامية بعد تفريطه في

^{٤٧} - العصر العثماني ، ص ١٠

^(١) دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش: حسان على حلاق ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ص ٨٨

^{٤٨} - سورة ص: آية ٣

^{٤٩} - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: ١٢٧

استقلال الدولة بسقوط إسطنبول عاصمة الخلافة في أيدي الاستعمار في الحرب العالمية الأولى ، كما فتحوا الباب واسعا أمام "كل المخالفين للوحدة الإسلامية" : القوميون الذين رأوا أن الجامعة الإسلامية ضد المصالح القومية ، وهؤلاء لم يكونوا في البلاد العربية فقط ، بل كان الأكراد والألبانيون والعرب والترك واليهود والأرمن وغيرهم.^{٥٠}

لم يكن العرب - مثل بقية الشعوب الإسلامية - راضين عن إسقاط الخلافة الإسلامية ، ولم يفكروا في الانفصال عنها كما يقرره معظم المؤرخين المنصفين من المسلمين والغربيين ، حتى دفعهم إلى ذلك حزب الاتحاد والترقي الذي لم يفسح لهم مجالا سوى التفكير في منطقتهم العربية^{٥١} يقول الشيخ محمد عبده : "إن من له قلب من أهل الدين يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله . فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها . وإننا على هذه العقيدة والحمد لله ، عليها نحيا وعليها نموت ".^{٥٢} ويقول الزعيم المصري مصطفى كامل : "ولكن الحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضروري للنوع البشري ، وأن في بقاء سلطانها سلامه أمم الغرب والشرق ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين ، وحرب دامية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية ".^{٥٣}

هذا رأي الشيخ المصلح ، وذاك رأي الزعيم الوطني العربي في الدولة العثمانية وليس رأيهما هذا صادرا عن إعجابهما بحال الدولة العثمانية ، ورضاهما عن حسن خدمتها لرعاياها من المسلمين وغيرهم ، وإنما لجلالة اللقب الذي تحمله وما يرمز إليه هذا اللقب من المعانى السامية العميقه في نفوس المسلمين من العزة والوحدة والرباط التاريخي المقدس ، وهذا ما يشرحه الشيخ محمد رشيد رضا بقوله : "إن أكثر مسلمي الأرض متمسكون بالدولة العثمانية وخليفتها ، لأنها أقوى

^{٥٠}- العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب ، دار القلم ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٩٩ م ص٥٢٩

^{٥١}- الفكر العربي والتغيير في المجتمع العربي: د. أحمد صدقي الدجاني ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) ، ص ٣٢٧

^{٥٢}- تاريخ الأستاذ الإمام: السيد محمد رشيد رضا ، الدار الفيصلية للنشر والتوزيع والتصدير ، ط١ ، ٢٠٠٣ م ٩٠٩/١

^{٥٣}- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، ط٦ ، ١٩٨٣ م ، ٢٣/١

الحكومات الإسلامية ، وأنهم يخافون أن يزول بزوالها حكم الإسلام من الأرض ، وأن هذا أعظم شأننا عندهم من بقاء المعاهد المقدسة سليمة مصونة".^٤ لهذا كان بعض الحكام التابعين أسماء للخلافة ، يخافون من رعاياهم إن هم نبذوا هذه التبعية الرمزية ، التي كانت تقيدهم في نظرهم . " ففي مواجهة التوسع الأوروبي ، كان من رأي الباي^٥ أحمد أن التفاهم مع أوروبا القوية يفوق في الأهمية ارتباط تونس بالدولة العثمانية .. أما خير الدين .. فقد كان يرى أن الاتفاques الدبلوماسية ، وعلى المدى البعيد ، غير مجدية .. ولهذا فقد كان الحل الذي لديه هو البناء الداخلي ، وتغيير أسلوب الحكم في البلاد ، دون التخلص عن الرابطة العثمانية . إذ كان يرى أن أي خطوة لإضعاف هذه الرابطة يمكن أن تتعكس على الأوضاع الداخلية نفسها ".^٦ ولهذا فوجئ الإيطاليون بضراوة المقاومة التي واجهتهم في ليبيا ، كما فوجئ الفرنسيون بمثلها من قبل إبان حملتهم على مصر سنة ١٧٩٨م ، وكانوا يتصورون أن أهالي البلاد سيستسلمون دون مقاومة ، لأنهم يرغبون في التخلص من الحكم العثماني الأجنبي.^٧ ولم يدر بخلدهم أن المسلمين مهما كرهوا حكامهم المسلمين فلن يستبدلوا بهم حكامًا غير مسلمين .

ويرغم التخلف والجمود الذي صاحب الدولة العثمانية لعدة قرون - وكان هذا الجمود من أكبر ما أودى بها من العلل والأمراض - إلا أن بعض المؤرخين المتحاملين عليها بالغوا في تناول هذا الجانب من تاريخ الدولة العثمانية . فوصفوها بالدولة العسكرية المعادية للعلم والعلماء والعدالة والحرية ، وسلبوها من أي إبداع فكري أو علمي^٨ وخاصة في عهودها الأخيرة ، ولعل ظهور العلماء المصلحين من أمثال الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد (١٧٩١-١٧٠٣م) والشيخ محمد بن نوح الفلاتي في المدينة المنورة (١٧٥٢-١٨٠٣م) والشيخ محمد بن على الشوكاني في اليمن (١٧٥٨-١٨٣٤م) والشيخ الشهاب محمود الألوسي في العراق (١٨٠٣-١٨٣٤م)

^٤- الخلافة: السيد محمد رشيد رضا ، الزهراء للإعلام العربي ، ص ١٩٨٨م ، ١٢٥

^٥- الباي كان لقب حاكم تونس.

^٦- التغيير المؤسسي في الوطن العربي على النسق الغربي: د. وليم سليمان قلادة ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) ، ص ٤٢٩

^٧- ليبيا المعاصرة ، د صلاح العقاد ، ص ١٤

^٨- زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ص ٦ ، والسلطان محمد الفاتح: د. سيد رضوان علي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٢م.

٤١٨٥م) والشيخ عبد القادر الجزائري (١٢٢٢-١٣٠٠هـ) في المغرب والشيخ محمد بن على السنوسي (١٧٨٧-١٨٥٩م) في ليبيا ، والشيخ جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧م) في أفغانستان ومصر وغيرهما دليل على استمرار العطاء وممارسة الاجتهاد والإصلاح من علماء أذاد أكفاء ، وخاصة في مجال علوم الدين .

يقول الدكتور مراد هوفمان : " ومن الطبيعي أن ذلك التدهور ، الذي تلا ازدهار الحضارة الإسلامية ، لم يكن كلها ظلمات بعضها فوق بعض ، فقد أطلت هنا وهناك بارقة من بوارق العبرية الإسلامية ، وخاصة في مجال الفقه وعلوم الدين والأدب وفن العمارة ، وواعٍ ذاكرة التاريخ روائع معمارية ، مثل تاج محل (١٦٣٤م) ، والمسجد الأزرق الكبير في إسطنبول ، الذي شيد في ذلك الوقت نفسه

٥٩ .

انفصال المناطق العربية عن تركيا

كانت الفترة التي عاشها السيد رشيد رضا فترة عصيبة على العالم العربي والإسلامي ، فقد شهد رضا شيخوخة الدولة العثمانية التي بلغت من الضعف والمهانة لم تصلح معه للبقاء فتداعت عليها الدول الإستعمارية الطامنة في تركتها ^{١٠} وطال الجدال والتدافع فيما بينها في كيفية اقتسام هذا الميراث الذي بات وشيكا . وكانت المناطق الأوروبية من الدولة العثمانية قد بدأت تتولى على الانفصال ، بعد العدوان الثلاثي (إنجلترا - فرنسا - روسيا) الذي حطم الأسطول العثماني في معركته مع اليونان ^{١١} والذي مهد لاستقلال اليونان في عام ١٨٢٧م ، وفتح الباب واسعا أمام جميع المنشقين في وقت كانت الدولة عاجزة عن معالجة مشاكلها الداخلية والخارجية المستفحلة ، ولو لا حرص الدول الأوروبية المتنافسة على استحواذ النصيب الأولي

^{١٠}- الإسلام كبديل: د. مراد هوفمان ، ترجمة غريب محمد غريب ، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام بألمانيا الموحدة ، ص ٧٠

^{١١}- السيد محمد رشيد رضا: محمد أحمد درنيقة ، مؤسسة الرسالة ودار الإيمان ، ط١ ، ص ١٥

^{١٢}- رشيد رضا صاحب المنار ، د. أحمد الشرباصي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ، ١٩٧٠م ، ص ١٤

من تركة الرجل المريض – كما كانوا يطلقون آنذاك على الدولة العثمانية المتداعية – ورغبتها في مراعاة توازن القوى بينها لما بقي في يد الأتراك شيء من المجد الذي شادوه على قرون بدمائهم .

وهبت ريح هذه التغيرات العاتية على المنطقة العربية التي تعرضت للعدوان الاستعماري منذ أواخر القرن الثامن عشر ، عندما غزا نابليون مصر غزوا عسكريا وفكريا وثقافيا ، ثم حاول الاستيلاء على الشام لولا تعرض جنوده لوباء الطاعون من جهة وتهديد ومنافسة إنجلترا من جهة أخرى ^{٦٢} وأدى التناقض الشديد بين بريطانيا وفرنسا في التحكم على الممرات البحرية إلى حماية بريطانيا لمصر في عام ١٨٨٢م واحتلال فرنسا للجزائر ثم تونس ^{٦٣} . ومنذ ذلك الحين تبين لكل ذي بصيرة عجز الدولة العثمانية عن وفاء شرط دخولها إلى المنطقة العربية وهو حمايتها من الغز الصليبي .

وفي أيام السلطان عبد الحميد الثاني – آخر سلطان عثماني فعلي – كانت سيطرة الدولة العثمانية على مصر وعلى شمال إفريقيا سيطرة رمزية روحية ، أما بقية المناطق في المشرق العربي فقد كانت خاضعة لسيطرة العثمانية المباشرة. ^{٦٤} ولما قامت الحرب العالمية الأولى بين دول المحور ومنها الدولة العثمانية وبين دول التحالف ، كان العرب يقاتلون في صفوف الحلفاء ضد الدولة العثمانية وبعد من الحلفاء على تحقيق طموحات العرب في الاستقلال ^{٦٥} ولما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء انقلبوا على العرب ، وأخلفوا ما وعدوهم ، واقتسموا أراضيهم ، وحدث ما كان العقلاً على حذر منه ، فقد كانوا يخافون على الراية العثمانية أن تطوي إلى الأبد ، وأن تحل محلها رايات الدول الاستعمارية ، فتصبح في كل وطن عربي راية لدولة أوروبية ، كما وقع في الشمال الإفريقي . ^{٦٦}

حمل العرب السلاح من جديد ، وبدأ نضال الاستقلال من الاستعمار الأوروبي ، بعد الجهود المضنية التي بذلوها من قبل في الحصول على مطالبهم من

^{٦٢} - الأمير شبيب أرسلان حياته وأثاره: د. سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ط٢ ، ص ٢١

^{٦٣} - السابق: ٢٤

^{٦٤} - السابق: ٢٤

^{٦٥} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٤

^{٦٦} - نحن والحضارة الغربية: ١١٨

الدولة العثمانية ، ومات الشيخ رشيد رضا بعد كفاح مماثل في عام ١٩٣٥ م ومعظم الدول العربية تحت الاستعمار الأوروبي .^{٦٧} بعد أن ظهر للعرب أن الدولة العثمانية قد ضعفت وأنها لم تعد قادرة على الدفاع عن أراضيها وحماية مصالحها بدأ المثقفون العرب المناقشة في مستقبل مناطقهم في ظل بروز مسألة القوميات التي أصبحت من معطيات الحضارة الأوروبية ، ومن وسائل تدخلها في شؤون الأمم الضعيفة .^{٦٨} اقتصر بحث المسألة العربية في البداية على النخب العربية في الجمعيات التي أسسواها لخلق الجو المناسب وتهيئة الظروف المواتية ، وقامت الصحف التي أنشأها هؤلاء بتوعية الشعب العربي بمصيره في المستقبل ، ثم تأسست فيما بعد الأحزاب السياسية ، وتعددت المؤتمرات والندوات السياسية ، وبسبب المضائقات التي كانت تمارسها السلطات العثمانية على هذه الأنشطة التي تتوجسها خيفة ، اقتضى الأمر عقد بعض هذه الأنشطة إما في أوروبا أو في مصر حيث لم يكن للدولة العثمانية سلطة رقابية عليها .^{٦٩}

لم تخرج مطالب العرب في هذه المرحلة عن الإصلاح ، حيث كانت تقدم مقترناتها ورؤيتها في الإصلاح إلى الدولة العثمانية^{٧٠} حتى إذا جاء حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم بعد إقالة السلطان عبد الحميد الثاني ، ورفعوا شعار الطورانية ونبذوا وراءهم كل ما يمت إلى الإسلام والعرب بصلة ، عند ذلك لم يعد أمام العرب إلا المطالبة بحقهم في الاستقلال الكامل .^{٧١}

أدى النفور الشديد من مواقف حزب الاتحاد والترقي من العرب وموافق العرب من الترك في الحرب العالمية الأولى إلى خلق حاجز نفسي سميك بين العرب وبين التاريخ العثماني المديد في المنطقة العربية ، حتى وصف بأنه فترة استعمار

^{٦٧}- رشيد رضا صاحب المنار: ٥٢

^{٦٨}- السابق: ١٤

^{٦٩}- الأمير شكيب أرسلان: ٤٠

^{٧٠}- السابق: ٣٤

^{٧١}- الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي: ٣٧٢

مظلمة ^{٧٢} وأصبحت هذه النظرة السلبية النظرة الرسمية التي تبنتها كثير من الدول العربية في مناهجها الدراسية ^{٧٣}.

ولا تزال هذه النظرة قائمة إلى اليوم رغم الدراسات المتأخرة الكثيرة التي حاولت التصحيح وإنصاف التاريخ العثماني ، الذي لم يخرج في الحقيقة عن كونه تاريخ دولة إسلامية أصابت وأخطأ ، فلها ما لها وعليها ما عليها ^{٧٤} ويكفيها أنها نجحت لـ"المدة ثلاثة قرون على الأقل من حماية الأراضي العربية من حملة الغرب الاستعمارية الهوجاء التي امتدت غربا إلى العالم الجديد وشرقا إلى الهند وما وراءها". ^{٧٥} يقول الشيخ محمد محمود الصواف : " لو تصفح الإنسان أي كتاب من كتب التاريخ الحديث لوجد الهجوم على تركيا مركزا ومنظما وبأشد من الهجوم على دول الكفر المستعمرة حتى سموا تركيا مستعمرة لديار العرب ". ^{٧٦} وإذا عرفنا أن مصر ، والشمال الإفريقي كان من الاستقلال ، بحيث وصفت تبعيتها للدولة العثمانية بالرمزية أو الروحية ، فلا مبرر لإلقاء اللوم على الدولة العثمانية فيما أصاب هذه البلاد من التخلف ، وتجربة محمد على باشا خير دليل على ذلك ^{٧٧}.

وكان من نتيجة تبعية العالم العربي للدولة التركية التي أصبحت أول دولة للخلافة لم تستعرب ^{٧٨} أن عجزت الدولة عن دمج العرب الذين يمثلون روح الإسلام في منظمتها السياسية ونسيجها الاجتماعي ، فكان هذا مبعث قلق دائم للطرفين ، وخطرا قائما على وحدة الخلافة ، وهذا ما يشير إليه السلطان عبد الحميد الثاني بحسرة : "اللغة العربية لغة جميلة ، ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل .. اتخاذنا اللغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه - على الأقل - أن يزيد ارتباطنا

^{٧٢}- رشيد رضا صاحب المinar: ١٦

^{٧٣}- تاريخ الدولة العربية الإسلامية وحضارتها ، د. حسين مؤنس (بمشاركة) ، وزارة التربية - الكويت ، الصف الأول الثانوي ، ط ٢٤ ، ١٩٧٤-١٩٦٥ ، ص ٢٥١

^{٧٤}- العرب والفكر التاريخي: عبد الله العروري ، دار التووير للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ ، ص ٧٩

^{٧٥}- إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر : صراع طبقي أم مشكل ثقافي: د. محمد عابد الجابري ، (ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي) ، ص ١٤٠

^{٧٦}- المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف ، دار الثقافة للطباعة والزنكوفراف ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ م ، ص ١٧٥

^{٧٧}- رشيد رضا صاحب المinar: ١٤

^{٧٨}- واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام: وحيد الدين خان ، ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم ، دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م ص ١٥٢

بالعرب."^{٧٩} ويرى رشيد رضا أن ضعف انتشار الإسلام في أوروبا التركية سببه عزل اللغة العربية التي تحوي كنوز الإسلام ، وهو ما سبب الفرق بين الترك والعرب فيقول :"لو أن الدولة العثمانية أحبت اللغة العربية فيما فتحته من أوروبية لانتشر فيها الإسلام ، ثم فيما جاورها انتشارا عاما .. ولو رضيت أنفسها لغة الإسلام لما أبوا ، وهذه المسألة هي التي فرقت بين الترك والعرب ذلك التفريق الذي أشرنا إلى رزاياد في هذا البحث مرارا ."^{٨٠}

^{٧٩}- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط: د. علي محمد الصالبي ، دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط ، ودار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ، إسكندرية ٢٠٠٣ م ، ص ٥٥٦

^{٨٠}- الخلافة . ١٠٠

المطلب الثاني: الحالة الفكرية في عصره

بدأ الغرب نهضته برغبة شديدة في الحصول على كل شيء يمكنه من بناء نهضته ، ويعينه على تجاوز عصور الظلمات التي خيمت عليه مدة طويلة ، فنحى جانبا خلافاته المريدة مع العالم الإسلامي التي كانت سببا في الصراعات التي عرفت باسم "الحروب الصليبية" واتجه إلى العالم الإسلامي يتلذذ عليه ويأخذ عنه العلم والمعرفة ، واحتقى بكل ما هو إسلامي ^{٨١} فقام بجهود جبارة في ترجمة العلوم الإسلامية ، شارك فيها كل المؤسسات الغربية ؛ الحكومية والكنسية ، والتعليمية وحتى الأفراد ^{٨٢} وأثمرت هذه الجهود في إحداث نهضة فكرية وعلمية كبيرة مكنتهم من وضع الأسس الأولى للحضارة الغربية التي يستظل بها العالم اليوم ، وامتدت آثار هذه الصحوة إلى مختلف مناحي الحياة الغربية في صورة ثورة فكرية شاملة لا يقف لها إلا ما يملك منطق البقاء ، فاهتزت العروش الملكية والمؤسسات الإقطاعية والسلطات الكهنوتية وحتى التعاليم المسيحية ^{٨٣} وتواصلت عندهم الجهود البحثية والعلمية ، وانطلقت عجلة الحركات الإصلاحية دون توقف أو فتور حتى قويت ساعد حضارتهم وتوطدت أركانها وتفوقوا على غيرهم من الأمم الأخرى في جميع المجالات ؛ العسكرية والاقتصادية والسياسية ، ثم انتقلوا إلى بسط نفوذهم وفرض سيطرتهم على الشعوب الأخرى لاستغلال مواردهم ومصادرهم الطبيعية.

بواطن النهضة

كان المسلمون أول من احتك بالحضارة الغربية ، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية التي كانت في أوج قوتها في مبدأ النهضة الغربية تصراع الدول الغربية حتى ضمت جزءا كبيرا من الأراضي الأوروبية في وسط القارة ، ثم تعرضت للهجمات المرتدة من قبل الدول الغربية التي رجحت كفتها بعد أن تسلح بسلاح

^{٨١} - تراث الإسلام: جوزيف شاخت (بمشاركة) ، ترجمة محمد زهير السهموري (بمشاركة) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب - الكويت ، الطبعة الثالثة ، ١ / ٥٧ ، واقعنا المعاصر: محمد قطب ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٨٧ ص ١٧٥

^{٨٢} - المقدمات التاريخية للعلم الحديث ، توماس جولدشتاين ، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب - الكويت ، ٢٠٠٣ م ص ١٢٦

^{٨٣} - فجر العلم الحديث: توبى أ. هانف ، ترجمة أحمد محمود صبحي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب - الكويت ١٩٩٧ م ١٥٤/٢

العلم والحضارة ، لم تزل الحروب قائمة بين الدول الغربية وبين الإمبراطورية العثمانية لما يزيد على ستة قرون حتى أثخنتها جروحها وسقطت في الحرب العالمية الأولى. ولا شك أن العثمانيين كانوا على علم بمنجزات الحضارة الغربية التي كانوا يكتونون بناها ، من سلاح وصناعة ونظم اقتصادية وسياسية وقانونية وغيرها ^{٨٤} وقد جهدوا أنفسهم في تحقيق التوازن العسكري بينهم وبين الدول الغربية الكبرى التي كانوا ينازلونها ، فاستقدموا الخبراء العسكريين الغربيين وشيدوا المصانع الحربية ، كما فتحوا المدارس والكليات الحربية ، وكانوا يكسبون أحيانا بعض الحروب الكثيرة ، التي كانوا يخوضونها للدفاع عن أملاكهم الأوروبية غير أن كل ذلك لم يكن إلا حلًا مؤقتا لا يمكن بحال من الأحوال أن يضعها في مصاف الدول المتقدمة ، و يجعلها تجاري القوة الأوروبية ، التي تقف وراءها الجهود البحثية الحديثة ، والمراكز العلمية المتطرفة ، والدول الحديثة الطموحة ، التي تتشد المجد بصلاح العلم والمعرفة ، ولا تلوي على غيره ، فعجز العثمانيون عن التحدي ، واقتعوا ليس فقط باقتباس العلم والتقنية عن الغرب ، بل باستيراد نظمهم السياسية والاقتصادية والتشريعية ^{٨٥} وكان أول من انتهج هذا النهج من السلاطين العثمانيين هو السلطان محمود الثاني "الذي كان يترسم خطط الحضارة الغربية في كل شيء فاستبدل الطريوش الروسي بالعمامة ، وتزيأ بالزي الأوروبي ، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين" ^{٨٦} فكان هذا أول انشطار فكري يصيب المسلمين بالثنائية الفكرية ، والتوزع بين القوانين الوضعية والتشريع السماوي ، ثم جاء ابنه السلطان عبد المجيد فكان "أول سلطان في آل عثمان يضفي على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية ، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرمانى التنظيمات في عامي ١٨٥٤ و ١٨٥٦ ، وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمي بعهده التنظيمات ، وهذا اصطلاح يعني تنظيم شئون الدولة وفق المنهج الأوروبي ، وبهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية ، وبدأت الدولة تستلهم الفكر

^{٨٤}- فجر العلم الحديث: ٣٩/٢

^{٨٥}- المسألة القانونية بين الشريعة والقانون: طارق البشري ، (ندوة التراث وتحديات العصر) ، ص ٦٢٤ ،
^{٨٦}- الإسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٧ م ١٩٨٥

الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات.^{٨٧} وفي مصر كانت الحملة الفرنسية أول اتصال مباشر ومؤثر بالحضارة الغربية^{٨٨} وكان الفرنسيون قد قصدوا فعلاً إظهار تفوقهم العلمي والتكنولوجي للصريين حتى يتقبلوهم ويفضلوهم بقاءهم على النفوذ العثماني ، وفعلاً ذهل المصريون وعلى رأسهم علماء الأزهر بالتجارب العلمية الكثيرة والمثيرة التي كان العلماء الفرنسيون المصاحبون للحملة يجرونها أمامهم^{٨٩} ورغم إخفاق الحملة في البقاء في مصر ، فقد نجحت في استفزاز شعور العلماء والمتقين الصريين ونبهتهم إلى البون الشاسع بينهم وبين الفرنسيين الغربيين في العلوم التطبيقية والمدنية والقوة العسكرية والاقتصادية ، وتجلى ذلك في سياسة محمد على باشا الذي جاء إلى حكم مصر عقب رحيل الفرنسيين ، والذي اتجه إلى بناء دولة حديثة على النمط الأوروبي مستعيناً بالخبرات الغربية ، ولكنه وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه العثمانيون من قبل عندما حاولوا إصلاح المؤسسات العسكرية والاقتصادية دون إصلاح النظام السياسي الذي يتوقف عليه أي إصلاح حقيقي^{٩٠} دون أن يسعوا إلى إيجاد مجتمع مدني واع يعين الحكومة على ما تسمى إليه من نهضة ، وقدر على مراقبة تصرفات السلطة حتى لا تتحرف عن المسار المرسوم للإصلاحات بسبب الأهواء أو الأخطاء الفردية كما حدث لمعظم خذلوي مصر بعد محمد على باشا.

وتعرض المسلمين في شبه القارة الهندية للتأثيرات الغربية القوية منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي عن طريق الشركات التجارية العملاقة التي كانت تجني الفوائد والأرباح الهائلة وتنزع الامتيازات الاحتكارية من السلاطين المحليين بقوة وهيبة الدول التي تنتهي إليها ، ثم خضعت دولة المغول الضعيفة في الهند لنفوذ الشركة الشرقية الهندية البريطانية ، حتى تحول هذا النفوذ إلى استعمار مباشر بعد ثورة في منتصف القرن التاسع عشر ، وانتهى الوجود الرمزي للدولة المغولية

^{٨٧}- العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ٤٧

^{٨٨}- إشكالية الأصالة والمعاصرة في الوطن العربي: (تعليق) ، د. صالح أحمد العلي ، (التراث وتحديات العصر) ، ص ١٤٠

^{٨٩}- في الأدب الحديث: د. عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ١٧ / ١

^{٩٠}- العالم الإسلامي والنظام الدولي: د. محمد عمارة (بمشاركة) ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م ص ٥٠

الإسلامية في الهند ، وتعرض المسلمين بسبب ماضيهم السياسي وقيادتهم للثورة ضد الاحتلال لاضطهاد فظيع تعاون عليه البريطانيون والهندوس ، وانتزع من أيديهم كل شيء السلطة والشريعة والتعليم والممتلكات فساعت أحوالهم.^{٩١} وهكذا وقع العالم الإسلامي كله تقريراً في قبضة الاستعمار الغربي الفكري أولاً ثم في قبضة الاستعمار الاستيطاني المباشر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر.^{٩٢}

دعاة النهضة

نهض المصلحون والمفكرون من العلماء المسلمين في مواجهة هذه الأزمة التي أحاطت بال المسلمين من جميع الجهات ، وكادت تطفئ نور الإيمان في قلوب المسلمين ، فكان أجهزهم صوتاً وأنصعهم حجة وأوفرهم حماساً ، وأجرؤهم على مواجهة الاستعمار الغاشم ، والسلطانين المسلمين الضعاف ، الذين استكانوا له ، هو السيد جمال الدين الأفغاني ، الذي قاد حملة توعية كبيرة ، طاف بها البلاد الإسلامية كلها ، يحاضر ، ويعلم ، ويربي ، ويؤلف ، يبين لل المسلمين أن الإسلام بريء من التخلف الذي صاروا إليه ، ومن الضعف الذي صادفهم عليه أعداؤهم حتى تمكنا من رقابهم ، ويدعوهم إلى مراجعة دينهم ، وتجديد الفهم له ، بعيداً عما ران عليه ، وألصق به على مر القرون ، مما ليس من نبعه الصافي ، ولا من هديه الحكيم ، ففيض الله له بعض الآذان الصاغية ، والقلوب الوعية ، وخاصة في مصر - "قبلة طلاب الإصلاح في أرجاء العالم الإسلامي"^{٩٣} وكان من أبرز أتباعه ، وأنبه تلامذته ، الشيخ محمد عبده الذي أصبح له في حياته رفيقه في الجهاد ، ولسانه في الدعوة ، وكان له بعد رحيله ، فيلسوف مشروعه الإصلاحي حتى قال فيه رشيد رضا في معرض إشادته بجمال الدين الأفغاني وحسن أثره في الأمة الإسلامية : "إنه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكتفي".^{٩٤} والحق أن الشيخ محمد عبده جدير بهذا الوصف ، فقد كان أزهرياً عالماً ، ومربياً حاذقاً ، ومصلحاً

^{٩١} - تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند: مسعود الندوى ، نشر وتوزيع دار العربية ، ص ١٧٩

^{٩٢} - حياة الشرق: ٣٩

^{٩٣} - التكثير فريضة إسلامية: عباس محمود العقاد ، دار الرشاد الحديثة ، الطبعة السادسة ، ص ١٣٣

^{٩٤} - تاريخ الأستاذ: ١٠٢ / ١

واعيا ، وقد تقلد من الوظائف الكبيرة ، والمناصب العالية ، ما مكنته من ممارسة بعض إصلاحاته ، وتطبيق شيء من اجتهداته ، في عديد من المجالات ، فالفوله طائفة من الشباب النابهين ، يأخذون عنه ويتركون على يديه ، ويقتبسون من أفكاره ، وفلسفته في الدين والحضارة ، وتكونت منهم مدرسة فكرية ، معلمها ومرشدتها الأدنى الشيخ محمد عبده ، وملهمها الأكبر السيد جمال الدين الأفغاني بل إن بعضهم - وهو الشيخ رشيد رضا - يقرن بجمال الدين الأفغاني وإن كان لم يلتقي به ، لكنه يعد مع ذلك ثالث أقطاب مدرسة التجديد الإسلامي بعد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، يقول أحد الباحثين : "إذا كان الأفغاني ملهم المدرسة التجديدية السلفية ، ومحمد عبده هو العقل المفكر لها ، فإن رشيد رضا المتحدث عنها".^{٩٥}

والجدير بالذكر أن هذه المدرسة مدرسة الشيخ محمد عبده لا تلتقي إلا على الشيخ الذي تأثر به الجميع ، وتتلمذ عليه ، أما فيما عدا ذلك ، فقد تفرقوا في اتجاهات متباude ، بل متقاضة ومتصادمة ، فمنهم من تبني الاتجاه الليبرالي ومنهم نادى بالقومية ، ومنهم من أخذ بالسلفية^{٩٦} وكلهم يتخذ الشيخ ملهمه في مذهب ، وهذا مثار التساؤلات الكثيرة حول شخصية الشيخ محمد عبده ، في بينما اعتبر بعضهم أن هذا أمارة العبرية وعلامة الأستاذية ، لأنها شخصية مشعة كما يقولون ، يقتبس منها الجميع ما يعينه على إضاءة دربه ، وإنارة طريقه^{٩٧} يتهمه الآخرون بأن هذا نتيجة مذهبه التوفيقى ، وتطويعه الشريعة لمعطيات الحضارة الغربية.^{٩٨} ولم تقتصر حركة جمال الدين الأفغاني على مصر وعلى العالم العربي بل امتدت إلى الهند ، وأفغانستان ، وتركيا ، وإيران وغيرهما من البلد الإسلامية التي شهدت يقظة فكرية ، فإليه يعود الفضل في "إحياء حركة التجديد الفلسفى" ، وخاصة فيما يتعلق بالإصلاح الدينى والسياسي فهو على حسب تعبير بعض الباحثين : "حكيم الشرق ، ورجل الإصلاح الدينى والسياسي والاجتماعى فى بلاد المسلمين .. لذلك لا عجب

^{٩٥} - تاريخ الأستاذ : ٣٩٥ / ١

^{٩٦} - العرب وتحول خطابهم: رضوان زيادة ، الاجتهد العددان ٥٥ - ٥٦ ، السنة ١٥ ، عام ٢٠٠٢ م ، ص ٧١

^{٩٧} - رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده : د. عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ،

٢٥٨ م ١٩٦٥

^{٩٨} - التراث والتنمية العربية: د. جلال احمد أمين ، (التراث وتحديات العصر) ، ص ٧٥٤

أنه متى ذكرت حركة الإصلاح في أي بلد من هذه البلاد ، لم يكن بد من إرجاعها إليه .^{٩٩}

واجه الاستعمار - الذي انتقل من مرحلة الهيمنة الاقتصادية ، بواسطة الشركات التجارية الاحتكارية ، إلى الاستعمار المباشر - الحركات الإصلاحية بكل الوسائل المادية والمعنوية ، إضافة إلى ملاحقته للإصلاحيين بالاغتيالات ، والاعتقالات ، والنفي ، والتشريد ، وتعطيل صحفهم ، ومجلاتهم ، ومصادرة كتبهم ومطبوعاتهم ، استخدم كذلك الوسائل الأدبية المضادة ، كالصحف ، والمجلات ، والمدارس التبشيرية ، والتعليم العلماني ، والمتقين المتغربين الموالين له ، كما أطلق عنان الأفكار المعادية للحركات الإصلاحية ، كالعلمانية والقومية واللبيرالية ، وغيرها من الأفكار الدخيلة التي تصيب المجتمعات الإسلامية بالاضطراب الفكري والتمزق الذهني وتجعلها قابلة للذوبان في الحضارة المادية المعادية .^{١٠٠}

كانت الحركات القومية أخطر الأسلحة ، التي واجهت الإصلاحيين ، الذين كان من أهم دعواتهم تحقيق الوحدة بين المسلمين ، إلا أن الأفكار الواردة من الغرب الذي قامت دوله على أكتاف القوميات ، والأجناس المختلفة ، التي كانت تتضوی تحت لواء الإمبراطورية العثمانية ، وضعف النظام السياسي المترهل للدولة العثمانية ، الذي لم يستطع تطوير أي شكل مقبول من تحقيق الوفاق بين أتباع الدولة ، كل هذه العوامل المتضافة ، أدت إلى إضعاف حجة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية. يقول الأستاذ وحيد الدين خان : "لقد فشلت حركة الخلافة أو الوحدة الإسلامية رغم جميع إمكانياتها ، ولم يكن السبب في ذلك حقيقة "مؤامرة" ما بل إن الظروف العالمية في ذلك الوقت قفت على تلك الحركة ، فحين يجذب طوفان الأفكار الدنيا كلها ناحية القوميات الجغرافية فلا يمكن أن تقف ضدها أي جزيرة .^{١٠١} ويوافق الدكتور محمد البهبي الأستاذ وحيد الدين خان على ما ذهب إليه من فشل حركة الخلافة الإسلامية في صراعها مع القومية العلمانية ، لأنه "لم يكن صراعاً أيديولوجياً متكافئاً رغم أن

^{٩٩} - فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي: د. أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م ، ١/٢٩١

^{١٠٠} - حوار لا مواجهة: د. أحمد كمال أبو المجد ، دار الشروق ، ١٩٩٨ م ، ١٨٩ ص

^{١٠١} - واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام: وحيد الدين خان ، ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم ، دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م ، ١٨٠ ص

الإسلام هو العقيدة الأصلية لل المسلمين .. وكان يجب أن تكون مكرهة .. ومن أجل ذلك كان يجب أن تكون كفة الإسلام راجحة في هذا الصراع ، ولكن الإسلام كان ضعيفا في الإيمان به من المسلمين قبل الغزو الغربي .. ثم إلى جانب ضعف الإيمان بالإسلام بين المسلمين .. ضعف علماء الإسلام.^{١٠٢}

نشط أنصار العلمانية ، والدعوة التغريبية ، وحاولوا أن يربطوا بين ما يعانيه المسلمون من الضعف والتخلف وبين الإسلام ، ودعوا إلى مجازاة الغربيين في الفصل بين الدين وشئون الحياة ، "ولم يفهموا في الخروج من "التخلف" الاجتماعي والسياسي سوى زاوية تقليد الغربيين ونظمهم ودستيرهم فحسب ، وذلك بالتبني الكامل للقيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية للمدنية الغربية ، وفي الدعوة صراحة لارتباط بأوروبا والتبعية لها ، إذ اعتبروا أن الإسلام عجز عن تحقيق العصرنة ومواجهة قوة الغرب ."^{١٠٣} "والواقع أن العالم الإسلامي الذي واجه الجيوش الاستعمارية لم يكن إسلام أيام المجد القريب من المنابع والمستند إليها بل إسلاما منقلا بالعادات الغربية عن الإسلام والخرافات."^{١٠٤} واستنقوا هؤلاء العلمانيون بالأجانب الغزاة واستعلوا على المصلحين بمساندة الدول المستعمرة لهم وتمكينهم من وسائل التربية والتوجيه ، غير أن هذا لم يطفئ جمرة الإصلاح ، وإن نال من وهجها ، وقد صور الشيخ محمد رشيد رضا الصراع الفكري الذي احتدم في عصره في الساحة الإسلامية فقال : "إن المتصررين للزعامة السياسية ومقام الحل والعقد في غير جزيرة العرب من البلاد الإسلامية أزواج ثلاثة : مقلدة الكتب الفقهية المختلفة ، ومقلدة القوانين الأوروبية ، وحزب الإصلاح الجامع بين الاستقلال في فهم فقه الدين وحكم الشرع الإسلامي وكنه الحضارة الأوروبية."^{١٠٥}

في هذا التصنيف الدقيق من الشيخ رشيد رضا لاتجاهات الفكرية في عصره يقول الأستاذ زكي الميلاد : "إن التقسيمات والتصنيفات بين الاتجاهات والتيارات الفكرية والثقافية التي أفطرت الخطابات العربية والإسلامية في الحديث عنها ،

^{١٠٢} - الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: د. محمد البهري ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ بيروت ، ص ٦٠
^{١٠٣} - الإسلام الأمس واليوم: ٧٦

^{١٠٤} - أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة: د. محمد مخزوم ، معهد الإنماء العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م ، ص ١٠٦
^{١٠٥} - الخلافة: ٦٩

والذكر بها والتركيز عليها بتسميات مختلفة ومتزايدة بين محافظين وإصلاحيين ، تراثيين وحداثيين ، دينيين وعلمانيين ، تقليديين وعصرانيين ، سلفيين وليبراليين ، يمينيين ويساريين .. إلى غير ذلك من تسميات وأوصاف وتقسيمات كرست معها الفروقات بين هذه الخطابات والاتجاهات ، وحاولت أن تضع بينها فوائل قاطعة ، وحدودا نهائية وصارمة. هذه التصنيفات عرفت لأول مرة بهذا الشكل في التاريخ العربي والإسلامي الحديث عندما قسم رشيد رضا الفئات والجماعات إلى ثلاثة طوائف أو أحزاب كما في عبارته ، هم حزب المترنجين وحزب حشوية الفقهاء الجامدين ن وحزب الإصلاح الإسلامي المعتمد في كتابه "الخلافة أو الإمامة العظمى" ^{١٠٦}

كان الشيخ رشيد رضا من حزب الإصلاح الذي حاول التوفيق بين الثوابت الإسلامية وكنه الحضارة الأوروبية ، وقد تقاويا في هذا التوفيق بين مسدد ومفرط كما تقاويا في الاستلهام من الحركة السلفية التي ينسبون إليها ، وسماهم غيرهم بالتوفيقين واتهمهم بالانتقائية والتبريرية ، والجمع بين المتناقضات ، كما يقول الدكتور محمد مخزوم : "كان موقف دعاة هذا الاتجاه انتقائيا إلى حد ما. فيقدر ما تمسكوا بعدم مخالفة نصوص الشريعة عند وضع القوانين والدستور ، حاولوا أن يبرهنا عدم التعارض بين الإسلام ومفهومه للشوري وبين النزعة البرلمانية التي يتبناها الغرب الأوروبي". ^{١٠٧}

الحالة الثقافية في عصره

أما عن حال الثقافة الإسلامية عموما والأدب خصوصا في عصر رشيد رضا فقد انعكس عليها الضعف والتخلف الذي خيم على العالم الإسلامي لعدة قرون جراء الجمود السياسي ، فبينما كان العالم الأوروبي الحديث لا يزال يغترف من العلوم الإسلامية حتى القرن السادس عشر الميلادي او يعبر أحد الباحثين الغربيين : "عبر كل الحدود المشتركة كان العلم العربي يرشح إلى الغرب الأوروبي ، مع العادات

^{١٠٦} - صدمة زوال الحلة العثمانية في الفكر الإسلامي في العشرينات: الاجتهد العددان ٤٥-٤٦ ، السنة ١١ عام ٢٠٠٠ ، ص ٢٩٣
^{١٠٧} - أزمة الفكر الإسلامي: ٨٤

الإسلامية ومنظومات النقوش الزاهية ، واللامح الرشيق للعمارة العربية ، وكل الأسلوب البادخ السلس لحياة الطبقة العليا المسلمة ومع بلوغ أوروبا العصر الوسيط سن الرشد كانت قد بدأت تمتضى الأسلوب المعقدة لحضارة أكثر تقدما".^{١٠٨} في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الحضارة الإسلامية توقفت عجلة مد التقدم العلمي في المشرق الإسلامي لنضوب روافده وانعدام دوافعه وانسداد آفاق سيره ، وأسلم القيادة والريادة إلى تلاميذه من غير أهله ملته وحضارته .

لم يكن العلم الذي فتحت له أوروبا حدودها وأقبلت عليه بشغف ورصدت له كل طاقاتها ، لم يكن هذا العلم يتمثل فقط في الفنون الجميلة والعمارة والفلسفة الإسلامية العقلانية وإنما تمثل كذلك في الرياضيات والفالك والطب والعلوم التطبيقية ، ولم تزل السيادة في هذه العلوم لل المسلمين حتى في عصور متأخرة ، حيث استمرت هذه السيادة والأستاذية في بعض الفروع العلمية وخاصة في الطب والفالك حتى القرن السادس عشر ، بل إن الابتكارات الإسلامية في مجال الفلك والبصريات قد أفضت مباشرة إلى العلم الحديث. يقول أحد الباحثين الغربيين : "إن العمل الذي قامت به مجموعة الفلكيين في مرصد مراغة بوجه خاص في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وبلغ ذروته على يد بن شاطر (ت ١٣٧٥) قد توصل فيه إلى تطوير نماذج للأجرام في الكون يوصف بأنه أول ابتكار غير بطيء في طريق مؤد إلى العلم الحديث ، بل إن هذا الابتكار هو الذي تبناه كوبورنيكوس فيما بعد".^{١٠٩} ولم يكن الأوروبيون وحدهم في التلذذ على المسلمين والأخذ عنهم والاهتمام بالبالغ في النقل عنهم ، بل شاركهم في ذلك الصينيون الذين شعروا بخلاف معارفهم الفلكية ، وقصور مراصدتهم ، فأرسل ملوكهم إلى المسلمين ، يطلب خبراتهم في تطوير العلوم الفلكية في الصين "تأسس في عام ١٣٦٨ مكتب إسلامي خاص بالفالك في الصين ، وظل يعمل حتى وصول اليهوديين في القرن السادس عشر".^{١١٠} ، والجدير باللحظة أن الإمبراطورية العثمانية التي وافق ميلادها آخر الإنجازات العلمية

^{١٠٨} - المقدمات التاريخية في العلم الحديث: ١٢٩ ، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي: عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات - الكويت ، ودار القلم ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩ م ص ٥

^{١٠٩} - افقر لعلم الحديث: ٦١ / ٢ . ونيكولاوس كوبورنيكوس (١٥٤٣م) عالم فلكي بولندي ، اكتشف أن الكواكب بما فيها الأرض تدور حول الشمس.

^{١١٠} - السابق: ٦٤ / ٢

الإسلامية لم تعر اهتماماً كبيراً في هذا الجانب الحيوي الذي لا قوام لأي إمبراطورية ولا لدولة ذات شأن بدون الاعتماد عليه والاستثمار فيه ، وهذا ما جعل كثيراً من الباحثين المسلمين وغيرهم ينعتون الدولة العثمانية بأنها كانت دولة فتوة وسيف ولم تكن دولة علم وحضارة .^{١١١}

إن الخلافة العثمانية وهي تتبع جهدها المتواصل في نشر الإسلام عن طريق الفتوحات التي حشدت لها كل طاقاتها المادية وجندت لها كل امكانياتها البشرية حتى كان السلاطين يقودون الجيوش بأنفسهم - غفلت عن الكفاح في مجال العلوم والمعارف الإنسانية ولم تسع إلى الريادة الفكرية والسيادة العلمية كما سعت إلى الهيمنة العسكرية والسيطرة عن طريق القوة ، وقصرت في استقطاب العلماء وتشجيع البحث العلمي في مختلف المجالات كما قصرت في نشر المعرفة وتعديلها عن طريق المدارس والجامعات ولم يعرف عنها التطلع العلمي الباущ على البحث عما عند الآخرين ونقله وتطويره بعد ترجمته ودراسته وهضمها كما كان دأب الأوروبيين في مبدأ نهضتهم ، وكان من قبل دأب المسلمين في العصور العباسية.

إن من أقتل ما أصيّبت به الخلافة العثمانية وأقعدها عن التطور هو عجمة لسانها باتخاذ اللغة التركية لغة رسمية للخلافة فحالت هذه اللغة بينها وبين ميراثها الحضاري كما حالت بينها وبين السواد الأعظم من شعوبها فأصبحت بذلك مسلولة يقول الأستاذ محمد قطب : "لو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعرت ، وتكلمت باللغة التي نزل بها هذا الدين ، فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبّث العابثين . فضلاً عما يتيحه تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مما كان الحكام وال العامة كلاهما في حاجة شديدة إليه على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية ، وما ألف أصلاً بالتركية حول هذا الدين ." ^{١١٢}

ورث العالم العربي والإسلامي من الدولة العثمانية نوعاً من التعليم الهزيل المرتبط بنظام الدولة ، حيث كانت الدولة لا ترعى ولا تهتم إلا بنوع من التعليم كان

^{١١١} - زعماء الإصلاح: ٦

^{١١٢} - واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، ص ١٥٣

يؤهل خريجيه لخدمة الدولة والعمل في مرافقها المختلفة ، وكانت التركية لغة التدريس في هذه المدارس مما جعل كثيرا من رعايا الدولة العلية محرومين من التعليم الأساسي ، لأن هذا النوع من التعليم الوظيفي لم يعجبهم أو لأنهم رغبوا عن الدراسة باللغة التركية كما أن هذا التعليم لم يكن متاحا لجميع الناس لمحدوديته وقلة انتشاره .

وفي عصر رشيد رضا كان التعليم المتاح في الشام وفي معظم البلاد العربية التابعة للخلافة العثمانية ثلاثة أنواع :

١- التعليم الرسمي : "ولم يبدأ تنظيمه فعليا إلا بموجب نظام المعارف الذي صدر عام ١٨٦٩ . وبموجب هذا النظام قسمت الدراسة إلى خمس مراحل .. إلا أن هذا التنظيم لم يؤد مباشرة إلى زيادة عدد المدارس الحكومية ، ولم يرفع من شأن التعليم .. ففي سوريا بقيت المدارس في حالة يرثى لها وهي ليست على شيء من العلم والتعليم .. ومن المؤسف أن المعلمين فيها ليسوا على شيء من علم تربية الأطفال ومعرفة طرق التعليم." ^{١١٣}

٢- الكتاب : وهي الخلاوى القرآنية المعهودة منذ فجر التاريخ الإسلامي ، والتي يتعلم فيها الأطفال عادة القرآن الكريم والقراءة والكتابة ، كما يتلقون فيها مبادئ العلوم الإسلامية واللغة العربية .

٣- المدارس الخاصة : وقد انتشر هذا النوع من التعليم الخاص بين الطوائف المسيحية بتأثير من الإرساليات التبشيرية الأوروبية المختلفة ، وقد نشطت مدارس الإرساليات التبشيرية بتعاطم مصالح ونفوذ الدول الأوروبية الكبرى في المنطقة حتى امتد جهدها إلى التعليم العالي ، فقد فتحت الإرسالية الأمريكية البروتستانتية كلية بيروت التي تطورت لتصبح فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت ، وفتح بعض الإرساليات الفرنسية الكلية اليسوعية.

أحجم المسلمون عن إرسال أولادهم إلى المدارس الخاصة التي كانت تديرها الإرساليات التبشيرية خوفا على دينهم وأخلاقهم من شائبة تعاليم هذه المدارس التي

^{١١٣}- البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان: د. طلال عتريسي ، الوكالة العالمية للتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م ص ٥٢

لم تنشأ إلا لنشر المسيحية وإعزاز أهلها^{١١٤} ولم تفلح الجهود التي بذلها بعض المصلحين في إنشاء مدارس خاصة بال المسلمين ، تعلم ناشئتهم ، وتغييّرهم عن اللجوء إلى المدارس التبشيرية ، بل تبدلت تلك الجهود ، وتضعضعت المدارس التي أنشأها بعض المصلحين بسبب سياسات الدولة العالية التي لم تعرف بها مما أدى إلى توقفها واندثارها في نهاية الأمر ، فزاد هذا من تأخر المسلمين التعليمي. وعندما خضع العالم الإسلامي ومن ضمنه معظم البلاد العربية للاحتلال الأجنبي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، سارت فيهم سياسة تجهيل عمادها محو المؤسسات التعليمية الإسلامية المتواضعة التي كانت قائمة ، والتي حفظت لل المسلمين دينهم وتراثهم عبر الأجيال ، فضيق على المدارس القرانية (الكتاتيب) بحجج مختلفة بل تجراً على إلغائها في بعض البلدان واستبدل نظامه التعليمي الاستعماري العلماني بالتعليم الإسلامي ، وبالغ في محاربة الثقافة الإسلامية واللغة العربية فأصبحتا مادتين ضئيلتا الشأن في المنهج التعليمي الاستعماري الجديد وأضحت لغة المستعمر (الإنجليزية والفرنسية) لغة التعليم بدل العربية وبدأ التغريب يسري في عقول الناشئة المسلمة مسرى الدم في الجسد.^{١١٥}

لم يكن التعليم الذي كان يبشر به المستعمر ليرفع الجهل عن المسلمين ويرثّهم بصيرة العلمية كلاماً كان للستعمر أن يسلح عدوه بأقوى سلاح وهو سلاح العلم ليستعين به على طرده من بلده ، وإنما أراد أن يكسبهم من المعارف الأولية ما يعينه على استغلالهم واستخدامهم في مصالحه . "ويكشف أحد الباحثين الغربيين وهو روبيرتنيجور عن دوافع سياسة كروم وخبرته في الهند ، التي يحرص على أن يستفيد منها في رسم السياسة التعليمية لمصر ، إذ يذكر أن إدخال التعليم الغربي إلى مصر ، يسهم في نمو الشعور ، مما يهدد بقاء الاحتلال الإنجليزي فيها".^(٢) وهذا كان كروم وزملاوه "يحدرون حكوماتهم من إتقان التعليم في المستعمرات .. فهم يرغبون قلع العلوم الشرقية من بين الشرقيين ، ولكنهم يضنون أن يجعلوا مكانها العلوم العصرية لئلا تحيا بها نفوس هذه الأمم ، إذ يعلمون أنه لا يجتمع العلم والذل

^{١١٤} - الإسلام في القرن العشرين ، عباس محمود العقاد ، ص ٨٧

^{١١٥} - فلسفة المشروع الحضاري: ١١٠ / ١

^(٢) الإسلام في القرن العشرين: ٨٧

في محيط واحد سواء أكان علما شرعا إسلاميا أو علما أوروبيا عصريا أو علما جاما بين الأمرين .^{١١٦}

انتعشت الثقافة الإسلامية في الشرق الإسلامي منذ منتصف القرن التاسع عشر بسبب اتصال المسلمين بالغرب المتتطور منذ الحملة النابليونية على مصر التي استفزت المصريين وكشفت عن ضعفهم وتخلفهم وحملت قائدتهم محمد على باشا على القيام بنهاية عاجلة ، فبعثت البعثة العلمية إلى مختلف البلاد الأوروبية ، وفتح العديد من المؤسسات التعليمية ذات الطابع العسكري ، وكون جيشا قويا فاقت قدراته التأهيلية والتسليحية قدرات جيش الإمبراطورية العثمانية التي كانت مصر إحدى ولاياتها ، وتهيأ في مصر مناخ فكري وثقافي فريد جذب إليه المفكرين وزعماء الإصلاح من أنحاء العالم العربي والإسلامي ، واحتوى به المعارضون للخلافة والناقمون من ممارساتها الاستبدادية وتضييقها على الحريات الفكرية والسياسية ، وكان من أبرز هؤلاء المصلحين الكبار السيد جمال الدين الأفغاني الذي أحدث في مصر - رغم قصر مدة لبثه فيه - يقطة إسلامية وثورة فكرية التف حولها النخبة المثقفة على اختلاف مشاربها وتوجهاتها ، وخلفه بعد طرده ونفيه من مصر أنجى تلامذته الشيخ محمد عبده الذي أصبح فيما بعد أستاذ جيله وإمام عصره ومجدد قرنه كما ترتب دراسات كثيرة.

وصاحب هذه اليقطة نشاط ثقافي تمثل في انتشار الصحف والمجلات ، وكثرة المطبع التي أحيت التراث الإسلامي ويسرت للجمهور اقتناء الكتب ، كما أصبح متاحا للمثقفين بسبب حركة الترجمة القوية الاطلاع على الحياة الأوروبية المتطرفة ، فكان من نتائج كل هذا قيام نهضة فكرية وثقافية وسياسية وأدبية كانت تورث التقدم والانطلاق التي لا رجعة بعدها لولا أن الاستعمار وأدّها في مهدّها قبل أن يشتد عودها وتقوى على مواجهة مكائد وتحدياته^{١١٧}

^{١١٦} - حياة الشرق: ١٢٣

^{١١٧} - النهضة العربية والنهضة اليابانية: د. مسعود ضاهر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، ١٩٩٩ م ، ص ١٣ ، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل : محمد الغزالى ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢ م ص ١٩٩

حال الأدب في عصره

وأما حال الأدب في عصر رشيد رضا فقد كان يستفيق مما أصابه من التراجع والنضوب طيلة عصر المماليك والأتراك ، ذلك لأن الأدب مرأة لعصره يعكس بصدق وأمانة ما يعتره من الفتورة أو الفتور ، وما يلبسه من الصحة أو الاعتلال وما يصيبه من التقدم أو يلاقيه من التخلف ، وقد ذكرنا أن الركود قد ران على الثقافة الإسلامية منذ أن تحولت السلطة السياسية عن العرب وأصبحت المناطق العربية طرفاً تابعاً لإمبراطورية عجمية اللسان ، وإن كانت إسلامية الهوية عسكرية الطابع ، برغم حماستها الشديدة لخدمة الإسلام ، وإعلاء كلمة الدين ، وسعيها الدعوب لرفع أعلام التوحيد في ربوة جديدة ، وكم كان الإمام الشاطبي مصيباً في قوله : "إن الشريعة عربية ، فإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم ، لأنهما سيان في النمط ما عدا الإعجاز . فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية ، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة ."^{١١٨} فما بالك بقوم ليسوا من العربية على شيء وهم يطمحون إلى حراسة الدين وتبوئ مقعد الخلافة وهذا سر ازدهار الحضارة الإسلامية في مراكزها الجديدة في العراق والشام ومصر والأندلس وتعذرها وانوائها في تركيا والسند وإيران وفي كل بلاد العجم^{١١٩} لأن أولئك تعرّبوا وأصطبغوا بصبغة الثقافة العربية قبل أن يتصدوا لحمل راية الحضارة العربية ، وهؤلاء حاولوا حمل هذه الأمانة الثقيلة قبل أن يتأهلوها ويعدوا لها عذتها فضاعت الأمانة رغم الحرص الشديد على حفظها والاستماتة في الدفاع عنها.^{١٢٠}

والأدب فن حساس سريع التأثر ينبع مع قطرة ربيع التقدم الأولى ، ويتصوّح مع هبوب ريح الشتاء القارس ، وكذلك كان الأدب من أوائل ضحايا الجمود في عصر

^{١١٨} - المواقفات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ص ١١٤

^{١١٩} - التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربي: د. عبد الله محمد جمال الدين ، دار الصحة للنشر ، القاهرة ، ص ٣

^{١٢٠} - يقول الشيخ محمد الغزالي : " وقد حاول ناس من الترك والفرس وأشباهم أن يقودوا الإسلام مع بقائهم على تركيتهم وفارسيتهم أو مع ارتداء لباس العروبة على جلدة فارسية أو تركية فكانت هذه المحاولات سبباً لبلبلة علمية وسياسية لا يزال الإسلام يتعرّض لها . " حقيقة القومية العربية: ٢٧

العثمانيين وسلطان دولتهم ممدود وشوكتها قوية وهيبتها مرهوبة ، لكن دولة الأدب مع ذلك دالت وذبل غصتها الرطيب وذهبت نضارتها كما يؤكد عليه معظم مؤرخي الأدب لأنه لم يجد من أولي الأمر من يهتم به ويتدوّقه وبهتر له إذا هز به ، (الأَعْجَمِيُّ وَعَرَبِيٌّ) ^{١٢١} ولا من الجمهور من يطرد له ويقدره حق قدره لفساد سلائقهم وتراجع ملكاتهم وتبدل أدواوهم وانصرافهم إلى أشكال أخرى من الشعر الشعبي . وهكذا أصبحت سوق الأدب كاسدة ، وبضاعته مزاجة ، فتوارى في زوايا هامشية من حياة المجتمع فلا يسمع إلا في حفل زفاف أو في مأتم عزيز أو مدح شريف أو ما شابه ذلك من القضايا الشخصية المعزولة ، وعدته في كل ذلك لا يختلف كثيرا ، فهو لا يعدو أن يكون نظما بارد العاطفة ضحل الخيال قليل التصرف في المعاني الشعرية متقدلا بالمحسنات (أو بالأحرى بالمساوى) البدعية جل همه الاهتمام بالإطار اللفظي الشكلي الجامد كالبيتين التاليين للشيخ على الدرويش ، وهما في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال إنه أودعهما ثمانية وعشرين تاريخا يقول فيهما : ^{١٢٢}

خَيْرُ الْبَرَاءَا أَحْمَدُ سَمَالَهُ بَيْتُ رَقَى فِي الْمَعَالِي مَوْرَدٍ
أَتَقَى نَبِيُّ نُورٍ طَهْرٍ عَاصِمٍ هُوَ خَيْرُ الرَّسُلِ بَلْ هُوَ أَحْمَدٌ

فانصرف الشعب عنه إلى الأدب الشعبي الذي وجدوا فيه ما يلبي رغبهم ويناسب ذوقهم. ^{١٢٣}

هذا حال الأدب في عصور ما يعرف بعصور الانحطاط ، وما ذكرنا عنه سمة عامة ومشتركة بين المناطق العربية جميعها في نظر معظم مؤرخي الأدب ^{١٢٤} وإذا كان هناك من يماري في بعضها أو يستثني شيئا منها ^{١٢٥} فلا جرم أنه ظاهر

^{١٢١} - سورة :

^{١٢٢} - الأدب العربي الحديث: د. محمد صالح الشنطي ، دار الأندرس للنشر والتوزيع ، حائل ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣م ، ص ٢٥

^{١٢٣} - تطور الرواية العربية الحديثة: د. عبد المحسن طه بدر ، دار المعرف ، الطبعة الثالثة ، ص ١٩ يقول بعض الباحثين : "ومررت عصور انحطاط وتراثات وصلت ذروتها في القرن السادس عشر والسادس عشر والسابع عشر أصبحت فيه القصيدة العربية لا تمثل من الشعر إلا أوزانه وقوافيها لا يختلف في ذلك شعر قطر عربي عن قطر آخر." انظر : أساليب التعبير الأدبي: د. إبراهيم السعافين (بمشاركة) ، دار

^{١٢٤} - انظر: الأدب الحجازي في القرن الحادي عشر: د. عائض الردادي ، مكتبة المدنى للطبع والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١١٧/١. يذكر الباحث في هذا الكتاب أن أدب الحجاز في القرن الحادي عشر المجري كان كثيرا وقويا.

في غالب البلاد العربية ^{١٢٦} ، وخاصة في مصر التي كانت عاصمتها القاهرة العاصمة الثقافية والسياسية للأقاليم العربية التابعة للخلافة العثمانية ، كما أن ظاهرة الجمود والتخلف واضحة وبينة في الشعر وفي النثر الأدبي على إطلاقه الضيق ، وأما النثر الفني أو الأدبي بمعناه الأوسع فقد يكون فيه مجال للبحث ، ذلك لأن النثر التأليفي أو العلمي لم ينته أبداً إلى ما انتهى إليه النثر الفني المتمثل في الرسائل الإخوانية أو الديوانية وما شابهما من الضعف والركاكة ، بل إن القرون الثلاثة التالية لسقوط بغداد وانتهاء الخلافة العباسية هي العصور التي أنجزت فيها معظم الموسوعات العلمية في شتى الفنون ، وعاش فيها المؤلفون المكررون الذين أربت مؤلفات على الألف مثل ابن تيمية ووالنwoي والسيوطى وغيرهم.

ولئن كان الجبرتي وغيره دليلاً على ضعف الملكة الأدبية ، وتراجع الطبع وظهر ذلك جلياً في مؤلفاتهم ، التي لم تسلم مما يسهل الاحتراز من أمثاله ، من الأخطاء التعبيرية والألفاظ العامية ، فقد كان يعاصرهم من يحلق في سماء البلاغة ولا شبهة في علمه ولا في أسلوبه من أمثال الإمام الموسوعي محمد بن على الشوكاني اليمني ، والسيد محمود الألوسي العراقي صاحب تفسير روح المعاني وغيرهما .

ليس القصد من هذه المناقشة أنني أتفق أو أمارى أو أدفع ما توافر عليه الباحثون والدارسون لتاريخ الأدب العربي من وسم أدب القرنين السابقين على النهضة الحديثة بالضعف والجمود ، مثله في ذلك مثل الثقافة الإسلامية التي عانت من هذا الضعف بصفة عامة وإنما المناقشة في التعميم المطلق الذي لا نزعم أن أحداً أكده عليه ، لأن الأمة بحكم تنويعها وتعددها وتغير بيئاتها لا يصدق عليها مثل هذا الحكم المطلق ، بل إن وصف العلوم الإسلامية والثقافة العربية برمتها بالركود والجمود بسبب دخول البلاد العربية في حكم العثمانيين دعوى فيها مبالغة وتجاوز ، لأنه لم يعرف عن العثمانيين معاداتهم للعلم وأهله ، بل إن كثيراً من المؤرخين

^{١٢٦} - وهناك دراسات تناقض بموضوعية ما نسب إلى الأدب العربي في العصر التركي من الخمول والنشوب. انظر في : تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) د. عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ، دار الفكر ، دمشق - سوريا ، إعادة الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م ، ص ٦ ، تباشير النهضة الأدبية ، وليم الخازن ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ م ، ص ١٤

يذكرون أنهم كانوا يكررون العلماء ويجلون أهل الشريعة والدين ، فإذا سلمنا أن الأدب بشعره ونثره وعلومه التابعة له أصيب في هذا العصر بقلة إقبال المسلمين الأعاجم عليه لافتقارهم إلى وسائل إدراك معانيه وفهم مراميه وتدوّق محاسنه بسبب عجمة لسانهم رغم ما يقال من أن كل المسلمين العثمانيين كانوا ينشأون بإتقان العربية ^{١٢٧} وأن بعضهم كان يقرض الشعر باللسان العربي ^{١٢٨} فلا نسلم أن عجلة العلوم الإسلامية قد توقفت تماما وأن قرائح العلماء قد تجمدت لانقطاع جوائز الحكام عنهم كلا إن هذه فرضية نسيء إلى أهل العلم الإسلامي أكثر مما تبرؤ ساحتهم من ضعف الانتاج ، فما كان انتاج العلماء وإبداعهم مرهوناً فقط بمكافأة أحد ، وإن صدق شيء من هذا على الأدب فذلك لخصوصيته بشدة ارتباطه بواقع المجتمع ومع ذلك فإن استقراء حال عصر العثمانيين يثبت أن الأدب لم ينضب معينة ولم تذبل غصنه.

١٢٧ - العثمانيون في، التاريخ والحضارة: ٥٢٣

١٢٨ - العثمانيون في التاريخ والحضارة : ٥٢٣

^{١٢٩} عصر الدول والإمارات: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة.

١٣٠ - السابق:

١٣١- عصر الدول والإمارات: ٣٤١

قوله : "لعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته".^{١٣٢} وهكذا كان د. شوقي ينتهي به تتبعه للأغراض الشعرية المختلفة إلى بعض الشعراء المجيدين في العصر العثماني حتى خلص إلى النتيجة التالية "و واضح أن صياغة الشبراوي (ت ١١٧١) جيدة ، وفي شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لا تزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة".^{١٣٣}

هذا عن الشعر الذي يعد أكثر تأثرا بالنقلبات السياسية والاجتماعية من أي فرع آخر من فروع الثقافة الإسلامية ، أما بقية حقول المعرفة فقد تابعت سيرها وآمنت أكلها في هذه العصر ولم تظلم منه كثيرا ، وخير ما يصور ذلك قول د. شرقى ضيف - الذي نكتفي به عن الإطالة لأن فيه الكفاية - : "ونمضي إلى زمن العثمانيين وتنظر دراسات العربية بالشام نشطة .. بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة .. فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام (الكتاب يؤرخ للأدب في مصر والشام) في زمن العثمانيين كانت لا تزال نشطة تحقق بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين".^{١٣٤} ما أردت بهذا الكلام لأدفع به وجود أصل ظاهرة التراجع الثقافي وإنما لأشير به إلى المبالغة المسرفة في أقلام معظم الكتاب عندما يتحدثون عما أصاب الثقافة الإسلامية من الكمال والضمور في العصر العثماني ، فيطمسون كل حسناً العصر ، ويخلون عليه بأي فضل ، كما يقصرون العلة على السيادة العثمانية ، ويفوتهم أنه لم تكن للعثمانيين سلطة فعلية على الشمال الإفريقي واليمن والجزيرة العربية ولم تفلت من هذا التخلف. ولعل مرد هذا التحامل العلاقة القلقة التي كانت تسود بين العالم العربي وبين العثمانيين في أواخر أيام حكمهم عندما استولى عليهم الضعف ، وتداعت عليهم الأمم وزاد الطين بلة مجيء القوميين الأتراك إلى حكم الإمبراطورية المريضة ومحاولتهم الفاشلة في الجمع بين المتناقضات عندما استبدلوا الرابطة القومية الضيقة بالرابطة الإسلامية الجامعة مع السعي إلى الاحتفاظ بكمال إرث الإمبراطورية على امتداده الجغرافي والعرقي.

^{١٣٢} - السابق: ٦٩٧

^{١٣٣} - السابق: ٢١٩

^{١٣٤} - عصر الدول والإمارات : ٥٧٣

بدأت غمة جمود الأدب تميل إلى الانفراج منذ بداية القرن التاسع عشر ، وتجلى ذلك في طبقة الشيخ حسن العطار ، الذين يقول فيهم الأستاذ أحمد حسن الزيات "على أن اللغة المصرية لم تعد في ذلك الوقت أنصارا فقد كان لها أمثال الشيخ حسن العطار ، وبطرس كرامة ، السيد على الدرويش ، ورفاعة بك الطهطاوي من حفظوا كيانها وجدوا بنيانها" ^{١٣٥} حيث ظهرت في أدبهم ملامح الخروج على المأثور ومحاولة التحرر من القيود اللغوية والتعبير عن الذات فيما ينشئونه من نثر أو شعر بصورة أقل تكلا وأقل احتفالا بالنواحي الشكلية وخاصة في الشعر الوجданى ، والرسائل الإخوانية كالرسالة التالية للشيخ حسن العطار "أما بعد فإن أحسن وشي رقمه الأقلام ، وأبهى زهر نفتحت عنه الأكادم عاطر سلام يفوق بعير المحبة نفحه ، ويشرق في سماء الطروس صبحه.

سلام كزه الروض أو نفحة الصبا أو الراح تجلى في يد الرشأ الألمى
سلام عاطر الأردان . تحمله الصبا سارية الرند والبان . إلى مقام حضرة المخلص
الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة حلية الزمان
الذى حلى معصمه وجده .." ومن شعره المقبول قوله في بعض قصائده الغزلية :

ألزمت نفسي الصبر فيك تأسيا والصبر أصعب ما يقاد نجائه
وبليت منك بكل لاح لو تب دى نحو طود أثقلته كرومته
أفلا رثيت لعاشق لعبت به أيدى المنون ونazuته خطوبه
أنت النعيم له ومن عجب تعذبه وتمرضه وأنت طبيبه

"وهو شعر إذا قيس بشعر عصره دل على روح أديب ، وذوق شاعر كما أن النثر وإن كان مسجوعا ، إلا أنه غير متقل بالحلى اللغوية مما يدل على بعض التطور في كل من النثر والشعر . نعم إن في النثر تكلا وتعتمدا للسجع فإذا كان السلام عاطر الأردان فلابد أن تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى غير ذلك . " ^{١٣٦}

ويقول السيد على الدرويش في وصف جراد اجتاح مصر :
فترى الجراد على الجريد مكللا مثل الثمر

^{١٣٥} - تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة - مصر ، ٤١٧
^{١٣٦} - في الأدب الحديث: ٤٧/١

نار تلظى باشجر	رقبش تراها إنها
تيقي النبات ولا تذر	لواحة للأرض لا
لكنها إحدى الكبر	وصغريرة في حجمها
فالآن ترمي بالشرر	الأرض كانت حية
نزل القضاء أو القدر	نزل الجراد بها كما

كان شعر هذه الطبقة امتدادا لفترة ما قبل محمد على باشا الذي يعد من أبرز المسهمين في النهضة العربية الحديثة ، ولم يتأثروا كثيرا بالحركة العلمية التي قادها محمد على لأنهم كانوا ناضجين في وقتها وكان يصعب عليهم هضم معطيات المرحلة الجديدة وتمثل مفاهيمها وقيمها والتطبع بطبعها ، ولهذا جاء نتاجهم الأدبي مصطبغا بصبغة عصور الصنعة في عمومه

أما عوامل النهضة الحديثة فكثيرة ومتضافة ومن أهمها ^{١٣٧} النزوع إلى التراث الأدبي والثقافي القديم في إطار الحركة السلفية التصحيحية التي كانت تتبعه بين الفينة والأخرى بفضل الزعماء الإصلاحيين الذين كانوا يسعون إلى تجاوز محنـة التخلف الذي خيم على العالم الإسلامي عن طريق العودة به إلى مصادره الثقافية الإسلامية الصافية التي كانت تسود في عهد الرعيل قبل أن تشوبها شائبة الفلسفة وعلم الكلام والمنطق ومذاهب الصوفية والجدل الفقهي ، وكان من ثمار هذه الحركة الشاملة أن عاد الأدباء والشعراء إلى الأدب العربي في عصور قوته ابتداء من العصر الجاهلي إلى عصر المتبي ، فعكفوا على دواوين الشعراء الفحول يعارضونهم أحيانا ويستلهمون منهم أحيانا أخرى ، ويسـرت لهم ذلك المطبع التي بفضلها انتشرت الكتب وسهل الحصول عليها واقتناها من قبل الجمهور المثقـف كما كانت الصحافة تسعـف من ضاقت يده وعـزـزـ عن إشباع رغبـتهـ عن طريق الكـتبـ ، إضـافـةـ إلىـ تـلـقـيـحـ الأـدـبـاءـ أـفـكـارـهـ بـآـدـابـ الشـعـوبـ الـأـوـرـوـبـيـةـ الـناـهـضـةـ الـتـيـ توـفـرـتـ لـدـيـهـمـ بـفـضـلـ نـشـاطـ التـرـجـمـةـ الـتـيـ خـلـقـتـهاـ حـرـكـةـ مـحـمـدـ عـلـىـ التـحـدـيـةـ .ـ وـنـاهـيـكـ عـمـاـ كانـ لـاـنـتـشـارـ التـعـلـيمـ مـنـ أـثـرـ حـمـيدـ عـلـىـ النـهـضـةـ الـأـدـبـيـةـ الـحـدـيـثـةـ كـانـ أـقـلـهـ أـنـ رـفـعـ

^{١٣٧} - يعيدها العقاد إلى عامل واحد وهو "زوال الفتور الذي خيم على حياة الأمة في عهد من الزمن الطويل" مجموعة أعلام الشعر: عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٠ ص ٢٣٣

الأمية عن كاهل شريحة واسعة من المجتمع وهياهم لتنوّق الشعر والنصوص الأدبية. كل هذه العوامل وغيرها تضافرت على إيقاظ الشعوب العربية ونبهتهم من رقادهم ونشطتهم من عقال الغفلة ومهدت لهم سبل الانطلاق إلى آفاق الحرية والعلم والنهضة الحديثة.

المبحث الثاني حياة السيد رشيد رضا

المطلب الأول : أسرته وسيرته

ينتمي الشيخ محمد رشيد رضا إلى أسرة علوية حجازية الأصل ، هاجرت منذ زمن بعيد إلى العراق واستوطنت مدينة النجف ، ثم هاجرت مرة أخرى إلى الشام ، وتنقلت في أجزاء من جبل لبنان ، حتى استقرت في قرية "القلمون" وهي قرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد بضعة كيلومترات من جنوب مدينة طرابلس الشام في شمال لبنان.^{١٣٨} أما عن اسمه ونسبة فهو السيد محمد رشيد رضا بن السيد على رضا بن السيد محمد شمس الدين بن السيد محمد بهاء الدين بن السيد منلا علي خليفة البغدادي.^{١٣٩} وكان ميلاده في يوم الأربعاء^{١٤٠} السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام ألف ومئتين واثنتين وثمانين هجرية (١٢٨٢/٥/٢٧هـ) الموافق للثالث والعشرين من شهر سبتمبر من عام ألف وثمانمائة وخمسة وستين ميلادية (١٨٦٥/٩/٢٣م)^{١٤١}

إذا فالسيد محمد رشيد رضا كما تقدم ، ينحدر من العترة النبوية الشريفة وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله . يقول الشيخ موضحا ذلك : "ولدت ونشأت في قرية تسمى القلمون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من جبل لبنان ، وتبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال ، وكان جميع أهل هذه القرية من السادة الأشراف المتواتري النسب ، إلا أنه خالطهم في القرن الماضي عدد قليل من مسلمي لبنان."^{١٤٢}

ويلاحظ الدكتور أحمد الشريachi أن الشيخ محمد رشيد رضا كان في مبدأ حياته شديد العناية بإثبات نسبه العلوي ، وكان يوقع مقالاته بمثل قوله : "محمد

^{١٣٨} - انظر ترجمة السيد محمد رشيد رضا في : الأعلام: للزكلي ١٢٦/٦ ، المعاصرون: محمد كرد علي ، ص ٣٣٤ ، أعلام الإسلام: عبد الوهاب سكر ، ص ١٠٨ ، معلم الثقافة الإسلامية: عبد الكريم عثمان ، ص ٤٤٩ .

^{١٣٩} - السيد رشيد رضا: ٨١١

^{١٤٠} - منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد بن عبد الرحمن الرومي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٤ هـ ، ص ١٧٢

^{١٤١} - رشيد رضا صاحب المinar: ١٠٢ ، وتكاد مصادر ترجمته تتفق على تاريخ ميلاده ، وذكر الشريachi أنه عثر على شهادة "سجل نقوس" عثمانية فيها أنه مولود سنة ١٢٧٩هـ ، واستبعد صحتها ، وينظر الرومي أن تاريخ ميلاده يوافق ١٨ تشرين الأول بدلا من ٢٨ . انظر منهج المدرسة العقلية في التفسير ، ص ١٧٢

^{١٤٢} - السيد رشيد رضا: ٣٥

رشيد رضا الحسيني" ^{١٤٣} ويعزو الشريachi ذلك إلى رغبة رشيد في الاحتماء به من تعسف الدولة العثمانية ، ومن تعرض الاستهانة به وبأسرته من قبل مواطنه في وقت كان الظلم شائعاً والانصاف قليلاً ، فلما سطع نجمه ، وأمن من جانب الدولة العثمانية قلل من الاعتذار بنسبه ، والأكثر من ذكره في مكتوباته. ^{١٤٤}

حول نسبة

ورغم ما ذكره الشح رشيد رضا من تواتر نسب السادة الأشراف في قرية القلمون إلا أن ذلك لم يحل دون إثارة المناقشة حوله ، ولعل مرد هذه الإثارة خصومه في الفكر وفي مذهب الإصلاح ، من أمثال أبي الهدى الصيادي وينظر حبيب السامرائي أنه بحث في نسب عائلة رشيد رضا ، فاتصل بأسرته في القاهرة فلم يظفر منهم بطايل ، ثم انتقل إلى العراق وإلى النجف ، واتصل بمنصب الأشرف ، واطلع على سجلات النسب الحسيني من الشيعة والسنّة ، فلم يجد ذكراً لجد هذه العائلة "السيد منلا على خليفة البغدادي" ^{١٤٥}

غير أن أمير البيان شبيب أرسلان ، قد سبق حبيب السامرائي إلى التثبت والتأكد من نسب عائلة آل رضا ، فتوصل إلى تنتائج غير تلك التي انتهى إليها السامرائي. يقول شبيب : "كنا سأّلنا الأخ عبد الرحمن عاصم ابن عم الفقيه ، قدس الله روحه ، عما إذا كان عندهم شجرة نسب تثبت تحدّرهم من العترة الشريفة النبوية ، نظراً لتراث كونهم من الأشراف الحسينية ، فأجابني أنه لا يزال عندهم سجلات ووثائق تثبت نسبتهم هذه ، ولكن الشجرة مفقودة ، بما توالى عليهم في زمن السلطان عبد الحميد من الاضطهاد ، وكبس البيوت ، وأخذ الأوراق ، فعندما تلقينا هذا الجواب اكتفينا بما ذكره الأستاذ الفقيه عن نسبهم ، وأنه معروف بالتواتر ، ولكننا في هذه الأيام الأخيرة تلقينا مع السيد أحمد الحسيني ؛ وزير النافعة في لبنان الكبير ، وبينما نتحدث والحديث شجون

^{١٤٣} - المنار: ١٥/١/١٢ ، ٨/١/١

^{١٤٤} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٠٦

^{١٤٥} - منهاج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: ١٧١

وصلنا إلى موضوع نسب السادة الحسينية ، أئمة الشيعة في جبل لبنان وهم الذين منهم السيد أحمد المشار إليه ، وكان منهم عمه السيد على الحسيني قاضي مذهب الشيعة في الجبل ، ومسكناً لهم القرية التي يقال لها مزرعة السيد في شمالي كسروان إلى الشرق ، فسألت السيد أحمد عن نسبهم وتاريخ وجودهم في لبنان ، وهو من صدق اللهجة والنبالة بالمقام الذي لا يخفى ، قد اتفقت الكلمة على تزكيته وتوثيقه ، فقال لي إنهم في الأصل من الحجاز كسائر الأشراف ، ثم انتقلوا إلى العراق ، ونزلوا النجف ، ثم جاءوا من العراق إلى الشام ، ونزلوا بكرك نوح ، وهي قرية تجاور معلقة زحلة ، وورد ذكرها في معجم البلدان ، يقول ياقوت الحموي إنها في أصل جبل لبنان . قال السيد الحسيني حفظه الله : ثم انتقل أسلافه إلى قرية قمهز من لبنان ، ثم إلى قرية أخرى يقال لها كفر حيال ثم ، إلى مزرعة السيد التي هم فيها الآن ، ولكن فرعاً من عترتهم هذه بدلاً من أن ينزلوا مع أولاد عムهم في مزرعة السيد ، ذهبوا فقط نوا قرية القلمون ، على سيف البحر بقرب طرابلس الشام ، قال ومنهم آل رضا الذين منهم السيد رشيد وعائلته ، فسألت السيد أحمد الحسيني : هل هذا معروف عندهم من القديم ؟ فأجابني نعم ، ولما كان المذكور ثقة .. وجدت من الضروري نقل كلامه هذا في ترجمة السيد رشيد لأن الناس مأمونون على أنسابهم ، وأن السادة الحسينية المذكورون صحة نسبهم إلى آل البيت تغنى عن التعريف ، وهم أعلم بمن هو منهم وبمن هو ليس منهم .^{١٤٦}

ولعل السامرائي لو تابع بحثه في لبنان ، وزار "القلمون" موطن آل رشيد ، وسأل شيخ الحسينية في لبنان ، كما فعل أمير البيان شبيب أرسلان ، لاهتدى إلى نتائج مرضية.

وسواء أثبتت نسبة عائلة رشيد إلى العترة النبوية الشريفة أم لم تثبت فإن هذا لا يضر رشيداً ، ولا يقدح في نفسه ، ولا يغض من شرفه وشرف عائلته التي انتهت إليها السيادة في بلاده "القلمون" فاما نسب شريف ، وإما زعم قديم يتحمل غيره وزره . وكان رشيد يعاتب بعض من يفتخرون بنسبهم الشريف ، ويباهاون به على غيرهم ، ولو كان أكثر منهم صلحاً ، وكان يسميهم استقراطية الأحساب والأنساب

، لأنهم يفضلون صاحب النسب الشريف ، ولو كان مخطئاً أو مذنباً على غير شريف النسب ، ولو كان صالحاً أو مصلحاً. ^{١٤٧}

مكانة عائلته

كانت عائلة رشيد عائلة سرية وثرية ، ذات جاه وسيادة ، إضافة إلى شرف نسبها وكرم محتدها ، كما تميزت بالتدين والاشغال بالعلم والعبادة ، مما هيأ لها منزلة اجتماعية مرموقة ، جعلت الشيخ محمد رشيد رضا يتغنى بها حيث يقول : "أهـل بـيـتـا مـمـتـازـون فـيـهـم ، بـأـنـهـم أـهـلـ الـعـلـمـ وـالـإـرـشـادـ وـالـرـئـاسـةـ وـيـلـقـبـونـ بـالـمـشـائـخـ .. وـجـدـيـ الـثـالـثـ هـوـ الـذـيـ بـنـىـ لـهـمـ الـمـسـجـدـ الـمـعـرـوـفـ الـآنـ بـجـانـبـ بـيـتـاـ الـقـدـيمـ الـذـيـ وـلـدـتـ فـيـهـ .. وـكـانـ عـالـمـاـ مـشـهـورـاـ بـالـكـرـامـاتـ ، وـقـدـ أـنـعـمـ عـلـيـهـ الـسـلـطـانـ الـعـمـانـيـ بـيـرـاءـاتـ سـلـطـانـيـةـ ، حـبـسـ عـلـيـهـ فـيـهـ سـبـعـةـ قـرـارـيـطـ مـنـ ٢٤ـ قـيرـاطـاـ مـنـ أـمـوـالـ الـدـوـلـةـ الـأـمـيـرـيـةـ ، وـبـيـرـاءـاتـ أـخـرـىـ بـالـإـمـامـةـ وـالـخـطـابـةـ فـيـ الـمـسـجـدـ ، وـقـدـ تـسـلـسـلـتـ هـذـهـ الـبـرـاءـاتـ مـنـ الـسـلـاطـينـ فـيـ ذـرـيـتـهـ ، حـتـىـ آـلـتـ إـلـيـ ، فـكـانـ آـخـرـ بـرـاءـةـ وـجـهـتـ عـلـيـ أـلـيـ مـنـ الـسـلـطـانـ وـحـيدـ الـدـيـنـ قـبـلـ الـحـرـبـ الـعـامـةـ". ^{١٤٨}

وكما كان جده الأعلى الذي بني مسجد القرية عالما مشهورا بالكرامات تجمعت لديه السيادة الدينية والدنيوية ، كذلك كان عدد من ذريته وأحفاده من بعده ، حتى اعتقد الناس تسلسل الولاية في هذه العائلة وجعلهم يتبركون برجالها الذين من بينهم عدد كانوا يلقبون بالصوفي ، لكثره زهدهم وانقطاعهم إلى الاشتغال بالعبادة.

١٤٩

وكان بيت عائلة رشيد مقصد العلماء والوجهاء من جميع الملل ، والضيوف وأبناء السبيل من جميع الأقطار ، وإلى والد رشيد انتهت رئاسة الأسرة والقرية ، كما يقول رشيد : " وكان والدي من بعد جدي الذي مات وأنا طفل هو سيد الأسرة والبلد

^{١٤٧} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٠٧

^{١٤٨} - السيد رشيد رضا: ٣٤

^{١٤٩} - السابق: ٣١

المضياف ، وكان عمه "السيد الشيخ أحمد" كبير الأسرة سنا منقطعا للعبادة ، لا يقابل من ضيوفنا إلا العلماء والأصدقاء." ^{١٥٠}

هذه المكانة الاجتماعية السامية ، والمنزلة الدينية العظيمة ، والحسب الرفيع ، كل ذلك أورث أفراد هذه الأسرة الأنفة والحمية وعززة النفس ، مما نجد صداه في مكتوبات الشيخ رشيد رضا ، وأخذ عليه بعض الباحثين ^{١٥١}

تصوفه

وعندما بلغ سن التحصيل والتلقي ، أدخل رشيد إلى كتاب القرية ، حيث تلقى فيه القرآن والخط ومبادئ الحساب ^{١٥٢} ولم يطل لبثه بعد ذلك في مقاعد الدراسة النظامية ، بل تحول إلى التعليم المسجدي والتلقي عن المشائخ ، كما عني بتعليم نفسه عن طريق القراءات الواسعة ، والمطالعات الكثيرة الذاتية ، وساعده على ذلك وجود خزانة كتب في بيت الأسرة ، توارثوها من قديم الزمان ، فيها نوادر كتب التراث ، فكان يجد فيها ضالته ، ويسبع بها رغبته ، ويقضي فيها الساعات النفيسة ، خاصة وأنه كان في صغره عزوفا عن اللعب واللهو ، قليل المخالطة بأترابه ^{١٥٣} ونشأت هواية القراءة والتعلق بالكتب مبكرا عند رشيد ، فكان يجد فيها لذة ومتعة ، في وقت كان يفترض في ناشئ مثله ، ألا يجد في نفسه من صحة الملكة الذوقية وتوافر العدة والآلة اللسانية ، ما يشجعه على مطالعة المراجع الكبيرة ، وأمهات التراث الإسلامي ، غير أن رشيدا يقول " وإنمارأيتني بعد تعلم مبادئ القراءة والخط في القرية ، غير مطالب بعمل دنيوي في بيت فيه كتب ، وميلي للعب مع الصبيان قليل ، فليس أمامي شيء إلا هذه الكتب ، اتلذ بمطالعتها". ^{١٥٤}

قادت هذه القراءة الواسعة رشيدا إلى بعض كتب أهل التصوف ، ككتب الإمام الغزالى ، الذيقرأ له كتابه إحياء علوم الدين ، فأعجب به كثيرا ، وكان يكثر من مطالعته ، ويقرئه لغيره من أهل بيته ، ونزع به عرق التصوف الذي اشتهر به

^{١٥٠} - السيد رشيد رضا: ٢٥

^{١٥١} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٠٨

^{١٥٢} - السيد رشيد رضا: ٣٥

^{١٥٣} - السابق: ٣١

^{١٥٤} - السابق: ١٠٧

كثير من أهل بيته ، فأخذ يعالج نفسه على سلوك أهل الطرق ، ويؤدبها بآدابهم ، واتخذ لنفسه في بيته خلوة ينقطع فيها للعبادة ، وكان يقرأ "ورد السحر" بمفرده أحياناً ، ومع جماعة أحياناً أخرى ، كما كان يواكب على قراءة "دلائل الخيرات"^{١٥٥} التي تلقى الإحازة بها عن أستاذ العابد العالم أبي المحاسن القاوقجي بسنده إلى مؤلفها ، وعندما ألح على شيخه في أن يسلكه طريق القوم ، على أصولهم في الرياضة والخلوة ، والترقي في منازل المعرفة اعتذر له قائلاً: "يا بني إبني لست أهلاً لما تطلب ، فهذا بساط طوي وانفرض أهله".^{١٥٦}

غير أن رشيداً واصل بحثه عن يأخذ بيده ، ويترقى به في معارج الصوفية ، حتى اهتدى عن طريق أحد أصدقائه إلى صالتة . يقول رشيد في هذا الشأن : "ثم أخبرني صديقي الأستاذ العلامة الشيخ محمد الحسيني ، أنه قد ظفر بصوفي حفي من النقشبندية ، يرى هو أنه وصل إلى مرتبة المرشد الكامل ، فسلكت هذه الطريقة معه ، وقطعت مراتب اللطائف كلها ، ورأيت في أثناء ذلك كثيراً من الأمور الروحية الخارقة للعادة ، كنت أتأول الكثير منها ، وعجزت عن تأويل بعضها ، إلا أنها من خصائص الروح التي تظهرها الرياضة وكثرة الذكر .. وكان الورد اليومي لي في هذه الطريقة ذكر اسم الله (الله) بالقلب دون اللسان خمسة آلاف مرة ، مع تعميض العينين وحبس النفس بقدر الطاقة ، وملحظة ربط قلبي بقلب الشيخ".^{١٥٧} وهكذا نجد الشيخ رشيد رضا قد نشأ نشأة صوفية قوية ، كان لها أثراً الواضح في تألهه وتنسكه ، قبل أن يتحول إلى السلفية.

جهوده في الدعوة والإصلاح

لم يقعد برشيد رضا تألهه وتنسكه عن التصدى للدعوة والإرشاد ، بل كان من ثمرات حرصه على إصلاح نفسه وتزكيتها ، أن التفت إلى حال مجتمعه ، فرأى ما هو عليه من الجهل والجفوة والبعد عن الصراط السوي ، رأى الرجال يجلسون في المقاهي يتحسون النargile (الشيشة) في أوقات الصلاة ، ورأى النساء يتلبسن بكثير

^{١٥٥} - ورد السحر ، ودلائل الخيرات من أوراد الطريقة النقشبندية. انظر : السيد رشيد رضا: ٤٩

^{١٥٦} - السيد رشيد رضا: ٥١

^{١٥٧} - السيد رشيد رضا: ٥١

من المنكرات العقدية والشرعية والاجتماعية ، كإسراج الشموع في القبور ، وتعليق الخرق على بعض الأشجار التي يعتقدن فيها البركة ، مع ما هن عليه من ترك الواجبات والعبادات المفروضة ، وتقديرهن في معاشرة أزواجهن وسوء تربيتهن لأولادهن ، فشمر عن ساعد الجد ، وقام يدعوا هؤلاء وأولئك ، فكان يلقى المواضع في المساجد ، ويغشى أندية القوم ومقاهيهم يذكرهم ؛ يأمرهم وينهاهم ، ولما رأى أن أصل تلك المنكرات والمفاسد الجهل بالدين ، نظم دروسا للرجال في المسجد ، وأخرى للنساء في دار أهله ، كما كان يخص أهل بيته بدورس وتربيبة خاصة.^{١٥٨}

بدأ الوعي الإصلاحي ينمو في الشيخ رشيد رضا رويدا ، مع نموه العلمي ، ونضجه العقلي ، وازدياد تجاريه ، وتراكم خبراته ، فتراءى له ما يعانيه المجتمع من الخلل ، وما يساوره من الأمراض القاتلة ، في مختلف المجالات التعليمية والدينية والاجتماعية والسياسية ، فكان عليه الجهر بدعة الإصلاح وأن يعذر نفسه إلى الله في أداء الأمانة العلمية التي حملها العلماء ، فجهر بالدعوة إلى الإصلاح ، غير عابئ بما قد يناله في ذلك من الأذى. "إن في تلك النشأة السلفية الصوفية لما يواظب الآذين بها من أهل العلم إلى نوع من المراقبة الفردية والاجتماعية يقيمهم على نهج تغيير المنكر ، والنهي عن الفساد والدعوة إلى إلى إصلاح حال المسلمين ، وتجديد معالم معالم الدين الإسلامي." ^{١٥٩}

ومن الأمور التي لم يستسغها رشيد رضا ، وهو لا يزال في مقاعد الدراسة يتلقى عن أساتذته ، بعض المقررات الدراسية ، وطريقة التدريس التي يتبعها بعض أساتذته ، فقد كان يراجع شيخه حسين الجسر في المقامات الحريرية التي كان يتضجر من أسلوبها ، ويقترح عليه تغييرها ، واستبدال كتب أدبية أخرى بها أصح منها أسلوبا ، مثل مقامات بديع الزمان الهمданى ، ونهج البلاغة وكتاب الأغاني ، وغيرها من الكتب الأدبية التي تحوى مختارات أدبية رفيعة خالية من التكلف : " لأن جودة المقروء والمحفوظ تقييد في طبع ملكة الإنساء." ^{١٦٠} بل كان يرى أن كتاب

^{١٥٨} - السيد رشيد رضا : ١٠٣

^{١٥٩} - التفسير ورجاله: الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، مطبعة الأزهر

^{١٦٠} ، ١٩٧٠ ، ص ١٦٩

^{١٦} - السيد رشيد رضا: ١٢٣

إحياء علوم الدين أولى وأجدى على الطلاب من المقامات الحريرية لما يشتمل عليه من المباحث التربوية النفيسة ، التي تحتاج إليها الناشئة ، إضافة إلى أسلوبه السلس المحرر الخالي من التعقيدات والالتواءات ، وهو وإن لم يكن كتاب أدب بالمعنى الذي تدل عليه كتب النصوص الأدبية ، فصلاته به من حيث المعنى قريبة ، ولنست بعيدة عنه من حيث اللفظ.

كان رشيد رضا يرى أن من أقتل ما أصيب به التعليم في البلدان الإسلامية إهماله للتربية ، وتعهد أخلاق الطلاب وسلوكهم بالتهذيب والتقويم حتى أصبح علم الأخلاق والتربية من العلوم المهجورة المندرسة ، ولذلك نجده عندما أسس مدرسة الإرشاد والدعوة في مصر بعد هجرته إليها ، يعنى بهذا الجانب عناية كبيرة ، لأنه لا يرى فائدة لتحصيل العلم مع الخلو من التربية السوية ، التي تستثمر هذا العلم وتوجهه إلى الخير والإصلاح وتتركية النفس والمجتمع.^{١٦١}

ويعجب رشيد رضا بمنهج شيخه حسين الجسر في التعليم حيث كان يفضل كتاب شرح ابن عقيل وحاشيته الخضرى ، ويفضلهما على شرح الأشموني وحاشية الصبان ، لما في أسلوب ابن عقيل من الوضوح في العبارة . ويمدح شيخه أيضاً بأنه " كان له أسلوب خاص في التعليم غير أسلوب الأزهر ، يتحرى فيه السهولة في البيان ، ويتجنب المناقشات اللغوية ، واستطرادات الحواشى ، فلم يكن يذكر منها إلا ما لا يتم تحرير المسألة العلمية بدونه ".^{١٦٢}

وكان للشاميين منهج يخالف منهج الأزهريين في مضمونه وأسلوبه يقوم على " إثارة جانب المفهول من جانب الثقافة الإسلامية على الجانب المعقول منها ، والجنوح إلى طريقة التوسيع في المقاصد من العلوم الدينية عن طريق التعمق في الوسائل والآلات ، مع الالتزام بخطة من السلوك الصوفي ".^{١٦٣} ولهذا يستغرب رشيد من يخالف طريقة أهل الشام من علمائه ، فيقول فيه : " ولم أر أحداً من علماء بلدنا ،

^{١٦١} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٣٢

^{١٦٢} - السيد رشيد رضا: ٣٩

^{١٦٣} - التفسير ورجاله: ١٦٩

يسلك طريقة الأزهر في التدقيق والتحليل والمناقشة في عبارات الكتب ، إلا صديقي الأستاذ محمد الحسيني عقب رجوعه من المجاورة ثم تركها".^{١٦٤}

مارس السيد رشيد رضا قبل هجرته إلى مصر الكتابة العلمية ، فقد ندب إليه شيخه حسين الجسر الإسهام في جريدة "طرابلس" التي أسسها وكان رئيس تحريرها الفعلى ، فأعد رضا مقالا طويلا في فلسفة الأخلاق نشر في أعداد متفرقة من الجريدة ، ونال المقال استحسان القراء.^{١٦٥} كما ألف رضا في هذه الأثناء كتابا بعنوان "الحكمة الشرعية في محاكمة القاديرية والرافعية" يرد فيه على أبي الهدى الصيادي - شيخ البلاط العثماني - الذي نشر كتابا كثيرة ، بث فيها دعاية لنفسه وأهل بيته ولطريقته الرفاعية ، تتضمن تفضيله للشيخ أحمد الرفاعي والمنتسبين إليه على الشيخ عبد القادر الجيلاني والمنتسبين إليه غير أنه لم ينشر الكتاب بكتابه بل نشر أجزاء منه فيما بعد في مجلة المنار.^{١٦٦} هذا عدا الرسائل الإخوانية ، والخطابات ذات الطابع العلمي ، التي أنشأها وأرسلها إلى بعض العلماء والشيوخ.

١٦٧

هجرته إلى مصر

عندما اكتمل النضج العلمي لرشيد رضا في بلده ، وحصل على أعلى الشهادات العلمية والإجازات التدريسية من أساتذته في مختلف الفنون العقلية والنقلية قرر الرحيل إلى مصر لأسباب عدة يمكن تلخيصها فيما يلي :

١- أنه كان شديد الإعجاب بالسيد جمال الدين الأفغاني ، ويختلف أخباره وأفكاره عن طريق مجلة "العروة الوثقى" وعن تلاميذه والمتصلين به ، ويتحين الفرص للالتاحق به ، والأخذ عنه مباشرة ، وقد كتب إليه يستأذنه في ذلك ، ويعرض عليه خدمته وخدمة آرائه ومذهبه في الإصلاح ، فلما توفي الأفغاني قبل الاتصال به ، لم يجد بدا من

^{١٦٤} - السيد رشيد رضا: ٤٢

^{١٦٥} - السيد رشيد رضا: ١١٧

^{١٦٦} - المنار: ٥٣٤/٢٨/١

^{١٦٧} - تاريخ الأستاذ: ٨٤/١

الارتحال إلى وراث علمه كما يقول : " فلما قضى السيد جمال الدين نحبه بالأسنانة ، في شوال سنة ١٣١٤ هـ ، مارس (١٨٩٦م) أجمعـت الرأـي على الـهـجـرـةـ إـلـىـ مـصـرـ ،ـ لـلـاتـصـالـ بـوـارـثـ عـلـمـهـ وـحـكـمـتـهـ الأـسـتـاذـ الـإـلـمـاـنـ لـتـقـيـ الـحـكـمـ مـنـهـ ،ـ وـالـوـقـوـفـ عـلـىـ آـرـائـهـ وـنـتـائـجـ اـخـتـبـارـهـ فـيـ الإـلـصـاـحـ. " ^{١٦٨}

٢- لما انتهى من التحصيل العلمي في بلده ، شعر بأنه مستعد لاستزادة من العلم والاختبار ، لا يجدهما في وطنه ، وأنه قادر على خدمة دينه وأمته بما لا تبيحه سياسة الحكومة في بلده. ^{١٦٩}

٣- لما قوي في نفسه هاجس الإصلاح ، رأى أن أفضل مكان يناسب هذا الإصلاح هو مصر ، لكثرـةـ مـنـ يـنـتـقـعـ بـالـإـلـصـاـحـ فـيـهـ مـنـ أـهـلـهـ وـمـنـ سـائـرـ الـأـقـطـارـ الـمـتـصـلـةـ بـهـ. ^{١٧٠}

٤- اختار مصر على غيرها "لما فيها من حرية العمل باللسان والقلم ، ومن مناهـلـ الـعـلـمـ العـذـبـةـ الـمـوـارـدـ ،ـ وـمـنـ طـرـقـ النـشـرـ الـكـثـيـرـ الـمـصـادـرـ" ^{١٧١} ما يجعلـهـ مـفـيـداـ وـمـسـتـقـيـداـ فـيـ آـنـ وـاـحـدـ ،ـ وـيـنـشـرـ إـصـلـاـحـهـ عـلـىـ أـوـسـعـ نـطـاقـ ،ـ وـيـعـرـضـهـ لـأـقـلـ الـأـخـطـارـ.

ويصور السيد رشيد رضا حاله عند هجرته إلى مصر ، وجملة المؤثرات التي اسـهـمـتـ فـيـ تـكـوـينـ شـخـصـيـتـهـ وـصـيـاغـتـهـ فـيـقـوـلـ :ـ "ـ فـلـمـ مـاـ تـقـدـمـ أـنـتـيـ جـئـتـ مـصـرـ مـسـتـعـداـ لـهـذـاـ إـلـصـاـحـ كـأـنـيـ خـلـقـتـ لـهـذـاـ إـلـصـاـحـ ،ـ وـتـعـلـمـتـ وـرـيـتـ لـأـجـلـهـ ،ـ وـكـانـ أـوـلـ مـاـ عـلـقـ بـذـهـنـيـ مـنـ تـقـصـيرـ عـلـمـاءـ الـدـيـنـ ،ـ وـحـاجـتـهـ إـلـىـ إـلـصـاـحـ ،ـ مـاـ قـرـأـتـهـ فـيـ كـتـابـ إـلـحـيـاءـ لـلـغـزـالـيـ ،ـ مـنـ التـفـرـقـةـ بـيـنـ عـلـمـاءـ الـدـنـيـاـ الـدـيـنـ ،ـ يـلـقـبـهـ بـعـلـمـاءـ السـوـءـ وـعـلـمـاءـ الـآـخـرـةـ ،ـ وـشـرـهـمـ الـذـيـنـ يـتـقـرـبـونـ إـلـىـ الـمـلـوـكـ وـالـأـمـرـاءـ ،ـ وـبـيـنـ الـعـلـمـوـنـ الـمـحـمـودـةـ وـالـعـلـمـوـنـ الـمـذـمـوـمـةـ ،ـ ثـمـ مـاـ اـسـتـقـدـتـهـ مـنـ شـيـخـنـاـ الجـسـرـ مـنـ حـاجـةـ عـلـمـاءـ الـدـيـنـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ عـلـمـ الـعـصـرـ ،ـ وـعـدـمـ اـمـكـانـ الدـفـاعـ عـنـ عـقـائـدـ إـلـسـاـمـ وـشـرـيـعـتـهـ بـدـوـنـ ذـلـكـ ،ـ

^{١٦٨} - تاريخ الأستاذ : ٩٩٨/١

^{١٦٩} - السيد رشيد رضا: ١٢٨

^{١٧٠} - السابق: ٤٤

^{١٧١} - السابق: ١٢٨

ثم ما استفدت من جريدة العروة الوثقى ، من توقف نهضة الإسلام ، ودفع دول الاستعمار عن ملکه ، واستعادة ما سلبوه منه على نهضة علماء المسلمين بالدعوة إلى ذلك ، ثم ما استفدت من كتب التاريخ القديم والحديث ، ولا سيما الحكيم بن خالدون ، وتاريخ جودت باشا الوزير التركي الشهير ، واستفدت اختباراً كثيراً ، وعلماً بحالة هذا العصر من مذاكرتي لأدباء النصارى الأحرار ، ولدعاة الدين (المبشرين) التابعين لجمعية الولايات المتحدة الأمريكية ، والاطلاع على كتبهم وجرائمهم ، ومن مطالعة مجلتي المقتطف والطبيب منذ طلب العلم ، ولا أزال أطالع المقتطف ما وجدت له فراغاً ، ثم كان ما استفدت بعد ذلك من الأستاذ الإمام وغيره ، ومن معرفة الأزهر بنفسي ، مادة عظيمة لما أقصده من إنشاء المنار ولا أزال أزداد علماً واختباراً في كل يوم استعين بهما على خدمتي للأزهر وسعبي لإصلاحه في كل وقت بما يناسبه ، وإنني لأراه في هذا العهد أشد حاجة إلى الإصلاح منه في كل وقت.^{١٧٢}

هاجر السيد رشيد رضا إلى مصر (١٨٩٨م) واتصل فور وصوله بشيخه الذي كان أكبر مقصد من الهجرة ، فشرح له مراده ، وفوض إليه أمره إلا ما يتعارض مع مبدأ الاستقلالية في الرأي الذي كان قد آمن به ، وفي ذلك يقول : "قلت إني أعاهدكم على أن أكون معكم كالمريد مع أستاذكم ، على نحو مما يقول الصوفية ولكن أحفظ لنفسي شيئاً واحداً ، أخالفهم فيه وهو أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله ، ولا أقبل إلا ما أفهمه ، ولا أفعل إلا ما اعتقد فائدته. قال هذا ضروري لا بد منه."^{١٧٣} فتقبله أستاذه قبولاً حسناً ، وأنزله من نفسه مزلاً الابن من الأب^{١٧٤} وكانت حاجة الشيخ إلى الطالب والمريد لا تقل عن حاجة الطالب إليه ، لأن الشيخ كان بحاجة إلى من يحمل عنه العلم والحكمة والفلسفة الإصلاحية ، التي انتهى إليها بعد طول الطلب والتجربة ، ومصاحبة موقظ الشرق السيد جمال الدين ، ثم يؤدي كل ذلك عنه خير أداء ، وليس كل طالب بمؤهل لحمل هذا العبء الذي تتواء به الجبال

^{١٧٢} - السيد رشيد رضا : ١٣٠

^{١٧٣} - السيد رشيد رضا : ١٣٠

^{١٧٤} - قال الشيخ محمد عبده في خطاب بعثه إلى من خطب إليه السيد رشيد رضا : "ولقد رأيت أن يكون لي نصيب في السعي لدلكم لتنتمي ما توجه إليه الخاطر ، لنزوله مني منزلة الولد البار ، وإن كان الفضل لوالده". انظر رشيد رضا صاحب المنار : ٢١٦. ويقول رشيد في العلاقة بينه وبين أستاذه : "وكلت عنده كولده الصليبي وأخيه النسيبي أو أعز وأكرم". تاريخ الأستاذ : ٥٨٦/١

الراسيات ، غير أن الشيخ آنس من تلميذه من الرشد والأهلية ما يجعله محل ثقته ومعقد أمله ، فرفعه إليه ، وخصه بمودته ، وجعله لسان أفكاره ، ووارث علمه وحكمته ، حتى نفسه الجميع على هذه المنزلة ، وسعى بعض أهل النفوذ إلى التفريق بينهما ، ولكن هيهات ذلك ، لأنهما أصبحا كروح واحدة في جسدين. ^{١٧٥}

كان رشيد رضا قد نضج واستوى علمياً وفكرياً وهو في وطنه ، وكانت هجرته جزءاً من وعيه ورشه ، لأنه كان يسعى إلى تكميل نفسه بالحكمة والجهاد في سبيل خدمة الإسلام ، إضافة إلى مشاريع أخرى حملها معه وعرضها على شيخه ، واستطاع أن يقنعه بها بعد مناقشات ومدارسات ، ومن أهم هذه المشاريع:

١- حمل الشيخ على تدريس وتفسير القرآن الكريم ، بطريقة عصرية وسهلة ، تقرب معنى القرآن إلى الناس ، ويعالج فيها قضايا المجتمع الشائكة ، وكان رشيد رضا قد عهد من الشيخ هذا اللون من التفسير العصري المفيد ، عندما كان يلقي دروساً في التفسير في بعض زياراته إلى لبنان ، ولم يكن الشيخ مقتطعاً في البداية بجدوى هذا التفسير ولكنه بدأه استجابة لرغبة تلميذه ، فالتف حوله الناس من شتى طبقات المجتمع ، وعظمت فائدته ، وكان رشيد ينشره تباعاً على صفحات جريدة المنار ، بعد تسجيله بعبارة وتحريمه وعرضه على الشيخ وتضمين ملاحظاته ، ثم تولى بنفسه التفسير بعد أن قضى الشيخ نحبه. ^{١٧٦}

٢- إنشاء جريدة إسلامية ، تدعو إلى الإصلاح ، وتبيّن للناس ما أشكل عليهم من دينهم ، وتبصرهم بواقعهم المختلف ، وتأخذ بيدهم إلى طريق التغيير والإصلاح ، وتنصدى لدعوات التضليل والتغريب ، وكان موقف الشيخ من هذا الاقتراح شبيهاً ب موقفه من اقتراح التفسير ، ولم يؤيده إلا بعدما تأكد من قدرة رشيد رضا على تمويلها ، واتفق معه على خطتها وبرنامجهما الذي ستسير عليه الجريدة ، فكان هذا بداية مجلة المنار ، التي أنارت العالم

^{١٧٥} - تاريخ الأستاذ: ٥٨٦/١
^{١٧٦} - تاريخ الأستاذ: ٧٦٧/١

الإسلامي ، وبدت ظمات الأفكار التي كانت تملأ الساحة الإسلامية ، واستمر وهجها لما يقرب من نصف قرن .^{١٧٧}

٣- وكان من مشاريع رشيد الإصلاحية التي ينوي تنفيذها في مصر إنشاء مدرسة إسلامية فيه ، تجمع ما بين العلوم الإسلامية الأصيلة والعلوم العصرية الكونية ، معأخذ الطلاب بال التربية الدينية ، حتى يتخرجو دعاة هداة مهديين ، يمارسون إصلاح مجتمعهم بحكمة ووعي وبصيرة ويدرك رشيد أنه استلهم هذه الفكرة من الإرساليات التبشيرية ، التي تدير في لبنان مدارس نظامية ، على أسس تربوية وإدارية تثير الإعجاب ، وفي هذا يقول : " كنت في أيام طلبي للعلم في طرابلس الشام ، أتردد بعد الخروج من المدرسة إلى مكتبة المبشرين الأميركيين ، أقرأ جريدة الدين وبعض كتبهم ورسائلهم ، وأجادل قسوسهم ومعلميهم ، وأتمنى لو كان للمسلمين جمعية كجمعياتهم ومدارس كمدارسهم ، ولما هاجرت إلى مصر وأنشأت المنار قررت عندي هذه الفكرة." ١٧٨

وافق هذا الاقتراح هو في نفس شيخه ، الذي انصرف إلى الإصلاح التربوي والتعليمي في آخر عهده ، لأنه كان يرى أن أقرب الوسائل وأرجاحها في إصلاح حال المسلمين في دينهم ودنياهم بما يعود به مجد الإسلام إصلاح التربية والتعليم ، وقد حاول تحقيق ذلك في الأزهر ، فلما خاب أمله فيه ، فكر في السعي لأنشاء كلية تغنى عن الأزهر في تخرج الدعاة الذين يقومون بخدمة الإسلام ، غير أنه لم يشهد ميلاد هذا الحلم الذي تحقق على يدي تلميذه بعد موته ببضع سنوات.

٤- غير أن رشيدا لم يستطع أن يتخذ من مجلته منبرا ينتقد منه سياسة الدولة العثمانية كما كان يخطط ، فقد صرفه شيخه عن هذا الأمر ، وكان رأيه في الشأن السياسي غير رأي شيخه ، الذي اكتوى بنار السياسة مرات ، ثم

^{١٧٧} - صدر العدد الأول من مجلة المنار في شوال ١٣١٥هـ - فبراير ١٨٩٨م ، وصدر العدد الأخير في شعبان

١٣٥٩ هـ - سبتمبر ١٩٤٠ م

١٧٨ - المنار: ٤ ٢/١/١

^{١٧٩} - توفي الإمام محمد عبده سنة ١٩٠٥م ، وأنشئت مدرسة دار الدعوة والإرشاد بمصر سنة ١٩١٢م

أخرجها من أولويات مشروعه الإصلاحي ، ولم يخض السيد رشيد في الأمور السياسية ، إلا بعد رحيل أستاذه ، وهذا ما يصرح به رشيد إذ يقول : "سالمنا السياسة فساورت وواثبت ، وأسلسنا لها فجمحت وتقحمت ، وكنا نهم بها في بعض الأحيان فيصدق بنا عنها الأستاذ الإمام ، ولم نزل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله".^{١٨٠}

وأما الشيخ محمد عبده فقد وجد في رشيد ضالته ، وجده شاباً نابها فاهما "مفعع العقل والفكر والخيال والوجدان ، يحب الإصلاح"^{١٨١} وجده يشاركه في الرأي ويشاكله في العلم والجهاد ، ويقاسمه هموم الأمة ، ويحسن الفهم عنه ، ويجيد الأداء عنه ، فتشبّث به ، وآثره على غيره ، وكان يقول فيه رداً على منافسيه عليه : "إن الله بعث إليّ بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري ، إن في نفسي أموراً كثيرة أريد أن أقولها وأكتبها للأمة ، وقد ابتنى بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد ، وإذا ذكرت له موضوعاً ليكتب فيه ، فإنه يكتب كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، وإذا قلت له شيئاً مجملًا ، بسطه بما أرتضيه من البيان والتقصيل".^{١٨٢}

ومن هنا ندرك أن السيد رشيداً لم يكن آلة في يد شيخه الإمام محمد عبده سخرها لنشر آرائه وبث أفكاره والترويج لفلسفته الإصلاحية ، ومنازلة خصومه ، وخصوم مشروعه الفكري والتربوي ، وإنما كان صاحب رؤية فكرية واضحة ، وكان يؤثر في شيخه بقدر ما كان لشيخه من تأثير عليه ، ومن ثم يصح القول إن أحدهما كان يكمل الآخر.^{١٨٣}

مارس السيد رشيد رضا نشاطه الإصلاحي بإشراف شيخه ، حتى إذا قضى الشيخ نحبه لم يهين التلميذ ، ولم تلن قناته ، بل حل محل شيخه وتبوأ مقعده في أستاذية الفكر الإصلاحي الإسلامي ، وواصل النضال والجهاد في مختلف المنابر العلمية والإعلامية والاجتماعية والسياسية ، وكان للمنار القدح المعلى

^{١٨٠} - السيد رشيد رضا ، ص ١٧٩

^{١٨١} - تاريخ الأستاذ: ١٠١٢/١

^{١٨٢} - السابق: ١٠١٨/١

^{١٨٣} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٨١

والنصيب الأولي في مشروعه الإصلاحي ، فإنه لم يمض على صدوره إلا مدة يسيرة : "حتى اشتهر واستجلب النظر ، وأخذت مقالاته ترن في الآفاق ، وصار مرجعا في الفتيا ، ولا سيما في تطبيق النوازل العصرية والأحداث الجديدة على الشريعة الإسلامية".^{١٨٤} استقر السيد رشيد رضا في مصر واستوطنه ، ولم يعد إلى وطنه أو يخرج إلى جهة أخرى إلا بنية الزيارة ، وقضاء حاجة شخصية ، أو السعي من أجل أمته ودينه ، فقد سافر إلى أهله عقب إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وجاب مدن الشام ، يدعو ويحاضر ويبشر بالإصلاح ، ويوجه الناس ، ثم انتقل إلى الأستانة ومعه مشروع طموح مشروع تأسيس كلية إسلامية على نفقة الحكومة التركية ، تخرج علماء ودعاة مؤهلين لحمل عبء المشروع الإسلامي النهضوي ، الذي كانت تدعو إليه مدرسة جمال الدين الأفغاني التي انتهى ميراثها إليه.

وكان إلى جانب هذا المشروع التعليمي يسعى إلى إصلاح ما بين العرب وأسيادهم الأتراك ، فقد كان الزعماء العرب يتوجسون خيفة من الإصلاحيين الأتراك ، وينظرون إليهم بعين الريبة إلى كثير من ممارساتهم ونشاطاتهم ، وكان رشيد رضا في هذه الفترة يرى أنه يمكن معالجة أوضاع البلاد المتردية والقيام بالإصلاحات المطلوبة في مختلف المجالات في ظل السيادة العثمانية ، دون أن يلجم العرب إلى الانفصال عنها. أقام رشيد رضا في الأستانة سنة كاملة ، يحاول إقناع المسؤولين بما قدم من أجله ، من الأمور التي تقييد الدولة قبل غيرها ، لكنه رجع من هذه الرحلة خائبا يائسا ، ومعروضا عن الدولة العثمانية ، لأنها لم تعد في نظره تحمل هم الأمة الإسلامية التي تحمل شعار سيادتها.^{١٨٥}

وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء ، سافر إلى سوريا ، وشارك في العمل السياسي للدولة العربية السورية الوليدة ، التي توج فيصل بن الحسين ملكا لها ، وهناك انتخب رئيسا للمؤتمر السوري (مجلس الأمة) ، ثم عاد إلى مصر بعد أن فجع السوريون والعرب باحتلال فرنسا لبلدهم ، وفي عام ١٩٢١ سافر مع مجموعة من السوريين إلى أوروبا ، لعقد مؤتمر احتجاج هناك ضد احتلال

^{١٨٤} - السيد رشيد رضا ، ص ١٤٦

^{١٨٥} - المنار: ٣٥/١١٤

فرنسا لسورسا ، وانجلترا لفلسطين ، وفي هذه الرحلة زار كلا من سويسرا وألمانيا بدعوة من صديقه الأمير شكيب أرسلان الذي كان يقيم هناك.^{١٨٦}

وكان آخر مرة زار الشام عام ١٩٣١م عندما لبى دعوة مؤتمر إسلامي حاشد دعا إليه تلميذه الفلسطيني الشيخ الحاج أمين الحسيني مفتى القدس الشريف. كما قام الشيخ رشيد بزيارة علمية إلى الهند في عام ١٩١٢م بدعوة من ندوة العلماء في لكونو ، لقي خلالها كثيراً الإكرام والاهتمام^{١٨٧} وفي طريق عودته من الهند مر بإمارتى مسقط والكويت.

وزار السيد رشيد رضا الحجاز حاجاً في عام ١٩١٦م ، والتقى في مكة ب الشريف الحسين الذي كان بصدده إعلان ثورته على الدولة العثمانية فأيده رشيد ، لأنَّه كان كما ذكرنا قد يُؤْسَ من نفع وبقاء هذه الدولة ، وزار الحجاز مرة أخرى للاشتراك في مؤتمر إسلامي عقد في مكة في عام ١٣٤٤م ، وكان ذلك في عهد سيادة الملك عبد العزيز بن سعود على الحجاز.^{١٨٨}

زواجه

تزوج السيد رشيد رضا ثلث مرات ؛ مرة وهو في بلده لم يهاجر ومرتين وهو في مصر ، وجميع زوجاته من منطقته. أما زوجته الأولى التي رزق منها بـطفلين ماتا في الصغر ، فقد فارقها لأنَّها رفضت أن تلتحقه في مصر بعد أن هاجر إليها ، ثم تزوج ثانية عن طريق وكالة بعض إخوانه ، ولم يدخل بها لأنَّها كالسابقة صعب عليها الانتقال إلى مصر ، ثم تزوج الثالثة عن طريق الوكالة أيضاً ، فحملت إليه ، ومنها رزق أولاده الثلاثة الذين تركهم على قيد الحياة ، وكلهم كبروا وتزوجوا بعده.

^{١٨٩}

مات السيد رشيد رضا بعد حياة حافلة بالجهاد والكافح والعطاء ، مات في الطريق بين السويس والقاهرة ، وهو عائد من توديع الأمير سعود بن عبد العزيز ،

^{١٨٦} - السيد رشيد رضا: ١٥٧

^{١٨٧} - السابق: ٢٢٥/٣/١٥

^{١٨٨} - المنار: ٣٧/٥/١٩

^{١٨٩} - السابق: ٢٣٧/٣/١٤ ، ٤٠٠/٥/١٦ ، ٢٣٧/٣/١٤ ، رشيد رضا صاحب المنار: ٢٢٠

وكان موته في مساء يوم الخميس ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ (٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٥ م) وعمره اثنان وسبعين عاماً ، ودفن في القاهرة بجوار ضريح شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده رحمهما الله رحمة واسعة. ^{١٩٠}

صفاته

سبقت الإشارة إلى التربية الروحية القوية التي صاحبت رشيد رضا منذ طفولته ونشأته الأولى ، والتي نزعت به إلى التصوف الموغل الذي ورثه عن أسرته وأدى به إلى أن يعتزل عن الناس ، وينقطع للعبادة في خلوة خاصة اتخذها في ركن من دار أهله ، وما كان منه من المجاهدات والرياضات الصوفية التي أخذ بها نفسه ، حتى عوّدتها على مداومة الطاعات ، والصبر على ملزمة العبادات ، فكان من ثمار ألفة وجدانه للعبادة ، ونشاط أعضائه فيها من الصغر أن خفت عليه في الكبر. ^{١٩١}

هذه أولى الصفات التي تطالعنا في سيره السيد محمد رشيد رضا ، حيث كان عابداً ورعاً نقياً ، يتهجد في الليالي ، ويتلو القرآن بتدبر وخشوع ، ويغلبه البكاء إذا جهر بالقراءة ، ويفهم من بعض خطاباته إلى صديقه الأمير شكيب أرسلان أنه كان يختم القرآن في كل ثلاثة أيام. ^{١٩٢}

ومع أن موقف رشيد من الصوفية قد تغير ، وتحول إلى السلفية ، إلا أنه لم يناسبهم العداء ، ولم يحارب إلا المتطرفين منهم ، ولم ينبذ كل ما ورثه منهم بل كان يميل إلى مذهبهم في الزهد عن الدنيا ، واحتقار زخارفها من حب الرئاسة والجاه والمال ، والتقرب إلى الملوك والحكام لنيل الحظوة عندهم وكان شديد التوبيه بالإخلاص ، ويعنى به دائماً في كل ما يعلمه أو يقوله ، ويدرك أنه ما طلب العلم لغرض دنيوي ، ولا لكي يوصله إلى منصب ، أو ينيله حظوة عند أحد ، أو يكسبه منزلة بين مجتمعه ، وإنما ليقرئه إلى الله زلفى ، ويقول: "وإن لصحة القصد ، وتوجه الإرادة إلى الأمر ، أعظم التأثير في النجاح والفوز ، ولا شيء أفعى لطالب العلوم الدينية من الإخلاص لله تعالى فيها ، قصد تزكية نفسه وتنقيتها بمعرفته الصحيحة

^{١٩٠} - السابق: ١٥٣/٢٣٥ ، السيد رشيد رضا: ٢١٣

^{١٩١} - السيد رشيد رضا: ٤٧

^{١٩٢} - السابق: ٣٦٣

وعبادته المشروعة ، ثم تعليم الناس وهدايتهم وأن يكون قدوة لهم في الحق والخير ."

١٩٣

ومما يتصل بالإخلاص والرغبة إلى الله ، ولو عه بالإصلاح ، الذي كان دينه في حله وترحاله ، في سره وعلانيته ، يمارسه أينما كان ، ويقدمه على كل شيء ، "إليه قصد حين طلب العلم ، وحين عظ ودرس وخطب وكتب ، وحين الف وأنشأ ، وحين حاور وناظر وجادل ، وحين اشتغل بالصحافة والسياسة وغيرها من شؤون الحياة ."^{١٩٤} ومن صفات رشيد الحميّدة نشاطه العجيب في العمل وتقانيه فيه ، وقوّة صبره عليه ، وحسن استغلاله لوقته ، فقد كان ينصرف إلى عمله انصرافاً كلّياً فإذا جاءه زائرون وهو منكب على عمله أتّاب بعض أهله ومعاونيه عنه ليغنوه بقدر الإمكان عن مقابلتهم ، وحال ذلك بينه وبين استيفاء أساليب المجاملة في التحية والتسليم ، حتى اتهمه بعض من لا يقدر ظروفه من أصدقائه وأقربائه بما هو براء منه^{١٩٥} بل بلغ من حرصه على استغلال الوقت "في التأليف والتصحيح أن يكتب في أثناء محادثه مع الناس ، ولا تقطع المحادثة عن سلسلة فكره ."^{١٩٦} وكان يكتب أصول المنار في أثناء أسفاره إلى الشام والأستانة والهند والجزيرة العربية وأوروبا من تفسير وغيره ، ويرسلها إلى المطبعة في مصر .^{١٩٧} وكان من نتائج إصراره على ملأ وقته بالعمل النافع كثرة الإنتاج ، وغزارة العطاء ، وحسن البناء في كثير من المجالات ، "وحسب رشيد رضا أنه استطاع - وهو فرد - أن يصدر من مجلة المنار ما يزيد على أربعة وثلاثين مجلداً تزيد صفحات كل مجلد - في الغالب - على ألف صفحة ."^{١٩٨}

ويجيّل الأمير شبيب أرسلان هذه الصفة في رشيد رضا فيقول : " ولم أكن أرى في عصرنا هذا أصبر على الكتابة ، وأجلد على الشغل ، وأسأيل قلماً ، وأسرع خاطراً من الشيخ رشيد : فلو وزعنا ما كتبه بقلمه وبخط يده على خمسين كاتباً ،

^{١٩٣} - السيد رشيد رضا : ١٣٥

^{١٩٤} - رشيد رضا صاحب المنار : ١٨٧

^{١٩٥} - المنار : ٤٨٦/٦/٣٥

^{١٩٦} - السابق : ٤٨٦/٦/٣٥

^{١٩٧} - السابق : ٤٨٦/٦/٣٥

^{١٩٨} - الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: محمد بن عبد الله السلمان ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، إدارة الثقافة والنشر ١٩٩٣ ، ص ٤٤

لأصاب كلاماً منهم قسط ، يجدر بأن يجعله في صف المؤلفين العاملين. وسائل هذا القول الآن ليس من يأخذ العجب في هذا الموضوع لأدنى شيء ، بل هو معروف بأنه لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفي مكتوب في دور السنة ، فيجيب عليها كلها ، ويكتب زيادة عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالة في دور السنة ، وينشر من التأليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفاً ، فلست إذا لأغبط أحداً من الخلق على شأو بعيد في الجد ، ولا على محصول غزيز من ثمرات الأقلام ، ولكنني لا أدعى مباراة السيد رشيد رضا في هذا الشأو.^{١٩٩}

ويكتب إليه صديقه عبد الحميد الزهراوي ، فكان مما قال : "كثرة أشغالك تحتاج إلى خمسة رجال ممن همهم قربة لهمتك ، أما من الكسالى فلا يعنيك العشرون منهم".^{٢٠٠}

ومن صفات رشيد الظاهرة ميله الشديد إلى الاستقلال الفكري ، والنفور من التقليد ، ومن والتبعية العمباء التي لا تستند إلى دليل وإلى برهان ساطع ، وبرزت لديه هذه الخاصية في أول حياته العلمية ، فكان لا يتحمل مناقشته إلا أستاذه ومربيه الشيخ حسين الجسر ، وعندما نصحه شيخه هذا بترك التعرض للصوفية ، طالبه بالحجة ، فقال الشيخ : "أنت أهل علم وصاحب حجة ، وليس عندي لك غير ما قلته".^{٢٠١} ولما هاجر إلى مصر ، وعرض خدمته على شيخه محمد عبده ، اشترط عليه الأئم يجره عن السؤال والمناقشة فيما يستشكله ولا يرى وجه الصواب فيه^{٢٠٢} ومن آثار استقلاله الفكري كثرة النقد ، والصراحة في المناقشة ، وطلب الحق أينما كان ، وعدم التسليم بما لا يقتنع به ، وكان يطالب الآخرين بنقده ونقد آثاره العلمية وآرائه السياسية والاجتماعية ، وكان يدعو قراء المنار في كل سنة جديدة إلى نقده ، وذلك كقوله : "إننا نذكر قراء المنار ، من أهل العلم الديني ، وأولي الرأي في مصالح الأمة ، بما التزمنا الدعوة إليه في فاتحة كل مجلد ، من الكتابة إلينا بما يرون منتقداً في المنار ، لمخالفته للحق أو للمصلحة العامة ؛ لإعانتنا على هذه

^{١٩٩} - السيد رشيد رضا: ١٦٢، وانظر كذلك: ش Kirby أرسلان مختارات نقدية في اللغة والأدب والتاريخ: ٥

^{٢٠٠} - رشيد رضا صاحب المنار ، ص ١٦٣

^{٢٠١} - السيد رشيد رضا: ٩٨

^{٢٠٢} - تاريخ الأستاذ: ١٠٠٣/١

الخدمة ، وقياماً بما شرعه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ضاق الجزء الأول عن هذه الدعوة.^{٢٠٣}

ورغم نقده الكثير وحبه للاستقلال الفكري ، فقد كان يكره الخلاف المفرق للصف المشتت للوحدة ، الذي يقوم على التعصب المذهبى والتشيع الحزبى ، ولا يرى أى سبب للافترق وعدم التعاون ، بل يدعو إلى التحاكم إلى قاعدة المنار الذهبية : "أن نتعاون على ما نتفق عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه".^{٢٠٤} كان رشيد رضا عزيزا وأبيا ، وكان ينأى بنفسه عن كل ما قد ينال من كرامته فعاف عن خدمة الحكومات ، واعتمد على نفسه في الكسب منذ شبابه فلم يمد يده إلى أحد ولو كان أبا ، وفي هذا يقول : "وكان لي كسب أدبي يفي بحاجتي الشخصية ، حتى ثمن الكتب العلمية ، وهو كتابة الحجج الشرعية والعقود ، ومنه جمعت نفقة السفر إلى مصر ، ولم أطلب من والدي شيئا ، وكان لي قطعة أرض أملكتها أيضا ، ولم أحتاج إلى بيعها".^{٢٠٥} وفي مصر كان يعتمد في إنفاقه الذاتي ، وفي إنفاقه على مشاريعه الدعوية على كسبه الخاص ، من عائدات مطبعة ومجلة المنار ومن ريع مؤلفاته العديدة ، وكان يتغنى من أن يقبل هبة أو عطاء من أحد . وحدث أن أرسل إليه أحد الأمراء مبلغا من المال ، يستعين به على أداء فريضة الحج ، فرض قبوله ، وقال له أنا لا أقبل عطاء دون مقابل كما رد مبالغ جاءته من أميرين من أمراء الخليج نظير خدمة نشر اعتبارها من المصالح الإسلامية العامة.^{٢٠٦} وكان مع ذلك كريما مضيافا ، كثير البذل لماله في أوجه البر والخير ، ينفق بسخاء على طلبة العلم الذين كان يجلبهم من البلاد الإسلامية النائية ؛ من الصين وإندونيسيا ، والقوقاس ، والمغرب ، وغيرها من البلاد الإسلامية التي بحاجة إلى تعليم أبنائها ، لتواجه بهم الحملة الاستعمارية التبشيرية التي هجمت عليهم ، كما كان "مواسيا بماله القليل أهل الحاج من الأسر المستورة ، مساعدا العاملين في سبيل أمتهم وقومه ، فكم ساهم في نفقات الوفود والجمعيات والمؤتمرات العربية السياسية".

^{٢٠٣} - المنار: ١٦٠/٢/٢٥

^{٢٠٤} - السابق: ٤٨٧/٦/٣٥

^{٢٠٥} - تاريخ الأستاذ: ١٠٠٩/١

^{٢٠٦} - السابق: ١٠١٠/١

٢٠٧ ومن كرمه وسخائه كثرة ، تساهله مع مشتركي مجلة المنار ، الذين لا يدفعون الاشتراك المستحق عليهم ، فلا يوقف المجلة عنهم . يقول شبيب أرسلان : " وقد أجمع كل من عرفه أنه من أنسخى الناس يدا ، وأكرمهم مهزة ، وأحسنهم ضيافة ، وآنفهم طعاما ، وأكثرهم رمادا وكان كرمه طبعا لا تطبعها وسجية لا تصنعا ".^{٢٠٨} لكنه كان بخيلا وشحينا بأصدقائه ، يوثر رضاهم على سخطهم ، ويحرص على صلتهم مهما فرطوا في حقه ، وغالوا في جفائه كما كان بارا بأسانته ، عظيم الإجلال والتوقير لمعلميه ومربيه ، وكان بره بأستاذه الإمام لا يعادله شيء ، " فقد كان يعظم من قدر الشيخ محمد عبده التعظيم الذي زاد كثيرا في شهرته ، وهو الذي أطلق عليه لقب الإمام ".^{٢٠٩} بل إن "إمامية الشيخ محمد عبده لم تتأسس في الحقيقة إلا على صدور مجلة المنار ".^{٢١٠} وكان الإمام محمد عبده على دراية بهذا الأمر ، ولذلك قال في معرض الدفاع عن رشيد : " وقد رأيت في سفرى هذا (سفره كان إلى تونس والجزائر) من آثار قلمه وتأثير مناره ، ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لي أحزاها ، وأوجد لي تلاميذ وأصحابا .. وهو قد عمل لي كل شيء ، عمل لي ما يعلمه أحد من ربىهم وعلموهم ومن التزمت طول حياتي خدمتهم ".^{٢١١}

ومن صفات رشيد البارزة الواضحة صراحته في الرأي ، وعفويته في تناول الأمور ، مع ميله الشديد إلى الاستقصاء في التفاصيل ، التي قد لا تهم بل تضر وهذا ما حصل في رأيي ، عندما دون رشيد سيرته الذاتية في كتابه "أنا والازهر" إذ تحدث عن نفسه حديثا مستفيضا ، تعرض فيه لما قيل في ذكائه وصواب رأيه ، وزهده وكراماته وغير ذلك من شئونه وشئون أسرته ، مسترسلًا في تفاصيل ودقائق عن حياته كان الأولى في نظر بعض الباحثين^{٢١٢} طيها وعدم البوح بها ، لأنها تدخل في نظرهم في باب الفخر ومدح النفس ، غير أن الذي ينفي عنه هذه التهمة ما عرف عنه من الولوع بذكر التفاصيل والعناية بجزئيات الأحداث ، كقوله وهو

^{٢٠٧} - المنار: ٤٨٤/٦/٣٥

^{٢٠٨} - السيد رشيد رضا: ٢٧١

^{٢٠٩} - السابق: ٢٧٣

^{٢١٠} - التفسير ورجاله: ١٧٢

^{٢١١} - تاريخ الأستاذ: ١/١٠١٨

^{٢١٢} - رشيد رضا صاحب المنار: ١٢٩ ، ١٢٣

يتحدث عن أهله في "القلمون": "وقد اشتهروا بالشرف وحسن السيرة ، قلما يعرف عنهم منكر من الكبائر إلا قليلا من سرقة الفواكه أو التضارب بالعصي في بعض المشاجرات ، وما يقرب من ذلك." فيعلق عليه الأمير شكيب أرسلان بقوله : "انظر إلى عادته رحمه الله في التدقيق ، وتأمل كيف أنه لم يفلت حتى هذه." ^{٢١٣} والدكتور أحمد الشريachi صاحب المؤاخذة السابقة على رشيد رضا يقر بوجود هذه الصفة الاستقصائية في رشيد ، وذلك حيث يقول معلقا على كلام لرشيد في مولود له : "وهكذا يبدو رشيد دقيقا في الوصف ، فيورد الكثير من التفاصيل ، كلون الطفل ونظرته وإشارته ، وهذه العناية بالتفاصيل ظاهرة عند رشيد." ^{٢١٤} وما أحسن قول الأستاذ أبي الحسن حفظه الله : وكانت فيه على وفرة عقله وكثرة تجاربيه طفولة العظاماء ، يصدق كل الناس ويثق بهم." ^{٢١٥} فلا عجب في أن يحسن رشيد ظن قرائه فيما يورد عليهم من التفاصيل التي يحتفل لها في كل كتاباته ، وأن يتوقع منهم القبول الحسن ، والتسليم البريء ، لأنه ينظر إلى الآخرين بمرأة نفسه.

ويجمل الأمير شكيب أرسلان الذي صاحب رشيدا مدة أربعين سنة ما عهد فيه من الصفات الحميدة فيقول : "إن الذي كان يزين علم الشيخ رشيد وأدبه هو ما تخلى به من الأخلاق الكريمة ، والمنازع العالية .. فكان من أعظم الناس خلقا وأمتنهم عهدا وأحلهم طبعا وأصفاهم قلبا وأحسنهم وفادة وأصدقهم بشاشة وأكملهم إخلاصا ، وكانت فيه صفات العلماء والأمراء معا ، وكان مع وداعته وقورا وفي تواضعه كبيرا ، وكانت رقة قلبه في مواطن الحنان تدل على بلوغ الإنسانية فيه مثلها الأعلى ، قلما اجتمع العلم والخلق اجتماعهما في الشيخ رشيد ، وقلما جرى العقل والقلب شوطا واحدا كما جريا في هذه الفطرة الشريفة .." ^{٢١٦}

يذكر السيد رشيد رضا أن الأستاذ الإمام محمد عبده كان ينتقده ومجلته "المنار" في أمور منها الصراحة المفرطة في تناول الأمور وشرح القضايا ، ومناقشة

^{٢١٣}- السيد رشيد رضا: ^{٢٤}

^{٢١٤}- رشيد رضا صاحب المنار ، ص ١٧٢ ، ٢٢٦ . والجدير بالذكر أن جميع الملاحظات السلبية التي استنتاجها الشريachi من كلام رشيد رضا في هذا الكتاب نجده يقول مثلا في شكيب أرسلان في كتابه شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام. انظر فيه مثلا : ^{٢١٤} ، ^{٢١٦} ، ^{٢١٧} ، ^{٢٢٢} ، ^{٢٢٨} ،

^{٢١٥}- السيد رشيد رضا ن ص ^{٢٧٤}

^{٢١٦}- رشيد رضا صاحب المنار : ^{٢٥٨}

الأفكار ، وكان يقول له : " إنك كثيرا ما تبرز الحق عريانا ليس عليه حلة ولا حلية يزيشه للناظرین ، وبهون قبوله على المبطلين ، فينبغي أن تذكر أن الحق ثقيل ، وقلما يكون للداعي إليه صديق ، وأنه لا بد من شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد إعراضهم عنه ".^{٢١٧}

كان في طبع رشيد حدة وقلة تحمل لمن يخطئ عنده أو يلاحظ فيه ما لا يستسيغه ، فلا يملك نفسه عنئذ ، بل يزجره ويويخه. يقول أحد تلاميذه وهو الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي : " إنه مرشدی وأستاذی ولا أجد له عیبا سوى الحدة التي كانت تعتریه أحيانا ، لأن يسمع سؤالا غير مناسب مثلا ، فيحتد على السائل ، وكان سريع الغضب سريع الرضى ".^{٢١٨} وتصفه بنته " بأنه كان طيب القلب ، متسامحا متساهلا كريما وأنه كان يسرف في إقامة المآدب لأصدقائه ومعارفه .. وكان عیبه الوحید أنه سريع الغضب ".^{٢١٩}

^{٢١٧} - السابق: ١٧٨

^{٢١٨} - رشيد رضا صاحب المنار: ٢٠٣

^{٢١٩} - السابق: ١٢٢٥

المطلب الثاني : حياته العلمية

تعليمه النظامي

عندما بلغ السيد رشيد رضا مبلغ التعليم الحق بكتاب القرية ، فتلقى فيه القرآن الكريم ، وقواعد الحساب ، ومبادئ الفقه واللغة العربية ، ولم يواصل تعليمه الابتدائي مباشرة بعد تفرغه من الكتاب ، لعدم وجود مدرسة ابتدائية في قريته "القلمون" ولم تطب نفس والده عنه ، بإرساله إلى المدرسة الابتدائية في طرابلس القريبة ، كعادة أهل القرية والقرى المجاورة لطرابلس ، لأن رشيدا كان صغير السن ، وكان أبوه شديد الحرص على تربيته وتنشئته تربية تليق بمقام الأسرة الروحي ، فخاف عليه من مخالطة أبناء المدن ، قبل أن يشتت عوده ، ويكملا رشدته ، فظل في البيت فترة ، منقطعا عن التعليم النظامي ، وفي هذه الفترة مال رشيد إلى القراءة الحرة والمطالعة الخاصة ، فعكف على مكتبة الأسرة ، وأولى عناية كبيرة إلى كتب الأدب والتصوف.

٢٢.

ثم التحق رشيد بالمدرسة الرشدية الابتدائية الحكومية في طرابلس ، وقضى فيها سنة ، ثم رغب عنها ، لأن الدراسة فيها كانت باللغة التركية ، بعد أن درس فيها شيئا من الصرف والنحو والحساب ومبادئ الجغرافية ، والعقائد والعبادات. ^{٢٢١} تحول رشيد إلى مدرسة خاصة أسسها شيخه حسين الجسر ، تدعى المدرسة الوطنية الإسلامية ، وهي مدرسة تفوق المدرسة الرشدية مستوى ، وكان التدريس فيها باللغة العربية ، إضافة إلى تدريس كل من اللغة التركية والفرنسية ودرس في هذه المدرسة العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية.

تعليمه غير النظامي

لم يكتب لرشيد الاستمرار في إكمال تعليمه النظامي في المدرسة الإسلامية الوطنية ، التي كان يديرها الشيخ حسين الجسر ، العالم الطرابلسي المستثير ذو الرؤية الإصلاحية ، الذي سعى إلى تأسيس هذه المدرسة وتولى إدارتها ل يجعلها منبرا

^{٢٢٠} - المنار: ٢١/٣/١٦٠
^{٢٢١} - السيد رشيد رضا: ٣٥

علمياً يزوج بين العلوم الإسلامية الأصيلة ، والعلوم العصرية الضرورية ، إذ تم إلغاء المدرسة من قبل السلطات العثمانية ، لأنها في نظرها لا تستوفي معايير المدارس الدينية ، ولا تطبق عليها شروطها ، لأنها لا تسير على منهاج المدارس الدينية التي ترعاها الحكومة ، وتحظى بدعمها ومساعدتها ، فتوقفت المدرسة وتشتت طلابها ، حيث التحق بعضهم بمدارس بيروت المختلفة ، وتحول الآخرون إلى المدارس الدينية في طرابلس.^{٢٢٢} أما رشيد رضا فلم يلتحق بأي مدرسة نظامية بعد ذلك ، بل شرع في طلب العلم على طريقة القدماء ، وأخذ يحضر الدروس المختلفة على أجيال علماء بلده مثل الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابة والشيخ عبد الغني الرافعي^{٢٢٣} والشيخ أبي المحسن القاوقجي.^{٢٢٤} كان للشيخ حسين الجسر أكبر الأثر في تربية وتنشئة وتعليم السيد رشيد رضا فكان مدرسه منذ المرحلة الابتدائية ، حيث كان في مدرسته ، وكان شيخه الأول الذي حمل رشيد عنه معظم العلوم الشرعية والعلقانية التي برع فيها ، وكان مرشدته في طريق الإصلاح ، ومدرسه على أسلوب الكتابة والتأليف ، وهو الذي خرجه في النهاية ، وزوده بشهادة العالمية وإجازة التدريس ، وفي هذا يقول رشيد : "كتب لي أستاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر في شهادة العالمية أو (إجازة التدريس) أني طلبت العلم عنده ثمانين سنين تلقيت فيها المنقول والمعقول".^{٢٢٥}

ومن أساتذته الذين كان لهم بالغ الأثر في تعليمه وتخريجه ، الشيخ محمود نشابة الذي أخذ عنه علم الحديث والفقه الشافعي - وكان رشيد شافعي المذهب - وكان شديد الإعجاب بقوه علمه ، وتفوقه على أقرانه ، وتمكنه في الفنون التي يقوم بتدريسها. يقول رشيد في ذلك : " وقد أدركته في أوائل الطلب ، وقرأت عليه الأربعين النووية ، وأجازني بها ، قبل الشروع في طلب العلم^{٢٢٦} ثم كنت أحضر درسه لشرح البخاري في الجامع الكبير ، وأقرأ عليه صحيح مسلم وشرح المنهج بداره ، وحضرت عليه طائفة من شرح التحرير ، وهو في فقه الشافعية كالمنهج ، وما عرفت قيمته ،

^{٢٢٢} - المنار: ١٦٠/٣/٢١

^{٢٢٣} - السابق: ١٥٤/٣/٢١ ، ١٥٦ ، ١٥٩

^{٢٢٤} - السيد رشيد رضا: ٣٩

^{٢٢٥} - السابق: ١٣٤

^{٢٢٦} - أي قبل دخوله في أي مدرسة.

وتفوّقه على جميع من لقيت من علماء الإسلام في علومه ، إلا بقراءة صحيح مسلم عليه ، فإنني كنت أقرأ عليه المتن ، فيضبط لي الرواية أصح الضبط ، من غير مراجعة ولا نظر في شرح ، وأسئلته عن كل ما يشكل على من مسائل الرواية والدرية ، فيجيبني عنها أصح جواب ، وكنت أراجع بعض تلك المسائل بعد الدرس في شرح مسلم وغيره ، ولا أذكر أنني عثرت له على خطأ في شيء منها".^{٢٢٧}

وأخذ الحديث كذلك عن كل من الشيخ عبد الغني الرافعي ، الذي حصر عليه جزءا من كتاب نيل الأوطار للشوكاني ، والشيخ أبي المحاسن محمد القاوقجي الذي تلقى عنه كتابه في الأحاديث المسلسلة وبعض كتابه "المعجم الوجيز"^{٢٢٨} كما تلقى عنه كذلك بعض الكتب الصوفية ، مثل كتاب دلائل الخيرات ، وحصل منه إجازة عليه.^{٢٢٩}

ومن أجل أساتذته وأعظم معلميه ، الشيخ الإمام محمد عبده ، الذي هاجر إلى مصر من أجله ، ليتلقى عنه ما ورثه من الحكمة من موقع الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، فقد كان رشيد معجبا بالسيد جمال الدين الأفغاني ، بل عاشقا له على حد عبارته ، بعد أن عرفه عن طريق مجلة "العروة الوثقى" فكان يتمنى لقاءه والأخذ عنه ، وكتب إليه بذلك كالمستاذن منه ، غير أن هذا الحلم لم يتحقق لرشيد ومات الأفغاني قبل أن يسعد رشيد بلقائه ، فعزم على الهجرة إلى مصر ، واستدرك ما فاته بملازمة تلميذه وخليفته الشيخ محمد عبده ، وفي هذا يقول رشيد : "وكنت قبل ذلك أمني نفسي بالالتحاق بالسيد الحكيم ولزامه ، ومرافقته في ترحاله ومقامه ، فلما توفاه الله تعالى إليه نضيت عن رداء التمني والتوانى ، وقلت : لئن فاتني لقاء المعلم الأول فلن يفوتي لقاء المعلم الثاني".^{٢٣٠} ومع أن رشيدا لقي الشيخ محمد عبده في لبنان أيام طلبه للعلم ، إلا أنه لم يتلذذ عليه ، ولم يتلق عنه شيئا ، لأن لقاءه به كان عرضا في طرابلس ، بينما كان الإمام يقيم في بيروت فترة نفيه

^{٢٢٧} - المنار: ١٥٤/٣/٢١

^{٢٢٨} - السابق: ١٥٨/٣/٢١

^{٢٢٩} - السابق: ٤٢٨/٦/١٤

^{٢٣٠} - السابق: ٣٧٧/٧/٢١

عن مصر بعد الثورة العربية ، وكان يلقي دروسا في المدرسة السلطانية في بيروت ، ولم يتمكن رشيد آنئذ من الارتحال إليه و التلقي عنه.^{٢٣١}

فلما اجتمع به في مصر تتمذ عليه - وإن كان ناضجا - وأخذ عنه التفسير الذي بدأه الإمام باقتراح من رشيد ، وكان رشيد يكتب ملخص ما فهمه في كل مجلس ، ثم يبسطه ويضيف من عنده ما يراه مكملاً للمعنى ، ثم يعرضه على الشيخ ليراجعه ، ثم ينشره في مجلة المنار ، فما توفي الأستاذ استقل "الشيخ رشيد بأعباء التفسير وحده ، فأكمل منه إلى نهاية الجزء الثاني عشر عند قوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)^{٢٣٢} في سورة يوسف ، فكان ما كتبه الشيخ رشيد مستقلاً أكثر من سبعة أجزاء ، وما كتبه اعتماداً على استاذه واستمداداً منه أقل من خمسة أجزاء ، فكان حظه في المجموع أغلب ، وكان بانتساب هذا التفسير إليه أحق.^{٢٣٣}

ونصّ رشيد من بين هؤلاء الأساتذة على اثنين ، يعيده إليهما أكبر الفضل في تعليمه و تحريره ، وحصل منهما الإجازة ، وهما الشيخ حسين الجسر ، والشيخ محمود نشابة. يقول في معرض حديثه عن شيخه حسين الجسر : " وهو الأستاذ الذي تلقينا عنه العلوم العقلية والنقلية ، ما عدا الحديث وفقه الشافعية ، فإننا أخذناهما عن شيخ الشيوخ محمود نشابة (رحمه الله) وعلى يد هذين الشيفين تخرجنا ، ومنهما أخذنا الإجازة بالتدريس."^{٢٣٤}

إن ما توافر لرشيد رضا من العوامل النادرة الاتفاق ، دفعه إلى أن يصرف كل جهده إلى العلم فكان يملاً وقته إما بحضور درس على شيخ ، وإما بالمطالعة والبحث ، وإما بالدعوة إلى الله ، وبممارسة الإصلاح بالتعليم والإرشاد وكان لحسن قصده في طلب العلم ، وحبه في نشره ، أثر حميد في بركة علمه ، فإنه يقول : "إنني طلبت العلم بوازع من نفسي ، لتمكيلها بالمعرفة والعمل ، لا لأجل الانتفاع به في تحصيل مال أو جاه ، وقد عرض على الدخول في خدمة الحكومة أكبر أصحاب النفوذ فيها ، من أصدقاء والدي فأبى. بدأت بمطالعة الكتب التي أراها

^{٢٣١} - تاريخ الأستاذ: ٣٩٠/١

^{٢٣٢} - سورة يوسف: آية ٥٢

^{٢٣٣} - التفسير ورجاله: ١٧٤

^{٢٣٤} - المنار: ٧٩٩/٢٠/٧

عندنا ، و كنت كلما أفتت شيئاً في نفسي ، أجد ارتياحاً فيها أن أفيده غيري. " ^{٢٣٥} ويقول أيضاً : " ولما حضرت دروس السنوسية الصغرى في المدرسة ، واعتقدت أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد ما هو مقرر فيها من الصفات العشرين وغيرها ، تعبت تعباً شديداً في محاولة إفهام العوام فلسفة السنوسي الأشعرية ، فتعذر علي ذلك ، حتى كان بعضهم يبكي ، إذا لم يفهم ما أقرره ، ويخشى أن يكون كافراً بعدم فهمها ، ثم من الله علي بالعلم ، بأنه لا يجب على كل مسلم التقيد بها ، وأن فيها خطأ ، وأن الناس مغرورون بها ، فكتبت لهم عقيدة سهلة الفهم والعبارة ، لا يزال يحفظها الكثيرون منهم. " ^{٢٣٦}

تكوينه العلمي

استوعب رشيد المقررات المدرسية في مدة وجيزة ، حتى ساوي في سنة دراسية واحدة طلب الفصل السابع الذين قضوا في مقاعد الدراسة سبع سنوات ^{٢٣٧} ثم وجه عنايته إلى هضم العلوم الإسلامية ، بمختلف فنونها من عقيدة وفقة وحديث وأدب وتاريخ وتصوف وأخلاق ، فأخذ نفسه بحفظ القرآن دون أستاذ يعيد عليه ما حفظه ، وذلك بعد أن تلقى القرآن الكريم في الكتاب ، ثم اتجه إلى الأدب بمحض الميل الفطري ، فطالع كثيراً من مراجعه ، وحفظ كثيراً من نصوصه . يقول رشيد : " فكنت من أول النساء صوفياً عبادة وتخلاقاً مع ميل شديد إلى الأدب ، فطالعت بعض كتبه ، وحفظت كثيراً من الشعر بغير تعمد ولا قصد ، ومنه قصيدة الشهير زوري في التصوف ونونية ابن زيدون في الغزل ، وأكثر ما كتبت بخطي من مختاره في الإلهيات والزهد والرائق و مدح النبي (ص) " ^{٢٣٨} وذكر أنه درس من متون اللغة المقامات الحريرية ، و مقامات بديع الزمان الهمذاني ، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ، و مقصورة ابن دريد التي عارضها كما سيأتي ، و ديوان الباكرة لشكيب أرسلان ، كما حفظ ألفية ابن مالك و درس شروحها ، ومن الكتب الفقهية التي درسها

^{٢٣٥} - المنار والأزهر: ١٧١

^{٢٣٦} - السابق: ١٧٧

^{٢٣٧} - السابق: ١٤٤

^{٢٣٨} - السابق: ١٤٠

شرح المنهج في المذهب الشافعي ، وكتب الشعراي كالميزان ، واليواقيت والجواهر ، والموافقات للشاطبي ، ودرس معظم كتب التفسير ، وذكر أن الشيخ محمد عبده زارهم في المدرسة في طرابلس فسأل الطلاب إن كانوا يدرسون تفسير القرآن ، فكان الجواب بالنفي ، ثم سأله رشيد الشيخ : " أي التفاسير أذعن لطلبة العلم ؟ قال الكشاف . قلت : ولكن فيه كثيرا من نزعات الاعتزال . قال تلك مسائل معروفة ، لا تخفي على طالب التفسير ، الواقف على أقوال الفرق ، ومذاهب السنة فيها ، وإنما فضله لدقة في تحديد المعاني ، ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة ".^{٢٣٩} فكان هذا تحفiza لرشيد على الاهتمام بتفسير القرآن ، فلما هاجر إلى مصر كان أهم ما شغل به أن يحمل الأستاذ الإمام على تفسير القرآن ، وأعانه على تدوينه ونشره في المنار ، ثم خلفه عليه بعد موته . ثم نجده يذكر بعض ما درسه من كتب العقيدة والزهد والمنطق والأخلاق كجودة التوحيد ، والسنوسية الصغرى ، والفتוחات المكية ، ومنت السلم في المنطق ، وإحياء علوم الدين ، ومحك النظر ، وفيصل التفرقة بين الإسلام والنصرانية ، وكثير من كتب الغزالى ، والزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمي ، وتهذيب الأخلاق لابن مسكونيه .^{٢٤٠} وبعد أن تبحر في علم الحديث ، وقوي حسه النقدي ، اطلع على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، فمال إلى مذهبهما في تقرير العقائد ، وعكف على دراسة كتبهما ، ونشر كثيرا منها ، كما نشر كثيرا من كتب السلف العقدية ، مثل كتاب الاعتصام للشاطبي .^{٢٤١} ثم كان لاتصال رشيد بالملك عبد العزيز بن سعود ، وتتوافقهما في كثير من الأمور ، ومنها التوافق في المذهب السلفي ، أثر كبير في تعميق وتضخيم رصيد رشيد في الدراسات الإسلامية ، حيث أنسد إليه ابن سعود نشر كتب المذهب الحنبلی بما في ذلك كتب ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وكتب علماء النجد ، واشترط عليه تصحيح تلك الكتب قبل نشرها .^{٢٤٢}

^{٢٣٩} - تاريخ الأستاذ: ٣٩٠/١

^{٢٤٠} - المنار والأزهر: ١٤٠ وما بعدها

^{٢٤١} - السلفية حدودها وتحولاتها: د. فهمي جدعان ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون

والأداب ، الكويت ، م ٢٦ ، العددان ٤ ، ٤ ، ١٩٩٨ م ، ص ٩٩

^{٢٤٢} - السيد رشيد رضا ، ص ٧٥٣

فأتاح هذا للسيد رشيد فرصة إضافية ، للاطلاع الواسع على مصادر العلوم الإسلامية ، ولا ننسى أنه كان لرشيد رضا مطبعة تجارية ، هي مطبعة المنار في وقت كانت المطبع نادرة جدا في المناطق الإسلامية ، وكان رشيد رضا يتولى مهمة المصحح في المطبعة ، وتلك مهمة صعبة ، تتطلب تخصصا علميا وفنيا ، فمكنت له المهمة من الوقوف الدقيق على كثير من المواد العلمية التي تنشر في مطبعته ، ومعظمها مواد دينية.^{٢٤٣}

كذلك نجد رشيد رضا يولي اهتماما خاصا بالحديث ، وما يتصل به من العلوم فيقرأ الصاحح وشروحها ؛ معظمها على شيخه محمود نشابة ، ويدرس كتب الجرح والتعديل ، حتى أصبحت له قدم راسخة في علم الحديث سندًا ومتنا روایة ودرایة . وقد وافق علم الحديث هو في نفسه ، وميلًا في طبعه إلى الاستقلال الفكري ، والوقوف مما يتلقاه من المشايخ أو يقرأه من المراجع موقف الناقد ، فلا يقبل منه إلا ما يصمد أمام النقد والتمحيص ، ولهذا اتكأ على علم الحديث في محاربته للبدع والخرافات والتقليد من العامة والعلماء ، على حد سواء.^{٢٤٤}

كان لرشيد رضا عقلية بحثية ، فكان وهو يتلقى العلوم على أساتذته ، يزاحج بين التلقى والبحث ، فكان إذا انصرف من الدرس استعاد شرح الشيخ للدرس ثم يبحث في مسائل الدرس من مظانها ، فيقرأ بما ورد منها في المراجع وأمهات الكتب ، والشرح المطولة ، فيقف على آراء العلماء في كل مسألة ، فيزيده ذلك وضوحا وتوثيقا ورسوخا فيها ، وقد يجد في المصادر ما يخالف رأي شيخه في بعض المسائل ، فلا يمنعه ذلك من قبوله والتسليم به إذا قوي دليل المخالف. يقول رشيد : " وكانت طريقي في طلب العلم أن لا أقبل شيئاً بالتسليم من غير فهم واقتناع ، وإذا لم أسمع من الأستاذ ما يقنعني في مسألة ما ، ولا سيما المسائل الدينية ، فإنني أرجعها في جميع ما أعرف من الكتب إلى أن يستقر فهمي على ما يطمئن به قلبي".^{٢٤٥}

^{٢٤٣} - السيد رشيد رضا : ٣٥١

^{٢٤٤} - المنار والأزهر: ١٤٢

^{٢٤٥} - السابق: ١٤١ ، ١٤٥

تمكن رشيد رضا في مدة طلبه للعلم في مدينته طرابلس - وهي مدة ليست بالمديدة - من العلوم الإسلامية الأصيلة ، والفنون الدينية العريقة ما جعله على ربوة ذات قرار ومعين ، لا تساميها ولا تدانيها ربوة أخرى ، وأصبح مرجعا فيها يلجأ إليه الجميع عند الملماض ، وكان أستاذه ومربيه حسين الجسر لا يستنكف عن سؤاله عما يستشكله من مفردات اللغة في بعض مجالسه الخاصة حيث لا توجد معاجم يراجعها ، لفته برصيد تلميذه اللغوي ، كما كان الشيخ يستشيره ويسأله رأيه في بعض مؤلفاته العلمية. ^{٢٤٦}

لم يكن رشيد رضا الوحيد الذي استقل بتكوين علمه بل "كان هذا العصر من ناحية كتابته وكتابه عصرا عصاميا ، بربز فيه طائفة من الرجال ، لم يطل انتظامهم في حجرات المدارس ، وقاعات المعاهد ، ومدرجات الجامعات ، بل اعتدوا على الله تعالى ، ثم على أنفسهم ونشاطهم ، فهم يطالعون ويكتبون ، ويتابعون خطواتهم في تنقيف أنفسهم بأنفسهم". ^{٢٤٧} "ورشيد رضا أحد هؤلاء الأعلام لأنه كون معظم ثقافته بجهده وعصاميته ومطالعاته وملاقاته العلماء ، حيث لم يبق في المدرسة إلا قليلا ، ومع أن لأساتذة رشيد فضلا كبيرا عليه لا ينكر ، نراه يكسب الكثير من معارفه ومعلوماته بقراءاته الشخصية". ^{٢٤٨}

اكتسب السيد رشيد رضا خبرة عظيمة من طول مصاحبة الكتب ، وتنوع مطالعاته وتشعب مناحيها ، فكان يقسم المؤلفات إلى قسمين ؛ مؤلفات ذات طابع جمعي ، فليس للمؤلف فيها سوى حظه من اختيارها وترتيبها وخدمتها بالشرح والتعليق ونحو ذلك ، ومؤلفات مبتكرة ومبتدعة ومن بنات أفكار مؤلفيها ، فهي إضافة حقيقة إلى المكتبة الإسلامية ، لا يمكن الاستغناء عنها بغيرها ، ومن الكتب التي جعلها من القسم الثاني إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ومقيدة ابن خلدون ، والمواقات للشاطبى. يقول معلقا على ما نقله من التاج السبكي من أن كثرة التأليف في الزمن القليل بعد نوعا من أنواع الكرامات : "ولكننا نقول : إنها همة الرجال ، تجعل الوقت كالمادة المرنة القابلة للتمدد أضعاف مساحتها ، على أن أكثر تأليف

^{٢٤٦} - المنار والأزهر : ١٤٥

^{٢٤٧} - رشيد رضا صاحب المنار: ٦٥

^{٢٤٨} - السابق: ٢٧٣

العلماء في تلك القرون المتوسطة كانت من قبيل النسخ ، لأن كل واحد ينقل عنن قبله ، فيختصر أو يطيل ، ويضيف إلى القول أقوالا ولو من غير الفن الذي يؤلف فيه ، وليس بين أيدينا من الكتب العربية التي يصح أن يقال : إن ما فيها نابع من صدور مؤلفيها ، وفائض من سماء عقولهم ، إلا العدد القليل كإحياء العلوم وكالمواافقات والاعتراض للعلامة الشاطبي ومقدمة ابن خلدون وغيرها".^{٢٤٩}

ثقافته العصرية

أتتيح للسيد أن ينفتح على الثقافة العصرية من خلال مجلة العروة الوثقى ومن خلال جرائد وصحف الإرساليات التبشيرية التي كان كثير التردد على مكتباتها ، فقويت رغبته في الاطلاع على العلوم العصرية ، وأولى اهتماما ملماوسا إلى تحقيق هذه الرغبة ، إذ نجده يعكف على دراسة بعض الكتب العلمية مع صديقه الشيخ محمد كامل الرافعي مثل كتاب "النقش على الحجر" للدكتور فانديك ، وهو كتاب في مبادئ العلوم ، ثم وسع من مدارسته ومطالعته في الكتب العلمية والثقافة العصرية ، فكان من الكتب التي طالعها : أصول الطب الشرعي لجاي وفرير ، والتربية الاستقلالية لألفونس ، وروح الاجتماع لغوستاف لوبيون ، وسر تقدم الإنجلiz لفتحي زغلول ، كما كان يتبع ويلازم قراءة بعض المجلات العلمية والثقافية مثل مجلة الطبيب ، ومجلة المقططف.^{٢٥٠}

أظهر السيد رشيد اهتماما خاصا بعلم التربية والمجتمع ، وكان لمداومته قراءة مقدمة ابن خلدون أثر بارز في هذا الاهتمام ، فكان يكتب سلسلة مقالات تربوية في مجلة المنار ، ويبذل جهدا كبيرا في إصلاح المدارس والنظام التعليمي الإسلامي ، بتبني الأسس التربوية العصرية ، مع المحافظة على القيم وال المسلمات الإسلامية ، وقد أشار في العدد الأول من مجلة "المنار" إلى أن الغرض الأول من إنشائها "هو الحث على تربية البناء والبنيان .. والترغيب في تحصيل العلوم والفنون .. وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم ، والتنشيط على مجاراة الأمم المتقدمة في

^{٢٤٩} - المنار: ٣٢٢/١٤/٣
^{٢٥٠} - السابق: ١١٣/١٤/١٣

الأعمال النافعة ، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد ، وشرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة ، والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها ، وال تعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد".^{٢٥١}

كان رشيد رضا شديد الحرص على متابعة ما يصدر في الغرب من البحوث العلمية والابتكارات التقنية ، والكتب الثقافية ، وما يتوصل إليه علماء الغرب من الاكتشافات في شتى المجالات ، وكذلك جهود علماء الاستشراق وما ينشرونه من البحوث عن الإسلام وحضارته ، كما كان يشجع حركة الترجمة التي تستهدف تراث الغرب ، ونتاجه العلمي والفكري ، ويتتيح لها مساحات واسعة في مجلته ، بعد تقريره إصداراتها ، وتقديم المساهمين فيها بأحسن النعوت وأفضل الصفات ، تقديرًا لجهودهم ، وتشجيعاً لنشاطهم الذي تشتد إليه حاجة المثقفين المسلمين في نظر رشيد ، فكان له ما أراد ، وأصبحت "المنار" موئل الباحثين والكتاب كما يشير إليه هذا المقتبس: "حضرت الأستاذ الفاضل صاحب مجلة (المنار) المفيدة : لما رأيت أن مجلتكم التي هي مجني الفوائد العلمية وملتقى الشوارد الحكيمية قد وسعت في صفحاتها مكاناً لنشر ما يختص بالتربيـة والـتعليم ، ورأيـتكم تـتـقـونـ منـ ذـلـكـ أـفـوـمـ الـطـرـقـ وأـجـلـهـ أـثـرـاـ رـجـوـتـ أـنـ تـتـفـضـلـواـ عـلـيـ بـتـخـصـيـصـ مـوـضـعـ إـنـ صـغـيـرـاـ مـنـهـ أـقـدـمـ فـيـ لـقـاءـ هـذـهـ المـجـلـةـ كـتـابـاـ جـلـيـلـاـ فـيـ التـرـبـيـةـ الـعـلـمـيـةـ ،ـ أـنـاـ مـشـتـغـلـ بـنـقـلـهـ مـنـ الـفـرـنـسـاـوـيـةـ إـلـىـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ وـأـوـدـ نـشـرـهـ فـيـ تـبـاعـاـ ،ـ الـكـتـابـ مـنـ تـصـنـيـفـ الـحـكـيـمـ الـمـرـيـ أـلـفـونـسـ أـسـكـيـرـوـسـ سـمـاـهـ (ـ أـمـيـلـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ)ـ عـارـضـ بـهـ الـحـكـيـمـ الشـهـيرـ جـانـ جـاكـ روـسوـ ،ـ فـيـ كـتـابـهـ المـؤـلـفـ فـيـ التـرـبـيـةـ الـمـسـمـيـ (ـ أـمـيـلـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ).ـ"^{٢٥٢}

عندما أنشأ رشيد رضا مجلة المنار ، أوضح أن الهدف منها هو المضي في طريق مجلة العروة الوثقى ، التي كان يحررها من باريس أستاذ محمد عبده بإشرافه وتوجيهه موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، وكان من أولى أهدافها محاربة الاستعمار والاستبداد السياسي في الدول الإسلامية وتحث المسلمين على إقبال علوم ومنجزات الحضارة الغربية ، ودفع الشبهات التي تثار حول موقف الإسلام من العلم

^{٢٥١} - المنار: ١٠/١/١

^{٢٥٢} - السابق: ٤٨٩/٣١/٢

والنظم المدنية المعاصرة ، وأنه موقف يتصف بالسلبية والجمود وكان التكوين الثقافي للثلاثة ؛ الأفغاني وعبده ورضا رضا متماثلاً ومتشاربها ، فكلهم نشأوا نشأة علمية عادها الثقافة الإسلامية ، ثم عالجوا أنفسهم بالثقافة العصرية بجهوديهم الذاتية ، وقد تمكن كل من الأفغاني وعبده على الكبر من تعلم اللغة الفرنسية ما يمكنهما من الاطلاع بها ، وأما رشيد رضا فقد أتيحت له فرصة تعلم الفرنسية في المرحلة الابتدائية فلم يهتم بها ، لأن ذلك كان قبل أن يطلع على الثقافة العصرية ، ويقف على أهمية اللغات الحية للدعاة والمصلحين ، وندم على تفوته لتلك الفرصة في الصغر ، ولم يشغل بها نفسه عند الكبر ، كما فعل أستاذاه.^{٢٥٣}

زعم بعض الباحثين أن رشيداً لم يهتم بغير الثقافة الإسلامية ، وشاهد ذلك عندهم عدم معرفته لأيٍ من اللغات الأجنبية التي تطل به على مصادر الثقافات غير الإسلامية فيقول : "لعلنا لا نظلم الشيخ رشيد رضا إذا اعتبرنا أن المصادر الأساسية لثقافته انحصرت في الموروث العربي الإسلامي فهو لم يحفل كثيراً بأن يكون على إمام كاف بالثقافات الأخرى ، وبخاصة ثقافة الغرب ، ويمكن أن نعزّو ذلك ، ليس لعدم وجود رغبة عند الشيخ في التبحر والتعمق في هذه الثقافات ، وإنما لعدم وجود الأداة المتمثلة باللغة".^{٢٥٤} وقد وصفه العقاد كذلك بأنه لم يكن يعني بالمعارف العصرية.^{٢٥٥} وهذا غريب من الأستاذ عباس العقاد ، وتبرير غير لازم من الدكتور سمير أبو حمدان ، لأن شهرة رشيد رضا في غزارة النتاج طبقت الآفاق ولم يكن رشيد رضا شيئاً قابعاً في زاوية مسجد ، يستمد شهرته من اجترار الكتب الصفراء واستصفاء مؤلفاته العديدة منها ، وإنما كان رجل إصلاح ينال الأفكار المعاصرة ، في مجال الدين والاجتماع والسياسة والتربية والتاريخ ، فيحسن البلاء في الدفاع عن الإسلام والعروبة في جميع المجالات ، فكيف تأتي ذلك لإنسان لا فقه له في ثقافة الخصم !

^{٢٥٣} - تاريخ الأستاذ: ٤٣/١

^{٢٥٤} - الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان ، الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العالمي ، ١٩٩٢ م ، ص ١٩

^{٢٥٥} - رشيد رضا صاحب المنار ، ص ١٨٣ ، المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ العقاد: ٥٤٧/١٧

وأما أن يكون عدم معرفة رشيد لغة أجنبية سببا في نفي معرفة ثقافة غير الثقافة الإسلامية عنه ، فذلك سبب ضعيف ، وعلة واهية ، نعم هذا عائق ولكنه عائق وعقبة تعيق الكسالى ، ضعيفي الهمة محدودي الطموح ، الذين يستسلمون لأوهى الأسباب ، والسيد رشيد رضا ليس من هذا القبيل ، ولا يشاكل طبعه ذلك الطبع ، ثم إن الاطلاع على ثقافة الغير بالنسبة لعالم في علم من العلوم ليس أمرا يستعصي عليه ، إذا صرف همه إليه ، وصح منه العزم على تحقيق رغبته.

لا أحد يستهين بأهمية معرفة إحدى اللغات الأوروبية ، وخاصة الإنجليزية أو الفرنسية لمن يتصدى لخدمة دينه ، في عصر يسود فيه أهل هذه اللغات ، وتهيمن عليه حضارتهم وثقافتهم ، ويسعون إلى فرض سيطرتهم العسكرية والفكرية على الشعوب المستضعفة ، وهذا ما يصرح به أستاذ رشيد الشيخ محمد عبده حيث يقول : " ثم إن الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعني أنه على شيء من العلم ، يمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع من مصالحها كما ينبغي ، إلا إذا كان يعرف لغة أوربية ، كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الأرض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يستغل للاستفادة من خيرهم أو الخلاص من شر الشرار منهم ".^{٢٥٦}

ولكننا ننكر ما ذهب إليه البعض من أن السيد رشيد رضا كان فصیر الباع في الثقافة العامة ، محدود المعرفة بالعلوم العصرية ، لأنه لم يكن على دراية بشيء من اللغات الأوروبية.

إن الذي يدرس سيرة السيد رشيد رضا ، ويقف على ما خلفه من البحوث القيمة في المجالات المختلفة ليشهد له رسوخ قدمه في ثقافة عصره ، وعمق فهمه للمشكلات التي تواجه العالم أجمع ، وإحاطته بالمكر الأوربي وكيدهم للإسلام وأهله ، وقد أحسن النصح لأمته ، ودافع عنها وعن قيمها وحضارتها بأبلغ الجح وأنصع الأدلة.

إن رشيد رضا الذي أنشأ "المنار" قد نصب نفسه من أول يوم رائداً ومرشداً للعالم الإسلامي في شتى المجالات ، لأن من يحرر مجلة أنشئت للإصلاح المبني على التوفيق بين التعارض المزعوم بين التعاليم الإسلامية المقدسة والمعطيات العلمية الصحيحة ، بعلم وبصيرة ، وخبرة ودرأية ، ويروم إيقاظ المسلمين الغافلين ، وفتح أعينهم على الإنجازات الهائلة للحضارة الغربية ، والفجوة السحيقة التي تفصلهم عن خصومهم ، وجعلهم يتبعون الاكتشافات العلمية ، والابتكارات التقنية ، وتجارب الأمم المتقدمة ، ويقدمها إلى قرائه بأسلوب يناسب مداركهم ، ولا يجافي أذواقهم ، ولا يصطدم بالمؤلفات التي ورثوها ، وال المسلمات التي فطروا عليها ، لخلق ألا يقل زاده في الثقافة المعاصرة ، ولو كان الأمر كذلك لما كان لمجلته ذلك الصدى ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

كان رشيد رضا صحفياً ، وطبيعة الصنف تقتضي تنوع الثقافة ، ويصدق في حقه ما قاله بعض العلماء قدماً في الأدب : من أراد أن يكون أدبياً فليتوسع في الثقافة.^{٢٥٧} وكان رشيد مفتياً ، ومن صفات المفتى الجيد الرسوخ في العلم ، مع الإمام الكافي بحالة العصر ، حتى تكون فتاواه منسجمة مع روح العصر وواقع الأمة ، وكان رشيد داعية ، ومن صفات الداعية الناجح مراعاة مقتضى حال المدعويين ، وكان رشيد مصلحاً ، ومهمة المصلح أصعب وأشمل ، وقد افتح رشيد كل هذه المجالات فلم يعثر لجواهه كبواه ولا لسيفه نبوة ، بل شهد له المنصفون بالكفاية العلمية والثقافية ، وهذا شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي يقول في تأييده: "وقد كان فقييد الإسلام السيد محمد رشيد رضا محظياً بعلوم القرآن وقد رزقه الله عقلاً راجحاً في فهمه ، ومعرفة أسراره وحكمه ، واسع الاطلاع على السنة ، وأقضية الصحابة وآراء العلماء ، عارفاً بأحوال المجتمع ، والأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي" ، وكان شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه ، خبيراً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية ، ملماً بما في العالم من بحوث جديدة ، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان ؛ فهو من أوتى الحكمة ، ورزق الخير

^{٢٥٧} - العمدة في محسن الشعر وآدابه: لابن رشيق ، قدم له وشرحه وفهرسه د.صلاح الدين الهراوي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ٣٢٨/١

الكثير".^{٢٥٨} ويقول تشارلز أدمز فيه: "وتدل كتاباته أيضا على إمامته ببعض العلوم الحديثة التي يجيد الانقاص بها في تأويل الإسلام ، وفي الدفاع عنه".^{٢٥٩} ولعل في هاتين الشهادتين من عالمين أحدهما من أهل ملته ، والآخر من غير أهل ملته - إضافة إلى ما ذكرنا - ما يكفي للتدليل على ما زعمنا لرشيد رضا من قوة ثقافته العصرية.

مكانته العلمية

استوفى رشيد رضا تكوينه العلمي في وطنه ، وأخذ من شيوخه الإجازات العلمية ، وشهادات الإذن في التدريس في كثير من فروع العلم وفنونه ، وبرز من بين أقرانه بالجد والاجتهاد في تحصيل شوارد العلم وأوابده ، وسما وهو شاب يافع إلى مراتب أفادذ العلماء ، وأكابر الشيوخ ثم ارتفع عنهم إلى مصاف المحققين وكبار المصلحين ، فجمع بين العلم والعمل والجهاد ، ولم يفل من عزيمته في إصلاح المجتمع ما واجهه من التثبيط والخذلان من بعض شيوخه الحريصين على مراعاة تقاليد المجتمع ، ويتاحشون الخروج على المأثور ، كما أنه لم يأبه بتطاول السفهاء عليه وعلى دعوته ، ولا بإنجاف أرباب السلطة وأصحاب الجاه ، ومضي في سبيل كفاحه لإنقاذ أمته من براثين الجهل والخرافات ، فكتب الله لدعوته القبول وبارك في جهده ، وأراه ثمار سعيه ، فأصبح - إماما يقتدي به ومرجعا يرجع إليه في شؤون الدين والإصلاح الاجتماعي.

ثم اطلع رشيد على فكر مدرسة "العروة الوثقى" عن طريق مجلتها ففتحت له أفقاً جديدة ، حيث بصرته الواقع المسلمين في العالم ، والأمراض التي تفتك به والأخطار التي تحيط به من كل جانب ، والمسؤوليات الجسمانية التي على عاتق الدعاة والمصلحين ، فغيرت بذلك مجرى تفكيره ، وانقلب من حال إلى حال أخرى كما يقول : "ثم اتفق لي أن كنت أقلب أوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عددين من جريدة العروة الوثقى ، فقرأتهما بشوق ولذة ، ففعلا في نفسي فعل السحر ، فطفقت أبحث

^{٢٥٨} - المنار: ١٧٢/٣/٣٥

^{٢٥٩} - الإسلام والتجدد في مصر: تشارلز أدمز ، ص ١٧٢

عن سائر الأعداد ، فوجدت بعضها عند والدي ، ووُجِدَت الباقى عند الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ، فاستسخت الجميع ، وقرأته المرة بعد الأخرى ، فانتقلت بذلك إلى طريق جديد في فهم الدين الإسلامي ، وهو أنه ليس روحانياً آخرورياً فقط ، بل هو دين روحاني جسماني آخروي دنيوي ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل ، وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الإسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين ، فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وحثّهم على الطاعات ، وترهيدهم في الدنيا .. فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية ، والمحافظة على ملتهم ومبرأة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة ، فطفقت أستعد لذلك استعداداً".^{٢٦٠}

قاد هذا الاستعداد إلى الهجرة إلى مصر ، والالتحاق بأحد قطبي هذه المدرسة الفريدة ، التي استلهم من مشكاتها رؤيته الجديدة ، واستوحى منها فهمه الجديد للإصلاح الإسلامي ، ليكون عمله وجهاده على سمع منه وبصر ، ولما خبر الشيخ محمد عبده تلميذه ومربيه ، وجده فيه قبساً من روحه ، فقد أجاب لمن لامه على تفضيله وتقديمه على من هو أسبق منه صحبة وأقرب منه رحماً : "إن هذا الرجل متخد معي في العقيدة والفكر والرأي والخلق والعمل".^{٢٦١} وكان يماثله أيضاً في البيان والفصاحة والعلم ، فلا يجد عليه مأخذًا فيما يعرض عليه من منشأته في التفسير ومجلة المنار ، وفيما يكلفه الأستاذ الإمام من الموضوعات التي تعنّ له أو تعرض عليه. وفي ذلك يقول الأستاذ : "إذا ذكرت له موضوعاً ليكتب فيه فإنه يكتب كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، وإذا قلت له شيئاً مجملًا بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل ، فهو يتم ما بدأت ويفصل ما أجملت".^{٢٦٢} وهذا أوضح دليل على علوّ مكانة رشيد في العلم ، ورسوخ قدمه في البيان ، وأي شهادة تعادل شهادة الإمام محمد عبده الذي قال فيه العقاد : "إنه أعظم مسلم بعد نبي الإسلام في هذا العصر الحديث ، ثم لا ننتظر أن يذكر المخالفون اسمًا آخر هو

^{٢٦٠} - تاريخ الأستاذ: ٨٤/١

^{٢٦١} - تاريخ الأستاذ: ٥٨٦/١

^{٢٦٢} - السابق: ١٠١٨/١

أولى من اسم محمد عبده بالذكر في هذا المقام.^{٢٦٣} ولما خلا الجو من الشيخ محمد عبده ، بانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، لم يوجد من بين تلاميذه من هو أولى بخلافته من السيد رشيد رضا ، على كثرتهم وتنوع مشاربهم ، وفحولة كثير منهم في مجالات تخصصهم ، غير أن رشيدا جمع من صفات الإمامة والخلافة ما لم يضارعه فيها أحد ، وهذا ما انتهى إلى تقريره الدكتور أحمد الشريachi عند مناقشته لهذه المسألة ، حيث قال بعد أن استعرض عدة مرشحين لهذا المنصب: " وقد يمكن التوفيق بين الرأيين بأن نقول إن رشيدا كان " الخليفة الإمام" في المجالات الدينية والعلمية والأدبية ، وأن أحمد لطفي السيد كان خليفة له في نضاله الوطني والاجتماعي ، ومع هذا أرى أن صاحب المنار أولى من غيره بلقب " الخليفة الإمام" وقد قلت هذا الرأي ونشرته منذ سنوات."^{٢٦٤}

وكما بُرِّزَ رشيد أستاذته في طرابلس ، وفاقهم في التطلع من العلوم الإسلامية ، كذلك يفضله بعض الباحثين على شيخه محمد عبده ، وملهمه السيد جمال الدين الأفغاني في العلوم الإسلامية النقلية. يقول أمير البيان شبيب أرسلان: " وهو وإن كان لا يسامي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في العلوم العقلية على قوته فيها ، فإنه كان يفوقهما في العلوم النقلية .. وقد سبق السيد أستاذيه العظيمين في مزية الكتابة وفيض القلم."^{٢٦٥}

ومما لا شك فيه أن نشاط رشيد المفرط في الكتابة والدعوة والإصلاح والفتيا والتعليم ، وفي غيرها من المجالات المختلفة ، قد أكسبته شهرة واسعة: " ولم تتحصر شهرته في العالم الإسلامي ، بل عرفت الأمم الأخرى مكانه في الأمة الإسلامية ، وعلمت أنه من المصلحين الكبار والمجددين المشهورين في الأقطار وأن رأيه يعول عليه ، ويؤخذ به ، وأنه لا ينزعه منازع في رئاسته الشرعية مع زعامته العقلية ، فكان المستشرقون يشieren دائماً إليه ، وينوهون برأيه عندما يدور الكلام على الإسلام العصري ، ويحصل الأخذ والرد في منزع التجديد ضمن دائرة العقيدة."^{٢٦٦}

^{٢٦٣} - رشيد رضا صاحب المنار: ٢٥٧

^{٢٦٤} - السابق: ٢٧١

^{٢٦٥} - السيد رشيد رضا: ٢٥٥

^{٢٦٦} - السيد رشيد رضا: ٢٥٥

إن حسن بلاء رشيد رضا في الإصلاح الإسلامي ، وخدمة الملة والدفاع عن الأمة وعن قيمها و מורوثها الحضاري من أعدائها في الخارج والداخل دفع بعض العلماء الأجلاء إلى اعتباره من المجددين في هذا العصر ، ومنهم الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الذي قال فيه : " من الحق أن نعد السيد رشيدا من المجددين ، وأن نعده من المجاهدين في إحياء السنة ".^{٢٦٧} لأن من صفات المجدد أن يكون ذات أثر عميق يحدث تغييرا ملمسا في مجتمع ما ، سواء أكان هذا التغيير والتأثير مقصورا في ناحية من نواحي المجتمع أم كان عاما وشاملا ، وقد كان رشيد بمجلته منارا يهتدى به ، ويلجأ إليه المسلمون في شتى الأقطار ؛ يسألونه عما أشكل عليهم من أمور دينهم ، ويشكون إليه من معرب الاستعمار ، ومعاناتهم من استكباره العسكري والفكري فيسعى بما أوتي من جهد فكري وأدبي وقبول حسن لدى المسلمين أن يلبي ما أمكن من حاجات المسلمين ، ثم إنه أقام معلما مدرسة فكرية إسلامية ، قادت مسيرة العمل الإسلامي على منهاج السلف الصالح كما سيأتي في المطلب الثالث.

ومما يدل على مكانة السيد العلمية أنه روى وخرج في مدرسته " دار الدعوة والإرشاد " بمصر التي لم تستمر طويلا طائفه من أفضال العلماء ، تتبعوا مناصب عالية ومنابر علمية عريقة ، ومن هؤلاء فضيلة الشيخ أبو السمح الشيخ عبد الظاهر محمد ، إمام وخطيب الحرمين المكي ، ومنشئ مدرسة دار الحديث في مكة المكرمة ، ومنهم الزعيم المجاهد مفتى الديار القدسية السيد أمين الحسيني ، الذي انتهت إليه الزعامة الدينية والسياسية في فلسطين ، ومنهم الشيخ يوسف ياسين ، أمير سر جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، ومنهم الشيخ عبد الرزاق الملحق آبادي ، صاحب المؤلفات ، والصحافي المشهور في الهند ، ومنهم الشيخ محمد بسيوني عمران من أهل جاوة باندونيسيا ، صاحب الجهود المبذولة في الدعوة والتعليم ، ومنهم الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة والشيخ عبد السميم البطل من علماء مصر ، وغيرهم ممن نفح فيهم السيد من روحه ، وصنعهم على عينه^{٢٦٨}

^{٢٦٧} - المنار: ١٨٧/٣/٣٥
^{٢٦٨} - المنار: ٧٠٥/٩/٣٥

ولو قدر لمدرسة دار الدعوة والإرشاد الاستمرار كما كان يرجو رشيد ، لكان بلاؤها
أعظم وخيرها أعم .

المطلب الثالث : حياته الفكرية

قال شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي في خطبته في حفل تأبين السيد محمد رشيد رضا : " كان خصوم السيد ثلاث فرق : فريق الملحدين الذين لا يؤمنون بدين ، وفريق أهل الكتاب من غير المسلمين ، وفريق من المسلمين الذين جمدوا على أقوال الناس ، وابتعدوا عن معرفة السنن ، وعن هدي القرآن ، وقد جاهد هذه الفرق جميعا ، ولقي من الفريق الثالث أشد العنت وأشد المقاومة ".^{٢٦٩}

وينضاف إلى هذه الفرق الطرق الصوفية ، وعلى هذا تكون الفرق التي كان ينالها أربعا وهي : الصوفية ، وأهل الجمود من الفقهاء ، والمتفرنجون ، والمبشرون ، الذين قدموا مع الاستعمار واستغلوا سلطته ، وإلى جانب هذه الفرق جالد رشيد الانحرافات والسلبيات الكثيرة التي كان المجتمع الإسلامي يئن تحت وطأتها الثقيلة.

موقفه من الصوفية

فأما المتصوفة فقد نشأ رشيد في حجرها ورضع من رقائقها ولطائفها ، ورتع في بساتين كتبها ورسائلها ، وانقطع فترة غير يسيرة إلى الاشتغال بسلوك دروبها ، حتى جنى ثمار ما كان يمارسه من خلال الرياضات ، وعرض له ما يعرض للسالكين والسائلين في مراقي تهذيب النفس ، وتركية الروح من الأذواق الخاصة والتجليات غير العادية ، وتحدث عن كل ذلك بإسهاب في كتابه "أنا والأزهر".^{٢٧٠}

غير أنه لما اشتعل بعلم الحديث ، ووقف على ما في بعض الأوراد وأنواع الذكر التي يلتزم بها بعض أهل التصوف مما يخالف الكتاب والسنة تركه إلى الأدعية الشرعية المأثورة ، ثم أنكر على بعض الطرق الصوفية في بلده ما تمارسه في مناسباتها مما لا يجيزه الشرع ، حتى اشتهر بموافقه المحفوظة بل المتشددة من أهل التصوف.^{٢٧١} فلما هاجر إلى مصر ، ووقف على أحوال أهل التصوف فيه ، وما هم عليه من البدع الشنيعة ، والخرافات الفظيعة ، والاستهتار بالإسلام وشعائره ، حتى وصل الأمر إلى إقامة الحفلات والرقصات الدينية للسياح وفي بيوت

^{٢٦٩} - المنار: ١٨٦/٣٥

^{٢٧٠} - السيد رشيد رضا: ٧٨-٤٧

^{٢٧١} - السابق: ٩٥

الدبلوماسيين الأوروبيين ، بل تحولت بعض المناسبات الدينية إلى مهرجانات تعرض فيها أنواع السلع والملذات ، ويجلب إليها كل ما يهواه الفساق وال مجرمون من الحشيش والبغاء - لما رأى ذلك تعجب منه أشد العجب ، وهاله ما وصل إليه أمر هذه المنكرات التي تتسب إلى الدين ، فكان موضوع التصوف أول موضوع شغل به وناقه مع شيخه الأستاذ محمد عبده.^{٢٧٢} وعندما شرع السيد رضا في الإصلاح ، وأصدر مجلة المنار أولى عناية كبيرة إلى التصوف ، وسعى إلى الإسهام في إصلاحه ، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة ، ولم يأت إلى بيت أهل التصوف في محاولة إصلاحه إلا من بابه ، عندما عرض مشروع إصلاح الطرق وأهل التصوف على شيخ مشايخ الطرق الصوفية ؛ الشيخ محمد توفيق البكري ، الذي استجاب إلى دعوته بعض الاستجابة ، بعد التسويف والمماطلة ، فلم يكن لما قام به أثر يذكر.^{٢٧٣} ورغم حملات الشيخ رشيد القاسية على الممارسات الخاطئة التي ترتكب باسم الإسلام من قبل بعض أهل التصوف كان رشيد يقدر للتصوف الصحيح حق قدره فيقول في تعريفه : "الصوفية في الإسلام طائفة انقطعوا إلى الزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، برياضة النفس ، وتربيبة الإرادة ، والأخذ بالعزم ومحاسبة النفس ، وحسن النية والبالغة في العبادة ، وغایتهم الوصول إلى تجريد التوحيد ، وكمال المعرفة بالله تعالى".^{٢٧٤}

ولم يكن ينزع ما للتصوف الصحيح من أثر حميد على تهذيب النفس وتزكيتها وتطهيرها من الصفات الرذيلة ، والمنازع الشريرة ، وما تورثه هذه التزكية أصحابها من البصائر الإيمانية فيقول : "إن رياضة النفس ، والتدقيق في عيوبها والحرص على تزكيتها وتمكيلها ، يورث علماً وعرفاناً بسنن الله تعالى في الأرواح ، وأسرار قواها ، وأحوالاً وأدواتاً غريبة ، من أعمها الكشف ، وهو معرفة بعض الحقائق والواقع من طريق الحس والفكر".^{٢٧٥}

^{٢٧٢} - السيد رشيد رضا: ١٧١

^{٢٧٣} - تاريخ الأستاذ: ١٢٩/١

^{٢٧٤} - السابق: ١٢٢/١

^{٢٧٥} - السابق: ٢٢/١

وهكذا نجد رشيدا يقر بمجمل أحوال أهل التصوف ، وما ينسب إليهم من الكشف والأذواق الخاصة ، والتأثير بقوة الإرادة في بعض الأشياء مثل شفاء المرضى ، والتفرد ببعض الأحوال التي لا يحس ولا يشعر بها غيرهم ، من لم يسلك مسالكهم ، ولم يعالج أنفسهم بمثل ما عالجوها به من القهر والحبس على الطاعات ، وإماتة الرغبات والغرائز ، بل يحكي رشيد مثل ذلك عن نفسه فيقول بعد حديثه عن ليلة أحياناها بالعبادة والطاعة والذكر: " فنزلت من الغرفة وكأنني ريشة طائر ، وشعرت بأنني لو أقيمت بنفسي من النافذة إلى الأرض لا أكون إلا كما تقع الريشة ، وأنه يمكنني المشي على الماء .. بل أعتقد حتى اليوم أنني لو تركت الطعام زمانا طويلا ، مع ملازمة مثل تلك الحال من الذكر والعلم الإلهي ، لقويت معي تلك الروحانية ، ووصلت إلى غاية ما يذكر عن الروحانيين .." ^{٢٧٦}

ويؤكد رشيد رضا على أن الحكم العدل في التصوف والصوفية ، هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن أفضل التصوف وأشرف الزهد هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأن أقرب التصوف إلى سيرتهم ، وأشبه الزهد بطريقتهم ، هو تصوف وزهد أهل العلم ، الملتزمين بتعاليم الإسلام ، والمهتمين بهدي القرآن والسنة ، ويخلص رشيد من جهوده في إصلاح التصوف الإسلامي ، إلى أن الإصلاح الحقيقي في هذا المجال ، لا يرجى ولا يتحقق إلا على يد "من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والإخلاص وقوة التأثير بالكلام وبالإرادة وهيئات أن يتفق وجود أفراد من هؤلاء اتفاقا ، وإنما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد." ^{٢٧٧} وهذا لا يعني اليأس من الإصلاح المنشود ، بل على المصلحين أن يسعوا إلى إيجاد المربيين الأكفاء عن طريق التربية الخاصة الهدافة.

^{٢٧٦} - السيد رشيد رضا: ٦٠
^{٢٧٧} - تاريخ الأستاذ: ١٣٠/١

موقفه من العلماء التقليديين

وإلى جانب الطرق الصوفية يعني رشيد بإصلاح ثغرة أخرى من ثغور الإسلام الخطيرة ، التي أصيّبت بخلل فادح ، وتسريت منها أفكار وتصورات ، كادت تعصف بالمفاهيم الإسلامية الأصيلة ، وهذه الثغرة هي ثغرة العلماء التقليديين ، وحملة العلم والثقافة الإسلامية النقلية والعلقانية ، ومن يتقدرون مجالس العلم ، ويسطرون على المؤسسات الدينية المختلفة في طول العالم الإسلامي وعرضه ، فقد أصبحت هذه الفئة عقبة كئودا في طريق الإصلاح الإسلامي ، إلى جانب تحملها الجزء الأكبر ، فيما آلت إليه الأمة الإسلامية من التخلف والانحسار ثم وقوعها فريسة سهلة ، ولقمة سائحة في أيدي أعدائها ، وذلك لقعودهم عما أناط الله بهم من تجديد الدين ، ونفي الخبر عنهم ، وبذل النصح لل المسلمين رعية ورعاة فيما يستجد لهم من النوازل بتجدد الزمان ، وما ينشأ من العوارض والمشاكل بسبب تطور العمران البشري ، ولكنهم ركدوا مع الراكدين ، وجمدوا على ما ورثوه من عصور النشاط الفكري الإسلامي ، التي تكونت فيها المذاهب الفقهية والكلامية ، التي يتسبّبون بها ، ويزعمون أن مخالفتها ولو بدليل يفضي إلى الإثم والضلالة : "حتى انتهى حال بعض حملة العمامات وسكنة الأنوثاب العباعب إلى أن يقول : إن من يهتدي بالكتاب والسنة ، من دون كتب المذاهب الفقهية والكلامية ، فهو زنديق".^{٣٧٨} فحجروا واسعا ، وقيدوا الأفهام عن الإدراك ، وعطّلوا العقول عن التفكير والتدبر ، وشلوا حركة العلم الإسلامي ، عن مسيرة واقع الناس ، وحالوا في النهاية بين المسلمين وبين العمل بالشريعة الإسلامية السمحاء ، والتقييد بتعاليم دينهم الحنيف في شؤونهم الحياتية ، بفرضهم إعمال الإسلام في واقع الأمة ، الذي لا تتطبق عليه ، ولا تنسجم معه الفروع الفقهية القديمة ، التي وضعت في عصور الاجتهد ، فألجموا الحكام إلى استيراد القوانين الأوروبية الوضعية ، حدث ذلك ، عندما طلب الخديوي إسماعيل باشا من علماء الأزهر ، وضع قانون في الحقوق والواجبات ، وفق الشريعة الإسلامية على أسلوب وطريقة العصر من حيث السهولة والترتيب ، فرفضوا ذلك ، وعدوه خروجا على المأثور في التأليف الفقهي ، الذي لا تجوز مخالفته بتاتا ، " وكان

رفضهم هذا الطلب ، هو السبب في إنشاء المحاكم الأهلية ، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا ، وإلزام الحكام بترك شريعتهم ، وحرمانهم من فوائدها .. ولولا جمود أهل النفوذ من علماء الأزهر ، ل كانت هذه المحاكم شرعية.^{٢٧٩} وكما رفض العلماء التقليديون وضع قانون مستمد من الشريعة الإسلامية ، كذلك رفضوا إصلاح التعليم ، وتطوير المناهج في المؤسسات الإسلامية التعليمية ، وتضمينها بالعلوم العصرية ، وقد بذل رشيد رضا ، مع شيخه محمد عبده جهداً كبيراً في إقناع علماء الأزهر بإصلاح هذه المؤسسة العريقة التي يأتي إليها الطلاب من أنحاء العالم الإسلامي ، ولكنهما لم يفلحا في ذلك ، واستقال محمد عبده من عضوية مجلس الأزهر ، وبقي الأزهر كما كان مستعصياً على التطوير والإصلاح ، حتى تجاوزته الجامعات الحديثة التي نشأت بعده ، وسدت مسده في تلبية متطلبات البلد في التعليم الجامعي المعاصر.^{٢٨٠}

وكثيراً ما كانت تتشبّه فتن ، وتنثر خلافات ، بسبب العصبيات المذهبية ، ففرق الصف ، وتصدع الوحدة ، وتورث البغضاء والشحناه ، وتذهب ريح وقمة المسلمين ، بما لا طائل تحته من المسائل والفروع الفقهية ، وهذا أضر على المسلمين ، من الضرر الذي يلحقهم من أذى أعدائهم ، من المبشرين والملاحدة ، لأن عداوة هذين معروفة ، وكيدهم متوقع ، والانتصاف منهم ممكّن ، بفضح دسائسهم ، ونقض مكائدتهم بالحجّة والبرهان ، وأما "الانتصار على أولئك بآيات كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة السلف الصالح ، فلا يقبله إلا من أوتى من سلامة الفطرة ، واستقلال الفكر ما كان به من قال الله تعالى فيهم (فَبَشِّرْ عِبَادِ الدِّينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)

^{٢٨١} ولا يزال أكثر طلاب العلوم الشرعية على الطرقة التقليدية ، يطلبون معرفة الحق بشهادة قائله ، أو سعة جبته وشكل عمامته ، أو بلقبه الوهمي أو منصبه الرسمي ، وهم ينفرون من الدليل ومن صاحبه ، ويسيئون الظن به.^{٢٨٢}

^{٢٧٩} - المنار: ٢١٢/٦/٧

^{٢٨٠} - تاريخ الأستاذ: ٥٤٩/١

^{٢٨١} - سورة الزمر: ١٧ - ١٨

^{٢٨٢} - المنار: ٣/١/٣١

ويعزّو رشيد نفرة هؤلاء العلماء ، من دعوة التجديد والإصلاح إلى أمرين: أولهما خوفهم من أن تؤدي هذه الدعوة إلى الاستقلال في فهم الدين ، إلى الخروج على المذاهب الفقهية المتبعة ، ولا ضرر أكبر من هذا في نظرهم . والأمر الثاني: هو أن التجديد المنشود لو تم ، فسيؤدي إلى حرمانهم من الرعامة الدينية ، لعدم استعدادهم للنهوض به ، وقصور أهليتهم عن تحمله. ويحمد رشيد لهؤلاء العلماء المنعوتين بالجمود ، أنهم رغم مقاومتهم ورفضهم لدعوات الإصلاح والتجديد ، فإن الأمر لم يصل بهم أو بالكتاب المعتبرين منهم إلى الرد الأدبي ؛ بوضع مؤلفات تتقدّم ما يدعون إليه المصلحون ، لأنهم يعلمون أنها دعوة حق ، وإنما يماطلون في قبولها للاعتبارات السابقة. ويحاول رشيد رضا تبديد مخاوف هؤلاء ، وأن الإصلاح لا يستهدف المذاهب ولا يسعى إلى إلغائها أو استبدال غيرها بها ، فيقول : " وأنكرهم بما بينته مرارا ، من التفرقة بين الاجتهد المطلق بوضع مذهب جديد والاستقلال في العلم واتباع مذهب السلف في هداية الدين ".^{٢٨٣} غير أن الذي لا مندوحة عن التسلّيم به هو أن الإصلاح وتغيير واقع المسلمين الأليم ، لا يتم " إلا بإغلاق باب التقليد الأعمى ، وفتح باب النظر والاستدلال "^{٢٨٤} وليس كما يتّوهم الواهمون ، بخروج المهدي المنتظر ، الذي كثُر الافتتان بشأنه.^{٢٨٥}

موقفه من دعاء التغريب

وكانت الطائفة الثالثة من طوائف الإسلام ، التي حادت عن الطريق ، وتتكتّب عن الصراط السوي ، دعاء التغريب ، وكان رشيد رضا يسمّيه "المترنجة" ، فهوّلاء آمنوا بالتجربة الأوروبية ، ونادوا باقتباسها وتطبيقاتها بحذافيرها ، ونبذ كل الموروث الإسلامي ، لأنّه في نظرهم ، عفا عليه الزمن ولم يعد صالحا في عصر العلم التجريبي ، وسيادة العقل ، وهوّلاء ليسوا سواء في دعوتهم ، ولا طبقة واحدة في موقفهم من الإسلام ، فمنهم الملحدون المنسلخون عن الإسلام ، المنكرون لأصوله وأسسه ومبادئه ، المعلومة من الدين بالضرورة ، ومنهم قوم دون ذلك ، ولكن عميّت

^{٢٨٣} - المنار: ٤/١٣١

^{٢٨٤} - الوحدة الإسلامية: السيد محمد رشيد رضا ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، ص ١١

^{٢٨٥} - المنار: ٥٦١/٣٦/٢

بصائرهم بالانبهار بالحضارة الغربية ، وتغيرت فطريتهم بالتربيـة الغربية المسمومة التي تلقوها ، واهتزـت قناعـاتـهم بالنظم الإـسلامـية ، وـمنـهـمـ من لا يـدفعـ الإـسـلامـ ، وـلاـ يـشكـ فيـ شـيءـ منـ قـطـعـيـاتـهـ وـمـحـكـمـاتـهـ بـيـدـ أـنـهـ يـبـالـغـ فـيـ التـعـاطـيـ معـ النـظـمـ الـغـرـبـيـةـ الـوـضـعـيـةـ ، وـيـسـرـفـ فـيـ الـأـخـذـ عـنـهـاـ .^{٢٨٦} فـأـثـبـتـ لـهـؤـلـاءـ جـمـيـعـاـ بـالـحـجـةـ وـالـمـنـطـقـ أـنـ كـلـ مـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـمـسـلـمـونـ مـنـ إـصـلـاحـ وـتـجـدـيدـ حـضـارـةـ وـمـلـكـ مـتـوـقـفـ فـيـهـمـ عـلـىـ هـدـيـةـ الـقـرـآنـ وـتـفـيـذـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـخـلـفـائـهـ الـرـاشـدـينـ (ـرـضـ)ـ لـهـ .^{٢٨٧}

وـكـانـ عـلـىـ رـشـيدـ ، وـأـنـ يـنـازـلـ هـؤـلـاءـ جـمـيـعـاـ ، وـالـذـينـ لـاـ يـكـنـفـونـ بـاعـتـقـادـ مـاـ اـخـتـارـوـهـ وـاقـتـعـواـ بـهـ ، بـلـ يـنـشـطـونـ بـوـسـائـلـ كـثـيرـةـ وـفـعـالـةـ ، وـيـدـعـمـ دـوـلـ الـاسـتـعـمـارـ وـدـعـاـةـ التـبـشـيرـ ، إـلـىـ نـشـرـهـ وـتـعـمـيـمـهـ وـفـرـضـهـ عـلـىـ الـأـمـةـ الـإـسـلـامـيـةـ ، كـمـاـ يـقـولـ رـشـيدـ : "إـنـ الـحـمـلـةـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ قـدـ اـشـتـدـتـ فـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ مـنـ خـصـومـهـ فـيـ الدـاخـلـ وـالـخـارـجـ ، أـعـنـيـ مـنـ قـبـلـ دـوـلـ الـاسـتـعـمـارـ ، وـدـعـاـةـ الـنـصـرـانـيـةـ ، وـهـمـ طـلـائـعـهـاـ وـخـدـامـهـاـ ، وـمـنـ أـعـوـانـهـمـ وـأـنـصـارـهـمـ وـتـلـمـيـذـهـمـ فـيـ الـبـلـادـ الـإـسـلـامـيـةـ نـفـسـهـاـ .. مـنـ مـلاـحةـ الـإـسـرـافـ فـيـ الشـهـوـاتـ ."^{٢٨٨} فـكـانـ يـفـنـدـ دـعـوـاتـ الـمـبـطـلـينـ مـنـهـمـ ، الـمـتـحـالـمـلـينـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ بـدـوـافـعـ مـشـبـوـهـةـ ، وـكـانـ يـجـادـلـ الـمـتـذـرـعـينـ بـسـلـاحـ الـعـلـمـ ، وـيـقـارـعـهـمـ بـالـحـجـةـ وـالـبـرـهـانـ ، كـمـاـ كـانـ يـبـصـرـ الـمـغـرـورـينـ مـنـهـمـ بـحـقـيـقـةـ الـإـسـلـامـ ، وـيـدـلـهـمـ عـلـىـ مـوـقـفـهـ الـمـجـيدـ مـنـ التـجـدـيدـ الـنـافـعـ وـالـإـصـلـاحـ الـحـقـيـقـيـ الـذـيـ لـاـ يـعـادـيـ الـفـضـيـلـةـ ، وـلـاـ الـقـيـمـ الـإـنـسـانـيـةـ الـنـبـيـلـةـ وـأـنـهـ لـاـ تـلـازـمـ بـيـنـ التـطـوـرـ الـعـلـمـيـ وـالـفـلـسـفـةـ الـإـلـاحـادـيـةـ وـالـإـبـاحـيـةـ . وـجـلـاـ بـكـلـ وـضـوـحـ مـوـقـفـ الـإـسـلـامـ مـنـ كـلـ الـقـضـاـيـاـ الـمـثـارـةـ حـوـلـهـ ، وـكـلـ مـاـ نـسـبـ إـلـيـهـ عـنـ جـهـلـ أـوـ ظـلـمـ وـزـورـ ، مـنـ السـلـبـيـةـ تـجـاهـ الـعـلـمـ وـالـتـطـوـرـ الـبـشـرـيـ ، وـبـيـنـ "أـنـ الـإـسـلـامـ هـوـ دـيـنـ الـفـطـرـةـ وـالـعـقـلـ وـالـفـكـرـ وـالـعـلـمـ وـالـحـكـمـ وـالـبـرـهـانـ وـالـحـجـةـ وـالـضـمـيرـ وـالـوـجـدانـ وـالـحـرـيـةـ وـالـاسـتـقـالـلـ ."^{٢٨٩} وـكـلـ الـمـعـانـيـ الـنـبـيـلـةـ وـالـقـيـمـ الـفـاضـلـةـ ، وـأـنـهـ مـحـالـ أـنـ يـتـنـاقـضـ الـإـسـلـامـ أـوـ يـصـادـمـ أـيـ فـكـرـ صـحـيـحـ ، أـوـ نـظـرـ سـلـيـمـ ، أـوـ قـضـيـةـ عـلـمـيـةـ ثـبـتـتـ

^{٢٨٦} - المنار : ٢/١/٣

^{٢٨٧} - الـوـحـيـ الـمـحـمـدـيـ: الـسـيـدـ مـحـمـدـ رـشـيدـ رـضاـ ، دـارـ الـمنـارـ ، الـطـبـعـةـ الـخـامـسـةـ ، ١٩٥٥ـ مـ ، صـ ١٢

^{٢٨٨} - المنار: ٢/١/٣

^{٢٨٩} - تـقـسـيـرـ الـمـنـارـ: الـسـيـدـ مـحـمـدـ رـشـيدـ رـضاـ ، دـارـ الـمـعـرـفـةـ ، بـيـرـوـتـ ، ٢٤٤/١١

صحتها ، " فإذا وصل بحث الباحثين في أمور الكون إلى حقيقة مخالفة لظاهر الوحي فيها ، وصار ذلك قطعيا ، وجب تأويل عبارة الوحي فيها ، بحملها على التجوز أو الكنية أو مراعاة العرف ، كغروب الشمس في العين أو البحر مثلا ، وتخبط الشيطان المتصروع في قول ونعتقد نحن عشر المسلمين ، أن مزايا كتابنا أنه ليس فيه نص قطعي الدلالة يمكن أن ينقضه دليل عقلي أو علمي قطعي. " ^{٢٩٠}

الإسلام دين البشرية الخالد ، أنزله العليم الخبير لهداية الإنسان إلى يوم الدين ، فلا تحده حدود الزمن ، ولا حدود القطر والإقليم ، وتعاليمه نوعان نوع يزكي النفس البشرية ، ويظهر روحها بمعرفة الله ، وما تتضمنه هذه المعرفة من أصول الإيمان ، وما تقتضيه من أنواع العبادات ، فهذا النوع من التعاليم تكفل به الوحي ، وفصله تفصيلا ، ولم يدع فيه مجالا للاجتهاد البشري . وأما النوع الثاني: فهو ما يتصل بحياة الناس في هذه الدنيا ، من تشريعات تنظم السلوك البشري ، وعلاقات بعضهم البعض ، وما يرشد إلى المنافع المختلفة التي أوعها الله في هذا الكون ، الذي خلقه الله للإنسان ليعمره بطاعة الله ، فهذا النوع من التعاليم المقدسة فيه مجال واسع للعقل البشري ، بعد التقييد بما ورد فيه من الأصول والكليات ، وبعد رعاية مقاصد الشريعة. ^{٢٩١}

يرفض السيد رشيد رضا ، مقارنة الإسلام بغيره من الأديان السماوية ، التي اطرحها أهلها ، وأزاحوا تعاليمها عن واقعهم ، وتحرروا من سلطان رجالها ، ويعذر رشيد هؤلاء في صنيعهم ، لأن الكنيسة بتعاليمها المحرفة ، وسلطة رجالها المطلقة ، قد جرّت على المجتمعات الأوروبية الويلاط ، وسامتهم سوء العذاب ، فلا يلامون على ما فعلوا بالكنيسة وتعاليمها ، ولا يكذبون فيما يزعمون ، من إصابة التقدم بعد التخلص منها. أما أن يكون ذلك تبريرا لأهل الإسلام في ترك دينه ، وهجر كتابه إذا أرادوا النجاح والتقدم ، قياسا على حال أوروبا مع دينها ، فهذا قياس مع الفارق ، وباطل من القول وزور ، فتعاليم الإسلام على خلاف تعاليم أديان أهل الكتاب خالدة سرمدية ، وعامة شاملة للناس كافة ، ومنزهة عن التحرير والتبديل والعبث البشري ،

وَقَائِمَةٌ عَلَى الْيُسُرِ وَالْمُرْوَنَةِ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شُورَى بَيْنَهُمْ فَلَا تَسْلُطُ وَلَا
 اسْتِبْدَادٌ بِاسْمِ الدِّينِ ، وَقَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَشَارِزُهُمْ فِي الْأَمْرِ)^{٢٩٢}
 وَ(فَذَكَرْ إِلَيْمَا أَنْتَ مُذَكَّرْ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرِ)^{٢٩٣} وَ(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلِ)^{٢٩٤} وَ
 (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارِ)^{٢٩٥} "فَأَيْنَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ مُلْكِهِ يَدْعُونَ رُؤْسَاؤُهُمْ أَنْهُمْ وَكَلَاءُ اللَّهِ فِي
 الْأَرْضِ ؟ هَلْ يَقْاسِ النَّقِيضُ عَلَى النَّقِيضِ ؟"^{٢٩٦} وَيَدْعُو رَشِيدُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِفَادَةِ
 مِنْ مَنْجَزَاتِ الْحَضَارَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ ، وَالْإِقْتِبَاسِ - عَلَى بَصِيرَةِ - مِنْ عِلْمَهَا وَفَنَّونَهَا
 وَصَنَاعَاتِهَا ، وَكُلُّ مَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ مِنْ الرُّقِيِّ الْعَلْمِيِّ وَالْتَّقْنِيِّ ، فَيَقُولُ : "إِنَّا فِي أَشَدِ
 الْحَاجَةِ إِلَى الصَّنَاعَاتِ الْإِفْرَنجِيَّةِ وَمَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْفَنُونِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَإِلَى
 الْإِعْتِبَارِ بِتَارِيْخِهِمْ ، وَأَطْوَارِ حُكُومَاتِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ بِالْإِقْتِبَاسِ ذَلِكَ
 جَمَاعَاتٍ مِنَ يَجْمِعُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَفْظِ مَقْوِمَاتِنَا وَمَشَخَصَاتِنَا ، وَأَرْكَانَهَا : الْلُّغَةُ ،
 وَالْدِينُ وَالشَّرِيعَةُ وَالْآدَابُ ، فَمَنْ فَقَدْ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَقَدْ جَزَءاً مِنْ نَفْسِهِ."^{٢٩٧}

جهوده في التجديد الإسلامي

كان رشيد أحد الأقطاب الثلاثة لمدرسة التجديد الإسلامي ، التي ترَعَّمُ بها
 السيد جمال الدين الأفغاني ، ونظر لها الشيخ محمد عبده ، ونشر أفكارها ومبادئها
 السيد رشيد رضا ، ولم يكن الثلاثة سواء ، بل كان عبده حلقة بعد الأفغاني ، ورشيد
 حلقة بعد عبده.^{٢٩٨} عني الأفغاني بمحاربة الاستعمار الأوروبي والاستبداد الإسلامي
 وعن عبده بالإصلاح التعليمي والتربوي ، كما عني رشيد بالإصلاح العقدي
 والتجديد الفقهي ، وكان القاسم المشترك بين الثلاثة ضرورة الاستناد إلى الشريعة
 الإسلامية في الإحياء الإسلامي المنشود ، وإمكانية الجمع بين المحافظة على
 المقومات الإسلامية ، وبين الإفادة من منجزات الحضارة الغربية.

^{٢٩٢} - سورة آل عمران: آية ١٥٩

^{٢٩٣} - سورة الغاشية: آية ٢٢-٢١

^{٢٩٤} - سورة الأنعام: آية ١٠٧

^{٢٩٥} - سورة ق: آية ٤٥

^{٢٩٦} - المنار: ٨٤٥/٢٢/٥

^{٢٩٧} - السابق: ٥/١/١٧

^{٢٩٨} - فلسفة المشروع الحضاري: ٣٨٧/١

كان رشيد رضا أكثر محافظة من شيخيه ، وأقرب إلى مذهب السلف منهم وخلص بحكم ثقافته الدينية الواسعة ، وميله إلى أفكار مدرسة ابن تيمية فيما بعد من شوائب وحدة الوجود ، وأفكار الاعتزال ، ودسائس الماسونية وغيرها من السلبيات ، التي لابست المدرسة الإصلاحية الإسلامية إبان نشوئها وفي عهد الشيوخين المؤسسين لها.^{٢٩٩}

ترعرع رشيد المدرسة الإصلاحية الإسلامية ، في وقت شهد تطورات قاسية على الأمة الإسلامية ، وخير ما يستعار لوصف هذه الفترة قول الأستاذ محمد الخير عبد القادر : "عندما تم القضاء على الثورة العربية في مصر ١٨٨٢م وتوفي الأفغاني في سنة ١٨٩٧م وأطاح بالسلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩م إثر انقلاب عسكري في الأستانة ، وأسقطت الخلافة الإسلامية في عام ١٩٢٤م خلا الجو لسلطات الاحتلال الأوروبي ، ومن سار في ركابها من دعاة "التغريب" ، للهجوم على التراث الإسلامي ، والتبشير بالفكر الغربي اللاتيني ، وتوجيه السياسة التعليمية ، وتسخير أدوات الإعلام في الأقطار الإسلامية لتحقيق أهداف السياسة الغربية".^{٣٠٠}

في هذه الفترة الحرجية ، قاد رشيد سفينة الإصلاح الإسلامي ، في بحر لجي تتلاطم فيه أمواج عاتية ، تستهدف السفينة الإسلامية ، دون غيرها من السفن الليبرالية والقومية والوطنية والتبشيرية والاستعمارية ، والغريب في الأمر أن خصوم الفكر لرشيد رضا ، كان معظمهم من تلاميذ شيخه محمد عبده ، لأن الفكر التوفيقى الذي أرساه شيخه ، كان بمثابة المحولة التي انطلقت منها تيارات مختلفة ، بل متناقضة الاتجاه ، أصبحت فيما بعد مفترق الطرق لأهم التيارات الفكرية السلفية والليبرالية والعقلانية المدنية والفلسفية التي نشأت فيما بعد في العالم العربي.^{٣٠١}

تطور المدرسة الإصلاحية على يد رشيد رضا ، وأخذت سمتا جديدا عندما نأى بها عن النهج الاعتزالي والفلسفية العقلانية ، وأخذ يؤصل للعودة إلى الأصول السلفية المأمونة ، "ومن خلال آرائه ، وتشبع طائفة كبيرة من الناس بها صمد الوعي

^{٢٩٩} - قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين: ^٨

^{٣٠٠} - الإسلام والغرب دراسة في قضايا الفكر المعاصر: محمد الخير عبد القادر ، دار الجيل ، بيروت والدار

السوداني للكتب ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ١٠

^{٣٠١} - رضوان زيادة ، ص ٦١

الديني في خطوط المواجهة ، أمام استعلاء الوعي القومي ، بعد ثورة ١٩١٩ من ناحية ، وأمام الانقلاب التركي من ناحية ثانية.^{٣٠٢}

دوره في نشوء الحركات الإسلامية

ويقاد الباحثون يجمعون ، على ما لآراء وأفكار السيد رشيد رضا من التأثير المباشر ، على نشوء الأصولية الإسلامية المعاصرة بمختلف تجلياتها. يقول أحد الباحثين : " كانت مصر ، وكان السيد رشيد رضا ، البيئة التي ظهر فيها الفكر الإسلامي المعاصر ، أو ما نسميه فكر الهوية الإحيائية ".^{٣٠٣} ويقول آخر بعد حديثه عن تشتت مذاهب تلاميذ الشيخ محمد عبده : " كما أن إسلاميا ، كان أحد أبرز تلاميذه أي : الشيخ (رشيد رضا) قد ساعدت آراؤه المتلاقيه مع أفكار (ابن تيمية) ، على التمهيد الفكري لنشوء الأصولية الإسلامية ، في عام ١٩٢٨ ".^{٣٠٤} ويقول ثالث : " ثم لاح فجر اليقظة الإسلامية الحديثة ، عندما الفت جهود تلاميذ الأفغاني - أمثال الشيخ رشيد رضا - بعطاء رواد الفكر الإسلامي المعاصر ، فبدت طلائع الحركة الإسلامية المعاصرة ، خلال النصف الأول من القرن العشرين ".^{٣٠٥} وكان رشيد قد أرسى قواعد المدرسة الإصلاحية ، وأقام معالم الحركة التجديدية التي تطورت على يديه ، من خلال مجلة المنار التي كانت تعتبر مؤسسة فكرية قائمة بذاتها ، ومن خلال التلاميذ الأذكياء الذين تربوا على يديه والذين قامت بجهودهم مؤسسات الصحة الإسلامية بعد التمهيد الفكري ، والتنظيمي الأدبي لمدرسة المنار ، التي وصفها الشيخ محمد الغزالى بأنها " أذكي مدرسة في العصر الحديث .. التي صالحت بين السلف والخلف ، والعقل والنفل والاجتهاد والتقليد ، ورسمت أهدافاً واضحة للنهوض بالعقل الإسلامي والطبّ لأمة عليلة ".^{٣٠٦} ومن هؤلاء

^{٣٠٢} - الصراع بين القديم والحديث في الأدب العربي الحديث: د. محمد الكتاني ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م ، ٨٩/١

^{٣٠٣} - تعقيب على "السلفية حدودها وتحولاتها" ، ندوة الفكر العربي المعاصر تقييم واستشراف: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، ٢٦ م ، العددان ، ٣ ، ٤ ، ١٩٩٨ م ، ص ١٠٠

^{٣٠٤} - عصر النهضة ، محمد سيد رصاص ، الاجتهاد ، العددان ، ٥٥ ، ٥٦ ، السنة ١٥ ، عام ٢٠٠٢ م ، ص ٢٤٥

^{٣٠٥} - الإسلام والغرب دراسة في قضايا الفكر المعاصر ، ص ٣٤

^{٣٠٦} - تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: محمد الغزالى ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، ص ٥٣

التلاميذ الأذكياء ، الشيخ عبد الحميد بن باديس ، العالم الرباني والزعيم السياسي الجزائري ، الذي يقول في التأثير الحميد لأستاذه على الفكر الإسلامي المعاصر : " فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم - إصلاحاً وهداية ، بياناً ودفاعاً - كلها من آثاره ".^{٣٠٧} ومنهم الإمام حسن البنا^{٣٠٨} مؤسس حركة الإخوان المسلمين ، الذي يقول في افتتاحية العدد الأول لمجله " الشهاب " عن مجلة المنار : " أسست مدرسة فكرية تقوم على قواعد هذا الإصلاح الإسلامي الجليل ، لا زالت آثارها باقية في نفوس النخبة المستيرة من رجال الإسلام إلى الآن ".^{٣٠٩} ومنهم الشيخ محمد حامد الفقي ، مؤسس جمعية أنصار السنة المحمدية في مصر ومنشئ مجلة " التوحيد " التي تصدر حتى اليوم في مصر.^{٣١٠} وغيرهم من تلاميذه في مدرسة الدعوة والإرشاد ، وقراء مجلته الإصلاحية وكتبه الإحيائية الذين نشروا فكره في شتى الأقطار الإسلامية.

مواقفه السياسية

إن من مقومات الإصلاح الديني الإصلاح السياسي المدني " على أن الإصلاحين متلازمان في الأمة الإسلامية ، لا يقوم أحدهما حق القيام إلا بالأخر ، والشريعة الإسلامية هادية للإصلاحين ، إذ كل صلاح للعباد يتعلق بالمعاش والمعاد فقد فرره الإسلام ".^{٣١١} هذا ما افتتح به السيد محمد رشيد رضا بعد أن انفصل من جاذبية أستاذه ، واستقل بالكفاح والجهاد في سبيل الإصلاح الذي جمع بينهما ، حيث كان لأستاذه رأي آخر في السياسة ، فكان يوجه جهوده وجهود تلاميذه ، إلى الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي ، وينفرهم من التعاطي السياسي ، ولا يمكنهم من الخوض في غماره. يقول رشيد مثيراً إلى ذلك : " سالمنا السياسة فساورت ووثبت

^{٣٠٧} - عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ، مصطفى محمد حميداتو ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، قطر ، الطبعة الأولى ، ص ٧١

^{٣٠٨} - فلسفة المشروع الحضاري: ٤١١/١

^{٣٠٩} - الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: ١٥٩

^{٣١٠} - السابق: ١٦٣

^{٣١١} - المنار: ٧٦٤/٣٩/١

، وأسلسنا لها فجمحت وتقحمت ^{٣١٢} ، وكنا نهم بها في بعض الأحيان فيتصدف بنا عنها الأستاذ ، ولم نزل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله،" ^{٣١٣}

اعتدل رشيد في تعاطيه السياسي ، فكان وسطاً بين شيخيه ؛ الأفغاني وعبدة ، إذ كان الأول مغرياً بها ، صارفاً إليها كل همه ، ومعظم جهوده وكفاحه بينما كان الثاني ضارباً الصفح عنها ، كارها لها وللمشتغلين بها ، فكانا كما وصفهما رشيد بقوله : " بيد أن كلاً منهما حكيم عاقل ، وأن السيد جمال الدين رجل دين وإن غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدين ." ^{٣١٤} أما هو فقد " استقاد مما ذهبا إليه ، ومضى على سنتهما ، وجمع بين خططيهما ، وبنى على أساسهما ، فله رأي صائب في السياسة ، وأثر محمود فيها ." ^(٢) وكان من علماء المسلمين القلة آنذاك الذين كانت لهم جهود إصلاحية في الميدان السياسي ^{٣١٥} وأسهموا في بلورة خطاب إسلامي معتدل لكافة القضايا التي كانت تهم الأمة .

٣١٦

كانت لرشيد رضا آراء وموافق في المعضلات السياسية التي كانت تجتاج الساحة العربية والإسلامية ، ومن أهمها ؛ الخلافة العثمانية التي أصابها الهرم واستعانت على الإصلاح والترميم ، والقضية العربية التي برزت بعد هبوب رياح العصبيات على الشعوب والطوائف التي كانت تضمها الإمبراطورية العثمانية ، مما أدى إلى انفصال بعض منها ، وتململ آخرين تحت فهر الحكومة ، إضافة إلى قضايا الاستعمار الغربي ، والمبشرين واليهود وغير ذلك من القضايا الأخرى الشائكة .

أما موقف رشيد رضا من الخلافة العثمانية ، فكان موقف المؤيد لها والمنحاز إليها في جميع الظروف والأحوال ، وهو موقف ي ملي عليه اعتقاده الديني ، الذي يتلخص في ضرورة الحفاظ على آخر سلطة تمثل الخلافة الإسلامية مهما بلغ ضعفها وبدا من عيوبها ، وليس هذا رأياً خاصاً به ، بل رأي كل عربي غير

^{٣١٢} - تجمعت : امتنعت (القاموس المحيط : ٣٠٣/١)

^{٣١٣} - السيد رشيد رضا: ١٧٩

^{٣١٤} - تاريخ الأستاذ: ١/١

^(٢) مجلة المنار ، م ٣٥ ، ٩ ، ص ٧٠٥

^{٣١٥} - الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: ١٢٥

^{٣١٦} - الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: ١٦٥

معتبر. كما يقول رشيد : "لها أجمع طلاب الإصلاح في العرب ، الذين يعتد برأيهم ، ويرجى تأثير عملهم ، على أن لا يكونوا سبباً لسقوط الدولة وزوالها .. وعلى أن يجعلوا همهم في إصلاح أنفسهم وعمارة بلادهم ، مع النصح للدولة والإخلاص لها".^{٣١٧}

ولما زار رشيد رضا عاصمة الخلافة بعد إقرار الدستور ، سعى إلى التوفيق بين العرب والأتراء ، وإزالة الشقاق والخلاف بينهما لمصلحة الإسلام والمسلمين ، لاقتناعه الكبيرة بأن في اتحاد العرب والترك عزة الإسلام والمسلمين لأن العرب مادة الإسلام وأرومته ، منهم بعث النبي ، وبلغتهم نزل الوحي ، وفي أرضهم بزغ نور الإسلام ، وفاض على المعمورة بجهود أجدادهم ، الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإلى الكعبة المشرفة يقصد الناس في الصلاة وفي الحج والعمرة وللترك ما لا ينكر من المآثر الحميدة ، والبلاء الحسن في نشر الإسلام ، والدفاع عن بيضة المسلمين في وقت كاد نور الإسلام ينطفئ ، فنشروا أعلامه من جديد ، وأعلوا مناره في جزء كبير من أوروبا بعد أن شرفهم الله بفتح مدينة القسطنطينية ، وأسسوا للإسلام إمبراطورية منقطعة النظير ، فإذا اجتمع هذان العنصران عظم رجاء المسلمين في بقاء خلافتهم ودوم عزهم ، وإن اختلفا ، ووقع الشقاق بينهما كان ذلك خسارة عليهما وعلى الأمة الإسلامية جماء".^{٣١٨}

وعندما استبدت العناصر التركية المتعصبة بالحكم في تركيا ، وخيبوا آمال الأجيال غير التركية ، التي كانت تعول على الدستور في نيل حقوقها ، وإصلاح حال الدولة المتردي ، ثم مارسوا التكبيل والاضطهاد على الشعب العربي ، وارتکب جمال باشا ؛ السفاح التركي ، حاكم سوريا ، المجازر البشعة المعروفة ، لم يثن كل ذلك رشيد رضا عن قناعاته وملاماته السياسية ، وعن رؤيته الإسلامية المعتدلة المستنيرة ، ولم يزد على أن أعلن الحرب الأدبي على المستبددين الجدد ، فكان يصلحهم نقده اللاذع ، ويمارس كل الوسائل الأدبية لردعهم عن غيهم ، غير أنه لم يفكر في دعوة العرب إلى العصيان ، والسعى إلى إقامة دولة عربية منفصلة

^{٣١٧}- المنار: ٤٤/١٢٠
^{٣١٨}- المنار: ٩١٣/١٢/١٢ ، ٨١٨/١١/١٢

ومستقلة عن الترك ، لأن ذلك سيؤدي إلى في نظر رشيد إلى فساد كبير ، عبره بقوله : "أيجهل أحد من طلب الإصلاح العرب أن هدم آخر سلطنة إسلامية مهما يكن سببه الحامل عليه لا يعقب الساعي إليه والقائم به ، إلا لعن مئات الملايين من المسلمين إلى يوم الدين." ^{٣١٩}

وكل ما قام به رشيد رضا من النشاط السياسي ضد الدولة العثمانية ، من الانخراط في الأحزاب والجمعيات السياسية ، والتأييد لبعض الثورات العربية ومشايعته لبعض الانفصاليين العرب ، لم يخل من النظر للمصلحة العامة للخلافة وللأمة عامة ، فهو حين يشارك في تأسيس "حزب الاتحاد السوري" يراعي وحدة السوريين ، ويسد في وجه الانفصاليين اللبنانيين الذين كانت تدفعهم بعض الحكومات الاستعمارية إلى الاستقلال على أساس الدين النصراني فهو إذا يرتكب محظوراً درءاً لمحظور أكبر منه. يقول: "ورضي كاتب هذه السطور بأن يكون من مؤسسي هذا الحزب ، المخالف لمذهبه السياسي في الجامعة العربية ، من وجوب اتحاد جزيرة العرب بالولايات العربية العثمانية ، للحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسوريا". ^{٣٢٠}

وحين يؤيد ثورة الشريف حسين في مكة ، يؤيدها لأهداف ثلاثة ، ليس من بينها رغبة في السعي إلى إقامة دولة عربية ، مستقلة عن الترك ، يقول في شرح هذه الأهداف : "و كنت أرى أن مبارزته العداوة للفئة المتغلبة ، قد يقف بغي زعمائها على العرب ، عند حد ما اجترح جمال باشا من الموبقات .. وأن نفع الحركة الحجازية ، محصور في هذه الفائدة ، وفي إغاثة جيران بيت الله من المجاعة والهلكة المخيفة ، وفي الاحتياط لما يجب إذا سقطت الدولة". ^{٣٢١}

أما لماذا لم يؤسس العرب دولة عربية بديلة عن الإمبراطورية العثمانية المتهاوية ، وقد ظهر عجزها عن سيطرة أقاليمها ، والدفاع عن ولاياتها ، مع ما عرف عنها من سوء نية حكامها الجدد ، من ذوي النزعة الطورانية تجاه العرب ، فإن رشيداً يجيب برفض ما يزعم من خوف العرب من هيبة وقهر الترك ، لأن

^{٣١٩} - المنار: ٤٤/١/٢٠

^{٣٢٠} - السابق: ٢٠٤/٤/٢١

^{٣٢١} - السابق: ١٧٥/٤/٢١

العرب أقوى من بعض القوميات الأوروبية التي انتزعت استقلالها بالقوة ، كما يرفض تعليل ذلك باختلاف العرب ، وتفرق أهواه أمرائها ، أو جهلهم الفادح المعمي عن العواقب المحمودة في الاستقلال والوحدة العربية ، وإنما مرد ذلك شيئاً أساسياً هما الخوف من الإقدام على تقويض أركان الخلافة الإسلامية بانسحاب العرب منها ، والخوف من أوروبا التي تترىص أدنى فرصة للانقضاض على الولايات العربية العثمانية "فتبيّن بهذا أن ما كان يصد زعماء العرب من المسلمين عن التصدي لتأسيس دولة عربية أمران : الإسلام والخوف من أوروبا ، وكان الرجحان في بعض الأحوال للأول وفي بعضها للثاني ، ولكنهما كانا في عامة الأحوال والأوقات مانعا واحدا ، أو سببا مركبا من أمرين ، كل منهما يقوى الآخر".^{٣٢٢}

كانت رؤية رشيد السياسية مرنّة ، بحيث تتسع لأمور تبدو متناقضة ومتناكسة ، فهو يدعو إلى الجامعة الإسلامية ، ويشارك في قضايا الجامعة العربية ، بل في قضايا الشرق ، ولا يرى في ذلك تعارضا ولا تصادما ، بل هي حلقات يكمل بعضها بعضا^{٣٢٣} ويؤكّد على هذا صديقه شكيب فيقول : "وكانت إلى جانب نزعته الإسلامية المضطّلة نزعة عربية لا تقل عنّها تمضّلاً وكان يجمع بينهما دون أدنى تكّلف".^{٣٢٤}

ومما سهل الأمر على رشيد ، أن رؤيته السياسية تتطاول من الإسلام ، و تستند إليه ، فأي شيء يعارض الإسلام لفظه ورفضه ، ولهذا يقول : "وإنني أحمد الله عز وجل أن جعل مصلحة العرب السياسية في عصرنا موافقة لمصلحة المسلمين السياسية ، كما أبینه في هذه المقالة ، ولو تعارضتا لقدمت ما يوجبه على ديني على ما تقتضيه مصلحة أبناء جنبي".^{٣٢٥}

كان رشيد يدرك النهاية الوشيكة للخلافة العثمانية ، وأن الدول الاستعمارية قد أعدت خططها لاقتام ميراثها ، وأن أهم هذا الميراث هو الولايات العربية العثمانية ، وأن ما تنتظاهن به الدول الأوروبية من حرصها على وحدة أراضي الخلافة ، إنما هو

^{٣٢٢} - المنار: ١٦٧/٤/٢١

^{٣٢٣} - ديوان النهضة : محمد رشيد رضا ، اختار النصوص وقدم لها أدونيس وخالدة سعيد ، دار العلم للملايين ،

٩٧ - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م ، ص

^{٣٢٤} - السيد رشيد رضا ، ص ٢٥٩

^{٣٢٥} - المنار: ٣٣/١/٢٠

لكسب الوقت ، وترتيب الحسابات فيما بينها ، وتنبه إلى أن أخشى ما تخشاه هذه الدول الأوربية المستعمرة وحدة العرب ، أو قيام دولة ذات شأن في مصر أو في الشام أو في أي مكان من أرض العرب ، لعلها بأن العرب يملكون من الرصيد الأدبي والحضاري ، ما يحفزهم إلى استعادة مجدهم ، وتجديد ما اندرس من سيادتهم وملكيتهم ، ولهذا حرصت على أن تبقى الولايات العربية في حوزة الدولة العثمانية ، لتكون من تركة الرجل المريض وتقسم حين يموت ، وفيها الصدد يقول رشيد رضا : "إن هؤلاء الأوربيين لم ينسوا عداوتنا عشر العرب ، حتى إنهم كانوا الحائزين دون تأسيس (الإمبراطورية) العربية ، التي شرع فيها محمد علي الكبير في مصر وسوريا والسودان ، وأكرهوه على أن يظل خاضعاً للسياسة العثمانية ؛ عدوهم الكبرى في الشرق ، لعلمهم أنها سائرة إلى الانحلال والاضمحلال".^{٣٢٦}

عندما حاول رشيد عقب الحرب العالمية الأولى أن يستغل العداوة بين إنجلترا والدولة العثمانية ، وأن يكسب عطف إنجلترا على العرب ، الذين ساندوها في الحرب ، اكتشف أن إنجلترا رغم كرهها الشديد لتركيا ، لا تزيد للعرب خيراً فأخذ يحذر منها ، ومن نواياها السيئة تجاه العرب ، فقبضوا عليه ، وأرادوا نفيه إلى "مالطا" ثم تركوه خشية الإثارة ، وجعلوه تحت المراقبة.^{٣٢٧}

وكان لرشيد رضا سعي محمود ، وجه مشكور ، في السعي للقضية العربية ، والشكوى من الاستعمار الفرنسي والبريطاني للأراضي العربية ، إلى المحافل الدولية ، وسافر مع وفد من السوريين والفلسطينيين إلى جنيف ، ورفعوا مظلومهم إلى مندوبي الدول المعنية ، وكاتب بوصفة زعيمها دينياً ، ومفكراً عربياً بارزاً ، إلى رؤساء بعض الدول الأوربية ؛ مثل إنجلترا وإيطاليا ، يناقشهم في الشأن العربي ، محاولاً إقناعهم بما فيه المصلحة للجميع ، حسب رؤيته ، فكان بذلك من أكثر الوطنيين العرب نشاطاً وجهاداً في سبيل القضايا العربية.^{٣٢٨}

وكان رشيد يرفض الخنوع والخور والسلبية ، من قبل الشعب الراوح تحت الاحتلال ، بل كان يرى أن من أفضل الجهاد للتغلب على المستعمر هو العمل بما

^{٣٢٦} - المinar: ٥٩٥/٨/٣٢

^{٣٢٧} - الأمير شبيب أرسلان: ٣٥٦

^{٣٢٨} - السيد رشيد رضا: ٣٢١

يحيي الأمة ، ويعز الملة ، من نشر التعليم والوعي الإسلامي ، وترقية مدارك الأمة وتحريرها من الأوهام والخرافات ، وإطلاق طاقاتها وقدراتها في الكسب والسعى ، وهذا أمر لا يعارضه المستعمر ، ويرفض أن يكون هذا من المهادنة أو المسانعة للقوى الأجنبية المحتلة فيقول : " وقد يتوجه ضعفاء العقول أن فيها مسانعة للمحتلين ، وما أنا بمحاج إلى مسانعتهم .. إن أريد إلا إقناع طائفتين من الناس ، بما لو افتقوا به ، رجي أن تستفيد الأمة من علمهم ، الطائفة الأولى : جماعة من أهل المعرفة بما ينفع الأمة ، يصدّهم عن العمل لها ، اعتقاد أن الإنجليز وافقون بالمرصاد لكل عامل لملته ، لأنهم أعداؤها ، ولا قدرة لنا عليهم ، فعلينا السكون والسكوت ، وهؤلاء هم الواهمنون ، والطائفة الثانية : مؤلفة من أفراد كثيرين ، لا يعرفون النافع للأمة والمحبّي للملة ، وإنما يظنون أن الواجب على كل وطني أو مسلم ، أن يعتقد أن كل ما يعمّله المحتلون للبلاد ضار ، فإن كان نافعا في الظاهر ، فهو ضار في الباطن ، وأن يقاوم بالقول ، فيذمّهم ويُقبح أعمالهم .. وهؤلاء هم المخدوعون ، فأولئك لجبنهم لا يعلمون بعلمهم النافع ، وهؤلاء لحمقهم يقولون ما يفعلون".^{٣٢٩}

ومما يدل على بعد نظر رشيد السياسي أنه تبه في وقت مبكر إلى الخطر القادر على فلسطين ، فقد رأى الانجليز يسعون سعيا حثيثا في تمكين اليهود من الأراضي الفلسطينية لأمررين خطيرين : أولهما "لأن لهم رحرا ماليا وسياسيا من مساعدتهم". وثانيهما لأنهم "يبغون أن يكونوا مانعا من بقاء هذه البلاد للعرب وحدهم ، فحالا دون تأسيس الوحدة العربية".^{٣٣٠} فهذه الرؤية الثاقبة جعلت كثيرا من الباحثين يقفون عندها معجبين ومقدرين ومنهم الدكتور سامي الدهان الذي يقول : "وبذلك رقى رشيد رضا إلى منزلة الزعامة السياسية العاقلة ، فرأى الخطر على فلسطين قبل عشرين سنة من الكارثة الفاجعة ، التي بترت عضوا من أشرف أعضائنا في المجموعة العربية".^{٣٣١} ويقول الدكتور حسان على حلاق : " ومن الأهمية بمكان القول ، إنه اتضح لي من خلال دراستي لموافق الزعامات العربية

^{٣٢٩} - ديوان النهضة: ١١١

^{٣٣٠} - المنار: ٦٠١/٨/٣٢ ، ٦٠٣/٨/٣٢

^{٣٣١} - الأمير شبيب أرسلان: ٣٦١

أنها لم تكن على مستوى الخطر الصهيوني .. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد اتضح لي من خلال البحث ، بأن الصحافة العربية لم تكن كلها أيضا على مستوى الخطر الصهيوني ، ولكن شدت عن هذه القاعدة مجلة "المنار" ووعى صاحبها رشيد رضا هذا الخطر الذي نبه إليه منذ عام ١٨٩٨.^{٣٣٢} كما تتبأ رشيد من خلال تجاريه ، وتتبعه لهذه القضية ، ومن خلال علمه بالتعاليم الدينية التي يستلهم منها الصهاينة أن أطماعهم لن تقتصر على فلسطين ، بل سيسعون إلى مد مملكتهم إلى مناطق شاسعة من البلاد العربية وفي هذا يقول : "وهم يعلمون أن أرض فلسطين وحدها لا تكفي اليهود لتأسيس وطنهم القومي ، وإعادة ملك إسرائيل ، فلا بد لهم من شرق الأردن ، وما ضمه الانتداب من أرض الحجاز بل لا بد لهم من إعادة ملك سليمان كله".^{٣٣٣} وكان رشيد عادلا وواقعا في مناقشه للقضية اليهودية ، وما يزعمونه من حق في فلسطين ، فأثبتت لليهود المواطنين والمستعربين ، الذين لم يبرحوا فلسطين حقا مشرعوا ، يتساوى مع حق المواطنين الفلسطينيين الآخرين ، وأما اليهود المهاجرون ، الذين جاءوا لاحتلال فلسطين ، فهولاء غزة يجب طردتهم. يقول رشيد في هذا الصدد : "الحق أقول لكم إن الإسلام يسمح لنا أن نتفق مع اليهود الوطنيين المستعربين ، الذين يعيشون معنا على قاعدة شرعنا (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) ولكنه لا يسمح لنا بأن نتفق مع الصهيونيين الأعاجم الذين يريدون سلب وطننا وجعله وطنا عربانيا لهم ، فنحن خصوم لهؤلاء دون سائر اليهود".^{٣٣٤} ومن أهم القضايا التي ناضل في سبيلها السيد رشيد رضا الخلافة الإسلامية وهي قضية ذات بعد ديني وسياسي ، ولها ارتباط بقضية الجامعة الإسلامية التي دعا إليها كل من جمال الدين الأفغاني ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وغيرهما من الإصلاحيين المسلمين ، وبما أن رشيدا عاصر إلغاء الخلافة الإسلامية ، وآلت إليه زعامة حركة التجديد الإسلامي ، فقد صاغ خلاصة فهمه و موقفه من قضية الخلافة ، التي لم تعد موجودة لأول مرة في تاريخ الإسلام المديد ، في كتابه "الخلافة أو الإمامة العظمى" الذي اعتبر "من أكثر المؤلفات التي حددت الإشكاليات الفكرية والثقافية ،

^{٣٣٢} - دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش: ١٠٠

^{٣٣٣} - المنار: ٦٠٣/٨/٣٢

^{٣٣٤} - السابق: ٦٠٤/٨/٣٢

التي برزت في تلك المرحلة ، وكشفت عنوعي وإدراك بطبيعة تلك الإشكاليات ، وقدم حولها وجهات نظر واجتهادات مصممة .^{٣٣٥} فبعد أن تحدث عن مفهوم الخلافة ، ونظام اختيار الخليفة وعن أهل الشورى وعن مؤهلات كل من الخليفة وأهل الشورى "جلا الكتاب كثيرا من الشبه التي علقت أوهامها بعقول كثير من الناس ، وأهمها مسألتان : ما يظنه الناس من تعارض الحكم الديني مع حق الشعب في التشريع ، وما يظنه بعضهم من أن الخلافة - كالبابوية - تتطوّي على الاستبداد الديني ."^{٣٣٦} فقال في مناقشة الشبهة الأولى : "فثبت بهذا أن للإسلام اشتراطاً مأذونا به من الله تعالى ، وأنه مفوض إلى الأمة ، يقره أهل العلم والرأي والزعامة بالشورى ، وأن السلطة في الحقيقة للأمة فإذا أمكن استفتاؤها في أمر وأجمعـت عليه فلا مندوحة منه ، وليس للخليفة - ودع من دونه من الحكام - أن ينقض إجماعها ولا أن يخالفه ، ولا أن يخالف نوابها وممثليها من أهل الحل والعقد أيضا ."^{٣٣٧} وبهذا ينتفي ما زعمه بعض الباحثين من تخلّي رشيد عن "القول بالمحاكاة أو التمايز بين الشورى والدستور والديمقراطية ، وألف كتابه الخلافة أو الإمامة العظمى الذي كان فيه إجماعيا تقليديا وليس إحيائيا على أي حال ."^{٣٣٨} وأما شكل إقامة نظام الخلافة فأمر اجتهادي يخضع لظروف المرحلة واجتهادات الآخرين به ، وكان من تصوره "قيام حكومات إسلامية مختلفة تباشر الحكم في أقاليمها على أن تجتمع في صورة نظام اتحادي إسلامي تحت رئاسة الخليفة الأعلى للمسلمين ويقوم إلى جانب كل حكومة اتحادية مجلس للشورى ."^{٣٣٩} كان رشيد على وعي بطبيعة المرحلة ، التي وضع فيها كتابه ، ومن ثم يخطئ من يظن أن رشيدا كان يطالب معاصريه بتنفيذ ما قرره أو اقترنه ، وإنما وضع الكتاب من باب التأصيل الشرعي ، ولئلا يقع في وهم الناس أنه يمكن الاستغناء عن إقامة الخلافة ، ولدفع هذا الوهم يقول رشيد : "مسألة الإمامة لم أقصد بما بينته من الحقائق فيها أن أكلف مسلمي اليوم إقامتها على الوجه الذي بينته ، بنصب إمام يتولى أمورهم كافة ، فإنني لا أعيش في عالم الوهم

^{٣٣٥} - صدمة زوال الخلافة العثمانية في الفكر الإسلامي في العشرينات: ٢٨٥

^{٣٣٦} - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٦ ، ٦٥/١

^{٣٣٧} - الخلافة: ١٠٤

^{٣٣٨} - رضوان السيد ، ص ١٠٠

^{٣٣٩} - الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث: ٨٩/١

والخيال ، فأكلف هؤلاء المساكين .. أمراً عظيماً أعتقد أنه منتهى الكمال .. وإنما قصدت أن أعرف المستعد للعلم والفهم الصحيح هذه الحقائق .. عسى أن يسعوا له بالتعاون على وضع خطة لإحياء الإسلام." ٣٤٠

الفصل الثاني

أدب السيد رشيد رضا

المبحث الأول :

شعر السيد رشيد رضا

المبحث الثاني :

نشر السيد رشيد رضا

المبحث الثالث :

نقد السيد رشيد رضا

المبحث الأول : شعر السيد رشيد رضا

توطئة : رشيد رضا الشاعر

لعل الميل الفطري إلى الأدب ، الذي تحدث عنه رشيد أنه وجده في نفسه في صباه كان إرهاصاً بالموهبة الشعرية الكامنة في نفسه ، فحركته إلى الاهتمام بكتب الأدب والشعر في وقت مبكر من صباه ، بعد تعلمه القراءة والكتابة في المكتب ، وقبل أن يلتحق بالدراسة الابتدائية ، فعكف على مراجع الأدب ، ودواوين الشعراء ، فحفظ الكثير من الشعر العربي الجيد ، ووضع لنفسه مختارات وكان من نتيجة ذلك - مع الموهبة الشعرية المودعة في طبعه - أن بدأ في قرض الشعر في مناسبات تعرض له ، فكان في البداية ينشد لأترابه ولا يذيعه بين الناس ، إلى أن مات أحد أقارئه ذات يوم ، فنظم مرثية فيه ، أنشدت في حفل التأبين ، وعرف صاحبها ، ومنذ ذلك الحين ، بدأ رشيد يكرس في إظهار شاعريته ، فتوالت مراثيه فيمن فجع بهم من أسانتنته ومشايشه ووجهاء بلده ، وشارك بشعره في مختلف المناسبات الاجتماعية ، فرثى ، ومدح ، وهنّا ، فلما امتد به العمر ، ونبغ في علوم الشريعة ، وتصدى للدعوة والإرشاد ، خبت جذوة شعره ، لتحول اهتمامه عنه ، وربما كان لتدينه الشديد ، وزهده الذي تذبذب فيه بين الصوفية والسلفية في مرحلة شبابه ، أثر في نضوب معين شعره ، ولعل ما يصور طرفاً من ذلك قوله في معرض حديثه عن زهده : "وكنت قد تعودت قبل ذلك ، إنشاد الشعر في الخلوة وأوقات الفسحة ، فاستبدلت بذكر الله تعالى غالباً ، وقد تغلبني العادة ، فأتذكر وقد أنشدت نصف البيت فلا أتمه".^١ فإذا كان يترجح من مجرد إنشاد الشعر ، فكيف ينشط في قرضه ؟ وأيا كان السبب ، فقد تخفف رشيد من قول الشعر ، حتى لا يكاد يذكر به ، وهذا ما يشير إليه بعض من ترجم له ، مثل الزركلي الذي يقول : "ونظم الشعر في صباه".^٢ محمد علي كردي الذي يقول : "كان ينظم الشعر قبل أن يحذق العلوم الدينية".^٣ بل إن رشيد رضا نفسه صرّح بأنه ترك الشعر قبل هجرته إلى مصر ،

^١ - السيد رشيد رضا : ٩٣

^٢ - الأعلام: خير الدين الزركلي ، دار العلم للملاتين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ م ١٢٦/٦

^٣ - المعاصرون: محمد كردي علي ، علق عليه محمد المصري ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبعة دار أبي بكر ، ١٩٨٠ ٣٤ م

وذلك حيث يقول معتذراً عن عدم رثاء شيخه حسين الجسر : "وما رثيته ، لأنني تركت الشعر من قبل الهجرة إلى مصر ولذلك لم أرث شيخنا الأستاذ الإمام أيضا ، إلا أنني زدت في مقصوري أبياتاً فيه وفي السيد جمال الدين ، رحم الله الجميع ، وجزاهم خيرا." ^٤

وإذا استثنينا زيادات مقصوريته ، وما تضمنه ديوانه ، فإنه يبدو محقاً في زعمه بترك الشعر قبيل هجرته إلى مصر ، إذ لا يوجد له شعر منشور في جريدة المنار قاله بعد هجرته ، سوى مقطوعتين ، كلتاها في التهنئة ، إحداهما في تهنئة عباس توفيق ؛ خديوي مصر بمناسبة ولادة ابن له ، والأخرى في عيد الجلوس للسلطان عبد الحميد الثاني ، وكلتا القطعتين نظمتا في سنة (١٣١٦هـ) ، وكانت هجرته في سنة (١٣١٥هـ)

أما المقصورة الرشيدية فتعتبر قصيدة واحدة طويلة ، بدأ نظمها قبل الهجرة وأما شعر ديوانه فلم ينشره إلا في الديوان ، ولا أظن أنه أنسده في أي مناسبة ، فهو أشبه بذكرات شعرية احتفظ بها ، ولم ينشرها إلا في آخر حياته ، كما أنه تعبير عن أواخر أيامه ، أو بالأحرى السنوات العشر الأخيرة في حياته ، لأنه من بين ثلاث قصائد أرخ لها ، تكون أقدمها قد نظمت في سنة ٢٩٢٥م ، وكانت وفاته في سنة ١٩٣٥م .

مصادر شعره

استمدت شعر السيد رشيد رضا من ثلاثة مصادر ؛ المصدر الأول شعره المنشور في مكتوباته ، وأهمها مجلة المنار ، وقدمت شعر هذا المصدر ، لأنه يحوي باكورة شعره ، والمصدر الثاني المقصورة الرشيدية ، وقد نشرها شبيب أرسلان في كتابه : "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة" ، والمصدر الثالث ديوانه ، وهو مطبوع.

المطلب الأول: شعره المنشور في كتبه

أما القسم الأول من شعر السيد رشيد رضا ، المنشور في مكتوباته فمعظمه في مجلة المنار ، وفي كتابه "أنا والأزهر" ، ومجموع ما حصل عليه الباحث في هذه المصادر ستة أبيات ومائتان ، وأغلبه يمثل شعره الذي قاله في صدر شبابه ، وفي أيام طلبه للعلم ، في طرابلس الشام ، قبل أن يهاجر إلى مصر ، وهذا القدر ضئيل بالنسبة لهذه الفترة من عمره ، التي كانت أخصب فترة في حياته الشعرية. وبظاهر من دراسة شعره ، أنه لم يعن بنشر شعره كله ، لأسباب ربما من أهمها: ضياع أصولها ومسوداتها ، وهذا ما يشير إليه قوله : "ولا أحب أن يؤثر عني من الشعر غيرها ^٥ إلا أن أجد مسودة القصيدة الشرقية وأنقحها". ^٦ فالقصيدة الشرقية التي تحدث عنها في موطن آخر ، وذكر أنها في عتاب الأمم الشرقية على تخلفها ^٧ مفقودة الأصل ، فلم ينشر منها شيئاً ، ومن ثم لا يعرف عنها سوى اسمها. ومن شعره الذي لم ينشره ، ما لا يراه - على ما يبدو من كلامه - جديراً بالنشر ومن ذلك قصيد قالها في هجاء شخص دعاه إلى بيته لتناول الحلوى ، فلم يحمد الدعوة ، وظن أنه خداع ، فقال قصيدة يهجو فيها الداعي ، وظللت عنده هذه القصيدة إلى أن أتقن علوم العربية ، فرأها صحيحة الوزن والإعراب ، غير أنه لم ينشر منها شيئاً ، ولم يذكرها إلا في معرض حديثه عن سليقته ، وصحة طبعه الشعري ، حتى إن شعره في صغره ، وقبل طلبه للعلم كان صحيحاً الوزن والإعراب ، وهذا أهم ما دعاه إلى ذكرها ، ولذلك قال : "ولم أذكر ذلك إلا للأثراب من أمثالي". ^٨

ومن شعره ما اكتفى منه بنماذج ، ربما لأن المقام لا يتسع لذكره كله لطوله ، أو لعدم مناسبته للمقام ، أو لأنه اختار منه أحسنـه ، ولهذا النوع شواهد كثيرة منها قوله : "وقد كان من أول نظمي للشعر في عهد طلب العلم في طرابلس الشام قصيدة هذا مطلعها .." ^٩ ثم أورد ستة أبيات فقط ، لها صلة بالموضوع الذي كان يعالجـه في مجلة المنار ، (الجمع بين الذكران والإثاث في المدارس ، ومسألة التجديد

^٥ - أي : المقصورة الرشيدية.

^٦ - السيد رشيد رضا: ١١٥

^٧ - السابق ١١٤

^٨ - السابق : ١٠٨

^٩ - المنار: ١١٥/٢/٣

والتجدد) ، ومنها قوله في تقديم (قصيدة الجاذبية) : " وهي نحو من مائة وعشرين بيتا ، نأتي على بعضها هنا على سبيل النموذج. " ^{١٠} ومنها تكريره في أثناء نشر بعض قصائده : " ومنها " مما يدل على أنه اكتفى باختيار نماذج منها ، وهذا كثير.

١١

إن شعر رشيد رضا المنشور في مجلته وكتبه المطبوعة ينتمي في ست عشرة قصيدة . تترواح في حجمها وعدد أبياتها ما بين بيتين وسبعين وبسبعين بيتا فإذا حذف منها ثلاثة تدخل في مقصورته ، يكون الباقي منها ثلاثة عشرة قصيدة ومقطوعة ، وعدد أبياتها كما سبقت الإشارة إليه ستة ومائتان (٢٠٦) أبيات ، أربع منها مراث في شيوخه ، وبعض أقاربه ، ووجهاء مدینته ، وأربع في التهاني ، وثلاث في الغزل ، وواحدة في المدح ، وأخرى في الشأن الاجتماعي . ومن هنا يعلم أن أكثر شعر السيد رشيد رضا في هذه المرحلة شعر مناسبات ؛ مراث ومدائح وتهان.

أما الرثاء فهو أكثر غرض في هذا النوع من شعره في هذه المرحلة ، وفيه قال أولى قصائده ، وربما تكون مرثيته في صهره الشيخ محمود النصري أولى مراثيه ، وكان نظمها في سنة ١٢٩٩هـ ، وهي السنة الأولى من دخوله في المدرسة الوطنية الابتدائية ورثا بعده كثيرا من شيوخه ، الذين تلقى عنهم العلم في طرابلس وغيرهم من أعيان مدینته. ولم يبق من هذه المراثي الكثيرة إلا أربع فقط ، منها التي قالها في صهره الشيخ محمود النصري ، ووصفها بأنها طويلة ، غير أنه لم يورد منها سوى خمسة أبيات هي : ^{١٢}

هو المنون فقصْر دونه الأملا لا حول للخلق منه بالخلاص ولا
تُغْرِّنَك الدنيا بزُخْرُفها فإنها كخيال عند من عَقَلا
أو كالهشيم إذا ما الذاريات أتَتْ تذروه قد ضرب الرحمن ذا مثلا
يا نائماً وصروف الدهر توقظه إن كنت في غفلة فالله ما غفلا
وأنت يا ذاهلاً عما يُرَاد به مؤذن الموت نادى الناس حي على

١٠- السابق: ١٩١/١١/١

١١- المنار: ٦٢/١٢/٢ ، ١٧٦/١٢/٢١ ، ١٥٣/٣/٢١ ، ١٩١/١١/١ ، ٦٢/١/٣٠ ، ١٩١/١١/١

١٢- السيد رشيد رضا: ١٠٩

والثانية في الشيخ محمود نشابة ، أحد جلة العلماء في طرابلس ، وكان رشيد قد تلقى عنه ، ويصفه في هذه المرثية بأنه شيخ الشيوخ ، لأن بعض شيوخ رشيد تتلمذ عليه أيضا ، ويخلع عليه كل الصفات الحميدة من الرسوخ في العلم والزهد والتقوى ، مات هذا الشيخ فارتاعت لموته المشارق والمغارب ، وبكى له أتباع المذاهب ، لكن العزاء فيه أن روحه الطاهرة طارت إلى جنة عدن.^{١٣}

شِيَخُ الشِّيَوخِ إِمَامُ الْعَصْرِ أَوْحَدُهُ
وَوَارِثُ الْمُصْطَفَى فِينَا وَنَائِبُهُ
فَلَكُ الْطَّرِيقَةِ أَوْ دُرُّ الْحَقِيقَةِ فِي يَمِّ الشَّرِيعَةِ رَاسِيَهُ وَرَاسِبُهُ
وَمَرْجُعُ الْكُلِّ فِي حَمْلِ النُّصُوصِ وَفِي حَلِ الْعَوِيْصِ إِذَا أَعْيَثْ مَصَاعِبَهُ
رَبُّ الْحَقَائِقِ مَكْشَافُ الدِّقَائِقِ مُحَمَّدُ وَدُ الْخَلَائِقِ مِنْ جُلُّ مَوَاهِبِهِ
خَطَبُ أَصَابَ فُؤَادَ الشَّرْقِ فَانْفَطَرَتْ مَرَارَةُ الْكَوْنِ وَارْتَاعَتْ مَغَارِبِهِ
لَئِنْ بَكَى تَابِعُو النُّعْمَانَ مَذَهِبَهُ فَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ
هَذَا ابْنُ إِدْرِيسَ بَعْدَ الشَّيْخِ قَدْ دَرَسَتْ دُرُوسُ مَذَهِبِهِ وَارْتَاعَ طَالِبُهُ
لَهُ مَثَوِي بَبَطْنِ الْأَرْضِ مُدَّ بَهُ بَحْرٌ تَفِيْضُ بِلَا جُزْرٍ ثَوَابُهُ
لَئِنْ دَفَنَ بِهِ شَخْصُ الْكَمَالِ ضُحْنِي فَالرُّوحُ طَارَتْ إِلَى عَدِنِ نَجَائِبِهِ
ثُمَّ رَثَى شِيَخَهُ عَبْدَ الْغَنِيِّ الرَّافِعِيِّ ، وَكَانَ قَدْ تَوَفَّى فِي مَكَةَ الْمُكَرْمَةِ حَاجَا ، فَهَنَأَهُ
عَلَى أَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِجَوَارِ بَيْتِهِ الْحَرَامَ :^{١٤}

طُوبَى لِمَنْ بَجَوَارَ اللَّهِ قَدْ نَزَّلَاهُ
وَيَا هَنِئَا لِمَنْ أَسْقَاهُ سَيِّدُهُ فِي مَغْهِدِ الْقُرْبِ مِنْ كَأسِ الشُّهُودِ طَلَا
وَبَعْدَ أَنْ وَصَفَ الْفَرَاغَ الْعَلَمِيَّ الَّذِي خَلَفَهُ مَوْتُ الشِّيَخِ ، ذَكَرَ أَنَّ عَزَاءَ النَّاسِ فِيهِ أَنَّهُ
تَرَكَ ، أَوْلَادًا نَجَابَاءَ ، وَرَثُوا عَنْهُ الْعِلْمَ وَالْأَدْبَرَ فَقَالَ :

لَئِنْ بَكَاهُ بَنَا عِلْمُ الْيَقِينِ فَقَدْ
قَرَتْ بِهِ عَيْنُهُ مُذْ كَأسِهَا نَهَلَا
وَإِنْ غَدَا فِيهِ كُلُّ الْفَضْلِ مُجْتَمِعًا
فَقَدْ تَفَرَّقَ فِي أَبْنَائِهِ النُّبْلا
مِنْ حَالَفَ الْعِلْمَ فِيهِ الْهَذِيَّ وَالْعَمَلا
وَلِلْتَّحَدِيِّ بِهَا آيَ الْبَيَانِ تَلَا
وَفِي الْبَلَاغَةِ كَمْ عَبْدُ الْحَمِيدِ سَمَا

^{١٣} - المنار: ٥٣/٣/٢١
^{١٤} - السابق: ١٥٨/٣/٢١

وأما المرتبة الرابعة فهي في أحد وجاهه بلده ، رثاه بتوجيهه من والده ، منها قوله:^{١٥}

إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةُ الْمَيْلَادِ وَالنَّعْشَ مُثْلُ الْمَهْدِ لِلْأَوْلَادِ

وَاللَّهُ قَدْ بَرَأَ الْخَلَائِقَ لِلْبَقَا بَعْدَ الْفَنَا وَزِيَارَةَ الْأَلْحَادِ

وَالْمَوْتُ بِبَابِ النَّشَأَةِ الْأُخْرَى لَنَا وَبِهَا كَمَالُ الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ

لم الجزء من الموت إذا كان غاية لا يعودها أحد ، وبابا لابد من الولوج فيه إلى دار الخلود ، ولماذا تختلف مشاعر الناس تجاه المحمول في المهد عن المحمول في النعش وكلاهما يجري على سنن لا تتبدل ولا تتغير ، وينكر أن يكون هذا الحزن مما أوجبه الشرائع ، أو قضى به العقل السليم ، ولا أن يكون فطرة فطر الناس عليها بل هو ضرب من المعتاد ، ينبغي خلع سرابيله ، إذ لا فرق بين الموت والميلاد ، بل هما طرفان مستويان لمسيرة الإنسان ، وأخرهما أولى بالفرح ، لقربه من سعادة الإنسان الأبدية.

أَطْبَيْعَةُ ذَا الْحُزْنِ لَيْسَ يَشِدُّ عَنِ نَامُوسِهِ فَرْدٌ مِّنَ الْأَفْرَادِ

أَمْ ذَاكَ مَا أَوْجَبَتْهُ شَرَائِعُ الْأَدِيَانِ مِنْ هَذِي لَنَا وَرَشَادِ

أَمْ ذَلِكَ الْعُقْلُ السَّلِيمُ قَضَى عَلَى كُلِّ الشُّعُوبِ بِهَذِهِ الْأَصْنَافِ

كَلَّا فَلَيْسَ الْأَمْرُ ضَرْبَةً لَازِبٍ لِكُنَّهُ ضَرْبٌ مِنَ الْمُعْتَادِ

فَالْخَلْعُ سَرَابِيلُ الْعَوَانِدِ إِنْ تَكُنْ لَيْسَ بِنَهْجِ الْعُقْلِ ذَاتَ سَدَادِ

وَتَقْلِدُ الْحَزَمُ الشَّرِيفَ كَصَارِمَ كِيمَا ثَافِحَ جِيشَهَا بِجَهَادِ

فَانْظُرْ لِمَوْتِ النَّاسِ بِالْعَيْنِ الَّتِي تَرْنُو بِهَا لِوَلَادَةِ الْأَوْلَادِ

هَاتِيكَ مَبْدُونَا وَهَذَا تِمْنَا طَرَفَانُ مُسْتَوْيَانُ الْنَّقَادِ

بَلْ آخِرُ الْطَّرْفَيْنِ خَيْرُهُمَا فَخُذْ بِالْأَعْتَابِ بِهِ وَالْأَسْتَعْدَادِ

ثم نعى فيه الكرم الذي اشتهر به بين الناس في حياته ، حتى كان الموت بعض ضيوفه ، فسألته نفسه فسخا بها كما يسخو بكل غال يملكه.

قَدْ جَاءَهُ هَذَا الْحِمَامُ فَلِمْ يَكُنْ إِلَّا كَبِعْضُ الضَّيْفِ وَالْقُصَّادِ

لَمْ يَرْضَ إِلَّا نَفْسَهُ مِنْهُ قَرِيْ

وَقَضَى الْأَمِيرُ وَمَا قَضَى إِحْسَانُهُ بَلْ ظَلَ كَالْأَطْوَاقِ فِي الْأَجْيَادِ

ويقارن بين موكب جنازته ، ومواكيه في المناسبات العديدة في حياته ، فلا يرى فرقاً غير أنه في هذا محمول على أعناق الرجال ، لا على متون الجياد ، كما جرت به العادة :

حُفْتْ بِهِ زُمْرٌ وسَارَ كُشَانَهِ
بِمُواكِبِ الْأَعْرَاسِ وَالْأَعِيادِ
دَلَفَأُ عَلَى الْأَعْنَاقِ لَا عَنْقًا كَمَا
قَدْ كَانَ إِذْ يَعْلُو مُثُونَ جِيَادَ

والغرض الثاني الرئيسي في شعر السيد رشيد رضا في هذه المجموعة هو المدح والتهنئة ، فقد هنا عبد الحميد بك الرافعي في زفافه بموشح ، ويقول رشيد عن نفسه ، إنه كان آنذاك تلميذاً مبتدئاً. يقول في مدح العريس بعد غزل مهد به :

لَسْنَ إِنْ نَظَمَ الشِّعْرَ خَدَا
يَتَرَاءَى فَوْقَ طَوْقَ الْبَشَرِ
تَنْصَتِ النَّاسُ إِذَا مَا أَنْشَدَا
كَلْمَا كَرَرَ يَحْلُو مُورَدًا
كِيفَ تَصْغِي لِاسْتِمَاعِ السُّورِ
مَا أَبُو الطَّيْبِ إِمَا نَظَمَا
وَهُوَ لَمْ يَهْجُرْ لِفَرْطَ الْخَصْرَ
لَيْسَ يَهْنَئُ إِذَا شَعْرَهُمَا
وَابْنَ هَانِي شَاعِرَ الْأَنْدَلُسِ

^{١٧} وهو لم يهجر لفَرْطَ الْخَصْرَ

^{١٦} إنْ نَظَمَ الشِّعْرَ خَدَا

وبيه لم تلق طَيْبَ الْأَنْفُسِ

وهنا خديوي مصر بولادة ابن له ، ولم يكن له ولد من قبل ، لأنه لم يكن له ولد ذكر ، فسر بولادته القصر والحاشية وعموم الشعب المصري ، كما يقول رشيد ، وكان هو من بين المهنيين للخديوي فقال :

أَلَا يَا بَشِيرَ السَّعْدِ كَرَرَ لَنَا الْبَشَرِيَ
وَيَا أَيُّهَا الْأَقْوَامِ حَسِبَكُمْ بَشَرًا
فَقَدْ أَنْجَزَ (الإِقْبَالَ) رَبِّي وَعْدَهُ
هَلَالَ تَيَقَّنَا بِحَسْنِ نَمْوَهُ
وَجَادَ عَلَى مَصْرَ بِمَا أَثْلَجَ الصَّدْرَا
أَحَبَّ بَنْوَهَا أَنْ يَدُومَ أَمْيَرُهُمْ
بَأْنَ سَتْرَاهُ فِي سَمَا قَطْرَهَا بَدْرَا
مَرَامُ تَوْقِعَنَاهُ قَبْلَ وَقْوَعَهُ
بَأْنَ بَنْيَاهُ طَوْلَ الْمَدِي لَهُمْ ذَخْرَا
فَقَمْ أَيُّهَا الْعَبَاسُ لَهُ شَاكِرًا
فَكَانَ وَحْقَقْنَا الْعِيَافَةَ وَالْزَّجْرَا
وَقَلَ لِلَّذِي أَنْجَبَتْ قَمْ وَارِقَ الْعَلَى
إِنْ كُنْتَ لَا تَحْصِي عَلَى فَضْلَهِ شَكْرَا
مَعِي فَهُوَ وَاعِ يَعْقُلُ النَّهَيَ وَالْأَمْرَا

^{١٦} - المنار: ٦٣/١٣٠
^{١٧} - (الهُجُرُ) بالضم الفحش وهو اسم من (هَجَرَ) (يَهْجُرُ) من باب قتل و فيه لغة أخرى مصباح المنير:
٩٣١/٤٨/١
^{١٨} - (٦٣٤/٢)

وعش يا ولی العهد بالله واثقاً
بمنة تاريخ نغيث بها مصراً
وفي الشطر الأول من البيت الأخير تاريخ هجري للسنة التي ولد فيها الابن وهي
(١٨٩٩م) ، وفي الشطر الثاني منه تاريخ ميلادي لنفس المناسبة وهو (١٣١٦هـ) ، ومن مدائح وتهانی رشید رضا ما هناً به السلطان عبد الحميد الثاني في عيد
الجلوس الهمایونی ، الذي كانت الدولة العثمانية ، والجهات التابعة لها تحتفل له
في كل سنة ، فشارك رشید في احتفالات عام ١٣١٦هـ في مصر بقصيدة بائیة هناً
فيها السلطان بهذه المناسبة السعيدة ، فجعل هذا العيد أجل عيد ، لأهمية هذا
المنصب ، ومدح السلطان بأنه قام على شئون المسلمين خير قيام ، وأنه يحمي
الملك والدين ، ووصفه بسداد الرأي ، وبالاستقامة في الدين ، وبحسن التدبير في
المملكة التي كانت تواجه الأخطار المهطعة ، وأنه جلب التطور للبلاد ، وخطابه
بخدم الحرمين الأشرفين ، ثم دعا له بالنصر والتأييد ، فكان مما قال :^{١٩}

<p>أجل عيد على الدنيا سیاسي نوم مع الأمان أو نیل الأمانی حکم الخلافة في الدين الحنيفي كما قرأناه في النص القرآنی من كل صوب كأعناق البُخاتی تصَّأثْ صبغة الخطب</p>	<p>يوم الجلوس على العرش الحمیدی ذاك الجلوس قیام بالأمانة أو قیامه بشؤون الملك تابعة مَقْرُونَة طاعة الباری بطاعته ٢٠ تَقَدَّدَ المُلَكَ والأخطار مهطعة فاستَّ صارَ عزم من إضاءته</p>	<p>الدجوجی^{٢١} فلم يدع هام خطب غير منافق وشاد للدولة العظمى دعائهما شكَّت له البؤس والضرا فأتاحها وبيث روح الترقى في عناصرها وكف عنها زحوف الطامعين وقد ماثر كهتون المزن هامية</p>
---	--	---

^{١٩} - المنار: ٤٤٢/٢٤/١

^{٢٠} - مُهْطِعَة : مصوبة الأعناق. (القاموس المحيط : ١٠٠١١)

^{٢١} - والدَّجُوْجِيُّ : دون الغَيْهَبِ في السَّوَادِ وهو صافي لَؤُنِ السَّوَادِ (لسان العرب : ٦٥٣/١)

منها بنور ولكن غير شمسي
بالرغم عن هذيان الاشتراكي
رب النفوذين حسي وروحي
رُزان السياسة للفطر الأوروبي
ملوکه کل مرجو ومخشي
على كل الرعية من عرب وتركي
مؤيداً منه بالنصر الإلهي

ومن أهم مدائنه "قصيدة الجاذبية" التي هنا بها محمد باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائري بمناسبة توليه منصباً كبيراً في الدولة العلية ، والقصيدة طويلة ، ويدرك رشيد أنها نحو مائة وعشرين بيتاً ، والقطعة التي أورها منها في المنار خمسة وخمسون (٥٥) بيتاً ، موزعة بين الغزل ، وبين مدح السلطان عبد الحميد ، والأمير محمد باشا ، وأولها :

نصرت دولة المَهِي التركية بِلَحَاظِ قَامَتْ بِهَا العَصَبِيَّة

ثم جعل الغواني عدواً مسلحاً بعوالي القدود السمهيرية ، وحراب السواعد ، وخناجر الواجب ، وغدائر البنادق ، ثم أنكر على الشعراء تعلقهم بهذا العدو ، وأي حسن رأوا فيه ، وكيف صاغ لهم أن يشبهوا الحسان بالظباء ، وهي تفتاك بالعشاق فتك الأسود الضواري ، ويستعدبون الغرام ، وهو عين العذاب ، ويرأ بالشعراء من أن ينساقوا لهذا التقليد السقيم.

أي حسن نرى بهذى الغواني كلُّ عضو كآلَة حربِيه
ما لنا نحسب الحسان ظباء ولها فتكَة بنا قَسْوَرِيه
ونُسْمِي خِدْر الفتاةِ كِنَاسَا ونرى الغابَ يَدَعِي الأولويه
ونذوق الغرام عذباً وإنْ كا ن عَذَاباً لدِي النُّفُوس الأَبِيه

ثم يصور ما يعنيه الحبيب والعاشق من السهر وتسمع أخبار المحبوبة ، والتسلية بالأمانى الكاذبة ، والوقوف على أطلال الرسوم الدارسة حزيناً غارقاً في بحر دموعه

قد طوقت كرَة الدنيا مناطقها
بالكَمْ والكَيْف تأبِي الاشتراك بها
يا خادم الحرمين الأشرفين ويا
وحاملاً راية السلم الشَّرِيف ومي
يخشى خلافك بل يرجى حلفك من
يهنيك عيد به عاد السرور على

وعش لأمثاله بالله معتصماً

٢٢

، ثم يسجل عليه أن سبب شقائه اختياري وليس قسرياً لتحقيقه نحو الحسان والغوانى.

يَفْتَرِي عَنْ ضَاوِعَةِ الْمَفْرِيَّةِ	كَمْ تَنَاجِي الدُّجْجِيَّ وَمَا أَنْتَ مِنْ
وَرَوَاحْ شَوْؤُونَكَ السَّرِيَّةِ	وَتَبَيَّحْ الرِّيَاحَ كُلَّ غُدُّوٍ
جَوَابًا يَأْتِي مِنْ الْعَامِرِيَّةِ	وَتَصِيَّخْ الْآذَانَ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ
دَارِسَاتِ مَا ثَمَّ مِنْهَا بَقِيَّةِ	وَعَلَامَ الْوَقْفُ حَوْلَ رِسُومَ
بُخَارًا عَنْ نَارِكَ الْقَلْبِيَّةِ	ثَمَطِرَ السَّحْبُ مِنْ عَيْوَنَكَ مَا ثَارَ
سَيِّرَتْهُ أَنْفَاسُكَ الصَّدَرِيَّةِ	بَحْرُ دَمَعٍ وَفُلُكَ جَسْمَكَ فِيهِ
إِنَّمَا الْحُبُّ لَذَّةٌ وَهَمِيَّةٌ	خَلَّ عَنْكَ التَّمَوِيَّةَ بِالْغَيْدِ وَأَسْلَمَ
نَحْوَ الْحَدَائِقِ الْحُسْنِيَّةِ	أَنْتَ أَشَعَّلْتَ نَارَ قَلْبِكَ بِالْتَّحْدِيقِ

ثم مدح الخليفة الذي أنسد هذه الوظيفة الخطيرة إلى المدوح ، الذي أنشأ القصيدة في تهنته ، فوصفه بعلو الهمة ، ونفذ الرأي ، وأنه نهض بأعباء المملكة ، ونشر العمران ، وجلب التقدم إلى شتى المجالات الزراعية والصناعية والصحية والمعارف العامة ، ثم فضلته على كل حكام المسلمين ، بعد الخلفاء الراشدين ، فقال :

وَزْ هَامُ الْجَوَازَاءِ بِالْفَوْقِيَّهِ	جَرْ ذِيَّلًا عَنِ الْمَجْرَهِ إِذْ جَا
مِنْ عَوِيْصِ الْمَشَائِكِ الْفَكْرِيَّهِ	نَادَى الرَّأْيِ مُسْقِبٌ ^{٢٣} كَلَّ نَاءِ
فِيهِ عَيْنُ الْإِسْلَامِ وَالْحُرْيَّهِ	حَرَرَ الْمَلَكَ بَعْدَ رَقِ فَقَرَّتِ
لِنَفُوسِ الْجَمْعِيَّهِ الْبَشَرِيَّهِ	فَأَبَاحَ الْعُمَرَانُ سَرَ التَّرْقِيِّ
أَيْقَظَتْهَا الصَّنَاعَهُ الْعَمَلِيَّهِ	فَأَفَاضَتْ مَاءُ الزَّرَاعَهُ عَيْنِ
أَوْ تَولَى مِنْ عَهْدِ آلِ أَمِيهَهِ	هَلْ كَعَدَ الْحَمِيدُ يُلْقَى مَلِيكِ
عُمَرِيُّ عَدَالَهُ عَلَويِّ	سَطْوَهُ وَالسَّمَاتُ عَثَمَانِيِّهِ

ثم مدح الأمير محمد باشا ، فوصفه بالمجد العريق ، والأصل الكريم ، بعد أن فخر بانتماهما معاً إلى العترة النبوية الشريفة ، وعبر له عن حبه العميق له :

وَكَفَانِي قُرْبُ الْقِرَابَهِ أَنَا

^{٢٣} - مُسْقِبٌ : مُقَرِّبٌ (القاموس المحيط : ١٢٥/١)

ويكلي له تسلسل ودّ دار فيه كالدّورة الدّمويّة

المطلب الثاني : المقصورة الرشيدية

المصدر الثاني من مصادر شعر السيد رشيد رضا هو مقصورته الموسومة بالقصورة الرشيدية ، وهي مطولة من بحر الرجز ، وقافية الألف المقصورة ، ولم ينظمها دفعة واحدة ، بل على فترات متباude ، وكان ابتداء نظمها في عام ١٣١٥هـ بمناسبة زفاف صديقه الأستاذ عبد القادر المغربي ، وكان يضيف إليها ويزيد عليها كلما هتف به هاتف الشعر ، حتى كان منها جزء اعتبره آخر شعره لقوله : "وكان آخر ما نظمته من الشعر المقصورة الرشيدية".^{٢٤}

تکاد المقصورة تكون أهم آثاره الشعرية من حيث الشهرة ، لطولها ولما تحويه من أفکاره الإصلاحية ، وقد عدّها بعض الدارسين^{٢٥} إحدى الملاحم الإسلامية ، التي شهدتها عصره ، مثل ملحمة حافظ إبراهيم "العمرية" وملحمة أحمد محرم "دول الإسلام" وكان السيد رشيد رضا كثیر التنويه بها ، ويعرضها على كبار شعراء عصره ، مثل البارودي ، وحافظ إبراهيم ، وينقل عنهم إعجابهم بها ، بل تمنى أن لا يروى عنه شيء من شعره غيرها وبضع قصائد أخرى ، كما تمنى أن يجد فرصة لشرجها وطبعها . يقول رشيد في بيان أصل ومناسبة المقصورة ، وما يعتقد فيها : "وكان آخر ما نظمته من الشعر المقصورة الرشيدية التي عارضت بها مقصورة ابن دريد ، وكان سبب نظمها اقتراح صنوبي ، وزميلي في طلب العلم ، ومذاكرات الأدب ، الشیخ عبد القادر المغربي ، أن أنظم مقصورة أهنته فيها بزفافه ، فنظمت مائة بيت ونیفا ، ثم بدا لي أن أتمّها في معارضه الدریدية ، بإيداعها معانی من فلسفه هذا العصر ، وفنون الأدب والمجتمع المناسبة له ، ولاسيما الإصلاح الإسلامي ، الذي وقفت كل حیاتي على السعي له ، ثم هاجرت إلى مصر لأجله ، فزادت على أربعين بيت".^{٢٦} ثم يقول بعد أن يذكر إعجاب البارودي وحافظ بها : "وعسى أن

^{٢٤}- المنار والأزهر: ١٨٤

^{٢٥}- الصراع بين القديم والجديد: ١٠٢/١

^{٢٦}- المنار والأزهر: ١٨٤

أجد فرصة أشرح فيها غريب هذه المقصورة ، وأطبعها ، ولا أحب أن يؤثر عنِي من
٢٧ الشعر غيرها.."

مُصادر المقصورة وعدد أبياتها

سبقت الإشارة إلى أن رشيد رضا كان يتمنى لو أتيح له وقت وكاف لمراجعة المقصورة وشرحها وطبعها ، غير أنه لم يتمكن من ذلك ، فلم يفردها في كتاب ، ولا نشرها كاملة في مجلة المنار ، ولا في غيرها من المجلات والجرائد التي كان يكتب فيها على ما يبدو ، إذ لم يذكر ذلك أحد ، ممن تعرض لها ، وكل ما نشره منها أربع قطع إحداها في مدح شيخه الإمام محمد عبده ، وفي التنشيه بما قام به من الإصلاحات ، ونشرها في مجلة المنار ، وفي كتابه تاريخ الأستاذ الإمام ، وعدد أبيات هذه القطعة تسعه عشر بيتا ^{٢٨} والقطعة الثانية طويلة من سبعة وسبعين بيتا ، ويتحدث فيها عما صار إليه حال الأمة ، بعد الرفعة والعزّة ، وأن علة هذا التخلف إعراضها عن هدي الإسلام ، وفساد حكامها وعلمائها ، ونشر هذه القطعة في مجلة المنار ^{٢٩} والقطعة الثالثة من واحد وثمانين بيتا ، ومنتشرة في كتابه تاريخ الأستاذ الإمام ^{٣٠} وهي مدح لإمامي الإصلاح ؛ جمال الدين عبده ، وشرح لجهودهما الإصلاحية ، ودفاع عنهما وعن خططهما في إحياء الإسلام ، وإيقاظ الأمة. وأما القطعة الرابعة فقد نشرها في كتابة "المنار والأزهر" ^{٣١} وعدد أبياتها تسعه وعشرون ، وهي حديث عن فتنة امرأة تعرضت له ، وحاولت أن توقعه في إثم باسم الدين ، وكيف وقاه الله وحفظه من ذلك.

وما سوى ما تضمنته هذه القطع الأربع من مقصورته لا يوجد له ذكر أو بالأحرى لم ينشره في كتبه المطبوعة ، ومنها مجلة المنار ذات الخمسة والثلاثين مجلدا.

إن أهم مصدر للمقصورة الرشيدية هو كتاب "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما" الذي وضعه الأمير شكيب أرسلان في ترجمة السيد رشيد رضا بعد

^{٢٧} - المنار والأزهر: ١٨٥

^{٢٨} - السابق: ٦٩٨/٩/٢٥ ، تاريخ الأستاذ: ٥٦٧/٢

^{٢٩} - المنار: ٢/١/٢٥

^{٣٠} - تاريخ الأستاذ: ٩٧٨/١

^{٣١} - المنار والأزهر: ١٦٨

وفاته ، فقد أورد منها قطعة كبيرة من قسمين ؛ القسم الأول أصل المقصورة ، وعدد أبياته مائة وتسعة وعشرون (١٢٩) بيتا ، والقسم الثاني الزيادة على أصل المقصورة ، وعدد أبياته مائة وخمسة وستون (١٦٥) بيتا ، ومجموع القسمين مائتان وأربعة وتسعون (٢٩٤) بيتا.^{٣٢}

ذكر شكيب أرسلان أن الأستاذ عبد القادر المغربي ، الذي أنشأ أصل المقصورة في تهنتته بزفافه ، قال له : "إني مرسل إليك صورتها عن النسخة التي عندي بخط السيد رحمة الله ، وهي ١٢٩ بيتا ، قرأها بنفسه ليلة الزفاف في طرابلس الشام ، في ملأ من الناس ، فيهم شيخنا حسين الجسر ، وذلك سنة ١٣١٥ هـ في شهر ربيع الأول".^{٣٣} ولم يذكر شكيب من أين استمد زيادات المقصورة ، ولا كم أصبح عدد أبياتها بعد الزيادات ، غير أنه يتضح من كلامه أنها أكثر مما أثبته ، وأنه حذف بعضها ، وذلك لقوله مرتين وهو يسردها : "إلى أن يقول" ، وتأكد الباحث أنه حذف بعد إحدى مقولتيه تلك سبعة وعشرين بيتا ، وذلك بالمقارنة بما نشره رشيد.^{٣٤}

أما عن عدد أبيات المقصورة الحقيقي ، فلم يصرح به رشيد رضا ، بل قال في ذلك : "ثم بدا لي أن أتممها في معارضة الدرية .. فزادت على أربعين بيت"^{٣٥} وكذلك سكت شكيب عن تحديد عدد أبياتها ، واكتفى بقوله بعد ذكر القسم الأول منها : "هذا أصل المقصورة الرشيدية ، ثم أخذ كلما هتف به هاتف الشعر يزيد عليها".^{٣٦} ويقول الأستاذ أنور الجندي بشأن عدد أبيات المقصورة : "وقد ذكر في بعض المراجع أنها بلغت ٥٠٠ بيت ، غير أن أحمد الشريachi ، وهو يعد أطروحته عن رشيد رضا ، قد عثر على قدر كبير من شعر هذه المقصورة ، مما بلغها أكثر من ألف وثلاثمائة بيت".^{٣٧} وهذا الأخير في رأي الباحث بعيد ، إذ لا يستبعد أن تقارب خسمائة بيت ، لأن صاحبها قال إنها زادت على أربعين بيت

^{٣٢} - السيد رشيد رضا: ٢٨٥

^{٣٣} - السابق: ١١٤ (الهامش)

^{٣٤} - السابق ، ص ٢٩٦ ، فبين ما بعد قوله "إلى أن يقول" وما قبله ٢٧ بيتا

^{٣٥} - المنار والأزهر: ١٨٤

^{٣٦} - السيد رشيد رضا: ٢٩٤

^{٣٧} - تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي : أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ ، ص ١٠٨

وأما أن تكون قد وصلت إلى ألف بيت أو ما يزيد على ذلك فأمر يصعب قبوله ، لأن رشيد رضا قال قوله السابقة "فزادت على أربعين بيت" في آخر حياته ، والبون شاسع بين الرقمين ، ولو كانت وصلت إلى ألف لما كان تعبير رضا صائبا على أنه يجوز أن يكون ما رأه الدكتور أحمد الشريachi مسودة ، انتقى منها رشيد المشهور من مقصورته .

م الموضوعات المقصورة

الجزء الأول من المقصورة ، الذي نظمه رشيد بمناسبة زفاف صديقه عبد القادر المغربي ، يحتوي على غرضين رئيسيين ، وهما الوصف والمدح ، ويتناول بالوصف ثلاثة أشياء :

١- ما أبدعه الله في الكون من بديع مخلوقاته ، وما أضفاه الله سبحانه وتعالى على هذه المخلوقات من إتقان الصنع ، وما نصب لأرباب الحجى من دلائل قدرته وعجائب صنعه ، فهو أنشأ الخلق كله من العدم فسمك السماء ، وخلق الأشياء أزواجا ، ثم سواها وهداها ، ولا تفاوت أو خلل في شيء من مخلوقات الله ، وهذا أكبر دليل على الخالق الحق . ومن بديع خلق الله قانون الزوجية ، الذي يقوم عليه هذا العالم ، ويتجلى ذلك في الحيوانات الناطقة ، وفي العجمادات والنباتات والجمادات ، كما كشف عن بعض ذلك العلم الحديث . يقول رشيد في ذلك :

تبارك الباري مُبدع الورى
براه من حيث رصاه فانبرى
مستحصيف^{٣٩} المزير مشدود الغرى
أنشا من السديم^{٤٠} كل صوره
فسمك السماء والأرض دحا
وخلق الأشياء أزواجا وقد قضى بناموس تنافع البقا
من جري هذا قيل لا إمكان في أبدع مما كان قبل وجرى
من ذاك أن الإزدواج سنه قام بها التوليد في هذى الورى
يظهر هذا في المواليد التي تألفت منها طبيعة الدنا

^{٣٨} - السيد رشيد رضا : ٢٨٥

^{٣٩} - مستحصيف : مستحكم (القاموس المحيط : ١٠٣٤/١)

^{٤٠} - والسديم الماء المندفق (لسان العرب : ٢٨٣/١٢)

فاجْتَلَهُ فِي الْحَيْوَانِ نَاطِقًا وَأَعْجَمَا وَفِي النَّبَاتِ الْمُجْتَسِي
وَالْمَاءِ وَالْتُّرْبَةِ إِذْ تَقَارَنَا تَوَلَّدُ صُمُّ الصُّخُورِ وَالْحَصَانِ
وَالْقَمَرُ الْمُنِيرُ لَمَّا قَارَنَ الشَّدَّ مَسَّ تَوْلَدَ الْهَلَالُ فِي الدُّجَى
وَالْكَهْرِبَا زَوْجَانِ إِمَّا التَّقِيَا تَأْلَقَ الْبَرْقُ وَشِيكَا وَخَفَا

٢ - ثم وصف روضة ذهب إليها للتنزه ، فوجدها خضراء ، رصعها النور بأصناف
الحلي ، لم تزل من نضارتها الريح الباردة ، ولم يذبل شيء من أفنانها الغضة ، بل
إنها رؤية دائمة ، لأنها تجذب السحاب المطير بأغصانها الباسقة ، وتمتص من
الهواء الكريون الصافي ، وتطلق إلى الناس الأكسجين النقي ، كما تمد على الصعيد
ظلاً وارفاً ، فلا ترى الشمس إلا ما يفلت من شعاعها أحياناً عندما يعبث الريح
بأغصانها الباسقة ، وكأنها غادة حية لا ترنو إلا من خلال الأستار : ^{٤١}

وَرَوْضَةٌ ثُجَلَى بِثَوْبٍ سُنْدَسٍ رَصَعَهَا النُّورُ بِأَصْنَافِ الْحُلَى
مَا صَوَّحَ الْبَارِحُ غُصَنَ نَجْمَهَا وَيَانِعُ الْأَفْقَانِ مِنْهَا مَا ذَوَى ^{٤٢}
وَالْبَاسِقَاتُ رَفَعَتْ أَكْفَهَا تَسْتَنْزِلُ الْغَيْثَ وَتَطَلُّبُ النَّدَى
تَمَتَّلِجُ ^{٤٣} الْكَرِبُونَ مِنْ ضَرَعِ الْهَوَا إِذْ آثَرْتَنَا بِالْأَزْوَاتِ الْمُنْتَقِيِّ ^{٤٤}
مَدَّتْ عَلَى الصَّعِيدِ ظَلًا وَارِفًا فَلَا ذَأْيٌ ^{٤٥} الْعُودُ وَلَا الظِّلُّ أَزَى ^{٤٦}
وَالشَّمْسُ تَبَدُّو مِنْ خَلَلِ دَوْجَهَا آوَنَهُ تَخْفَى وَطَوَرَا تَجَلَّى
كَغَادَةٍ وَضَاحَةٍ قَدْ أَتَلَعَّثْ مِنْ خُلُلِ السَّجْوُفِ تَرَنُو وَالْكُوَى
تُلَقِّي عَلَى الرَّوْضِ نَضِيرَ عَسْجَدٍ فَتَحَسَّبُ الرَّوْضَ عَرُوسًا تُجْتَلِي

٣ - وكان بصحبته في هذه النزهة صاحبان أحدهما مجلة علمية ، والآخر صديق
فاضل ، أما المجلة العلمية فقد حوت عوالم الأرض والسموات العلى بحديثها عما في
هذه العوالم ، رغم حجمها الصغير ، ورغم ما تحوي هذه العوالم من الأمور التي لا
تفق عادة ، والأشياء التي لا تائف طبعاً ، غير أن المجلة جمعت هذه المتناقضات

^{٤١} - السيد رشيد رضا : ٢٨٧

^{٤٢} - النَّبْتُ ذَوَى جَفَّوْ : جَفَ (القاموس المحيط : ٣٨٠/١)

^{٤٣} - امْتَلِجُ الْلَّبَنَ : امْتَلِجُ . (القاموس المحيط : ٢٦٣/١)

^{٤٤} - الأكسجين الصافي (السيد رشيد رضا : ٢٨٧)

^{٤٥} - ذَأْيٌ : ذَأْيٌ (القاموس المحيط : ١٦٥٧/١)

^{٤٦} - أَزَى الظِّلُّ يَأْزُو : قَلْصَ (القاموس المحيط : ١٦٢٥/١)

بسر القلم الذي سطر عليها ما يبدو في الظاهر سريرا من النمل الأسود ولكنه في الواقع شاعر ينير العقول بالمعارف التي لا تنتهي. يقول :

مَثْلُ مَدْبُ النَّمَلِ يَسْعَى فِي الرُّبُى
كُلَّ شُعُوبِ الْعَالَمِينَ وَحَوْيَ
مِنْ أَفْقِهِ بَدْرٌ وَكُمْ نَجْمٌ هَوَى
وَأَلَّفَ الْأَشْتَاتَ مِنْهَا وَضَنَوْيَ
وَالشَّاءُ وَالسِّرْحَانُ يَسْرَحْنَ سِوَى
وَطَافَ مَا بَيْنِ الرَّجَأِ إِلَى الرَّجَأِ
لَاحَتْ لَهُ بِهَا السَّمَوَاتُ الْغَلِيَ
وَعِلْمٌ بُرْكَانٌ نَارُهُ التَّظَيَّ

وَصَاحِبَيَ دَفْتَرٍ فِي طَيِّبِهِ
فَرَدْ وَلَكِنْ قَدْ حَوَى إِهَابَهِ
وَقَاتِمُ الْأَعْمَاقِ لَكِنْ كَمْ بَدَا
وَجَمَعَ الْأَضَدَادَ فِي غُضْنَوْنَهِ
فَالضَّبُّ وَالنِّينَانُ تَرْتَعِي مَعَا
لَوْ جَالَ طِرْفُ الطِّرْفِ فِي سَاحَاتِهِ
عَنَّتْ لَهُ عَوَالِمُ الْأَرْضِ كَمَا
كَمْ عَالِمٌ أَمْوَاهُ مَدْهُ طَغَتْ

وأما صاحبه الثاني في المتزه فهو صديقه العريض ، الذي أنشأ من أجل تهنته المقصورة ، وشرع في مدحه بأنه عفيف طاهر الثياب ، لم يعرف الغرام الحرام ، ولم يرفع رأسه إلى مغازلة النساء ، بل كان منصرا إلى التحصيل العلمي ، الذي بذ فيه الأقران ، كما وصفه بالحزم والصدق والتجربة والوفاء لأصدقائه ، والبعد عن التملق والطيش ، كما وصف أسرته بالنجابة أصلا وفرعا وبالرئاسة العلمية وبالكرم والاسخاء ، ثم تحدث عن العلاقة الحميمة والعريقة التي تجمع بينهما ، وهذا الوطن على هذا الابن النجيب :

وَأَرَقَعَ تَلَقَاهُ فِي رَيَانِهِ رَيَانٌ مِنْ مَاءِ الْعَفَافِ وَالْحَيَا
مَا خَاصَرَتْ يَمِينَهُ خَصْرَاً وَلَا غَازَلَ فِي الغَرَامِ غَزَلَانَ النَّقا
قَدْ أَنْجَبَتْهُ أُسْرَةً لَقَدْ زَكَتْ أَصْوَلُهَا وَفَرَعُهَا قَدْ اعْتَلَى
قَوْمٌ لَقَدْ كَانُوا مِنِ الْبَدْءِ وَمَا زَالُوا مِثَالَ الْعِلْمِ فِينَا وَالْتُّقَى

وفي الجزء الثاني من المقصورة يصف الشاعر ما انتابه من الهم والغم ، ليس لقد حبيب أو مال ، وإنما لما أصاب أمة الإسلام من التخلف والهوان ، بعد الرفعة والعزة ، وذلك بسبب إعراضها عن دين الله ، الذي فيه عزها ، والذي بتمسكه ساد

^{٤٧} - السيد رشيد رضا: ٢٨٨

^{٤٨} - السابق : ٢٨٩

^{٤٩} - السابق ، ص ٢٨٩

أسلافهم منذ فجر الإسلام ، وفي عهود الدول الإسلامية القوية ؛ في العهد الراشدي والعباسي والأندلسي ، وينوه بفضل الحضارة الإسلامية ، على العالم ، وأن نهضة الأمم الأوربية مدينة لها ، ويتعجب من منطق متفرنجة المسلمين ، الذين ينسبون تخلف المسلمين إلى التمسك بالدين الإسلامي ، ثم صور طرفا من استبداد السلطان التركي ، وفساد أعوانه ، ومعاناة الرعية من ظلمهم :

يفي ليَ السهد ويُخْلِفُ الْكَرَى
أو مالٍ اغْتَلَ وَذِي قُرْبَى قُضِيَ
أَشْبَهُ رِبَاتِ الْحَجَالِ فِي الْبَكَى
يَقْصُدُ مَنْ يَصْدُقُ إِنْ قِيلَ رَمِىٌ
ثُلَّتْ عَرْوَشَهُ [٥١] وَ حُلَّتْ الْعَرَى
(مَدْعُثُ الْأَعْضَادِ مَهْدُومُ الْحَبِيِّ) [٥٢]
قَدْ تَرَكَتْ لِلْجَهَلِ كَالْشَّيْءِ الْلَّقِيِّ [٥٣]
عَلَةُ هَذَا الْانْهَاطَ وَالشَّقَا
تِي مَضَتْ لَنَا وَ ذَاكِ الْأَرْتِقَا
عَلَمُ (بَهَا) فَمَا عَدَا مَا بَدَا [٥٤]
قَدْ أَخْرَجْتُ لِلنَّاسِ وَابْعَثْتُ الْأَسْنَى
أَعْلَى لِكْنَهِ الْعَدْلِ زَانَهُ الْهَدَى
يَنْ حَوَى قَصْرُ الرَّشِيدِ وَوَعَى
حِيثُ الْإِمَامُ الْحُكْمُ الْعَدْلُ ثَوَى

كَمْ لَيْلَةُ أَبِيَّتِهَا مَفْكَرًا
لَوْ أَنَّمَا أَبَكَى لِمَحْبُوبِ جَفَا
وَأَعْوَزَ الصَّبَرَ فَقِيلَ جَازَعَ
لَرَاعِنِي الْقَوْلُ بِصَدْقَهِ وَقَدَ
لَكِنَّمَا أَبَكَى لِمَجْدِ أَمَّةٍ
وَوَطَنَ ذَلِ فَأَمْسَى حَوْضَهُ
وَمَلَةُ حَكِيمَةِ رَحِيمَةٍ
وَقَالَ فِيهَا الْأَخْسَرُونَ إِنَّهَا
فَكِيفَ كَانَتْ عَلَةُ السَّعَادَةِ الْ
(بَهَا) أَصْبَنَا الْمَلَكَ وَالْحَكْمَةَ وَالْ
فَارِجَعُ إِلَى تَارِيخِ خَيْرِ أَمَّةٍ
يَرِيكَ عَصْرَ الرَّاشِدِيِّنَ الْمَثُلَ الْ
وَالْمَجْدُ وَالزَّيْنَةُ وَالْقُوَّةُ فِي الدِّ
وَجَنَّةُ الزَّهْرَاءِ [٥٥] فِي أَنْدَلُسِ

^{٤٩} - المنار: ٢/١١/٢٦

^{٥٠} - يُقصَدُ بضم الْيَاءِ: يصيِّبُ المرمي (المنار)

^{٥١} - أي عروش المجد . (المنار)

^{٥٢} - المدْعُثُ المَهْدُومُ اسْمُ مَفْعُولٍ ، وَالْأَعْضَادُ مَا حَوْلَ شَفِيرِ الْبَئْرِ مِنَ الْبَنَاءِ كَالصَّفَانِحِ وَغَيْرُهَا ، وَمِثْلُهِ مَهْدُومُ الْحَبِيِّ ، وَهِيَ جَمْعُ حَبْوَةٍ ، مَا يَحْيِطُ بِالْبَئْرِ مِنَ الْبَنَاءِ كَالثُّلُوبِ ، الَّذِي يَحْتَبِي بِهِ الْإِنْسَانُ ، وَالشَّطَرُ لَابْنِ دَرِيدِ

^{٥٣} - الْلَّقِي بالفَتْحِ مَا يَلْقَى وَيُطْرَحُ لِهَوَانِهِ وَدُمُّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ . (المنار)

^{٥٤} - بِهَا الثَّانِيَةُ تَوْكِيدُ لِلْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي تَفِيدُ الْحَصْرَ بِتَقْدِيمِهَا عَلَى الْفَعْلِ وَجَمْلَةٍ (فَمَا عَدَا فَمَا بَدَا) مِنْ كَلَامِ عَلِيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَمَعْنَاهَا هُنَّا: فَمَا الَّذِي صَرَفَ هَذِهِ الْمَلَةَ عَنْ مَثَلِ مَا كَانَ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ مَا بَدَا وَظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ وَهُوَ رَدٌّ عَلَى زَعْمِ مَتْفَرِنْجَةِ الْعَصْرِ الْمُرْتَدِينَ أَنَّ إِلْسَامَ عَانِقٌ عَنِ الْعُمَرَانِ وَالْعَزَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالثَّرَوَةِ (المنار)

^{٥٥} - مَعْطُوفٌ عَلَى قَصْرِ الرَّشِيدِ .

والجمع ما بين علوم النقل والـ
عقل إلى المأمون عهده انتهى
أحيا ببغداد فنوناً درست
إذ كان عمران ذويها قد عفا

والجزء الثالث ، وعدد أبياته (٨٨) خاص بالإمامين المصلحين ؛ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وفيه يتحدث عن جمال الدين أولاً ، وعن سعيه في إيقاظ الأمة ، ونضاله في بث الوعي ، ومحاربة الجهل والاستبداد ، وما أصابه في ذلك من النجاح في فارس ومصر ، وما قاساه في تركيا من رفض إصلاحاته ثم أفضى في وصف السيد جمال الدين بنفاذ البصيرة ، ومضاء العزيمة ، حتى رفع منزلته على كافة أهل عصره ، وعلى أهل العصور السابقة ، إلا من اختص بالوحى ، وجعل شاهد ذلك ، ما أحدثه في مصر من اليقظة الفريدة ، بتربیته الحكيمه ، وخطبه البلّيغة ، ودروسه العلمية المفيدة ، ثم قرن به تلميذه النجيب الإمام محمد عبده ، الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى ، فجعله وارثه في كل شيء ؛ في الحكمة التي تكشف أحكام الدجى ، والغيرة المتاججة ، والهمة العالية ثم شرح ما كان من تأزّرهمَا في السعي لإنقاذ الأمة ، وإصدارهما لمجلة العروة الوثقى. ثم تحدث عن جهود الإمام محمد عبده الإصلاحية في مصر ، بعد أن فارق جمال الدين الأفغاني ، ومحاولاته في إصلاح الأزهر الشريف خاصة والتعليم الديني عامة ، وما كان لدروسه وحلقاته العلمية من الأثر الجليل في تخريج جيل من المثقفين ، يحمل دعوته ، ويرث عنه رسالته. ^{٥٦}

لولا صياغٌ مُنذِرٌ أهابَ أَنْ هُبِّي وَعَنْ عَيْنَيِكِ فَامسَحِي الْكَرَى
قد طَلَعَ الصُّبُحُ فَقُومٍ وَانظُرِي ما فَعَلَ الْمُسْتَيْقِظُونَ فِي الْوَرَى
قد رَكَبُوا الْبُخَارَ وَالْبَرَقَ إِلَى مَا يَنْتَهُونَ ثُمَّ طَارُوا فِي الْهَوَى
وَأَنْتَ بَعْدَ الْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالشَّرَاعِ قد صَرَّتَ إِلَى مَشْيِ الْحَفَّا
ذَاكَ جَمَالُ الدِّينِ فِي لِسُونُكَا وَتِلْكُمْ دَعْوَتُهُ التِّي دَعَا
أَنْفُدُ أَهْلُ عَصْرِهِ بَصِيرَةً وَغَيْرُ أَهْلِ عَصْرِهِ مِنْ مَضِي
إِلَّا مَنْ اخْتَارَ الْعَلِيُّمْ وَاصْطُفَى فِيمَا لَهُ اخْتَارَ الْحَكِيمُ وَاصْطُفَى
يَخْتَرِقُ الْحُجْبَ شُعَاعُ عَقْلِهِ وَيَشْهُدُ الْغَيْوَبَ كُلَّمَا رَنَا

عنه سلوا مصر وذك الرّجا تُثبّكم الآثار ثمّ والصُّوى
 ثمتَ قام بالإصلاح بعده مُريده الوارث كلَّ ما حوى
 من حِكْمَةٍ تكشفُ أُحْلَاكَ الدُّجَى وغَيْرِهِ تأكلُ فِيهَا الجُّدُى
 وهِمَّةٍ إِنْ جُرِدَتْ لِحَادِثٍ تُبَيِّحُ أَسْرَارَ تَصَارِيفِ الْقَضَا
 تَازِرًا لِيُنْقِذَا الْأَمَّةَ مِنْ فِرْعَوْنِهَا الَّذِي اسْتَبَدَ وَعَلَى
 قد ورِثَا مُوسَى وَهَارُونَ بِمَا تَآخَيَا وَالْمُصْطَفَى وَالْمُرْتَضَى
 وَاعْتَصَمَا (بِالْعُرُوْفِ الْوُثْقَى) فَذَا حَرَرَ مَا أَمْلَاهُ ذَاكُ أَوْ هَدِي
 وَاقْتَسَمَا الإِلْصَاحَ شَطَرَيْنَ فَذَا آثَرَ إِلْصَاحَ الْعُلُومِ وَالْحَصَا
 وَذَاكُ لِلسيَاسَةِ الَّتِي قَضَى بِهَا وَأَمَّا وَطَرَا بِمَا^٧ قَضَى
 مَا تَمَّ لِلإِمَامِ مَا أَرَادَ مِنْ خُطَّبَيِ الإِلْصَاحِ هَدْمًا وَبِنَا
 وَلَمْ يَفْتَهُ كُلُّ مَا شَاءَ فَقَدْ خَرَجَ مَنْ يُتَمِّمُ كَلَّ مَا بَنَى
 إِذْ اسْتَجَابَ اللَّهُ مَا بَهْ دَعَا وَزَالَ مَا حَادَرَهُ بِمَا رَجَا
 وَعَلَمَ الْأَزْهَرَ كَيْ يَفْقَهَ الْدِينَ وَيَطْلُبَ الْعُلُومَ وَاللُّغَى
 مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ فِي مَقَالٍ مَنْ خَلَوْا يَكْثُرُ فِيهَا الْاِحْتِمَالُ وَالْمِرَا
 فَإِنْ يَكُ الأَزْهَرُ لَمْ يَصْلُحْ بِهَا فَقَدْ نَأَى عَنْ سُبْلِ مَنْ كَانَ مَأْيَى
 وَنَبَتَتْ مِنْ غَرِسَهِ نَابِتَهُ سَتَلَمُ الصَّدْعَ وَتَرَابُ الثَّائِ
 وَتَرْفَعُ الْحَجَرُ عَنِ الْمَعَهَدِ أَوْ يَعُودُ جُحْرُ الضَّبِّ رَحْبًا كَالْفَضَا
 حَتَّى يَنَالَ وَهُوَ قَدْ أَشْفَى الشَّفَا مِنْ مَرْضِ بَاتَ بِهِ عَلَى شَفَا
 وَأَمَّا الْجَزءُ الرَّابِعُ وَالْآخِيرُ ، وَالَّذِي لَا تَتَجَازُ أَبْيَاتَهُ خَمْسَةٌ وَعَشْرِينَ بَيْتًا ، فَهُوَ
 نَصْحٌ وَإِرْشَادٌ وَتَوْجِيهٌ لِلْدُعَاءِ ، بِقَصْدِ التَّثْبِيتِ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَلَوْ كَانَ سَالِكُوهُ قَلْةً
 ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَبِيعَةِ دُعَاءِ الْحَقِّ الْخُورُ وَالْضَّعْفُ ، أَوِ الْاسْتِسْلَامُ وَالْانْقِطَاعُ
 لِطُغْيَانِ الْبَاطِلِ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُواصِلَةُ الْجَهَادِ ، وَاصْطِنَاعُ الْوَسَائِلِ الْكَفِيلَةِ لِمُنَاصِرَةِ
 الْحَقِّ ، وَعَلَى رَأْسِهَا الْمَالُ ، إِذْ لَيْسَ مِنْ الزَّهْدِ تَرْكُ الْكَسْبِ أَوِ الْاسْتِهَانَةُ بِاِقْتَنَاءِ الْمَالِ

^٧ - هَذَا فِي الْمُطَبَّوِعِ ، وَلَعِلَّ الصَّوَابَ : "فَمَا" بَدِلَ "بِمَا"

، فالمال خير وسيلة ، لنيل الثناء والثواب ، وإنما الزهد أن لا تعبد المال ، بل تعبده
لخدمة الدين والخير : ^{٥٨}

فَرِبِّمَا كَانَ حَصَّا هَا كَالْحَصَّا
كَمْ فَئَةٌ قَلِيلَةٌ قَدْ غَلَبَتْ
وَلَيْسَ تَقْوَى اللَّهُ أَنْ تَتَرُكَ مَا
إِنَّمَا التَّقْوَى اجْتِنَابُ كُلِّ مَا
وَالْمَالُ عُدَّةٌ لِكُلِّ قُوَّةٍ
فَاكْتَسِبِ الْمَالَ وَكُنْ رِبَّاً لَهُ
مُعْدُّ الْمَالِ كَرِيمٌ يُرْتَجِي
وَالْزُّهْدُ أَنْ لَا تَعْبُدَ الْمَالَ وَأَنْ
كَمْ مُمْلِقٌ وَهُوَ حَرِيصٌ طَامِعٌ
وَكَمْ فَقِيرٌ تَائِبٌ أَوْ مُهْتَدٌ
وَهُوَ إِذَا أَصَابَ فَضْلَ ثَرَوَةٍ
وَرُبَّ ذِي وَفْرٍ تَرَاهُ تَائِبًا
قَدْ جَمَعَ اللَّهُ الشَّتَّى تِينَ لَهُ
وَهُوَ إِذَا شَاءَ بِفَضْلِ مَالِهِ
أَزْلَّ رِبَّاتِ الْخُدُورِ وَاصْنَطَبَى
لَمَّا تَعْجَبَنَكَ كَثْرَةُ جَاهْلَةٍ
كَثِيرَةٌ بِالْاِتَّحَادِ وَالنَّهْيِ
تَعْجَزُ عَنْهُ مِنْ فُجُورٍ وَخَنَا
يُرْدِي وَأَخْذِي مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ قُوَّى
تُثَقَّضُ أَنْكَاثًا بِفَقْدِكَ الْقُوَّى
وَلَا تَكُنْ عَبْدًا وَإِنْ قِيلَ فَتَى
وَعَابِدُ الْمَالِ لَثِيمٌ يُجْتَوَى
تُشْفِقَ مِمَّا نَلَتَ فِي نَفْعِ الْوَرَى
وَرُبَّ رُهْدٍ كَانَ عَنْ ظَهِيرٍ غَنِيَ
عَلَى يَدِ الْإِفْلَاسِ تَابَ وَاهْتَدَى
سَارَعَ فِي الْإِثْمِ وَضَلَّ وَغَوَى
مُرْتَدِيَاً بُرْدَيِ عَفَافٍ وَهُدَى
صَلَابَةَ الدِّينِ وَنِعْمَةَ الْفَنِيِّ

بين المقصورة الرشيدية والمقصورة الدریدية

عارض السيد رشید رضا مقصورته بمقصورة ابن درید ؛ العالم اللغوي الشهير ، وصاحب معجم "جمهرة اللغة" (٣٢١-٢٢٣) ، وكان رشید معجبا به وبأدبه . أنشأ درید مقصورته في مدح أحد الولاة^{٥٩} ولكنه أودعها كثيرا من الموضوعات التاريخية والأدبية ، وضمنها حكما ووصفا للفرس والسحاب والخمر ، فهي تجمع أغراضا كثيرة .^{٦٠}

اشتهرت مقصورة ابن درید شهرة عظيمة ، لما حوتة من الثروة اللغوية الكثيرة ، وخاصة في الأسماء المقصورة ، فقد جمع فيها ما تفرق في شتى المعاجم من كل مقصور^{٦١} ولهذا عنيت باهتمام الأدباء والعلماء ، فكثرت معارضاتها وشرحها ، حتى ذكر في بعض المصادر أن شروحها تربو على الثلاثين .

تنقق المقصورتان في الوزن والقافية ، فكلتا هما من بحر الرجز ، وعلى قافية الألف المقصورة ، وتنعدد الأغراض في المقصورتين ، وإذا كان الغرض الرئيسي في الدریدية مدح الأمير أبي العباس إسماعيل بن عبد الله بن محمد الميكالي ، فالغرض الرئيسي في الرشيدية مدح صديقه عبد القادر المغربي ، وتهنئته بمناسبة زفافه ، "إذا كان ابن درید له صاحبان ؛ السيف والحسان ، فإن رشید رضا له صاحبان هما الروضة والكتاب".^{٦٢} وتميز المقصورة الرشيدية بطولها ، حيث أریت على أربعينات بيت ، وأما الدریدية فأبياتها مائتان واثنان وخمسون فقط.

استعار رشید رضا كثيرا من أساليب الدریدية ، ومن ذلك محاكاته لابن درید في اصطناع صاحبين ، ومع هذا فهو يرى أن مقصورته أفضل من مقصورة ابن درید ، وحکى عن الشاعر المصري حافظ إبراهيم أنه فضل مقصورته على مقصورة ابن درید ، وقد سبقت الإشارة إلى أن رشید رضا تناول في مقصورته القضايا العصرية التي تهم مجتمعه ، وعلى رأسها الإصلاح الإسلامي ، وكان يرى أن الأدب

^{٥٩} - دیوان ابن درید ، وشرح مقصورته للخطیب التبریزی ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه ، راجی الأسماء ، دار الكتاب العربي ، ص ٢٦٢

^{٦٠} - محمد بن درید وكتابه الجمهرة ، د. شرف الدين علي الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية ، ١٩٨٥ م ، ص ١٩٩

^{٦١} - شرح مقصورة ابن درید ، الأستاذ عبد الوصیف محمد ، المکتبة الشعیبية ص ٣

^{٦٢} - محمد بن درید وكتابه الجمهرة ، د. شرف الدين علي الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية ، ١٩٨٥ م ، ص ١٩٩ (١)

الصحيح هو الذي يخدم أمته ، ويتبنى قضايا ، ويدافع عن قيمها العليا ، فلعله من أجل ذلك رأى أن مقصورته أولى بالتقديم من مقصورة ابن دريد الذي لم يلتقت إلى هذا ، بل ناقض ذلك بوصفه الخمر ومجالسها ، وإنما فمقصورة ابن دريد نالت من تقدير أهل العلم والأدب ما لم ينلها كثير من الشعر الجيد في عصره وبعد عصره .

المطلب الثالث : ديوان السيد

وال المصدر الثالث لشعر السيد رشيد رضا هو ديوانه الذي فرغ من طبعه أو جمعه وإعداده قبيل وفاته ، والديوان وعنوانه : "ديوان السيد" صغير الحجم ، يحوي ثلاثين قصيدة ، لم نجدها منشورة في أي مكان آخر ، وكتب السيد له تمهيدا وخاتمة ، وذكر في الخاتمة أنه سيعقه بديوان آخر ، حيث قال : "وسأعقبه - قريبا بعون الله - بديواني الثاني "ديوان الرشيد"^{٦٣} وذيل الخاتمة بهذا التاريخ : "في ١٠ شعبان سنة ١٣٥٤هـ" ، وهذا تاريخ غريب ، لأن السيد مات في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤هـ بإجماع المصادر ، وكتب مقدمة للديوان الأستاذ طه عبد الباقي سرور مؤرخ الفلسفة الإسلامية ، كما يعرفه به رشيد رضا وسكرتير تحرير مجلة الإسلام ، كما وقع هو في المقدمة ، وذلك في غرة محرم عام ١٣٥٤هـ ، فلعل رشيدا كتب الخاتمة إما في شعبان من عام ١٣٥٣هـ ، وليس عام ١٣٥٤هـ ، أو بعد مقدمة الأستاذ طه عبد الباقي سرور ، ووقع خطأ في اسم الشهر ، وأيا كان الأمر ، فليس بين الفراغ من الديوان الأول ، وموت السيد رشيد رضا إلا بضعة أشهر على الأكثر ، ومن ثم لا يتوقع في هذه المدة الوجيزة صدور ديوان الرشيد الذي بشر به في حياته.

أما عن المادة الشعرية التي كان سيضمها في ديوان الرشيد ، هل هي مادة جديدة أم من شعره القديم ؟ فليس هناك ما يشير إلى شيء من ذلك ، سوى أن الاسم قريب من اسم المقصورة الرشيدية ، فلعل ديوان الرشيد كان سيتضمن المقصورة وحدها أو مع غيرها ، وقد سبقت الإشارة إلى اعزازه بالمقصورة ورغبته في شرحها وطبعها.

ديوان السيد كما سبق يحتوي على تمهيد لرشيد ، ومقدمة للأستاذ طه عبد الباقي سرور ، وثلاثين قصيدة ، وخاتمة لرشيد رضا ، وخمسة تقارظ ، كلها بالشعر إلا واحدا ، ويخلو الديوان من الهوامش ، ما عدا هامشا واحدا ، كتبه رشيد في تعريف كاتب مقدمة الديوان ، وليس في التمهيد والمقدمة والخاتمة والتقارظ أي

معلومات عن الديوان أو شعر رشيد رضا بصفة عامة ، غير ما أشار إليه رضا في الخاتمة من أنه عازم على إصدار ديوان آخر في وقت قريب.

وأما تصنيف قصائد الديوان حسب موضوعاتها فنجد أن عشرًا منها في الوطنية وأربعا في الغزل ، وخمسا في الوجданيات ، وثلاثًا في الاجتماعيات ، وأربعا في مدح الأزهر وشيوخه ، واثنتان في الإسلاميات ، وواحدة في الشرق ، وأخرى في وصف قلمه ، فتالك ثلاثة قصيدة.

الوطنيات

يستشف من نغمة وطنيات رشيد أنها نظمت في فترة الاحتلال الفرنسي والإنجليزي للبلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى ، والقصائد متشابهة كلها تقipض ألمًا وحسنة لما أصاب البلاد والعباد من معرة الهجمة الاستعمارية ، كما أنها تتقد حماساً لدرجة أن قارئها يخيل إليه أن رشيداً قال هذه القصائد في ساحات الحرب ، وميادين القتال ، يأمر المقاتلين ، ويوجه المحاربين ، ك قوله :

قَمْ فَتَى الْعَرْبِ إِلَمْ اضطَهَادُ وَارْفَعِ الضَّيْمَ وَجَاهِدْ لِلْبِلَادِ
وَاقْتَحِمْ سَاحَرَ الْوَغْنِيِّ بِالْاِتَّحَادِ
وَتَنَالُ النَّصْرِ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ

٦٤ قوله :

هِيَّا خَذُوا بِيَدِ الْأَوْطَانِ وَاخْتَرُقُوا صَمْصَامَةَ الشَّامِ وَاجْلُوا بِاسْمِهَا الْغُرَرَا
وَامْضُوا إِلَى حَوْمَةِ الْعَلَيَاءِ وَاعْتَمِدُوا عَلَى الْقَوَىِّ وَكَانَ اللَّهُ مُقْتَدِرًا

٦٥ قوله :

أَقْصُوا الطُّغَاةَ بِكُلِّ أَبِيسَ صَارَم	هُبُوا رِجَالُ الشَّامِ عَنْ أَوْ طَانِكُمْ
تَدْعِيمُهُ بِدَمِ الْكَمِيِّ الْمُقْدَمِ	لَا يَزَدَهِي مَجْدُ لِيَعْرُبِ لَمْ يَكُنْ

٦٦ قوله :

٦٤ - ديوان السيد: ٦٥
٦٥ - السابق: ٧٠
٦٦ - السابق: ٤٧
٦٧ - السابق: ٥٢

سَاحَ المَعَامِعَ فِي حَزْمٍ وَإِقْدَامٍ
وَالْغَرْبُ أَثْقَلَهُ فِي جَوْرِ أَحْكَامٍ
يَسُومُهُ الْخَسْفُ أَعْوَامًا بِأَعْوَامٍ
هُبُوا بْنِي وَطْنِي بِالسَّيفِ وَاقْتَحَمُوا
صُونُوا حِمَى وَطْنِ جَلْتَ مَصَابِهِ
وَامْتَصَّ مِنْهُ دِمًا أَحْرَارِهِ وَغَدَا

وهكذا تتلاحم أوصيـه ، وتنـتوـالـى نـداءـاتـه ، وـيـتعـالـى صـوـتـهـ بالـدـافـاعـ عنـ الـوـطـنـ بالـرـوـحـ
والـدـمـ. ويـذـكـرـ رـشـيدـ أـبـنـاءـ الـوـطـنـ الـعـرـبـيـ بـمـاضـيـهـ الـمـجـيدـ ، وـتـارـيـخـهـ الـنـاصـعـ ،
وـأـمـجـادـهـ الـتـيـ عـرـفـهـاـ الـقـاصـيـ وـالـدـانـيـ ، وـالـفـتوـحـاتـ الـعـظـيمـةـ الـتـيـ تـمـتـ عـلـىـ أـيـديـ
أـسـلـافـهـ الـمـغـاـوـيـرـ ، وـالـحـضـارـةـ السـامـيـةـ الـتـيـ أـقـامـوـهـاـ ، فـأـشـرـقـتـ أـنـوـارـهـاـ عـلـىـ رـبـوـعـ
الـعـالـمـ قـاطـبـةـ ، فـكـيـفـ يـرـضـىـ الـبـيـوـمـ أـحـفـادـ خـالـدـ وـسـعـ وـطـارـقـ وـعـبـدـ الـرـحـمـنـ الـغـافـقـيـ أـنـ
يـسـتـكـيـنـوـ وـيـسـتـذـلـوـ لـأـجـنـبـيـ مـسـتـعـمـرـ غـاشـمـ ، يـنـتـهـيـ حـرـمـاتـهـ ، وـيـسـتـبـحـ بـلـادـهـ يـقـولـ :
٦٨

قـمـ يـاـ اـبـنـ يـعـرـبـ جـدـ المـجـدـ الـثـمـيـنـ
قـمـ لـلـعـلـاـ وـاـطـرـحـ عـنـ النـفـسـ الصـغـارـ
الـشـرـقـ سـادـ بـجـدـهـ أـمـمـ الـوـرـىـ
بـيـزـنـتـيـاـ سـلـهـاـ وـسـلـ غـرـنـاطـةـ
سـلـ قـبـرـصـاـ سـلـ رـوـدـسـاـ وـالـقـيـرـوـاـ
سـلـ خـالـدـاـ سـلـ طـارـقـاـ سـلـ سـعـدـكـمـ
بـرـنـايـ سـلـ أـبـطـالـهـ فـدـمـاـوـهـمـ
فـإـلـىـ الـعـلـاـ يـاـ نـسـلـ يـعـرـبـ سـارـعـواـ
وـإـلـىـ الـحـضـارـةـ فـارـفـعـواـ أـعـلـمـهـاـ
هـوـلـاءـ هـمـ الـآـبـاءـ وـالـأـجـادـ ، وـهـذـاـ مـاضـيـهـ ، وـأـيـ مـاضـ هوـ ؟ـ إـنـهـ مـاضـ مـنـ ذـهـبـ وـلـاـ
يـسـتـعـادـ بـالـبـكـاءـ عـلـىـ الـأـطـلـالـ ، وـإـنـماـ بـحـدـ السـيـفـ :
٦٩
جـدـ الـعـهـدـ الـذـيـ مـنـ ذـهـبـ
لـيـسـ يـجـدـيـ غـيـرـ لـمـعـ الـقـضـبـ
وـتـقـدـمـ فـيـ الـوـغـىـ وـاـحـتـسـبـ
هـيـ حـدـ الـفـصـلـ لـلـمـرـتـقـبـ
فـانـتـضـوـهـاـ كـالـنـجـومـ الشـهـبـ

٦٨ - السابق: ١١

٦٩ - ديوان السيد: ٣٢

ويخص الشاعر الشام بلفة خاصة فينوه بمجدها السالف ، الذي دام أعصرا عاليا
شامخا ، بسبب التضحيات التي قدمت في سبيل ذلك : ^{٧٠}

صَرَحُ الْعَلَا لِبَيْوَتِ الشَّامِ مِنْ قِدْمٍ الْمَجْدُ شَيْدَهُ الْأَحْرَارُ فَاسْتَطَرَا
فَانْهَضْ هُدْيَتَ وَلَا تَحْفَلْ بَذِي خَورَ وَاحْفَظْ لِيَعْرُبَ مَا قَدْ خَلَّدُوا عَصْرًا
وَانْظَرْ إِلَى صُحْفِ التَّارِيخِ تَلَقْ بَهَا أَعْيَانَ مُلَكٍ عَتَيْدٍ قَدْ غَدَتْ أَثْرًا
فَوْقَ النُّجُومِ أَقَامُوهُ عَلَى عُمُدٍ مِنَ الْبَسَالَةِ لَوْ تَلَقَّى لَهُ نَظَرًا
إِذْ قَدَمُوا مُهَجَّ الْأَرْوَاحَ مَهْرَ عَلَا فِي حُبِّهِ لَمْ يَنَالُوا دُونَهُ خَطْرًا

ثم يحيث الأحفاد على تجديد ذلك الماضي المجيد ، لينعموا بمثل ما نعم به أسلافهم
من العزة والمنعة : ^{٧١}

شَيْدُوا الصَّرْحَ وَجِدُوا لِلْعُلَى	يَا حَفِيدَ الْعَرَبِ يَا نَسْلَ الْأُولَى
خَفَقَتْ لِلْمَجْدِ تُحِبِّي الْأَمَلَا	يَا ابْنَ مِنْ أَعْلَمَهُمْ بَيْنَ الْمَلَا

جَدِ الدَّارِيَّ وَشَفِ الْعِلَا

ويعد الشاعر إلى تصوير ما لحق البلاد على أيدي الغاصبين ، ليحرك بذلك نخوة
الشباب المجاهدين ، ويثير فيهم مشاعر الكراهة والغضب ، فيهباوا للدفاع عنه ،
ويستسلوا في التضحية من أجله ، ويبلوا في القتال والمقاومة بلاء حسنا : ^{٧٢}

لِمْتَى تَنَّ وَلَا تَرَكْ مُجَاهِدًا	قَمْ يَا فَتَى الْعَرَبِ الْبَلَادُ حَزِينَةً
قَمْ فَارِفَعُ الضَّيْمَ الَّذِي فِيهَا غَدَا	قَمْ لَبَّهَا فَدَمَاؤُهَا مُهَرَّاقَةً
هَذَا دُمُّ الْأَحْرَارِ لَنْ يَتَجَمَّدَا	هَذَا دُمُّ الشُّهَدَا يَفْوَحُ عَبِيرُهُ

ويقول في معاناة أهل لشام بصورة خاصة ، وطغيان الفرنسيين فيها ، وبطشهم
لأحرار من أبنائها : ^{٧٣}

هَذِي فَرْنَسَةُ كَمْ فِي الشَّامِ قَدْ عَسْفَتْ	كَمْ قَتَلَتْ وَنَفَتْ مِنْ خَيْرِ أَقْوَامِ
تَبَتْ يَدَاكَ فَرْنَسَا كَمْ غَدَرْتِ بَنَا	شُلَّتْ يَمِينِكَ وَلَنَحِيَا بِإِكْرَامِ

٧٠ - ديوان السيد : ٦٩

٧١ - السابق: ٦٥

٧٢ - السابق: ١٣

٧٣ - السابق: ٥٢

كم قد سَفَكَتِ دَمًا فَاحْتَ عَائِرًا في الْكَوْنِ وَانْتَشَرَتْ تَعْلُو عَلَى الْهَامِ

ويقول : ^{٧٤}

هذِي فَرْنَسَةُ أَهْلِ الشَّامِ فَانْتَبَهُوا مَاذَا تُرِيدُ بِكُمْ يَا سَادَةُ الْأَمَمِ
الشَّامُ قَدْ سَفِكَتْ فِيهَا الدَّمًا وَغَدْتُ
تَبَّتْ يَدَاكَ لِتَحْكِيْنِ سِمْنَةَ الْوَرَمِ

وَلَا يُسْتَخْدِمُ الْفَرْنَسِيُّونَ وَالْمُسْتَعْمِرُونَ قُوَّةَ السَّلَاحِ فَقْطًا ، بَلْ يَلْجَئُونَ إِلَى شَتَّى الْحِيلِ
لِتَضْلِيلِ الْمُحْتَلِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَتَوْهِينِ عِزَّائِ الْمُقاوِمِينَ ، وَتَبَيْئِسِهِمْ مِنَ الْإِنْتِصَارِ

عَلَى الْعَدُوِّ ، لِيَتَقَاعِسُوا عَنِ الْمُقاوِمَةِ وَالْدِفَاعِ ، فِيْنِبَهُ إِلَى ذَلِكَ رَشِيدٌ : ^{٧٥}

أَيْنَ الْأُولَى ذَهَبُوا يَا قَوْمٍ فَانْتَبَهُوا
مَاذَا يُرِادُ بِأَرْضِ الْغَربِ وَالْحَرَمِ
كَمْ ضَلَّلَ الْقَوْمَ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
وَأَحْيَانًا يَسْتَثْمِرُ الشَّاعِرُ بِمَا عَرَفَ بِهِ الْعَرَبِيُّ مِنَ الشَّهَامَةِ وَإِبَاءِ الْضَّيْمِ ، وَالنُّفُورِ مِنَ
النُّفُوذِ الْأَجْنَبِيِّ وَالْأَعْاجِمِ ، لِيُحرِكَ بِذَلِكَ نَخْوَتَهُ ، فَيُنَشِّطَ لِتَلْبِيَّةِ دُعَوَةِ الْوَطَنِ : ^{٧٦}

هذِي بِلَادِكَ لِلْأَعْاجِمِ سِلْعَةٌ
كَمْ سَامَهَا نَذْلُ وَكَمْ فِيهَا اغْتَدَى
أَيْنَ الرَّجَالُ وَأَيْنَ مِنْهُمْ يَعْرِبُ
أَفَيَقْبَلُنَّ قَحْطَانَ أَصْلُ دِمَائِكُمْ
حَاشَا فَمَا الْعَرَبُ الْكِرَامُ بِذَلِكِ عَاشُوا وَلَا وَهَنْتُ جَحَافِلُهُمْ يَدَا
مَا هُمْ سِوَى أَسْيَادِ سَادَاتِ الْوَرَى
وَيَقُولُ إِلَيْهِمْ : ^{٧٧}

٧٤ - دِيْوَانُ السَّيِّدِ : ٤١

٧٥ - السَّابِقُ : ٤٠

٧٦ - السَّابِقُ : ١٤

٧٧ - السَّابِقُ : ٣٢

يا مناز الفخر بين الناهضين
للمعالي هب يا حامي الغرين
وارفعن شأو الأولى من يعرب

ويتوعد رشيد فرنسا بالخيبة والخسران والندامة ، ومقاومة عنيفة من أبطال البلاد ،
مما يحول بينها وبين تحقيق أطماعها الاستعمارية : ^{٧٨}

نارا يطير شرارها وستدمي
ثلثينه من خادع مثاثم
إن العرين أسوده لم تحجم
ولتسقينك من نقيع العلقم

إيه فرنسا ضل سعيك فاحذري
لا يخدعنك يا فرنسا ما الذي
ليس العرين بفائد أشباله
وستصلينك يا فرنسا نارها

كما يندد بالمعاملين مع المستعمر من أبناء الوطن ، ويعتبر ذلك عقوبة ، بل خيانة
عظمى لا تغتفر ، ولا عبرة بالمناصب التي يتبعونها في ظل سيادة العدو ، فإنهم
مسيرون مأمورون مهما حاولوا الظهور في أعين الناس سادة ورؤساء : ^{٧٩}

وطن الغروية كيف يجسر مؤمن
بك أن يخون عهود ودك راغبا
يعطيه ما يهوى ويهدى المنصبا
ظلمأ ويظهر فيك حبا كاذبا
أنشأه من عدم وفيه تقلبا
ما عاش إذ نكب البلاد وعذبا
وطغا وجواز حده وتدأبا

لينال حظا من دخيل غاصب
في سوم خير مواطنيه تعسفا
لا يرتضى إلا الخراب لموطنه
حكم البلاد مسيرا يا ليته
كم ساوم الدخلاء وهو أسيرهم

ويتألم رشيد أشد التألم أن يكون بعيدا عن الوطن في هذا الوقت العصيب ، الذي
يرزح فيه تحت وطأة الاحتلال الأجنبي ، ويفتك المستعمر الغاصب الغاشم بالأحرار
من أبنائه الأباء ، ولو كان في الوطن لبادر إلى فدائه بالروح والدم : ^{٨٠}

^{٧٨} - ديوان السيد: ٤

^{٧٩} - السابق: ٨٢

^{٨٠} - السابق: ٥١

النفس ثائرة والله يا وطني والبعد عنك يزيد اليوم تهيا مي
قلبي سقيم وأحسائي ممزقة والعين في أرق من جور أيامي
وقال أيضا :^{٨١}

كيف اصطباري عن فدائك بالدما ودم العروبة في عروقي قد جرا
لكنه وهو في غربته يتبع أخبار البلد بقلب مفروم ، ومقلة دامعة ، فيقول متالما:^{٨٢}

لا خير في يوم على شمومه طلعت ولم أذرك يا مهد الصبا
نفسى تحن وأدمعي هتانة والقلب محترق دماه تصببا

وفي الديوان قصيدة إسلاميتان إحداها بعنوان : (روح الإسلام) نظمها
الشاعر بمناسبة تأسيس رابطة إسلامية في القاهرة سميت برابطة الشباب الإسلامي
في سنة ١٣٣٥ ، وفيها دعا رشيد الشباب إلى الانخراط في سبيل الدعوة إلى الله ،
ونشر عقيدة التوحيد وإلى الاقتداء بالرعييل الأول الذين رياهم المصطفى صلى الله
عليه وسلم ، والتمثل بإيمان الصديق ، وعدالة عمر ، ونقوى عثمان ، وصولة علي
في الحق ، وغيرهم من الصحابة الكرام ومن أبطال الإسلام العظام الذين شادوا قلاع
الإسلام :^{٨٣}

وأنشر مفاحر فضله لا تجحد
قام واذكر الصديق أول مؤمن
كالصائم العصب الذي لم يغمد
واذكر لنا الفاروق في أحكامه
يد أخا الفضيلة والثقة والسؤدد
وكذاك ذا النورين عثمان الشه
في الحق يوم الجمع لم يتردد
واذكر لسيف الله صولة بشه
شادوا القلاع على سماك الفرقان
هذا ما ثر من الدين المصطفى
لنفوز بالظفر المحتمن في الغد
لم لا نسير بهديهم بين الورى

ثم حي شباب الرابطة ، وتوسم فيهم الخير ، ورجا أن يكونوا خير قدوة للشباب المسلم
الحائر :^{٨٤}

^{٨١} - ديوان السيد :

^{٨٢} - السابق :

^{٨٣} - السابق :

^{٨٤} - السابق :

أَكْرَمْ بِرَابِطَةِ الشَّبَابِ طَلِيعَةً
تَهَدِيُ الْأَنَامَ إِلَى الْطَّرِيقِ الْمُفْرَدِ
وَتُقْوِّمُ الْمُفْوَجَ مِنْ خُلُقِ رَدِيٍّ
وَتُتَبَّرِّ لِلنَّشَءِ السَّبِيلَ إِلَى الْهَدَى
وَالْقَصِيدَةُ الثَّانِيَةُ بِعِنْوَانِ : (كَفَى كَفِي) وَهِيَ رَدٌّ عَلَى افْتَرَاءَتِ صَدَرَتْ مِنْ بَعْضِ
الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، السَّاعِينَ إِلَى إِخْضَاعِ الْإِسْلَامِ لِلْمَفَاهِيمِ الْغَرْبِيَّةِ الْمَادِيَّةِ ،
فَدُعَاهُمْ جَهَالًا لَبَسُوا ثُوبَ الْهَدَى ، بِغَيْرِ إِضَالَةِ النَّاسِ بِاسْمِ الشَّرِيعَةِ : ^{٨٥}

يَا صَبِيَّةَ عَبَّثْ رِيحُ الْضَّلَالِ بِهِمْ
مَا الدِّينِ رَائِدُكُمْ بِلَ كَيْدُ شَيْطَانٍ
قَمْتُمْ بِدُعَوَتِكُمْ لَا تَبْتَغُونَ سِوَى
إِشْبَاعِ شَهْوَتِكُمْ فِي ظَلِ إِيمَانٍ
كَلَا ظَنَوْنُكُمْ وَاللَّهُ خَائِبَةٌ
قَدْ سَاءَ فَأَلْكُمْ مَا الدِّينُ بِالْجَانِي

وَأَمَّا قَصِيدَتِهِ الَّتِي خَاطَبَ بِهَا الشَّرْقَ ، فَلَا تَخْتَلِفُ فِي مَضْمُونِهَا وَنَعْمَنُهَا عَنْ
قَصَائِدِهِ الْوَطَنِيَّةِ ، وَكَانَ الشَّرْقُ الَّذِي يَقْصِدُ بِهِ مَا عَدَا الْغَرْبِ مَذْهَبًا رَائِجًا فِي تَلْكَ
الْأَيَّامِ ، لَا سُتُّلَاءَ الْغَرْبِ بِحَضَارَتِهِ ، وَتَفْوِيَتِهِ التَّكْنُولُوْجِيِّيِّ ، وَاسْتِوَاءَ أَمَمِ الشَّرْقِ فِي
الْتَّخْلِفِ وَالتَّعْرُضِ لِمَظَالِمِ الْغَرْبِ فِي شَتَّى الْمَجَالَاتِ ^{٨٦} فَحَذَرَ رَشِيدُ أَمَمِ الشَّرْقِ مِنْ
طَمْعِ الْغَرْبِ وَجَشْعِهِ ، وَذَكَرَهُمْ بِأَنَّ الْمَوْتَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ الْخَضُوعِ لِلْمُسْتَعْمِرِينَ ،
وَيَصِفُّ الشَّرْقَ بِأَنَّهُ مَطْلَعُ النُّورِ الْحُسْنِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَأَنَّهُ كَانَ سِيدَ الْغَرْبِ بِالْأَمْسِ

^{٨٧} الْقَرِيبِ

نَظَرًا يَا شَرْقُ نَحْوَ الطَّامِعِينَ بِبَلَادِ الشَّرْقِ مَهْدِ الْفَاتِحِينَ
مَطْلَعُ النُّورِ وَمَنْ قَدْ نَوَرَ^{٨٨}
شَمْسُهُ الْعَالَمَ مِنْ نُورٍ مُبِينٍ
لَبْنَى الْغَرْبَ عَلَى مَرِّ السَّنَينِ
حَانَ وَقْتُ الْحِدَّ يَا حَامِيَ الْعَرَبِينَ
لِيَعُودَ الشَّرْقُ وَضَاءَ الْجَبَّينِ
مَاطِعَ الْمُهَاجِرِ وَمَهْدِ الْمُهَاجِرِ
مَا عَهَدْنَا الشَّرْقَ إِلَّا سِيدًا
قَدْ كَفِيَ نُومًا فِيَا شَرْقُ اِنْتَبَهَ
جَاهِدُ الْأَعْدَاءِ فِي سَاحِ الْغَلَا

^{٨٥} - دِيْوَانُ السَّيِّدِ : ٧٤

^{٨٦} - اَشْعَرُ وَالْوَطَنِيَّةُ فِي لَبَنَانٍ وَالْبَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ : وَلِيْمُ الْخَازِنُ ، دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَائِكَ ، بَيْرُوتٌ - لَبَنَانٌ ، الطَّبْعَةُ
الثَّالِثَةُ ، ١٩٩٢ م ، ص ١٥٨

^{٨٧} - دِيْوَانُ السَّيِّدِ: ٥٩

الأزهرية

لم ينس السيد محمد رشيد رضا الأزهر "وقد اغترب في سبيله ، ولم يمس في جوه عشرة قرون في سماء المجد الإسلامي ، عشرة قرون ملئت أسرارا ، وفاضت علما وأدبا وفخرا ، فأضفى على الأزهر من خياله ما أضفى عليه الأزهر من حقيقته ، فجاء شعره فيه سحرا وحقا".^{٨٨}

نظم رشيد في الأزهر أربع قصائد ، إحداها بمناسبة اختيار فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخا أكبر للأزهر ، وكان ذا فكر إصلاحي ، وكان رشيد رضا كأستاذه الشيخ محمد عبده حريصا على إصلاح الأزهر ، كثير السعي له ، فوافق تعيين الشيخ المراغي هو في نفسه ، وسجل ذلك شعرا ، مبينا ما لهذه المؤسسة العلمية العريقة من أثر خطير في حفظ تراث الإسلام ونشره :^{٨٩}

فيَهُ الْحَيَاةُ إِذَا مَا شِئْتَ تَرْجُوهَا آيَ الْمَعْرِفَةِ لِلأَرْوَاحِ تَهْدِيهَا دَانَتْ قُطْوَفَا وَقَدْ طَابَتْ لِجَانِيهَا مِنْ مَائِهِ الْعَذْبِ يَرَوِي النَّفْسَ ظَامِيهَا	يَا طَالِبَا لِرِيَاضِ الْعِلْمِ أَزْهِرْنَا أَنْوَارُهُ سَطَعَتْ فِي الْكَوْنِ نَاسِرَةً فِيَهُ الْثَقَافَةُ وَالْأَخْلَاقُ تَشَهِّدُهَا فِيَهُ الشَّرِيعَةُ يَنْبُوَعُ لَوَارِدَهُ
---	---

ثم يمدح الشيخ المراغي بالإخلاص والحرم والجد والأخلاق العالية ، والاجتهد في الإصلاح ، راجيا أن يتحقق على يديه الإصلاح المرتقب :^{٩٠}

بِالْحَرَمِ وَالْجِدِ وَالْأَخْلَاقِ عَالِيهَا أَنَّ الشَّرِيعَةَ فِي نَادِيكَ نَادِيهَا كَالشَّمْسِ تَسْطُعُ مِنْ أَعْلَى أَعْلَاهَا فِي عَهْدِ حُرُّ أَبِي النَّفْسِ سَامِيهَا مِنْ قَدْ أَتَى لِعَهْدِ الْمَجَدِ يُحِبِّيهَا هَذَا مَنَارُ الْعُلَا إِنْ شِئْتَ تَتَوَيِّهَا	فِيَهُ الْمَرَاغِيُّ وَالْإِخْلَاصُ رَائِدُهُ يَا وَارِثَ الْعِلْمِ عَنْ طَهِ كَفَاكُ عَلَّا يَا شِيَخَ أَزْهِرْنَا دُمْ لِلْعُلَا عَلَّا إِصْلَاحُ أَزْهِرْنَا قَدْ بَاتَ مُرْتَقَبَا رَبُّ الْفَضِيلَةِ لِلْإِصْلَاحِ مَدَّحَ هَذَا الْمَرَاغِيُّ هَذَا شِيَخُ أَزْهِرْنَا
--	---

ويتحدث في قصيدة ثانية عما تعرض له طلاب الأزهر من الضرب والسجن على يد الشرطة المصرية ذات يوم ، ويدرك رشيد أنه نظم هذه القصيدة في السجن الذي

^{٨٨} - ديوان السيد: ٨

^{٨٩} - السابق: ١٧

^{٩٠} - السابق: ١٨

قضى فيه مع بقية الطلاب أربعاً وعشرين ساعة ، وفيها تصوير لحال هؤلاء الطلاب الذين وفدو إلى الأزهر من شتى بقاع العالم الإسلامي تحدوهم رغبة جامحة في العلم الشرعي في هذا المعهد العريق :

٩١

في ذمة الحق سبعٌ تلوها سبعٌ
والعاشر من بعدها ساعاتهم عَدُّ
قضيتها في ظلام السجن مع نفرٍ من خيرة النشاء بالإسلام يُعتقد
جاءوا وجئنا إلى مصر وغايتنا رياضُ علم لنا في الأزهرِ القصد
جئنا نُرَوَى نُفُوساً جُدُّ ظامنةً من كوثرِ العلم فيه مأوه شَهْدٌ
فيه فطاحلٌ كم قد ثقَّفوا أَمَما كم قَوَّمُوا عَوْجاً يا نَعْمَ ما أَسْدُوا

والقصيدتان الأخريات لم يذكر لها مناسبة ، وإنما يشيد فيهما بالأزهر ، وينوه ما له ولعلمائه من فضل في حفظ الدين والتراث الإسلامي ، وهذا دليل على أن رشيداً لم يكن في صراعه المشهور مع علماء الأزهر مدفوعاً من كراهية يكنها لهذه المؤسسة ورجالها ، وإنما كان ذلك ضناً بها ، وحرصاً على تطويرها وإصلاحها الذي لم يصغ إليه كثير من علمائه ، فكان نقده منصباً على هذا ، أما حبه في الأزهر ، وإعجابه برسالته عبر التاريخ فهو ما يعبر عنه في قوله :

٩٢

أَنْوَارُهُ وَغَدَا يَهْدِي الْمُضْلِّينَا	النُّورُ مُنْبِحٌ مِنْ أَزْهَرٍ سَطَعَتْ
تَرْجُو الْهِدَى يَةَ فِي ظِلِّ الْمُجَدِّيْنَا	حَنَّتْ إِلَيْكَ نُفُوسٌ شَفَّهَا سَقَمٌ
حَمَّاكَ رَبِّكَ مِنْ كَيْدِ الْمَكِيدِيْنَا	يَا دُرَّةَ فِي سَمَا الْعَلَيَاءِ لَامِعَةَ
فُرُونُهَا عَشْرَةَ أَحِيتِ مَلَيِّنَا	نُورَتَ فِي عَالِمِ الإِسْلَامِ أَزْمَنَةَ
غَذَّيْتَ جَمِيعَهُمْ مِنْ نُورٍ هَادِيْنَا	كَمْ مِنْ فَطَاحِلٍ فِي عِلْمٍ وَفِي أَدِبٍ
يَزْهُو جَمَالُكَ دَوْمًا فِي مَعَالِيْنَا	يَا مَعَهَدًا قَدْ سَمَا لَا زَلَتْ مَفْخَرَةَ
شَمْسُ الْهِدَى يَةَ فِي دُنْيَا أَمَانِيْنَا	قَدْ صَانَكَ اللَّهُ أَزْمَانًا بِهَا بَرَّغَثَ
نُورٌ مِنَ اللَّهِ فَيَاضُ بَنَادِيْنَا	لَا زَلَتْ كَعْبَةَ آمَالٍ يُحِيطُ بِهِ

ويصور رشيد ما كان يحدوه من الأمل والرغبة في التزود من العلم ، والنهل من معين الأزهر الصافي ، عندما قدم إلى مصر كغيره من أبناء العالم الإسلامي ، وكيف تحققت رغبته على أفضل وجه وأكمله :

٩٣

أَتَيْتَكَ صَادَ النَّفْسِ يَا طَيْبَ الْوَرْدِ وَيَا مَنْهَلَ الْغَلَيْءِ فِي مَطْلَعِ السَّعْدِ
 سَمَّتْ بِي نَفْسِي لِلْعُلَا فَاتَّبَعْتُهَا وَوَفَّيْتُهَا حَقَ الرَّعَايَاةِ فِي الْوَدِ
 دَعَتِنِي إِلَى الْآدَابِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى فَلَبِّيَّتُهَا لَمَّا دَعَتِنِي إِلَى الْمَجَدِ
 قَصَدْتُ رِيَاضَ الْفَضْلِ فِي أَزْهَرِ الْمُنْيِ وَنَعِمَ الْجَنَى يَهْدِي إِلَى جَنَّةِ الْخَلْدِ
 هِيَ التَّمَرُّثُ الْيَانِعَثُ عَلَى الْحَيَا تُرِيكَ الْمَعْانِي فِي الْبَيَانِ وَفِي الْحَدِ
 وَكُمْ مِنْ بَدِيعِ فِي مَشَاهِدِ حُسْنِهِ أَصْوَلُ الْمَعْانِي لِلثَّاءِ وَلِلْحَمْدِ
 رِيَاضُ شَدَّتْ فِيهَا الْحَمَائِمُ بِالصَّبَّا تُرِدُّ وَحْيُ الْأَوَّلِينَ بِمَا تُبَدِّي
 بِهَا مَعْهُدُ الدُّنْيَا الَّذِي ذَاعَ ذَكْرُهِ بَنَاهُ لَيُوْثُ الْغَابِ فِي سَالِفِ الْعَهْدِ

الغزل

يفرد رشيد في ديوانه أربع قصائد في الغزل ، كلها تحمل اسم دعد ؛ اسم محبوبته أو رمزا يرمز به إلى محبوبة حقيقة هاجت مشاعره ، أو رمزا عاما لا يرتبط بأمرأة بعينها ، كل ذلك وارد ، وإن كان من المستبعد أن يشتبه رشيد بأمرأة معينة مصريا باسمها ، لمنزلته الدينية ، التي ما كان ليفرط فيها ، مهما بلغ به الوجد والغرام ، غير أن المترجمين له أشاروا إلى ما يشبه الإخفاق في علاقاته الزوجية الأولى ، فقد اقترنت في أول زواجه بابنة عم له ، أنجب منها طفلين لم يعيشا طويلا ، فلما هاجر إلى مصر أبىت أن تلحق به ، حتى اضطر إلى مفارقتها رغم حبه الشديد لها ، ولم تتزوج بعده ، وكان يتعهد بها ويصلها ، ثم خطبت له امرأة ، من أسرة سرية ، رفيعة الشأن ، من أهل بلدته ، وعقد عليها بالوكالة ، في مناسبة عظيمة ، نوه بها في مجلة المنار ، لكنه لم يبين عليها ، ولم يدخل بها لأنها كالسابقة تلકأت في أن تحمل إليه ، وماطلت في ذلك كثيرا ، وبعد مراجعات طويلة فارقها أيضا ، وشارك أستاذه الشيخ محمد عبده في سعي زواج في مصر لم يكل بالنجاح ، كما

جرت بينه وبين سيدة مصرية مراسلات ، في محاولة زواج رابعة ، انتهت إلى الأض محلل ، ولم يوفق في زواج مستقر و دائم إلا في محاولته الخامسة.^{٩٤}

ربما تكون هذه الإخفاقات الكثيرة في علاقاته الزوجية قد قدحت زناد عواطفه ، وهاجت مشاعر حبه ، ثم حركت وتر الغزل في قياثرة شعره ، على أن رشيداً كان في طبعه رقيق المشاعر ، لطيف الإحساس سريع التأثر ، غير متزمت في تدينه ، وأيا كان الحال فإن رشيداً في دعدياته يصور محبوبة ملكت مشاعره وأطلق قوافيه في التغني بها ، كما في قوله :^{٩٥}

نظمت لها القوافي في هواها وصنفت عقود دُرٌ في رضاها
وكم بُثَ الليلاني في اختبٰطِ
أناجيها وأرشف من لمامها
أناجيها بهمسٍ من فُؤادي
ودمع العين مُنسكبٌ يراها
أناجيها ونجمُ الليل ساجٍ
سليلةٌ يَعْرِبُ ملكت جناني
وعيني لم تَمْتَعْ من سناها
فمعذرةً عَزُولٍ في هواها
هدوء الليل سرٌ عن فوادي وأتْحَفَني بِرَقٍ من ضياعها
وأذكرني لياليِ غابراتٍ مَضَتْ كَوْمِيْضٍ برقٍ في سماها
عشقتك دَعْدَه قد همتُ وجداً وروحٍ في هواك تَرَى هناتها
ملِكَةٌ مُهْجَتِي دومي لقلبي وآلامي وأشجانِي شفافها
ودومي لي على عهدي وإنِي على عهد المحبة في حماها
أظلُ لها وفيها كل عمرِي وحقَّ العُرب لا أبغِي سواها
فحبه لها ملِكُ أقطار قلبه ، فلا ينال منه لوم اللائم ، ولا يطفئ حرارة شوقه إلا عيون المحبوبة :^{٩٦}

وأنا المَشْوَقُ وما لشدة لَوْعَتِي إِلا عَيُونَكَ أَسْتَعِينُ بسحرها
فهبي الفواد تحيَّةً من مثله وثقي بأنَّ محبتِي أحيا بها
وتقبلي يا دَعْدُ خيرَ تحيَّةً الورُدُ والنُّسرينُ من ريحانها

^{٩٤} - رشيد رضا صاحب المنار: ٢٢٠-٢٢١

^{٩٥} - ديوان السيد: ٤٢

^{٩٦} - السابق: ٦١

ويؤكد على هيامه بها ، بما لا يدع مجالاً للشك ، وأنه مأسور لجمالها الفاتن
وطهرها الملائكي ، وأن أمر سعادته وشقائه بيدها : ^{٩٧}

يَا دَعْدَعْ إِنِي مُسْتَهَمٌ وَإِنْ بَيْ
وَلَهَا أَطْارَ مِنَ الْعَيْنِ رُقَادُهَا
عِنْيَاكَ فَتَكْتَنَا بِقَلْبِي مَثْلَمَا
أَمْلَاكُ طُهْرٍ أَمْ رَسُولُ مَحْبَةٍ يَا دَعْدَعْ أَنْتَ أَمْ الْحَيَاةُ بِأَسْرِهَا
فَصَلِي إِذَا تَرَضَيْنَ أَوْ فَلَتَحْفَظِي قَلْبِي وَصُونِي مُهْجَتِي مِنْ نَارِهَا
إِنْ مَحْبُوبِتِهِ حَسَنَاءُ بَارِعَةُ الْجَمَالِ . تَسْلِبُ فَوَادِي النَّهَى ، وَتَقْتَنُ الزَّهَادِ
وَرِجَالُ الدِّينِ ، وَتَجْمَعُ إِلَى الْجَمَالِ الْعَفَافُ وَالْأَدْبُ وَالظَّرْفُ ، فَهِيَ كَامِلَةُ الْأَوْصَافِ ،
لَا يَلَامُ فِي حَبِّهَا أَحَدٌ : ^{٩٨}

يَا حُسْنَهَا سَلَبْتَ عُقُولَ ذُوِي النَّهَى
يَا لِلْفَوَادَ غَرَامُهَا أَضْنَانِي
كِيفَ الْمَلَامُ بِحَبِّهَا وَعَيْنُهَا
فَتَنَّتْ رِجَالُ الزُّهْدِ وَالْأَدِيَانِ
حُورِيَّةُ زَانُ إِلَلَهُ جَمَالُهَا
بِحُلْيِ الْعَفَافِ فَضِيلَةُ الْإِنْسَانِ
وَبِحَسْنِ آدَابِ وَظَرْفِ كُمْلَتِ
أَوْصَافُهَا وَالسَّحْرُ فِي الْأَجْفَانِ
هَذِي صَفَاتُ خَصَّهَا اللَّهُ بِمَنْ
مَلَكَتْ فَوَادِي مُعَذِّبٍ وَلَهَانِ

بَلْ إِنْ دَعَا تَعْرِفُ مَدْيَ مقَاْسَةِ الشَّاعِرِ فِي حَبِّهِ لَهَا ، وَأَنْ عَذَالَهُ يَتَجَنَّبُونَ عَلَيْهِ حِينَ
يَطْلُبُونَ مِنْهُ إِلْقَاعَ عَنْ حَبِّهَا : ^{٩٩}

يَا لَرْوَحِي إِذْ تَبَدَّلُ
فِي حَمَى الْعَرْبِ الْأَمِينِ
مِنْ يَقِيَّهَا مِنْ لِحَاظِ
فَتَكُّهَا فِي كُلِّ حِينِ
سَلْ عَزُولِي كَمْ تَجَنَّى
دَعْدَعْ تُبَيِّنُكَ الْيَقِينِ

الْوَجْدَانِيَّات

كان رشيد وهو يتدرج في مدارج العلم والدعوة والإصلاح في بلده الشام ، شاباً
ملتهب الحماسة ، واسع الطموح ، كبير الآمال ، فرأى أن بيته غير مناسبة لتحقيق
طموحاته ، فهاجر إلى مصر ، واتصل بالشيخ محمد عبده ، وعرض عليه خدمته ،

^{٩٧} - ديوان السيد : ٦٢

^{٩٨} - السابق: ٧٧

^{٩٩} - السابق: ٧٨

ليأخذ بيده لتحقيق بعض ما تصبوا إليه نفسه ، وسعد بصحبته فترة لم تطل ، أفاد فيها من حكمته وشهرته ، ومن حمايته له ، وتمكينه إياه من الإقامة السعيدة في مصر ، فلما قضى الشيخ نحبه ، ومضى إلى ريه ، عانى من منافسة الأقران من تلاميذ الإمام وغيرهم.

وكان من طموحات رشيد رضا الجسم ، أن يتبوأ منزلة تضاهي منزلة شيخه ، بحيث تسلم له الإمامة من بعده ، وتلقى إليه مقاليد التوجيه والإرشاد الديني ، ومن آماله التي سعى إليها ، وبذل فيها جهداً مادياً ومعنوياً ، إنشاء جامعة على غرار جامعة الأزهر ، التي استعانت أمام الإصلاحات ، لتخريج دعاة وعلماء يجمعون ما بين العلوم الإسلامية الأصيلة والمعارف العصرية الضرورية كما سعى إلى التوفيق بين عنصري الأمة ، ودعامتى الخلافة الإسلامية ، وهما الأتراك والعرب ، وحل ما بينهما من الخلافات وسوء التفاهم المتبادل ، لأنقاذ الخلافة الإسلامية من الإنهاك ، وساهم رشيد رضا بجهد كبير في نشاط الحركة العربية ، التي كانت تسعى إلى إقامة دولة عربية كبيرة ، كما كان إلى جانب ذلك عضواً فعالاً في حركة تحرير سوريا من الاستعمار الفرنسي. ومن أثقل الهموم التي أقامت مضجعه ، كيفية إحياء الخلافة الإسلامية ، بعد إلغائها على يد القائد التركي العثماني ؛ مصطفى كمال أتاتورك.

هذه بعض الآمال العظيمة التي أفنى في تحقيقها السيد رشيد رضا عمره المديد ، وبذل فيها النفيس من وقته وجهده وماله ، فلم يتحقق أي منها على النحو الذي أمله رشيد ، ثم واجهته في آخريات حياته أزمات مالية وصحية واجتماعية كادت أن تعصف ب حياته وبمشاريعه الأدبية ، التي من أهمها مجلة المنار.

كل هذه الأمور وغيرها من السلبيات الكثيرة ، التي حالت بين رشيد رضا وبين بلوغه إلى آماله أو بعضها ، رغم التضحيات الجسم ، طفت على صفحة ذاكرة الشاعر ، وانعكست على مرآة مشاعره ، في أواخر أيام شيخوخته وعجزه ، فزأر كالأسد الجريح ، بطائفة من قصائد الشكوى ، تترجم عن شعوره العميق بالحسنة والآلام لنتيجة حصاد

العمر والغربة : ١٠٠

بالت الله يا أمنلي كم بتُ مرتبأ
منك الوصال فهلاً جدت يا أمنلي

بالهُجُرِ والبُعْدِ لم ترحم ولم تصل
طال الغِيَابُ فَخَفَ لَوعَتِي وصل
ناجيَتْ طَيْفَكَ كَيْ يَأْتِي عَلَى عَجَلٍ
وَالنَّجْمُ يَسْبُحُ فِي حَلٍ وَمُرْتَحِلٍ
أَسْعَى إِلَيْكَ عَلَى عَيْنِي بِلَا مَهْلٍ

قل لِي بِرِبِّكَ مَا ذَنَبْتِي تَعذِّبِنِي
نَفْسِي تَحْنُ إِلَى لُقْيَاكَ يَا أَمْلِي
كَمْ بَثُّ مِنْ أَرْقِ أَرْعَى النُّجُومِ وَكَمْ
كَمْ قَمَتْ فِي غَسْقِ الْأَسْحَارِ مُرْتَقِبَا
نَادَيْتِ يَا أَمْلِي أَيْنَ الْمَقَامُ لَكِي

لَكَنَّ الْأَمْلِ يَسْتَشْعِرُ فِي الْقَلْبِ ، وَلَا يَرَى إِلَّا فِي الْخَيَالِ ، أَمَّا فِي الْوَاقِعِ الْمَلْمُوسِ ،
فَلَا يَعْرُفُ لَهُ مَكَانٌ ، حَتَّى يَصَارُ إِلَيْهِ : ١٠١

أَفِي السَّمَاءِ مُقِيمٌ أَمْ بِبَادِيَةٍ أَمْ فِي الْخَفَا أَمْ ثُرِيَ فِي ذِرْوَةِ الْجَبَلِ

مَا الَّذِي أَوْدَى بِأَمْلِهِ ؟ وَاغْتَالَ طَمْوَهِ ؟ إِنَّهُ الْدَّهْرُ الْغَدَارُ الَّذِي يَجْرِعُهُ عَلَقَمُ الْحَيَاةِ
صَبَاحَ مَسَاءَ ، فَلَا وَفَاءَ مِنْ حَبِيبٍ أَوْ صَدِيقٍ ، وَلَا أَمْلِ وَلَا رَجَاءَ فِي تَحْقِيقِ مَأْمُولٍ

بَلْ خِيَانَةً وَحْرَمَانَ وَاضْطِهَادَ ، وَلَكَنَّهُ مَاضٌ فِي السَّعْيِ وَالْكَفَاحِ : ١٠٢

إِيَّهُ دَهْرُ الْغَدَرِ أَقْبِلَ أَوْ فَأَدْبَرَ لِسْتُ إِلَّا زَارِدًا حَبَلَ الْخِنَاقَ
بَئَسْتُ الْأَيَّامُ تَأْتِي بَعْدَمَا أَشْبَعْتُنِي عَلَقَمًا مِنْ الْمَذَاقَ
هَا فُؤَادِي مِنْهُ فَكَكْتَ الْعُرَى وَقَطَعَتَ الْوُدَّ مِنْ بَعْدِ التَّلَاقِ
أَفْبَعَدَ الْغَدَرِ يَا مَنْ خَانَنِي مِنْ وَفَاءِ أَوْ صَفَاءِ وَاتِّفَاقِ
مَا أَرَى يَا دَهْرُ إِلَّا أَنَّنِي بَيْنَ كَأْسَيْنِ اصْطَبَاحٍ وَاغْتِبَاقِ
كُلَّمَا أَهْرِيقَتْ صَبَاحًا جُرْعَةً أَرْسَلَتْهَا فِي الْمَسَا كَأْسًا تَرَاقَ
أَفْلَ السَّعْدُ وَحَلَّتْ بَعْدُهُ كُرْبَةُ الْعِيشِ بَنَأِي وَافْتِرَاقِ
وَتَوَالَّتْ بَعْدَ هَذَا مِحْنَ
صَيَّرَتْ مِنِي الْحَشَا نِضْوَ احْتِرَاقِ
خَانَنِي الْدَّهْرُ وَقَدْ أَمَّلْتُهُ خَانَنِي الْدَّهْرُ وَخَانَنِي الرَّفَاقِ
مِنْ مُجِيرِي يَا إِلَهِي مِنْ أَسْيَابَنِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ الْمَسَاقِ
قَدْ كَفَانِي يَا إِلَهِي مَا أَرَى مِنْ عَذَابٍ وَشَقَاءٍ وَاحْتِنَاقِ
مِنْ هُمُومٍ وَشَجَونٍ سُعَرَتْ وَاضْطِهَادِ بَيْنَ خُلْفٍ وَشِقَاقِ

وذنبه في كثير مما يقاسيه أنه لا يحابي أحدا ، ولا يرائي فيما يفعل أو يدع ، وإنما هو رجل مبادئ وأهداف عليا سامية ، لا يخاف في السعي لها لومة لائم : ^{١٠٣}

ضِقْتُ دَرْعًا بِالذِّي أَعْيَا الْوَرَى عَبْدُ الْحُرَّ لِأَرْبَابِ النِّفَاقِ

لِيْسَ ذَنْبِيْ يَا إِلَهِيْ غَيْرَ أَنْ لَا أَحَابِيْ لَا أَرَأَيِ لَا ارْتَزَقِ
لِيْ ضَمِيرِ عَاشَ حَيَا يَقِظَا لَسْتُ أَرْضَى عَيْشَ ذُلِ لَا يُطَاقِ

إن ما يؤلم السيد رشيد رضا أو يروعه ، هو ما اغتاله الدهر من آماله ، وهذا هو مصابه ، ولا أعظم من الإلحاد والخذلان وضياع العمر : ^{١٠٤}

وَهَذَا الدَّهْرُ يُولِينِي مَصَابِهِ وَاسْتَرَّفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِيْ تَرْدِيدًا
وَاغْتَالَ مِنْ أَمْلِيْ مَا كُنْتُ أَرْقُبُهُ وَخَانَتِي الْحَظْ فِيمَا كَانَ مَنْشُودًا
تَالِكَ الْمَآسِيْ وَالْأَمْيِ تُرْوَعْنِيْ وَالْبُؤْسُ أَفْرَغَ فِي نَفْسِيْ أَغَارِيدًا

وليس اغتيال الأمل عن ضعف في الساعي ، أو خمول في همه ، أو خور في طبعه ، بل إنه كثير الجد ، بعيد الخطوات إلى تشيد صروح المجد : ^{١٠٥}

هَذِيَ الْحَيَاةُ وَكُمْ فِيهَا خَطُوتُ خُطِيَّ كُمْ ذَا طَرَقْتُ طَرِيقًا كَانَ مَسْدُودًا
وَالْدَّهْرُ يُزَعِّجُنِيْ عَنْ غَايَةِ عَظَمَتْ مِنْ بَعْدِ مَا أَمْلِيْ قَدْ كَانَ مَعْقُودًا
كُمْ خَانَتِي زَمْنِي وَالْدَّهْرُ يَمْنَعُنِيْ عَنْ أَنْ أَشَيدَ صَرَحَ الْمَجَدِ تَشْبِيدًا
لَكَنِي أَبْدَا بِالْجِدِ مُعْتَصِمًا مَهْمَا رَأَيْتُ مِنَ الْأَيَامِ تَنَكِيدًا

ولكن الغاية التي يسمو إليها الشاعر عظيمة والدهر نك عنيد ، ولا صاحب أو معين يوثق به ويستعان عليه ، فالطريق موحش وكثير الصعاب : ^{١٠٦}

هَلَا نَظَرَتَ إِلَى مَنْ كَانَ يَصْبَحُنِيْ يَوْمَ النَّعِيمِ وَقَدْ أَوْرَدْتُهُ الْجُودَا
قَدْ كَانَ لِي عَضُودًا يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي شَتَّى الْمَوَاقِفِ يُولِينِي الْمَقَالِيدَا
لَكَنَهُ الْيَوْمُ أَمْسَى نَائِيَا عَجَبًا قَدْ أَنْكَرَ الْوَدَ إِذْ لَمْ يُوفِ مَوْعِدًا

١٠٣ - ديوان السيد : ٢٨

١٠٤ - السابق: ٥٤

١٠٥ - السابق: ٥٦

١٠٦ - السابق: ٥٧

إن آمال العلا بعيدة المنال دائمًا ، غالبية مثل الدرر المصنونة ، وإن تراءت في خيال مبتغيها سهلة المنال ، وأبعد ما تكون من ضعيفي الهمة ، قليلي التضحية:

١٠٧

يلعب الدهر بآمال الفتى وأمانٍ العلا دُر مَصْنُون
 بينما النفس ترى في ساحها مُبْتَغٍ الآمال في كافٍ ونون

الاجتماعيات

التفت رشيد إلى الشأن الاجتماعي ، فتحدث عن هموم المحرومين ، والقراء والمساكين ، كما تحدث عن الظلم والعدالة ، وشكًا من شيوع الأول وفقدان الثاني ، فقد أصبح العدل نادر الوجود إلا في خيال الضعفاء والمظلومين ، يرددون اسمه ولا يعرفون رسمه :

ما لأهل الأرض صُبْحاً ومساءً يطلبون العدل والعدل هباء
قد سمعنا باسمه لم نرَه بُسْ عدل الأرض في طيِّ الخفاء

أما الأقوياء من الملوك والرؤساء وأصحاب النفوذ ، فلا يعبأون بشيء في سبيل الوصول إلى مآربهم ، ولا يردعهم خوف ظلم ولا مراعاة عدالة من اعتساف الطريق ، وركوب ظهور الضعفاء لتحقيق أغراضهم :

كم ظلام في قرونٍ قد خلت كان فيها العدل إهراقَ الدماء
كم قويٌ شادَ ملكاً واسعاً وبِحدِ السيفِ سادَ الضعفاء
بألوفٍ مِنْ نُفوسِ الأَبْرِياءِ كم ملِيكٌ فتَكَتْ أَطْمَاعَه
عنهم التارِيُخُ يَرْوِي لِلْمَلا

هذا الذي حيرَ الحكماء والعلماء ، وجعل الشاعر ييأس من العدل في هذه الدنيا ، ولا يعول إلا على عدل الحاكم الحق ذي العدل المطلق ، في الفصل بالقسطاس المستقيم :

١١٠

١٠٧ - ديوان السيد : ٨٧

١٠٨ - السابق: ٢٩

١٠٩ - السابق: ٢٩

١١٠ - السابق: ٣٠

أين عدلٌ حارَ فيه الْعَلَمَاءُ
سَطْحِ أَرْضٍ عَمَّا يَوْمَ الرِّيَاءُ
وَتَجَلَّدَ وَاقْطَعَنْ مِنْهُ الرَّجَاءُ
بِاسْمِ عَدْلٍ تَاهَ فِيهِ الْحُكَمَاءُ
يَوْمٌ لَا عَدْلٌ سَوْيَ عَدْلِ السَّمَاءِ
أين عدلٌ ضَلَّ ذُو الْعَقْلِ بِهِ
ضَلَّ مَنْ يَنْشُدُهُ يَوْمًا عَلَى
فَاطِرِخٍ يَا صَاحِبِ الْأَسْمَالِ
لَا تَرَى مِنْ غَايَةٍ مَنْشُودَةٍ
وَانْتَظِرْ إِنْ رُمْتَهُ حَقًا يُرَى
يَوْمٌ تَلْقَى النَّفْسُ مَا قَدْ قَدَّمَتْ لِلَّهِ الْعَرْشَ مِنْ حُسْنِ الْوَلَاءِ

ويهوله منظر مسكين يمد يده لأولي الخيرات ويسأله بصوت خافت خجول ، فيقرأ
في وجه السائل أمارات البؤس والفقر المدقع ، ويلوح له من مخايله أنه ذو أدب
ومنطق ، وعفاف وشهامة ، لولا أن الدهر أجاه إلى الاستمناح ، وأحاله إلى متسل

: ١١١

رَأَيْتَهُ بَاكِيَا مَا يُرَوِّعُهُ
يَشْكُو الزَّمَانَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ وَيَدِ
يَرْجُو الْقَلِيلَ وَيَشْكُو الْجُوعَ مِنْ أَلْمِ
فِي وَجْهِهِ ارْتَسَمَتْ آيَاتٌ مِنْهُتِهِ
يَرْجُو الْكَفَافَ وَكُمْ ذَا جَدَ طَالِبُهِ
سَاعَةٌ مَعِيشَتُهُ وَالنَّفْسُ عَالِيَّةٌ
لَا يُبَدِّيَنَ مَلَلًا مِنْ سُوءِ مَوْقِفِهِ
لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلَحَافًا وَفِي خَجْلٍ
مِنْ سُوءِ حَالِهِ وَمَدَامُهُ
مَمْدُودٌ لِأَوْلَى الْخِيرَاتِ تَدْفَعُهُ
وَالْوَجْهُ مُكْتَبٌ قَدْ سَاءَ طَالِعُهُ
يَا لِلْمُصِيبَةِ مَا لِلْبُؤْسِ يُفْزِعُهُ
فِي أَيْمَانِهِ عَمَلٌ وَالدُّهُرُ يَقْطَعُهُ
إِذْ مَا تَرَاهُ تَظَنُّ الْخَيْرَ يَتَبَعُهُ
عَفُّ الْلِّسَانِ أَدِيبٌ حِينَ تَسْمَعُهُ
يَرْنُو إِلَيْكَ بِعَيْنٍ كَمْ تُصَدِّعُهُ

لكن الشاعر لا يجد ما يسعف به هذا المسكين ، الذي تألم لحاله ، فيزيده ذلك حزنا

على حزن : ١١٢

يَا لَيْتَ لِي سَعَةً أَعْطَيْهِ مَا وَسِعْتُ
لَكُنْ رَبِّيَ قَدْ شَاءَتْ إِرَادَتُهُ
مَا كُنْتَ مُمْتَلِكًا حَتَّى وَلَا وَرِقًا
كَفَايَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ كُنْتُ أَنْفَعُهُ
أَنْ لَا أَرَى دِرْهَمًا فِي الْكَفِ أَدْفَعُهُ
فِيهِ أَرْوَحُ عَنْ نَفْسٍ تُرْوَعُهُ

فلا يجد الشاعر أمامه إلا أن يدعو المسكين إلى الصبر ، وينذكره بأن لا حال يدوم
في هذه الدنيا ، وأن الله قد يديل له قريبا : ^{١١٣}

صبراً أخِيَّ فما الأيَامُ دائِمَةٌ
يَوْمٌ سُرُورٌ وَيَوْمٌ سَاءَ مَطْلُعُه
كَفْكِفْ دُمُوعَكْ لَا تَحْزَنْ لِضَائِقَةٍ
مَا مِنْكَ تَأْخُذُهُ الْأيَامُ تُرْجِعُهُ

ويتوجه إلى الأغنياء ، فيطلب منهم مساعدة الفقراء ، بما أفاء الله عليهم من الأموال
'، ويصور لهم حال الفقراء : ^{١١٤}

قُلْ لِلأوَّلِيٍّ جَمَعُوا الْذَّهَبَ إِنَّ الْفَقِيرَ لِفِي سَغْبٍ
قَدْ بَاتَ يَطْوِي لِيَلَهُ وَالْجَسَمُ أَضْنَاهُ التَّعَبُ
أَحْشَاؤُهُ فِي جَوْفِهِ كَالنَّارِ مَشْبُوبُ الْلَّهَبِ
أَعْضَاؤُهُ مَنْهُوكَةٌ مِّنْ عَيْنِهِ دَمْعٌ سَكِّبَ
قَدْ بَاتَ يَشْكُو حَظَّهُ مَا يُلْقِي عَنْ كَثِبِ
مِنْ هَمِّهِ مِنْ فَقَرِهِ مِنْ سُوءِ حَالِ الْمُنْقَلَبِ
دُيُونُهُ كَثِيرَةٌ وَالْجُوعُ أُوْدَاهُ الْعَطَبُ ^{١١٥}

ويذكرون بما يلزم عليهم من الشفقة على هؤلاء المعوزين ، كما يذكرون بما أعده الله
للمحسنين من الأجر المضاعف : ^{١١٦}

وَاعْطِ الْفَقِيرَ مَنِ الْذَّهَبِ	قَمْ يَا غَنِيُّ وَسَارِعْنَ
يَرْجُو النَّجَاهَ مِنِ الْعَطَبِ	قَمْ نَحْوَ مُحْتَاجِ غَدَا
مِنْ أَجْلِهَا وُجُدَّ السَّبَبِ	وَاعْمَلْ لِأَخْرَاكَ التِّي
تَلْقَى الْهَنَاءَةَ وَالْأَرَبِ	تَلْقَى النَّعِيمَ مُؤْفَرًا
خَيْرًا لِمُحْتَسِبِ يَهَبِ	وَاللَّهُ خَيْرُ مُضَاعِفٍ

^{١١٣} - ديوان السيد: ٥٠

^{١١٤} - السابق: ٧٦

^{١١٥} هكذا في الأصل.

^{١١٦} - ديوان السيد: ٧٦

المبحث الثاني : نشر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : رسائله

من الفنون الأدبية النثرية الرسائل بشقيها الرسمي والشخصي ، وقد عرف أدبنا العربي القديم النوعين ، وأبدع فيما أيمًا إبداع ، وكان يسمى النوع الأول الرسائل الديوانية ، وهي التي تصدر من جهة حكومية ، والنوع الثاني الرسائل الإخوانية وهي التي يتبادلها النظارء من الكتاب والأدباء أيا كان غرضها ، ولم تخل فترة أو عصر من عصور الأدب المتلاحقة من هذا اللون من النثر الفني ، لتوافر دواعيه وإن أصحابه ما أصحاب الأشكال الأدبية الأخرى من الضعف في العصور المتأخرة حتى إذا كان عصر الإحياء ، وعاد المجددون والإحيائيون إلى عصور الازدهار الأدبي ، يستلهمون منها ، عادت الإشراقة إلى فن الرسائل.

لم يتول السيد رشيد رضا قط منصباً حكومياً ، ولم يتقلد وظيفة رسمية ، ومن ثم لا نبحث عن نماذج رسمية في رسائله الموروثة ، وإن راسل وراسله الرسميون من الملوك ورؤساء الحكومات وأصحاب الوظائف العالية والمناصب الحكومية الكبيرة ، لا عن موقع التبعية أو الدونية ، بل بوصفه داعية مرشداً وعالماً مصلحاً ووطنياً مناضلاً.

اشتهر السيد رشيد رضا بسيلان القلم ، وغزارة الإنتاج ، وسهولة الكتابة عليه ، وقد تقدم ما قيل فيه من ذلك ، ومنه قول الأمير شبيب أرسلان ، وهو من هو في علو كعبه في المنشور والمنظوم ، وفيض قلمه ، وكثرة تأليفه : " فأما السيد رشيد فانصرف لكتليته إلى أعمال القلم ، وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره في الأسابيع ، حتى لو قيل إن محصول قلمه يتوزع على عشرة كتب كبار ، ويصيّب كلاً منهم نصيب وافر ، لم يكن في ذلك أدنى غلو ، لأن سهولة الكتابة ، التي كانت عند صاحب المنار ، بما أوتى من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة ، وانتظام المنتين المطبوع والمسموع ، كانت آية باهرة ، لا يتمارى فيها إلا حاسد أو معاند. " ^{١١٧} وكان إلى جانب ذلك ذا علاقات واسعة ، كثير الأصحاب والأصدقاء

والمعارف ، وأسهمت في ذلك طبيعة عمله ، حيث كان صاحب مدرسة ، تقبل الطلاب من شتى بقاع العالم ، وكان صاحب مجلة واسعة الانتشار ، إضافة إلى أنشطته السياسية ، وانتظامه في عضوية كثير من الجمعيات ثم إنه كان مغتربا عن وطنه ، بعيدا عن أهله ، وفوق كل ذلك كان همه الإصلاحي يحمله على البحث الدائم عن شركاء ، يتعاون معهم في النزول عن حياض الدين والأمة. يقول في إحدى رسائله: "كنت كلفت السيد أمين الحسيني ، عند سفره إلى الشرق لأجل المؤتمر الإسلامي ، أن يكتب لي كشفا بأسماء وعناوين أعلى من يرى من الرجال في سياحته همة وغيرة وعزمًا في كل البلاد التي يطوفها فكتب" ^{١١٨} علاوة على ما جبل عليه وفطر من الحرص على أصحابه ، والاهتمام بهم أشد الاهتمام فهو "يعيش في اتصال دائم مع إخوانه ، إن قربوا بالمشاهدة ، وإن بعدوا بالمراسلة" ^{١١٩} وكان من محصول ذلك كله ، أن أصبح محط أنظار العلماء والوجهاء في العالم الإسلامي ، يفزعون إليه إذا رأيهم أمر ، ويشاورونه في قضيائهم ، ويستفتونه في أمور دينهم ، ولا بد أن يكون لكل ذلك صدأه في رسائله ، وأن نتوقع أنه خلف كما هائلا من الرسائل ، بدليل أننا رأينا أن رسائله إلى أحد أصدقائه ، بلغ المنشور منها إلى خمسمائة صفحة ، مع تصريح الناشر بأنه حذف كثيرا منها ، مما لا تسمح الظروف بنشره ، أو لا يناسب النشر لتعلقه بقضايا شخصية لا تفيق القراء.

رسائل رشيد رضا ، التي أتيحت لي دراستها ، مستمدة من كتاب "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة" ، لصديقه الأمير شكيب أرسلان ، ومن الكتب التي ألفت فيه ، مثل : "رشيد رضا صاحب المنار" للدكتور أحمد الشريachi ، ومن مجلة المنار بقلم غيره ، ومن كتبوا عنه بعد موته ، ولم أعتبر من رسائله ردوده على بعض مراسليه في مجلة المنار ، لأن تلك الردود العلنية ، غالبا ما يتولى صاحبها الموضوعية ، وتبتعد عن خصائص فن الرسائل.

^{١١٨} - السيد رشيد رضا : ٧٥٧

^{١١٩} - السابق : ٢٥٧

رسائله في كتاب "السيد رشيد رضا" لشبيب أرسلان

ذكر كل من السيد رشيد رضا ، والأمير شبيب أرسلان أنه لم يحتفظ شيئاً من رسائل الآخر ، أو أي رسائل على العموم ، قبل هجرة الأول إلى مصر ^{١٢٠} والثاني إلى أوروبا. ^{١٢١} وصرح شبيب ، أن رسائل رشيد المحفوظة لديه تبدأ من عام ١٩٢١م ، وذكر في عددها ، أنها تربو على مائتي مكتوب. ^{١٢٢} وقال في مكان آخر إنها تزيد على مائة وخمسين مكتوباً. ^{١٢٣} كما ذكر أنه لا يورد كلها ، بل يحذف منها ما قد يمس الأحياء بما لا يرضون عنه ، وملا حاجه إلى ذكره ، مما يتناول القضايا الشخصية التي كانت بينهما. ^{١٢٤} وفيما أورده حذف كثير يدل عليه بقوله " إلى أن يقول " وقد أحصيت هذه الرسائل ، فوجتها مائة واثنتين وخمسين (١٥٢) رسالة ، وهي كما قال شبيب متفاوتة في طولها وقصرها ، فمنها الطويلة التي تصل إلى عشرين صفحة ^{١٢٥} ، ومنها القصيرة التي لا تزيد عن صفحة واحدة . ^{١٢٦} وكان معدل تبادل الرسائل بينهما رسالة في الغالب أو رسالتين في كل شهر ، والرسائل مرتبة على حسب التسلسل الزمني إلا نادراً ^{١٢٧} مؤرخة بالتاريخين الهجري والميلادي في الغالب ، أو بأحدهما في أحيان قليلة ، وقد يستعمل التاريخ الرومي بدلاً الميلادي ، وأما موضوعات الرسائل فمتعددة في الغالب ، ولبعض هذه الرسائل حواش يستدرك بها ما نسيه ، أو تجدد لديه بعد ختم الكتاب ، كما يقول في حاشية أحد كتبه : " بعد ختم الكتاب أمس في الصباح ، جاءت الصحف فإذا فيها برقية باقتراح عقد مؤتمر إسلامي ، لتقرير جعل اللغة التركية لغة الإسلام ، التي ينخاطب بها شعوبه في شؤونهم المشتركة .. نسيت أن أكتب إليك أننا شرعنا في طبع كتاب أعمال المؤتمر السوري الفلسطيني .." ^{١٢٨} وقد يكتب لهذه الحواشي تاريخاً جديداً

^{١٢٠} - السيد رشيد رضا: ١١٩
^{١٢١} - السابق: ٣٠٦
^{١٢٢} - السابق: ٣٠٦ ، ٣٥٧
^{١٢٣} - السابق: ٢٨٠
^{١٢٤} - السابق: ٣٠٩
^{١٢٥} - السابق: ٢٨٣
^{١٢٦} - السابق: ٣٧٧
^{١٢٧} - السابق: ٤٢٤ ، ٣٠٩
^{١٢٨} - السابق: ٣٢٨

١٢٩. وأحياناً يثبت تاريخاً جديداً في أثناء الخطاب ، يدل على أن كتابة هذا الجزء لاحق لأوله ، بدون أن يشير إلى أنه حاشية .^{١٣٠} وسنتناول فيما يلي نماذج من رسائله تشمل :

١- رسائله إلى أساتذته .

٢- رسائله إلى أنداده وأقرانه من العلماء .

٣- رسائله إلى الملوك ورؤساء الدول .

٤- رسائله إلى تلامذته .

٥- رسائله إلى أهل بيته .

رسائله إلى أساتذته

من رسائل السيد رشيد رضا ما خاطب به بعض أساتذته ، ومن ذلك رسالة رفعها إلى موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، يعبر له فيها عن إعجابه الشديد به ، وحبه العميق له ، ورغبته الجامحة في الاتحاق بركته ، والتلذذ عليه والاغتراف من بحار حكمته وفسفته ، ليتخرج عليه داعية ذا بصيرة فيقول: " الحمد لله على أفضاله والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآلها ، وعلى سيدي ، بل السيد المطلق ، ذي القدر المعلى ، والجود المصلي الأسبق ، سدرة منتهى العرفان ، وحجة مأوى المحسن والإحسان ، الذي له في كل جو متنفس ، ومن كل نار مقتبس ، الإمام المفرد ، والعقل المجرد ، حجة الإسلام ، وعلم الأعلام ، أخطب الخطباء ، وأبلغ الكتاب ، من أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، بدل الأبدال ، سيد الآل ، الإنسان الكامل ، الوراث الكامل المرشد الكامل ، مهبط الفيض ، مصعد الكلم الطيب ، مجلّي سرّ الجمال الأكمل ، جمال الدنيا والدين ، وبقية رجاء المسلمين ، أيده الله تعالى ، وزاده رفعة وكمالاً .

إن فرط الشغف بالجمال ، ومساهمته بالانتساب لآل ، قد حملاني على غارب المجرة ، والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب ، ومحب لحبيب ،

^{١٢٩} - السيد رشيد رضا : ٥٤٣

^{١٣٠} - السابق : ٥١١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٠

ومغادرة الأخرى ، بل الواجب الذي لا تخير فيه ، من مخاطبته مخاطبة مملوك لملك كريم ، وخدم لسيد عظيم ، وعليه قلت : إنني منذ لاحت على مخايل التمييز ما نمى إلى خبر أذ وأشهى ، ولا أنبأ وأسمى ، من خبر سيد (جمال الدين) نبأ عظيم ، غرس في قلبي حبة الحب والشغف ، وسقاها بماء الحياة ، فنبت نباتاً حسناً ، وامتدت أغصانها ، وتشعبت أفنانها ، حتى لم تذر في أرض الجسم ذرة من دقائقه إلا وجذورها راسخة فيها ، شجرة طيبة (أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) ^{١٣١} جنت منها ثمرة حب الحكمة ، واقتطف الناس منها ثمار الثناء على حكيم الحكماء ، أعزه الله تعالى ، ولم تزل تنمو حتى كأنها من عناصر جسدي ، وتنمو بقوى العاقلة حتى كأنها من مقومات ماهيتي ، وهي الآن أرسط الملكات في نفسي ، لا أتبوا مجلساً ، ولا أفيض في الكلام ، إلا ويكون ذكر الجمال فاتحته أو ختامه ، أو متخللاً أجزاءه وأقسامه ، إن لم يكن هو موضوع الكلام ، حتى عرفت بين المعاشرين بعاشق جمال الدين ، وربما دعاني بعض الأصدقاء بالداعي له (واحد الدعاء) لاسيما وأنا أعد له ما يعد عليه (كدخول المسؤولية والجلوس في الأماكن العامة وطول الإقامة في أوربا ، وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الإسلامية). فلله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ما هب نفحة من معارفها في جو قوم ، إلا ونفخت في رمهم روح الفضل ، ولا تدفقت أمواه فضائلها في أرض أمة ، إلا وجرفت منها أرдан الجهل ، بل أقول لا تثبت من ذلك الذهن المشتعل بالأنوار ذرات الفكر في فضاء قطر من الأقطار ، إلا تكون منها في سماء العقل من كواكب العرفان ، ما هو أفيد من النظام الشمسي في عالم الحس والعيان ، وعلى هذا فما أدرككم بقول القائل :

أبداً تحنُّ إِلَيْكُمُ الْأَرْوَاحُ وَوَصَالُكُمْ رِيحَانُهَا وَرَاحُ

وَمَا أَعْذَرْنِي ، وَأَنَا أَعْدَّ قَرِيبَكُمْ أَفْضَلَ الْقَرِيبَاتِ ، وَلِقَاءَكُمْ غَايَةُ الْغَايَاتِ ! وَإِنِّي أَسِيرُ كَتَابِي هَذَا لِيَكُونَ مَسْتَمِنْحَا عَوَاطِفَكُمْ ، وَمَسْتَجِدِيَا مَكَارِمَكُمْ ، قَبُولِي لِدِيَكُمْ بِصَفَةِ مَرِيدٍ ، يَتَلَاقَّفُ الْحَكْمَةُ وَتَلَمِيذُ يَقُومُ بِبَعْضِ الْخَدْمَةِ ، يَسَاهِمُكُمْ السَّرَاءُ وَالضَّرَاءُ (وَقَاتِكُمْ

الله) ويسايركم في الزعزع والرخاء (حماكم الله) ولا أراني أردّ عن أبواب فضلکم فما جزاء من أحب إلا أن يحب ، وللرحم حقوق مثل سعادتکم من يرعاها ويصلها . " ^{١٣٢}

بعد المقدمة الفخمة يعتذر إليه من جرأته في مخاطبته مخاطبة الحبيب للحبيب ، والنسيب للنسيب ، والند للند ، بينما كان الأولى أن لا يسلك هذا المسلوك ولا ينتهج هذا النهج في مخاطبته أحكم الحكماء وفيلسوف الفلسفه ، غير أن له مبرراً ومسوغاً في ذلك ، وهو أنه يمت إليه بصلة رحم إضافة ، إلى ما يكن له من الحب الغامر ، الذي أفضى في التعبير عنه ، وبالغ في تصويره وشرحه ، وإن لم تكن مبالغة مصطنعة - في نظري - بل كانت تعبيراً صادقاً عن مشاعر رشيد الحقيقة تجاه معشوقه ، ثم تلطف في السؤال بأن يقبله مریداً وتلميذاً متوسلاً إليه بحق الرحم وحب المرید .

ومن رسائل رشيد رضا إلى شيوخه وأساتذته خطاب اعتذار ، بعثه إلى شيخه الأول الشيخ حسين الجسر في طرابلس الشام ، بعد جفوة حدثت بينهما ، لتبين موقفهما في قضية الإصلاح والتجديد الديني ، فقد كان شيخه على سعة إطلاعه ، وأخذه حظاً من العلوم العصرية ، ووقفه على طريقتها الاستقلالية ، شديد المحافظة على التقليد في جميع العلوم الدينية . ^{١٣٣} وكان رشيد على النقيض من ذلك ، فحدثت بينهما ردود ومناقشات على صفحات الجرائد ، عكرت صفو علاقتهما ، فرأى رشيد أن يعتذر إلى شيخه فقال : " سيدى ومولاي الأستاذ المعظم ، متع الله تعالى الوجود بشرف وجوده ، إن كان الذنب الواحد يقطع الصلة بين الوالد وولده ، والأستاذ وتلميذه ، فكتابي هذا جدير بأن لا يقابل من مولاي الأستاذ بالقبول ، لأنني أذنبت بذكر اسمه الكريم حيث لا يجب أن يذكر ، وإنني بما غلبت على أمري أرى لي عذراً ، ولكن الأعذار إنما تكون حيث تكون الذنوب ، فأنا مذنب ، والذنب لا يقطع الصلة إلا مع الإصرار ، وأنا قد استبدلت بالإصرار التوبة والاستغفار ، فلا جرم أن صلتى مع مولاي وأستاذى تبقى على حالها .

^{١٣٢} - تاريخ الأستاذ : ٨٥/١
^{١٣٣} - المنار : ٢١،٣،١٢١

أما كون الذنب الصغير يكون بإزاء الكبير كبيرا ، فيقابله أن الحلم والغفو عند الكبير ، يجعلن الكبيرة صغيرة فذنبي إذن - مهما عظم - صغير ومحفو عنه . وأما العذر فإن تحامل (طرابلس) الذي احتملته في غضون الفتنة الأولى لم ينته بانتهاها ، بل ظلت تثال من (المنار) كلما سنت مناسبة ، حتى أظلتني سحب هذه الفتنة الحاضرة ، ورأيتني مضطرا لأن أعيد الكرة على مثار الفتنة ، وعلمت أنه لا توجد جريدة تصادمني في سوريا إلا (طرابلس) ، التي لا ينكر سيدني أن الظروف مكنت القوم من استخدامها ، فحرارة الشباب ، وتنوع الأسباب ، وعظيم المصاص ، وما أشير إليه ، ويمكن فضيلتكم فهم رموزه من ناقل كتابي ، دفعت بي إلى ما كان مني ، اعتقادا بأنه لا مجن يدفع عني سهام طرابلس ، فيما استقبله من الكرة المشار إليها إلا هذا ، وقد كان ونجوت في الفتنة الثانية من هذه السهام ، ولو لا المجن الذي قدمته وكانت أفتاك جراحا ، وأكثر اجتياحا ، ولا أنكر أنه كان يجب علي الاحتمال ، ولو تكسرت النصال على النصال ، لكنني غلبت - كما قدمته - على أمري ، وهذا هو حقيقة عذري .. هذا إيماء إلى الذنب والعذر ، ولقد كان سيدني أكبر من هذا ، حيث أخذ على نفسه في الفتنة الحاضرة مساعدة إخوتي ، والدفاع عن شرفي وشرف أسرتي ، كما أخبرني بهذا أخي الروحي الذي في خدمته .

أما المصاص العظيم فهو أن الرجل المعروف ، إنما أظهر المسالمة لأجل أن يأخذني إليه ، ويستخدمني بما يريد ، فلما لم يتم له هذا ، رمانا من تحت ستار الهدون ^{١٣٤} ، فبحقك يا سيدني ألا تطيش لهذه الصدمات أحلام من مارسوا الزمان فضلا عن الذين تربوا في مهاد الراحة والأمان .

هذا وأعود فأقول : إنني بعد ما كان مني ، عظم الأمر في نفسي ، حتى صرت أتخيل ، أن دخول طرابلس يذيني خجلا ، ولقد كنت أتوقع من قبل ، أن يكون (المنار) و (طرابلس) في تناصر ، تحيل كل منهما على الأخرى ما تأبه بيئتها (حالها ومحلها) وتخدم كل منهما الأخرى حيث يكون لها نفوذ ، إلى ما يتبع

^{١٣٤} - الهدون : السكون . لسان العرب ، المؤلف : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، الناشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى ، ٤٣٤/١٣

ذلك ، ولكن فاجأنا الزمان بما ليس في الحسبان. وبالختام أقبل يد سيدى ، وكل ما أرجوه لنفسي من أستاذى الرضا والدعا ، والسلام." ^{١٣٥}

هكذا قبل السيد يد أستاذه ، وطلب منه العفو والسامحة والرضا والدعا ، بعد أن بين له ما كان منه ، وشرح له السبب ، وأنه كان دفاعا عن النفس بعد أن أطّال الصبر ، وأنه لوّا هذا الدفاع لما توقف الإيذاء ، ويظهر من تلميح السيد رشيد رضا وترميذه في قوله: "أن ذلك الرجل" أن أبا الهدى الصيادي اتّخذ مجلة طرابلس ، التي كان يحررها أستاذه منبرا للنيل من السيد رشيد رضا ومجلته المنار ، بعد أن أخفق في استمالته ، كما نال بأذاه من عشيرة رشيد وأهل بيته في طرابلس بجريدة ابنهم رشيد ، غير أن شيخه حسين الجسر دافع عنهم ووقف بجانبهم ، وهذا ما أثّلّج صدر رشيد وجعله يدّعج هذا الخطاب الاعتذاري إليه .

رسائله إلى العلماء

كان رشيد بحكم اهتمامه الإصلاحى في الساحتين الإسلامية والعربية يحرص على صلة العلماء ، للتعاون والتشاور وتبادل الآراء والخبرات ، فجرت بينه وبين بعضهم مراسلات كثيرة ، نجتزئ منها هذا النموذج الجوابي ، الذي بعثه إلى الشيخ محمد مصطفى المراغي ، الذي أصبح فيما بعد شيخ الأزهر ، وكان عندئذ رئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر ، وكان الشيخ المراغي قد طلب من السيد رشيد رضا المشاركة في لجنة الخلافة فقال : " أخي الأستاذ الكامل والقاضي الفاضل الشيخ محمد مصطفى المراغي ، رئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر . كتبت إليّ - لا حرمت من كتبك حين أحرم من رؤيتك - بأن أصرح لك تصريحا بما فهمته من تحاورنا في مسألة الخلافة تلوّيحا ، بأنه لا مانع لدى من الانتظام في لجتكم ، التي أفها كبار العلماء تحت رئاسة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، لأجل تقرير ذلك . لم أكتب إليك مرجع كتابك إثر وصوله ، لأن انتقاء المانع من الانتظام في اللجنة ليس معادلا لما ذكرت من المقتضى بتأييدها وترجيحها على غيرها ، ولا يزال كل من المانع والمقتضى غير قطعي إلا في تقضيل اللجنة على غيرها ، فالتعارض واقع

، والترجح فيه يتوقف على بحث آخر معك في المسألة وفي موضوع اللجنة وخطتها ، لهذا عزمت على الإلمام بالمحكمة الشرعية العليا في أثناء الأسبوع الماضي ، والحديث معك على ذلك أو ضرب موعد قريب له ، ولكنني أصبت في أثناء الأسبوع بزكمة فنزلة شعبية ، مع حمى كادت تبلغ حرارتها 39° اشتدت وطئتها في أيام الثلاثاء ^{١٣٦} الماضية : الأربعاء والخميس والجمعة ، ورأيت الحرارة في صباح هذا اليوم (السبت) طبيعية ، والسعلة خفيفة ، فعسى أن يمن الله عليّ بالإبلال منها في هذا الأسبوع ، ويتيسر لنا التلاقي فيه ، وتمحیص المسألة . هذا ولو استحسنتم أن تسموني مستشاراً لجماعتكم لقبلت بلا بحث ، لأنني لا أراني حينئذ مسؤولاً عن كل شيء مما وطنت عليه نفسي ، فلا يضرني خفاء شيء من أمرها عليّ . ^{١٣٧}

يتضح من الرسالة تردد رشيد فيما دعي إليه من المشاركة في لجنة الخلافة الإسلامية ، فإما أن يقنعه الداعي له ، وهو الشيخ محمد مصطفى المراعي بما يراه من إزالة الموانع التي تحول دون الانتظام في اللجنة ، وإنما أن يجعل مستشاراً للجنة لا عضواً فيها ، أو يقبل اعتذاره عن المشاركة في القضية كلها ذلك كما اعتذر إلى الشيخ المراغي عن تأخر رده عليه بشيء ، لأنه أراد مقابلته أولاً ثم مرض .

رسائله إلى الملوك والرؤساء

أما رسائله إلى الملوك ورؤساء الدول ، فقد كان معظمها من باب النصح والإرشاد إلى مصالح العباد والبلاد ، والتحذير من التقصير في حق الرعية ، كما كان يكثر من السعي للإصلاح بين المتخالفين منهم ، وكان يجل من بينهم الملك عبد العزيز بن سعود ملك السعودية آنئذ ، ويخصه بالاهتمام ، ويعلق عليه آمال الأمة العربية والإسلامية ، ويراه أكثر رشداً وبصراً بمصالح الأمة من غيره ، ومع ذلك لم يكن يداجيه أو يداهنه ، بل كان يصرح له أن نصرته له مشروطة فيقول : " ولا أزال كذلك أجاهد معكم ، ما دمتم تجاهدون في سبيل الله ، وإعزاز دينه " ^{١٣٨}

^{١٣٦} - هكذا في الأصل ، ولعله أراد : "الأيام الثلاثة الماضية" فسبق القلم . (رشيد رضا صاحب المنار ١٩٦)

^{١٣٧} - رشيد رضا صاحب المنار : ١٩٧

^{١٣٨} - المنار : ٤٨٠/٦/٣٥

وقال في خطاب أرسله إلى الإمام يحيى بن حميد ؛ إمام اليمن - وذكر أنه أرسل مثله إلى الملك عبد العزيز بن سعود - إثر نزاع حدودي اندلع بينهما :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من محمد رشيد آل رضا إلى حضرة صاحب الجلالة الإمام الهمام ، سليل الأئمة الأعلام عليهم السلام . السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، أما بعد فقد أزعجنا وأمضنا نبأ مرضكم ، وما كدنا نبتهج بنبأ نقاوحتكم ، إلا وتأله النبأ الصادع بوقوع الشقاق بين حكومتكم والحكومة السعودية ، المنذر بقرب وقوع الحرب ، وبخيبة الأمل الذي كان ينتظره (كل) ^{١٣٩} عربي مخلص لأمته وكل مسلم لملته ، وحرirsch على سلامة مهد دينه ، من عقد الحلف بينكم وبين الدولة العربية السعودية بمساعي الوفد السعودي الذي كان في رحابكم منذ أشهر ؛ إذ تجاوحت الأنباء بأن الوفد كان في صنعاء كالمحجور عليه ، وأنكم أذنتم له بالرجوع أدراجه بعد إلحاد ملكه بالطلب ؛ فانقلب خائباً مخذولاً ، إلى ما أنتم أعلم به ، ولا يعنينا تفصيل جزئياته ، ولا تحقيق مقدماته ، وإنما تعنينا النتيجة ، وهي تسوء كل عربي وكل مسلم ، إلا الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ولو علمتم بسوء تأثيرها في مصر ، وسوريا ، وفلسطين لحالكم ، ولتجاهي بحذركم عن ماضيكم ، ولعلمتم أنه لولا عذر الناس لسيادتكم بمرضكم لخسرتم بهذه الحادثة ما لكم في القلوب من السيرة الحميدة في العقل والرأي والنقوي ، والحرص على حفظ سلطان الإسلام وحكمه ، واستقلال الجزيرة العربية ، وسد ذرائع تسرب النفوذ الأجنبي إليها ، وخطره على بلادكم أشد ، ولا شك أن حرم الله تعالى ورسوله عليكم أعز ، ولكن الأمل فيكم لم ينقطع ، ولن ينقطع إن شاء الله تعالى ، وقد تضاعف الإعجاب بأخيكم الملك السعودي : دينه وعقله وحكمته ؛ إذ علموا بما أبرق إليكم في الخطاب المد لهم .

أيها الإمام الحكيم ، التقي الحليم : لقد علم الرأي العام الإسلامي ، ولا سيما العربي ، أنه لو فجعت الأمة بكم في هذا المرض ، لقضىولي عهدم الشاب على جزيرة العرب ، فهو - أي : الرأي العام - يرجو أن تبادروا قبل كل عمل إلى الاتفاق مع أخيكم الملك الحكيم ، على التحالف والتعاون على حفظ هذه الجزيرة المقدسة من

دسائس الأجانب والمفسدين ، وعلى عمران الملكتين اللتين وكل الله أمرهما إليكما ، وتعزيز قوتها في حياتكما الشريفة العزيزة قبل أن يقول أمرها إلى أنجالكما ، الذين لا تضمن أمتكم وملتكما أن يكون لهما من الحكمة والخبرة والروية مثل ما آتاكما الله تعالى ، إلا أن يتربوا في كنفهما ، وظل ما تضعن من النظام ، وما تنفذانه منه لإعزاز الإسلام بعذ العرب في جزيرتهم ومنبت أرومتهن ومهد دينهم و (إذا ذلت العرب ذل الإسلام) كما قال الصادق المصدوق عليه وعلى آله السلام ، ولا ذل للعرب إلا إذا ذلوا في جزيرتهم ، وحصن دينهم ، ومارزه الوحيد في هذا العهد - عهد تداعي الأمم عليهم - كما نطق به الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة وسيادتكم أعلم بها .

أيها الإمام العليم ، الحكيم الحليم

مهما يكن عليه أمر الحدود بين اليمن السعيدة و المملكة السعودية من حق سياسي أو جغرافي ، فلا قيمة له تجاه الاتفاق والتحالف بين الملكتين ، فكل منهما واسع الأطراف ، قابل لأضعف ما هو عليه من العمران ، فلا يعذر أحد منكما بتعریضه للخراب ؛ لأجل توسيع حدوده بحق أو باطل ، وأما إذا اتفقتما وتحالفتما تحالفاً صريحاً ، وعاهدتم الله تعالى والأمة على الإخلاص في الولاء والتعاون ، فإن كلاً منكما يأمن على حدوده ، ويخلو له الجو لعمان بلاده ، وجعل استعداده الحربي موجهاً إلى أعداء الله وأعداء قومه ، وذلك ريح لا يعلوه ريح ، وهو ما يطالبكم به الدين وأهله أجمعون .

أيها الإمام : إن جزيرة العرب هي تراث محمد رسول الله ، وخاتم النبيين ، للإسلام وال المسلمين ، لا لعبد العزيز الفيصل السعودي ولا لحيي حميد الدين ، فاختلافكما وتعاريكما يضيع الإسلام ، ولئن صاع في جزيرة العرب فلن تقوم له قائمة في غيرها ، فجميع المسلمين تحت سلطان الأجانب ، إلا قليلاً من الأعاجم ، أنت تعلمون حالهم ، وما ينتظر من مآلهم ، فيجب أن تتذكرا هذه التبعة ، وتقينا الله ، وتحرصا على حسن الخاتمة والسلام .

منشئ المنار

محمد رشيد رضا

(حاشية) قد كتبت إلى الإمام عبد العزيز ملك العربية السعودية بهذا المعنى أيضاً.^{١٤٠}

ينم هذا الخطاب عن جرأة رشيد في مخاطبة الملوك والرؤساء ، وعدم تهيبه منهم في إبداء ما يراه صوابا ، كما يدل على وعيه الناضج ورشده الكامل ، حيث رأى أن المساحات الشاسعة ، التي يملكتها كل قطر تقىض عن حاجاته العمرانية ، فلم التقاتل على شريط حدودي صغير.

وكتب ناصحا إلى الملك غازي ؛ ملك العراق الذي تولى العرش بعد وفاة والده الملك فيصل بن الحسين .. معتصمين بحبل الهدایة الإسلامية التي اشتدت إليها في هذا العصر حاجة شعوب المدنية كلها ، إذ هدلت الأفكار المادية دولها بالانحلال ، والإباحة الإلحادية حضارتها بالزوال ، ولم يبق لها منفذ إلا الهدایة الروحية ، الجامعة بين المصالح الدينية والمدنية ، فإن تحرص على هدایة دينك القويم ، ولغة قومك ، وحضارة أمتك ، وشرف بيتك ، وتضم إليها الفنون العصرية المرقية للزراعة والصناعة والتجارة والنظم المالية والقوى العسكرية تكن - إن شاء الله - من الملوك المجددين ، الجامعيين بين سيادة الدنيا وسعادة الدين".^{١٤١}

إن ما نصح به رشيد الملك هو ما كان يدعوه إليه ، من الجمع والتوفيق بين التمسك بالتعاليم الإسلامية الثابتة ، والأخذ بمعطيات العصر العلمية والفنية والفكرية النافعة ، وكان يجاهد طائفتين ؛ طائفة الفقهاء المقلدين الرافضين لكل ما هو عصري وتطويري ، وطائفة المترنجين - كما كان يسميهم - الداعين إلى تقليد أوروبا ، وقطع الصلة بالتراث الإسلامي ، لأنه سبب التخلف في زعمهم ، ولهذا نرى رشيدا ينصح الملك بالحرص على هدایة الدين ولغته وحضارته ، مع الاستفادة من معارف العصر ونظمه ، التي تساعد على الرقي في شتى مجالات الحياة .

ومما يدخل في هذا الباب المذكرات التي كانت يرفعها رشيد إلى الدول الأوربية المستعمرة ، محاولا إقناعهم أو إسماعهم وجهة نظر الشعوب الخاضعة لها ، والمكتوية بنار تعسفها الاستعماري^{١٤٢} فقد رفع مذكرات - على حسب قوله - إلى

^{١٤٠} - المنار : ٤٢/١/٣٤
^{١٤١} - السابق : ٤٨٤/٦/٣٥
^{١٤٢} - المنار : ٤٤٥/٦/٢٤

الحكومة البريطانية بشأن الأمتين العربية والإسلامية ، ورفع مذكرة إلى الحكومة الإيطالية ، وصفها شكيب أرسلان بقوله : " وكتابه هذا من أهم ما كتب في السياسة" ^{١٤٣} ودعا رشيد إيطاليا إلى انتهاج سياسية أساسها : " أن تجعل هذه الدولة نفسها مناط آمال الأمة العربية ، فيما توجهت إليه من إحياء مدنيتها ، فتساعدها عليه بالعلم والعمل ، وتكلفي من الجزاء بالمنافع الاقتصادية والسياسية والأدبية " ^{١٤٤} ولم ينشر هذه المذكرات في مجلة المنار ولو بعد حين من إفادتها ، ربما لخصوصيتها ، التي قد يوقعه نشرها في حرج ، كما يفهم ذلك من حديثه عن خطاب بعثه إلى مصطفى كمال أتاتورك ووصفه " بأنه من الكتب التاريخية المهمة وسيأتي يوم ينشر فيه كله أو بعضه" ^{١٤٥} ولم يأت ذلك اليوم في حياته كما يبدو ، وإلا لوجدناه في مجلة المنار . ويستثنى من هذه المذكرات أو الخطابات المرفوعة إلى الحكومات خطاب نشره في مجلة المنار ، لأنه خطاب مفتوح أساسا وليس بسري وعنوانه : (خطاب مفتوح من روح الإسلام والجامعة العربية إلى الشعب الإنجليزي والحكومة البريطانية) ومما جاء فيه " فعلتم ما فعلتم في الدولتين العثمانية والإيرانية ، وكدتكم ما كدتكم للشعوب العربية ، فاتركوا لنا قبلة صلاتنا ، ومشاعر حجنا ، وأمهات مساجدنا ، وقبر نبينا ، ولا تحسروا أن الفرصة قد سنت لكم للقضاء على ديننا ، كما حسبتم حين أردتم القضاء على دولنا ، اغترارا بقوتكم وضعفنا ، واجتماعكم وتفرقنا ، فرب قوة أحالها الغرور ضعفا ، ورب ضعف أعطاه اليأس قوة وبأسا . أردتم استبعاد الشعب الأفغاني بفرصة زوال المعارضة الروسية فحررتموه وأنتم كارهون ، وأردتم استعمار بلاد الشعب الفارسي بفرصة الحرب العظمى فغادرتموه وأنتم عاجزون ، وأرتم إماته الشعب التركي بفرصة انكسار دولته فأحييتموه وأنتم مرغمون ، وخدعتم أكثر رؤساء الشعب العربي بالأموال والتغدير بالوعود والأمال ، فسترون سوء العاقبة والمال وأنتم الغارمون الراغمون إلا أن ترجعوا عن سياستكم فيهم قبل أن يخرج الأمر من يدكم وأنتم بذلك جديرون ... لقد جئت أيتها الحكومة البريطانية في فلسطين بمثار شرور لم يأت بمثله أحد من الظالمين ، ألا وهو

^{١٤٣} - السيد رشيد رضا : ٣٢١

^{١٤٤} - السابق : ٣٢٢

^{١٤٥} - السابق : ٤٣٥

محاولة انتزاع شعب من وطنه أو وطن من أهله ، وإحلال شعب آخر في محله ، وإيقاد نار العصبية الدينية بين اليهود والعرب وسائر الأمم الإسلامية ومن يشاعرها من الشعوب المسيحية ، فإن غرض اليهود من تجديد ملكهم في هذه البلاد لا يتم إلا بالاستيلاء على المسجد الأقصى لإعادة هيكل سليمان ، وإذا تمت لهم القوة لا يأمن المسلمون أن ينسفوه نسفاً فيذروا أرضه قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يبنوا أنقاضه هيكلهم ويدبحوا لدى صخرته قراً بينهم ، فإذا عجز أهل فلسطين عنهم بنصركم إياهم وحمايتكم لهم فماذا يفعل سائر العرب والعالم الإسلامي بقوله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) ^{١٤٦} ثم ماذ يفعلون بما ورد في الأحاديث النبوية التي لا أذكرها لكم ، لئلا تدعوا أنني أريد بها الإغراء التي تطرق سيادتكم أبوابه وتمهد له أسبابه ، على أنها مشهورة في كتب السنة التي يتداولها جميع علماء الملة . أيها الشعب الإنجليزي الحكيم أعلم أن حكومتك الحاضرة إنما تضع الألغام لنفس ما شيدته لك حكوماتك الغابرة .. بل أعلم أيها الشعب الحكيم وأعلم حكومتك بما لا يمكن أن تعلمه حق العلم إلا منك ، لأنها تحقر جميع البشر من دونك .. أن العالم الإسلامي لا يرضى لمهد دينه وموضع إقامة شعائره إلا أحد أمرين لا ثالث لهما (أولهما) أن تكون الحجاز في كفالة خليفة المسلمين عندما تتجدد الخلافة الإسلامية على وجهها الشرعي .. أن تكون الحجاز قطراً سلرياً على الحياد باعتراف جميع الدول الإسلامية وغير الإسلامية .. وحينئذ تعلم الدولة البريطانية إن لم تعلم اليوم أن سمساراً اسمه (ناجي الأصيل) لا يستطيع أن يضع معااهدة بين حسين بن علي موكله وبين وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانية في شأن الحجاز وبلاد العرب ، بحيث تنفذ على الأمة العربية والشعوب الإسلامية كلها ، وتذل رقاب ٣٠٠ مليون من المسلمين لها ، ثم أعلم أيها الشعب الإنجليزي الحكيم أن كل ما تتفقه حكومتك الحاضرة من أموالك ، لأجل السيطرة على بلاد العرب واحتياط خيراتها ، ستضييع كما ضاعت الأموال التي بذلتها في سبيل الحجاز ، فإذاًكم أن تتبعوها فتبذلوا أموالكم في تأليف لما عقدته أو تعقدت لكم

في جزيرة العرب من الامتيازات ، فإنكم لن تتالوا من هذه الامتيازات - والحالة هذه - إلا الخسار".^{١٤٧}

الخطاب شرح لسياسة حكومة بريطانيا آنذاك وتخطئتها وتقنيدها ، وبيان أنها سياسة عقيمة ، لا تعود على الشعب البريطاني ولا على الأمم والشعوب التي تمسها بفائدة ، كما أنه تحذير وتهديد لبريطانيا من المضي قدما في هذه السياسة الخاطئة ، لأنها ستؤدي إلى حروب دينية في فلسطين ، لا تقتصر على أهل اليهود وأهل فلسطين ، بل ستكون حربا يخوضها المسلمون ضد اليهود ومن يقف وراءهم ، وفي الخطاب محاولة لاستمالة الشعب البريطاني ضد حكومته ، بقدر ما هو تحريض للمسلمين على هذه الحكومة المستعمرة الجائرة ، التي لم تلق بالا للمذكرات الكثيرة التي رفعها إليها الكاتب ، وربما فعل كذلك غيره من عقلاه الأمم المستعمرة من قبل بريطانيا .

رسائله إلى أصدقائه

ومن رسائله إلى أصدقائه ، رسالة عتاب إلى صديقه شبيب أرسلان ، بعد جفاء ومقاطعة دامت ثمانى سنوات ، بسبب خلاف في الرؤية السياسية ، فلما تغير الظرف السياسي وتقاربت مواقفهما ، بادر السيد رشيد رضا إلى المصالحة ، فبعث إلى صديقه القديم خطاب عتاب ، رفيق اللهجة لطيف العبارة ، يعاتبه فيه على بدء القطيعة فقال: " صديقي التليد أحبيك حامدا الله على قرب المزار ورجاء اللقاء ، مبتدئا إياك بالتحية والكتابة ، وأنت الأجر بالبدء وبالاستعتاب ، لأنك بدأت بالجفوة بل أنت الذي جفوت وقاطعت ، بل زدت على ذلك ما علمنت ، وما كان ذلك الخلاف في الاجتهاد ، يقتضي كل تلك الظنة ، والقبح باللسان والقلم ، ولقد كان فيبني عم شقيق رماح ، ولكنها لحرب الأعداء وإن لبسوا لباس الأصدقاء ، لا لحرب الأعداء في المصلحة المشتركة والوسائل المشتبكة وإن تقلدوا سلاح الأعداء ، ولا أمن عليك بأنني كنت لك خيرا منك لي ، فإنني ضمنت بك ، ولم أسمح لأحد بأن ينال منك أمامي ، على اعتقادي بأنك مخطئ بل كنت قبل الخلاف الأخير أدفع وأذود عنك

فريقا واحدا ، فصرت بعده أناضل الفريقين من أبناء وطننا ، وأبرئك بكل قوة من النفاق واتباع سبيل المنافع الشخصية ، لا من الخطأ والإفراط في الحدة " ^{١٤٨} " ١٤٨

يعاتب رشيد صديقه ، لأنه بدأ بالمقاطعة ، ونال من صديقه بالقلم واللسان علاوة على ما يعتقده من خطئه فيما اختلفا فيه وتفرقا بسببه ، وما كان اختلف الرأي ليضر لولا فظاظة وحدة وتمادي شكيب ، التي حالت دون تدارك الموقف ، ومهما كان الأمر فإنه ينزعه صديقه ويبرأه مما أتهم به من موالة الأتراك لمنافع شخصية ، وكان رشيد صريحا مع صديقه دائما ، لا يقره على ما يراه من خطأ ولا يجامله فيما يظن أنه جانبه الصواب فيه ، وكثيرا ما كان يؤدي نقد رشيد لشكيب إلى احتدام المناقشة بينهما ، ومن ذلك أن شكيبا كتب في الجرائد عن الخلاف الحدودي بين اليمن وال السعودية ما ظن رشيد أنه تحيز لطرف دون الآخر ، فكتب إليه يعاتبه على ذلك: " ولم يلبث أن طلع علينا مقالك في مسألة الخلاف بين الإمامين العربين منشور اللواء في جريدة "الجهاد" فأرأيتك فيه قد خالفت الخطة التي التزمها جميع الذين كتبوا في هذه المسألة ، ووافقت الشيخ التفتازاني وحده ، وهو الذي نصب نفسه للدعوة إلى العلوبيين وآل البيت والقبوريين والدفاع عنهم ، والنيل من ابن سعود وقبوته ، وإن كان غرضك أنزه من غرضه ومقصدك أشرف من مقصده ، وأما الجمهور من الجماعات والأحزاب واللجان وأصحاب الصحف والأفراد الذين كتبوا في الجرائد ، والذين أرسلوا البرقيات إلى الإمامين فقد اجتبوا كلهم إظهار أدنى تحيز إلى إمام من الإمامين أوفة من الفتئين ، ولقد كنت أحق منهم بذلك ، فما بالك صرحت بما صرحت به ، من ترجيح اليمن على الحجاز في محل النزاع ، وهو مسألة عسير في هذا الوقت العسير .. كل أولئك لم أكن أحبه لك ، على ما أعتقد من حسن نيتك فيه ، وما كل ما تحسن النية فيه يحسن الفعل وهو يسوء الملك السعودي ورجاله ، بما يبعدهم عن قبول كلامك في غير هذا إلا فيه وحده فما الفائدة منه إذا؟ ..

إن مثلك يا أخي في علمك الواسع بسياسة الأمة ومصالحها ، وجهادك الطويل ، وسنك ونسبك ومركزك ، يجب أن تكون موضع اتفاق عند ملوك الأمة وسوقتها ، وخاصتها وعامتها وزعمائتها وجماعاتها وأحزابها ، حتى لا يكون لأحد

ما ذكرت صارف عن الانتقام باختبارك ، ولكن هذا الاتفاق لا ينال تماما ولا ناقصا قليلا ، إلا بانتقاء المنفرات الصادعة والصراحة المريبة ، وبمراجعة الاستعداد للكلام ، وانتهاز فرص الشعور بالحاجة إليه ، فما كان معقولا عندك ربما لا يكون معقولا عند غيرك ، إلا بعد درس طويل واختبار عميق.^{١٤٩}

كان رشيد حريصا على منزلة ومكانة صديقه شكيب ، الذي كان مشهورا بالعلم والفضل والجهاد ، والتقاني في خدمة القضايا العربية والإسلامية ، حتى أصبح مسموع الكلمة مقبول الرأي لدى الجميع ، فعُزَّ على رشيد أن تُمسَّ هذه المنزلة ولو عند بعض الناس ، بسبب خوضه في المسائل الخلافية ولو بحسن نية ونشدان الحق ، ولهذا قال رشيد لصديقه ، عندما دافع عن نفسه بأنه ما قال إلا ما اعتقد حقا "ومثل هذا في الغرابة قولك إنك لم تقل إلا الواقع ، فهل كان مقالك في "الجهاد" مقال دعوة إلى صلح أم حكما قضائيا ؟ أم جرحا لرواية حديث ضعيف أو موضوع لا بد من بيانه ، لئلا يغتر الناس بالحديث في أمر من أمور دينهم ؟"^{١٥٠}

ومع ما تقدم ذكره ، من تعدد غرض الرسالة الواحدة في ديوان رسائل رشيد رضا الخاصة بصديقه شكيب أرسلان ، بحيث يتناول في الرسالة الواحدة عدة قضايا معظمها في الشأن العام الإسلامي أو العربي أو السوري أو غيرها - مع هذا كله فإن الديوان حوى كثيرا من الموضوعات الاجتماعية كالتهنئة والتعزية وغيرها ، ومن ذلك تهنئة صديقه بلقاء الأهل والأحباب ، وخاصة بأمه بعد غيبة طويلة في أوربا "أهنتك مرة ثانية أفضل التهاني وأهناها باللقاء مع السيدة الوالدة وحظوتك بتقبيل يديها الكريمتين ، وحظوتها بتقبيل وجنتيك المنيرتين ، وبضمك إلى صدرها البر الرحيم شيخا كبيرا ، وأميرا وقورا ، كما كانت تضمك طفلا صغيرا ، وسماعك لترحيبها ودعائها المستجاب إن شاء الله تعالى ، ورؤيه كل منكما لدموع السرور تترفق في مآقيكما ، وهي أذ وأشهى وأبهى من كل ما يرى في هذه الدنيا من آيات الحب الخالص ، الذي لا يعلوه في هذه الحياة ولا في الآخرة إلا حب الله تعالى ، وقد رجوت في تهنئتي الأولى منك أن تبلغها تهنئتي مقبلاً ليديها عنني ، ومطالباً لها

^{١٤٩} - السيد رشيد رضا: ٧١٩
^{١٥٠} - السابق: ٧٢٦

بأن تشركني بشيء من دعائهما لك ، جزاء على إخلاصي في حبك ، وإخلاصك في حبي ، الذي تعد به والدة لي بالروح ، فإني لأشعر بذلك في صميم قلبي ، ولو رأיתי الآن ، لرأيت شاهدي على صدق قولي في دموع عيني كلتبيهما ، تلمعان وتجريان بما هو أفعى من شهادتي القلم واللسان ثم أهنتك في المرتبة الثانية بجهادك بمالك ونفسك في سبيل الله وخدمة أمتك وملائكتك".

كان رشيد كما يظهر في هذا الخطاب رقيق المشاعر ، سريع التأثر ، تقىض دموعه لأدنى التأثر.

رسائله إلى طلابه

ومن رسائله إلى بعض مردييه وطلابه ، ما أرسله إلى الأستاذ عبد الله أمين من القسطنطينية يقول فيه : "إني ألقى إلى كتابك الذي نمته آدابك ، يحدث عن إخائك ويروي عن وفائه ، فذكرني ما لم أكن نسبت من ودك ، ووثق ما لا يقبل النقض والانتكاث من عهدهك ، والكامل يقبل زيادة الكمال ، قلت إن حب الإصلاح غالب على قلبي .. صدق الله قولك ، ومثلك في صفائه وإخلاصه من يعرف قيمة الإصلاح ، وقلت إنه سد على حب غيره المسالك ، وما كنت في قولك إلا صادقا فوالله إني به لفي شغل عن زيارة الوالدة والأشقاء ، وناهيك بالحب المتبادل بيننا في ذلك ، إن صح أن يقال هذا ، ولكن يدخل في حب الإصلاح حب أهله ومحبيه فتتسع في القلب مسالكهم ، وإنني لأعدك من هؤلاء المحبين ، حتى إن التفكير في المدرسة ليجر أحيانا إلى ذرك في نفر من أصدقائي بمصر ، فإن كان هذا مما يجعل لك على سبيلا تسلكها في العتاب ، و كنت لم تسم ما كتبت عتابا ، فهلم عتابك بما أحب أن أبقى منه في أمان .

ولكم يميل إلى كلامك سمعه ولو أنه عتب تشب حروبه

وقلت إنه أمتلك فتح مدرسة في سنة ، على حين أن كثيرا من القواد فتحوا مدننا في أيام ، ولو أطلت التفكير في هذه المدرسة لعلمت أن فتحها فتح لممالك كثيرة لا

لمدن قليلة ، وإنني لاعجز عن فتح بيت صغير أو كوخ حقير ، وإنما أستعين بالله العلي الكبير ، وهو على كل شيء قادر والسلام.^{١٥١}

الخطاب جواب على خطاب يشبه العتاب ، في لبث السيد الطويل في عاصمة الخلافة ، سعياً بشأن مدرسة الدعوة والإرشاد ، التي كان ينوي تأسيسها بمساعدة الدولة العثمانية ، التي لم تتحقق له ، فعاد خائباً بعد سنة كاملة ، شغل فيها عن الأهل والأحباب والأصدقاء ، لأن الإصلاح الإسلامي مقدم عند السيد رشيد رضا على كل شيء آخر مهما كان عزيزاً.

رسائله إلى أهل بيته

من نماذج رسائل رشيد إلى أهل بيته رسالة وجهها إلى أخيه حسين وصفى رضا ، بشأن زواجه قال فيها : " بعد إرسال المكتوب السابق الذي فوضتك فيه الأمر في المسألة الخاصة ، جاعني رجل فحدثني بحدث غريب . قال : إن فلانة هانم ، من بنات الباشوات الوراثات ذوات المال والأطيان ترغب في الاقتران بك وهي تتحدث بهذا منذ زمن ، وأوعزت إليّ أن أكلمك ، وهي ثيب كانت تزوجت بأحد الوجاه المفتونين بفسق الأزكية ، فلم تكن تراه إلا في آخر الليل ، جائياً من الأزكية ، يتربح سكراً ، ويعربد هجراً ، فأجلاته إلى طلاقها ، وأقسمت لا تتزوج بلباس طريوش ، وهي تحترم مقامك الأدبي ودينك واستقامتك ، وتود لو تشرف دارها لخاطبك أو تخطبك ، وإن شئت جاعتك لتسمع كلامها ، وتقف على أفكارها .. أليس هذا بحدث عجيب ؟ وما رأيك ورأي والدتك فيه ؟ هل نضرب عنه صفاً ، أم نستخبر ونسأّل ، وتوقفون أنتم سعيكم ، حتى تقفوا على نتيجة ما يكون هنا ؟

كان رشيد قد كلف أسرته بالبحث عن مخطوبة له من بلده ، بعد إخفاقه محاولة زواج في مصر ، أسمهم فيها شيخه محمد عبده ، ثم اتصل به أحد معارفه ينقل إليه خبر رغبة امرأة ثيب غنية متعلمة في الاقتران به ، فدهش له ، وأرسل إلى أهله يستشيرهم في الأمر .

المطلب الثاني : مقاالته

الصفة الغالبة على رشيد رضا بعد مكانته الدينية هي أنه صحي ، فقد هاجر إلى مصر ، وفي نيته أن يُؤسس مجلة ، على غرار مجلة "العروة الوثقى" لنصرة الإسلام ، ونشر تعاليمه السمح ، ونشر أفكار المصلحين ؛ السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده الذي اتَّخذَهُ أستاذَهُ في العلم ، وإمامَهُ في الدعوة والإصلاح ، وما إن حطَّ رشيدَ رحلَهُ في مصر حتى بادر إلى الاتصال بالشيخ محمد عبده ، وعرضَ فكرةَ المجلة عليه ، وبعد أن سمع منه ما يتطلبه العمل الصحفي من الجهد المالي والذهني ، وما يكتفُهُ من الصعوبات ومخاطرِ الكساد والفشل ، والتي لا يصمد لها إلا من له سند قوي ، والعوائق الخاصة بالصحافة الهدافَة من إسلامية ووطنية ، التي تنشر قيمَ الأمة الخالدة ، وتُقف إلى جانب الشعب ضد الاستعمار ، ولا تجاري حاكماً مستبداً ، ولا تهابَ مستعمرَاً غاشماً - بعد أن سمع من شيخه رأيه في الموضوع ، أكَّدَ له عزمه على إصدارِ المجلة مهما كانت التضحيات ، فأصدر مجلة المنار بعد ثلاثة أشهر فقط من قدومه إلى مصر ، حيثُ كان مقدمه في رجب من عام ألف وثلاثمائة وخمسة عشر (١٣١٥هـ) ، وصدر العدد الأول من المجلة في شهر شوال من نفس العام ، ودام رشيد رضا على إصدارِ المجلة ، حتى وفاته في شهر جمادى الأولى من عام ١٣٥٤هـ ، وبهذا يكون إصدارِ المجلة قد تواصل أربعين عاماً إلا عاماً واحداً على يد منشئه ومحررِه الرئيسي كما سُيَّاَتِي ، عانى فيها من إعراض القراء ومن كنودِ المشتركين ما جَأَرَ منه بالشكوى ، فقال له شيخه ومرشدُه في تثبيته: "الناس في عمَّا يَعْمَلُ عَنِ النافع ، وفي انكبابِهِ علىِ الضرار ، فلا تعجب إذا لم يشرعوا بالاشتراك في المنار ، فإن الرغبة في المنار تقوى بقوَّةِ الميل إلى تغييرِ الحاضر بما هو أصلح للاجل ، وأعونه على الخلاص من شرِّ الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الأغنياء قليلاً ، والفقير لا يستطيعون إلى البذل سبيلاً ، ولكن ذلك لا يضعفَ الأمل في نجاحِ العمل" ١٥٢

لم يضعفَ أمل رشيد في نجاحِ المنار ، وبلوغها أقصى غاياته في إرشاد الناس وإصلاحِ المجتمع ، ولذلك تابع في إصدارها رغم كل الصعوبات التي واجهته

، حتى تبأّت المكانة الأولى من بين المجالات الإسلامية في ذلك الوقت ، واعتبرت موسوعة إسلامية لا يستغني عنها أحد ، وفي ذلك يقول الأستاذ أنور الجندي: "يعد السيد رشيد رضا واحداً من كتاب الموسوعات الدورية الأربع التي عرفتها الصحفة العربية في أوائل هذا القرن ، وهما: الدكتور يعقوب صروف (المقطف) وجرجي زيدان (الهلال) والأب لويس شيخو اليسوعي (المشرق) والسيد رشيد رضا (المنار) وقد قامت هذه الموسوعات الدورية بالجهد الفردي سنوات طويلة ، وصمدت في وجه الزمن ، واستطاعت أن تحقق نجاحاً كبيراً ، وأن تترك أثراً ضخماً في مجال الفكر العربي كله" ^{١٥٣}

بدأت المنار في أول أمرها مجلة أسبوعية ، ثم تحولت إلى مجلة نصف شهرية ، ثم آلت في النهاية إلى مجلة شهرية ، وصدرت أعداد كل سنة في مجلد واحد ، تتراوح صفحاته في الغالب ، ما بين ثمانمائة وتسعمائة وستين صفحة ، ويبلغ مجموع صفحات المنار الخمسة والثلاثين مجلداً تسعه وعشرين ألفاً وستمائة وستين صفحة يمكن تصنيفها على النحو الآتي :

السنّة	الاعداد	المجلدات
١٨٩٩-١٨٩٨	٤٩	١
١٩٠٠-١٨٩٩	٤٨	٢
١٩٠١-١٩٠٠	٣٢	٣
١٩٠٦-١٩٠١	٢٤	٨-٤
١٩١٤-١٩٠٦	١٢	١٧-٩
١٩٣٥-١٩١٥	١٠	٣٥-١٨

وقد أحصيت مقالات مجلد المنار من فهرس مجلداتها الخمسة والثلاثين مجلداً ، فوجئناها أربعة آلاف وأحد عشر مقالاً ، منها ألفان وتسعمائة وثمانية وثلاثون مقالاً

^{١٥٣} ترجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ، أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م ، ص ٩١

بِقَمِ السِّيدِ رَشِيدِ رَضَا ، وَأَلْفِ وَسَبْعَوْنَ لِكِتَابِ آخَرِينَ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَوْنَ بِالْمِائَةِ مِنْ مَادَةِ الْمَجَلَةِ ، كَتَبَهَا السِّيدُ رَشِيدُ رَضَا وَحْدَهُ .

كَانَ رَشِيدُ رَضَا يَنْفَرِدُ بِكِتَابَةِ أَعْدَادٍ كَثِيرَةٍ مِنِ الْمَجَلَةِ ، وَخَاصَّةً فِي مَرْحَلَتِهِ الْأُولَى ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ كَانَ يَحْفَظُ عَلَى تَنوُّعِ مَادَةِ الْمَجَلَةِ ، لِتَشْمَلُ كُلَّ الْمَوْضِعَاتِ الَّتِي تَطْرُقُهَا عَادَةُ الْمَجَالَاتِ الشَّهْرِيَّةِ ذَاتِ النَّفْسِ الطَّوِيلِ ، يَقُولُ رَشِيدُ مُشِيرًا إِلَى اسْتِحْوَادِهِ أَوْ انْفَرَادِهِ بِكِتَابَةِ مَادَةِ مَجَلَتِهِ : "إِنَّا لِكُثْرَةِ أَعْمَالِنَا ، وَمِنْهَا انْفَرَادُنَا بِالْتَّحْرِيرِ وَالْتَّصْحِيحِ لِلْمَجَلَةِ ، وَلِكَثِيرٍ مِنْ مَطَبُوعَاتِ دَارِ الْمَنَارِ ، لَا نَجِدُ فَرْصَةً نَطْلَعُ فِيهَا عَلَى مَا يَهْدِي إِلَيْنَا مِنْ الْمَطَبُوعَاتِ ، لِنَقْضِي حَقَّ أَصْحَابِهَا وَحَقَّ الْأُمَّةِ عَلَيْنَا بِتَقْرِيظِهَا وَنَقْدِهَا ، فَكَنَا نَرْجِئُهُ مِنْ سَنَةٍ إِلَى أُخْرَى ، رَجَاءً اقْتِنَاصِ الْفَرَصِ وَلَا تَرَالْ تَفَرُّ مَنَا ."^{١٥٤} وَلَمْ يَكُنْ هَذَا اسْتِحْوَادُ نَاسِئًا عَنْ قَلَةِ الْمَعِينِ أَوْ الْمَسَاعِدِ ، فَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْدِقَائِهِ كَتَابَا قَدِيرِينَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَخْوَانِهِ : حَسِينٌ وَصَيْفِيٌّ رَضَا ، وَصَالِحٌ مُخْلِصٌ رَضَا ، وَابْنُ أَخِيهِ مُحَيَّيِ الدِّينِ رَضَا ، وَمِنْ أَصْدِقَائِهِ وَتَلَامِذَتِهِ عَبْدُ الْقَادِرِ الْمَغْرِبِيِّ ، وَمُحَمَّدُ بِهْجَتِ الْبَيْطَارِ ، كَمَا كَانَتِ الْمَجَلَةُ مِنْبِرًا لِلْأَقْلَامِ كَبِيرَةً ، مِثْلُ شِيخِهِ الْإِمامِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ ، وَالشِّيخِ جَمَالِ الدِّينِ الْفَاسِمِيِّ ، وَخَيْرِ الدِّينِ الْزَّرْكَلِيِّ ، وَالشِّيخِ مُحَمَّدِ مُصْطَفِيِّ شِيخِ الْأَزْهَرِ ، وَعَبْدِ الْحَمِيدِ الْزَّهْرَوِيِّ ، وَأَحْمَدِ فَتْحِيِ زَغْلُولَ ، وَالشِّيخِ مُحَمَّدِ أَمِينِ الْحَسِينِيِّ ، وَأَحْمَدِ زَكِيِّ أَبْوِ شَادِيِّ ، وَالْأَمِيرِ شَكِيبِ أَرْسَلَانَ ، وَرَفِيقِ بَكِ الْعَظَمِ ، وَالشِّيخِ مُحَمَّدِ خَضْرَى ، وَالشِّيخِ أَحْمَدِ مُحَمَّدِ شَاكِرَ ، وَالشِّيخِ مُصْطَفِيِّ عَبْدِ الرَّزَاقِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الْطَّبِيعَةِ .

وَإِنَّمَا كَانَ السَّبَبُ فِي اسْتِحْوَادِهِ عَلَى الْمَجَلَةِ اسْتِئْنَارُهُ بِتَلْكَ الْمَسَاحَةِ الْمَحْدُودَةِ مِنِ الْمَجَلَةِ الشَّهْرِيَّةِ ، الَّتِي لَا تَلْبِي بِمَا لَدِيهِ مِنْ الْفَيْضِ الْعَلَمِيِّ وَالْفَكَرِيِّ ، وَلِهَذَا كَانَ إِلَى جَانِبِ انْفَرَادِهِ بِتَحْرِيرِ الْمَنَارِ ، يَكْثُرُ مِنَ الْكِتَابَةِ فِي الْجَرَائدِ وَالْمَجَالَاتِ الْأُخْرَى ، إِضَافَةً إِلَى اشْتِغَالِهِ بِالْتَّأْلِيفِ وَالْتَّصْنِيفِ .

أَخْلَصُ مِنْ هَذَا إِلَى تَقْرِيرِ مَا يَؤْدِي إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ وَفْرَةِ نَتْاجِ السِّيدِ مُحَمَّدِ رَشِيدِ رَضَا ، وَخَاصَّةً فِي مَجَالِ الْكِتَابَةِ الصَّحْفِيَّةِ ، فِي شَتَّى مَوْضِعَاتِهَا الْدِينِيَّةِ وَالْأَدْبَرِيَّةِ

والسياسية والاجتماعية والتربوية ، وكلها تدرج تحت المقالة الصحفية التي فيها هذه الدراسة .

وقد حاولت أن أقوم بتصنيف مقالاته في مجلة المنار إلى موضوعاتها الرئيسية ، فوجدت ذلك صعبا ، بل أقرب إلى المستحيل ، وليس ذلك راجعا فقط إلى كثرتها ، التي ناهزت ثلاثة آلاف مقال كما سبق آنفا ، وإنما كذلك لتدخلها وتشابك بعضها في بعض ، بحيث تبدو معها محاولة التصنيف عبئا أو تضليلا يقود إلى نتائج خاطئة ، ولهذا عدلت عنه إلى دراسة نماذج متعددة من مقالاته .

مقالاته السياسية

من القضايا السياسية الشائكة ، التي كانت تواجه المصلحين في عصر رشيد رضا ، وخاصة الإسلاميين منهم "المسألة العربية" ، التي بربت إلى الساحة بقوة ، بعد أن ضعفت الدولة العثمانية ، وأخذت القوميات الأوروبية تتفصل عنها قومية تلو الأخرى ، بتشجيع من الدول الأوروبية القوية ، كما أخذت هذه الدول الاستعمارية تحرض العرب على الدولة العثمانية ، بغية إضعافها وانتزاع هذه الأجزاء العربية منها بالتوافق مع أهلها ، فتعددت الاجتهادات السياسية في المنطقة منها ما يدعو إلى الاستقلال التام من الإمبراطورية العثمانية في ظل دولة عربية موحدة ، ومنها ما يدعو إلى تبني الحكم الالامركزي في ظل الرابطة العثمانية ، ومنها ما كان يدعو إلى قيام كيانات عربية مستقلة على أساس إقليمية أو طائفية ، وكان الشيخ محمد رشيد رضا من الحزب المعتمد ، الذي دعا أولا إلى إصلاح نظام الخلافة ، ثم إلى الأخذ باللامركزية ، ولم يعارض أخيرا عندما تطورت الأمور إلى الأسوأ بالنسبة للنظام العثماني قيام دولة عربية مستقلة ، لا تعادي تركيا ولا غيرها من الشعوب الإسلامية ، التي كانت منضوية تحت الحكم العثماني كما دعا إلى وحدة عربية ، لا تفرقها التتواعات الدينية والمذهبية ، ويؤكد أن في هذا مصلحة العرب قاطبة مسلمين وغير مسلمين ، للرابطة الأخوية الحميمة التي تربط فيما بينهم ، والتي لا يمكن أن يكون أي دين حرها عليها ، فيقول : "إنما مصلحة العرب السياسية أن تكون لهم دولة مستقلة ، وهذا أمر بديهي ، لا يختلف فيه عاقلان ، فالعرب أمة من أقدم أمم

الأرض وأعرقها في الاستقلال ، ذات مجد عظيم ، ومدنية عالية في التاريخ القديم والحديث ، ولغة ممتازة في لغات العلم والأدب ، وشريعة هي أعدل الشرائع المنزلة للبشر ، وقد ضعفت هذه الأمة الكريمة ، وضعف مزايا لغتها ، وأهمل معظم شريعتها ، وكادت تفني بفنائها ، كل ذلك لعدم وجود دولة لها ، إذ يستحيل أن ترتفق أمة بغير دولة ، إن السواد الأعظم من العرب يدينون بدين الإسلام ، ولللغة العربية هي لغة هذا الدين ، فلا تصح لمسلم عبادة بغير هذه اللغة ، فالدولة العربية تحيا لغة القرآن ، وتحيى ب حياتها شريعة الإسلام ، فمن البديهي إذا أن يكون الخير لل المسلمين في هذه الدولة إذا وجدت ، وأما غير المسلمين من العرب فهم الآن كالمسلمين ليس لهم دولة ، ولأن يكون لأبناء جنسهم دولة خير لهم من أن يكونوا تابعين لدولة أعمجية ، لا يشاركونها في النسب ولا في اللغة ، ولا في العادات والتقاليد ولا في الوطن الجغرافي ولا في الدين ، ولا لدولة أعمجية ، يشاركونها بعضهم في الدين والمذهب أو في الدين دون المذهب ، دون سائر مقومات الأمم ومشخصاتها ، وهم يعلمون أن الدين أو المذهب لا يحملها على جعلهم مساوين لأبناء جنسها ووطنها^{١٥٥}

مقالاته الاجتماعية

يبحث رشيد في هذا المقال في مكونات الروابط الجنسية أهي النسب ؟ أم اللغة ؟ أم الدين ؟ أم الدولة ؟ ثم ينتهي إلى أن أشمل الروابط الجنسية هي الدولة المستندة إلى قانون عادل ، يحقق المساواة بين رعاياها ، ولا يصل إلى هذه الغاية القصوى نظام غير النظام الإسلامي ، فيقول في هذا الصدد بعد أن يمهد له بهذا التمهيد الرائع : "لا تقاوت بين أفراد نوع من أنواع المخلوقات نعلمه كالتفاوت بين أفراد البشر، يتسع وجود زيد منهم فيما الآفاق ، ويضيق وجود عمرو حتى يضيق به قفص جسمه ، يشعر ذاك بروحه الكبيرة أنه خلق لينهض بأمة كبيرة أو ليفيد جميع الأمم ، ويحار هذا في خدمة جسده ويرى نفسه عاجزة عن تغذيته وتوفير لذته ، فإذا ازدوج فصار له بيت كان همه أكبر ، لأنه أعجز عن سياساته وأصغر ، وبين

هذين الطرفين سواد عظيم ، لكل منهم سهم من سعة الوجود على قدر قوة الإنسانية فيه وضعفها ، فإذا كثُر أصحاب السهام العظيمة في أمة من الأمم ، اتسع وجودها بسط سلطانها على الأمم التي قلت سهامها ، وخف بها ميزانها ، فينقبض وجود هذه بمقدار اتساع وجود تلك ، وإذا كانت الجنسية في الأمة هي النسب كانت بسطتها في الوجود ضئيلة ، كذلك الوطن إذا كان بلاداً محدودة كمصر أو الشام أو العراق ، وليس نشر اللغة وجعلها جنسية بالأمر السهل ومتلها الدين إذا كان خاصاً كاليهودية ، وأما الحكومة فهي أوفى جميع ما ذكر ، وبها تكونت الأمم الكبرى ، إمبراطورية الإسكندر والإمبراطورية الرومانية في الزمن الماضي ، وكالسلطنة العثمانية ، والحكومات الاستعمارية في هذا الزمان ، ولكن الجنسية في الحكومة لا تعد جنسية حقيقة ، إلا إذا كانت الشريعة أو القوانين التي تحكم بها الرعايا المختلفين في النسب والوطن واللغة والدين مبنية على قواعد العدل والمساواة بينهم ، وكان القائمون بها من لفيفهم لا من طائفة معينة منهم... فالنتيجة لما تقدم من القواعد ، أن أكمل الجنسيات وأنفقها للبشر ، ما كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والوطن واللغة والدين والحكومة ، بأن يقصد بها الخير للجميع والمساواة بينهم في الحقوق ، وتمكينهم من الرقي إلى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال الاجتماعي ، وإنها لجنسية يتحسر عليها نوابع الحكمة وهي موجودة في الملة الإسلامية".^{١٥٦}

مقالات في الاستعمار

دأب رشيد في مجلته المنار على تبصير المسلمين والشرقيين على السواء ، وتبنيهم إلى خطط المستعمرات ومكائدتهم التي لا تتحصر في استخدام القوة العسكرية كما يبدو لقصارى النظر ، وقليلي الخبرة ، بل إن ما يصطنعونه من الأساليب الماكنة ، والوسائل الخادعة ، التي تظهر في أشكال التجارة أو التعليم أو الخدمات الإنسانية والاجتماعية ، وما ينشرونها في خلال الأمم المستضعفة من عاداتهم وتقاليدهم ، كل ذلك أمضى من السلاح العسكري في ترويض الشعوب

وتهيئتها للاستغلال الاستعماري ، وهذا ما يشرحه السيد رشيد رضا في مقال له بعنوان : "الجيوش الغربية المعنوية في الفتوحات الشرقية" قائلا : "الغرض من الفتوح والاستعمار تكثير المال وتنمية الثروة ، والمال مبدأ الأعمال المدنية وغايتها ، وبه تتألف مقدمات العمران ، وتحصل نتائجها ، ولما علم الغربيون أن الحروب تتلف الثروة ، وقد يستوي في خسائرها الغالب والمغلوب عدوا إلى الفتوح من طريق الكسب ، والتغلب على الأمم بالقبض على أزمة معيشها ، وامتلاك نواصي مكاسبها ، ثم بقطيع روابطها ، وإبطال الجامع التي تضمها وتجمعها ، إلى أن يقضي التفرق على الأمة بقضائه الذي رددناه مرارا ، وتمثل هذا التفرق يتسعى للعدد القليل الاستيلاء على شعب كبير وأمة عظيمة..."

علم الأوربيون بما أفادهم البحث في طبائع الأمم ، أن الترف مذعنة الدمار والفناء الاجتماعي ، إذا لم يقرن بتربية صحيحة ، تقى من أدواته ، وتعصم من بلائه ، وعلموا بالاختبار أن الشرق فقدت منه التربية ، وانفصمت عرى الوحدة التي كانت لأممها ودوله ، ولم يبق لهم من روابط الاجتماع إلا بقايا موروثة، لا متعهد لها ولا حافظ ، فيكفي لقطعها جذبة لطيفة من جذبات الترف ، فكرروا على الشرق بجنود منه لا قبل لأهله بها ، وحملوه أوزارا أثقل من الجبال ، فحملها وكان الشرق ظلوما جهولا ، ساقوا عليه خمسة فيالق ، وهي : الخمر ، والميسر والرها ، والبغاء ، والتجارة ، فنسفوا بذلك ثروته ، وقتلوا غيرته ، وأضعفوا همته وأفسدوا ما كان من بقايا أدب ودين ، فتكثت هذه الفيالق والجحافل في الأمم الشرقية فتكا ذريعا^{١٥٧} ثم أخذ يفصل في الآثار السيئة التي أحدثه كل فيلق من هذه الفيالق الخمسة في البلاد الإسلامية والشرقية ، من الإفلات في الأخلاق والأموال والأعراض ما جعلها كلاً مباحا ، وحمى مستباحا لألوان شتى من تدخل المستعمر وتحكمه في مصائر الشعوب الغافلة .

مقالاته في الحرب العالمية الأولى

كتب رشيد رضا كثيرا عن الحرب العالمية الأولى ، مبينا دوافعها ومصورا ما أورثته العالم من الدمار والخراب ، ومحللا ما يستفاد منها من الدروس وال عبر ، ومن ذلك مقالة له بعنوان : "حرب أمم المدنية لا الملل الدينية" وما ذكر فيه أنها حرب أمم وشعوب لا حرب حكومات منفردة ، فقال : "تسمى الجرائد العربية والأوروبية هذه الحروب المشتعلة في أوروبا حرب الأمم ، ولا نرى لها مخالفًا في صحة هذه التسمية ، فقد أجمع الناس على أن جميع الأمم الأوروبية المتحاربة موافقة لدولها ، على الاستمرار على هذه الحرب ، إلى أن يفني آخر رجل يقدر على استعمال السلاح فيها ، وينفق آخر دينار في صناديقها ، أو تقهق عدوها قهرا يخضع به لحكمها ، ويذعن صاغرا لشروط الصلح التي تضعها حكومتها".^{١٥٨} ثم يذكر رشيد قراءه بأن المتحاربين في هذه الحرب الضروس هم الأمم الأوروبية المتحضرة ، التي كانت تدعونا إلى نبذ الأديان للخروج من الفرقه والخلاف والحروب الدينية "إذا تمهد هذا فاعلم أيها القارئ أنني لم أقصد به المدح أو الذم للأمم المتفقة على الحرب أو المختلفة فيها ، ولا التخطئة أو التصويب لموقعي نارها ، وإنما أريد أن أثبت أنها حرب المدنية الأوروبية الحديثة ، لا حرب دينية ولا مذهبية ، وهذه المدنية مادية لا روحية ، دنيوية لا دينية ، وغاية أصحابها ، ومقصدهم منها هو التمتع بالشهوات البدنية ، والعلو والعظمة في الأرض ، والتکاثر في الأموال وضروب الزينة... فهل يعتبر بهذه الحرب أولئك الخادعون المخدوعون ، الذين كانوا يعيرون الأديان ، بزعمهم أنها مثار البغى والعدوان ، ومسعر نيران الحرب بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وأنه لو لولاها لاختت المدنية بين الناس ، وجمعت بين ما تفرق من الأجناس ، كلا إن الحياة المدنية هي التي تولد في النفوس المطامع التي لا حد لها ، وتقرن التنافس بالتحاسد ، وتسوق الحسد إلى البغى والتقايل ، وإن الدين ينهى عن ذلك كله ، ولكن الناس كثيرا ما يخطئون في فهمه... فالحرب سنة من سنن الاجتماع ، قد يخفف الدين شورها بقدر ارتقائه واستمساك أهله به... وليس للمدنية المادية مثل هذا التأثير في نفسها فإن وجد في أمم المدنية من يقبح الحرب ، أو يقبح ارتكاب القسوة

فيها غيرة على العمران ، ومحافظة على حقوق البشر غير مهتم في ذلك بتربية الدين ، ولا متأثر بفضائله ، فهو لا يكون إلا كالناجر الخوان لا يحجم عن صفة إلا خوفا من الخسارة^{١٥٩}

مقالاته الدينية

من مقالات السيد رشيد رضا الدينية ما قصد بها الدفاع عن الإسلام وتعاليمه الربانية ، مما رمي به من النقص والتخلف عن مجازة المدنية ، ومناقضته لمقتضيات العلوم الطبيعية ونتائج الاكتشافات العصرية ، فكان من ذلك مقال له بعنوان : "الشريعة والطبيعة" بين فيه أن الشريعة والطبيعة كلاهما وحي من الله ، فالشريعة وحي نبلي ، والطبيعة شواهد نصيبياً الله تعالى للاستدلال بها على خالقها ومبدعها ، ومحال أن يتناقض أو يتعارض وحي صدر من مصدر واحد ، وأي شيء يوهم ذلك فإنما هو قصور في تأويل الوحي المتنلو من جانب علماء الشرع ، أو خطأ في نتيجة النظرية العلمية من قبل علماء الطبيعة ، يقول رشيد: "إن الله تعالى خلقة منها جميع ما نعرفه في هذه الأكونان ، وشريعة اختلفت أحكامها باختلاف أحوال الاجتماع لنوع الإنسان ، ثم ثبتت أصولها وقواعدها العامة بالسنة الصحيحة والقرآن على وجه ينطبق على مصالح البشر في كل آن ، ولولا هذا لم يصح أن تكون شريعة عامة لكل زمان ومكان ، فالخلقة أو الطبيعة من الله ، كما أن الديانة والشريعة من عند الله (فذلكم الله ربكم الحق) ^{١٦٠} وما كان من الحق فهو حق ، فمن قال : إن الطبيعة أو علمها باطل كمن قال : إن الشريعة أو العلم بها باطل ، كلاهما مجتري على مقام الربوبية بنسبة الباطل إلى الحق ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً... وما شذوذ بعض الناظرين في علوم الطبيعيات والهيئة اشتغالاً بالصنعة عن الصانع إلا كشذوذ الناظرين في علوم الشريعة المتبعين فيها عن العدالة في الأحكام ، والعفة في المعاملة وهم روح الشريعة ، فإننا نسمع الناس يرمون رجالاً من أوسع العلماء والقضاة الشرعيين علمًا بالأحكام بما لا يرمون به سائرهم ، وما

كان الزيف والانحراف من هؤلاء وأولئك من علمي الطبيعة والشريعة فيكونان باطلين ، وإنما هو فساد في التربية زاد بالعلم فسادا... نتيجة هذا كله أنه يجب أن لا يكون في الدين والشريعة شيء مخالف لما في الخلق والطبيعة ، لأن كلا من عند الله ، وحاشا أن يصدر عن تلك الذات العالية التناقض والاختلاف ، وأي أمر ينافي الكمال ، وما عساه يوجد في الكتب الدينية ، أو يجري على ألسنة رجال الدين من قول يذم علوم الخليقة ، أو يرمي إلى بطلانها ، أو ينهى عن تعلمها ، فهو من الناس لا من الله ، أصقوه بالدين لشبه عرضت لهم ، أكثرها لفظية أو لمحض الجهل ، على أنه يوجد في كتب العلوم الطبيعية متلما يوجد في كتب العلوم الشرعية من الأقوال والآراء المبنية على الظن والخرص.. فهذه المسائل اليقينية لا ينافي شرعها طبيعها أبدا ، وممّى نافي قطعي من قسم منها ظننا من القسم الآخر يترك الظنلي القطعي ، إلا إذا أمكن الجمع بينهما ، وإذا تعارضت الظنليات يرجح الشرعي على غيره" ^{١٦١}

مقالاته الوصفية

كان رشيد ميالاً إلى الوصف والاستطراد ، وتصوير تفاصيل القضايا التي يتناولها بالحديث والدراسة ، فيتحول وصفه الذي ر بما قصد به التمهيد لموضوع إلى نص وصفي بارع الجمال ، مستقل الكيان ، كما أن له مقالات مفردة للوصف ومنها مقال له بعنوان : "رمضان في عاصمة الخلافة" صور فيه مظاهر هذا الشهر الفضيل في إسطانبول ، من عمارة المساجد وكثرة الوعظ والقراء فيها ، وتهيئة المساجد وتزيينها بشكل خاص ، وارتياد الصائمين المنتزهات والحدائق والشوارع الجميلة في الأصالة ، كما صور إقبال النساء على المساجد للصلوات المكتوبة والتراويح ، ومن المفارقات أن ليالي رمضان الإسطانبولية ليال صاحبة بالموسيقى والسهرات الليلية ، وقع الطبول في الشوارع الكبيرة ، صور رشيد رضا كل ذلك بدون تدخل من تحليل أو نقد ، ولو لا أن المقال طويل نسبياً لأنّته بكماله ، لدلالته على حسّ رشيد وذوقه في الجمال الطبيعي . قال رشيد : "لهذا الشهر في هذه العاصمة مظهر غريب ، لا نعرف له نظيراً في غيرها من بلاد الإسلام ، وهو يرى على أكمله

وأتمه في قسم إستانبول منها ، أما في النهار فترى أكثر المطاعم والمشارب والملاهي والمجامع العامة مقلة ، لا يختلف إليها أحد ، وترى أمارات الصيام ظاهرة على أكثر الناس ، فلا تكاد ترى أحداً يدخن ، وترى المساجد الشهيرة عامرة بالمصلين والواعظين والمستمعين والمتفرجين الطوافين ، ولهذا كله نظير في البلاد الإسلامية الأخرى ، وإنما رونقه هنا بجمال المساجد وزينتها ، واختلاف الناس من جميع الطبقات إلى المشهور منها ، ولا سيما جامع أيا صوفيا العظيم ، ويبتدئ هذا من وقت صلاة العصر إلى قرب المغرب ، فمن الناس من يسمع الوعاظ ، ومنهم من يسمع الحفاظ ... وبينما يكون الخلق الكثير من الناس في المساجد بين العصر والمغرب ، يكون شارع (شهزاده) مكتظاً بالرجال والنساء ، الذين يؤمنونه من جميع أرجاء المدينة ، فيكون كالعرض العام لهم ، حتى إن كثيراً من أفراد الأسرة السلطانية يجئونه كل يوم في هذا الوقت .. وليس لهذا الشارع مزية في السعة أو الجمال على غيره الآن ، ولعله كان في وقت ما أوسع الشوارع وأجملها ، على أن السكان في تلك الجهة جلهم أو كلهم من المسلمين ، وكان يكون فيه في هذا الوقت من تبرج النساء بزيneathن ، ومحاولات الرجال لهن ، ما لا يكون في مكان آخر في وقت آخر إلا في معاهد النزهة في أزمنتها الخاصة ، ككاغد خانة ، ومروج (قاضي كوي) و(حيدر باشا) و(بكقوز) وغيرها من المروج والوديان والغدران ، وموارد المياه والشواطئ والغابات ، وكل ذلك كثير في ضواحي هذه العاصمة التي لا نظير لها في الدنيا ، وكل معهد من معاهد نزهها موسم من أيام الربيع والصيف والخريف ، يؤمنه فيه الرجال والنساء بحللهم الزاهية الألوان متبرجات بزيneathن الخاطفة للأبصار ، حاسرات عن وجههن الممبلة للأعنق ، ولا تسل عما يكون هناك من المغازلة ، ولكن مع الوقوف عند حدود الأدب ، قلماً يتعدونها إلا في المجامع الكبيرة ، التي يجتمع فيها عشرات الآلاف من النساء والرجال ، كمجمع عيد الخضر في الكاغد خانة... ذلك ما أحبينا بيانه في أيام رمضان ، وأما لياليه فهي ليال سرور ولهو وعزف وقصف ورقص ، وتسمع المعازف الوتيرية كالعود والقانون والكمنجا ، وغير الوتيرية في أكثر الملاهي ، التي تدعى في البلاد العربية بالقهاوي ، وفي البلاد التركية ببيوت القراءة (قراءتختانه لر) وسبب ذلك أن لأهلهن نساء ورجالاً

عنابة بالعزف والموسيقى ، ويتعلمون ذلك في المدارس الخاصة ، وترى أصحاب الطبول الكبيرة يجولون في الشوارع من أول الليل إلى وقت الإمساك قبيل الفجر ، وناهيك بدور التمثيل والرقص... وقد ظهر لي أن لصلاة الجمعة وصلاة التراويح من الإقبال والعنابة في الآستانة فوق ما لها في مصر ...

يمتاز نساء الآستانة على نساء البلد العربية بالصلوة في المساجد ، يقل ذلك منهم في غير رمضان وبكثرة فيه ، حتى إن من المساجد الصغيرة ما هو خاص بهن ... وقد اتخذ لهن في هذه السنة حظائر في مؤخر المساجد ، يحجبهن عن الرجال فيها ، ويدخلن من باب خاص بهن...

إني أرى أن اختلاف النساء في المساجد يعلي نفوسهن ، ويرفع قيمتها في نظر صواحبها ، وقد كن يصلين في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما حمل المسلمين على منعهن منها في أكثر البلد إلا شدة الغيرة ، كراهة بعضهن في غدوهن ورواحهن ، ولنساء الآستانة من هذا التبرج حظ عظيم وناهيك بالمتبرجات في الشوارع والسبح في أيديهن ، يعيشن بها فتكون أشدّ جذباً لأبصار الرجال إليهن منسائر حليهن وزينتهن ، وكأنني بهن يجبن من يعرض عليهن في ذلك بقول تلك الشاعرة العربية:

وَلَهُ مِنِي جَانِبٌ لَا أُضِيعُهُ وَلِلَّهِ مِنِي وَالخِلَاعَةُ جَانِبٌ^{١٦٢}

المطلب الثالث : أدب رحلاته

رحلات رشيد وبراعتها

يعد أدب الرحلات من أهم الفنون الأدبية ، وأكثرها متعة وإثارة ، لما يشتمل عليه من التجارب الإنسانية الخصبة ، والفوائد العلمية الجليلة ، ومعظم الرحاليين علماء وأدباء حنكتهم التجارب ، بالسفر في مناكب الأرض ، والاعتبار بأحوال العباد والبلاد ، فكان لما دونوه عن مشاهداتهم وعما استفادواه من طبائع البشر وعوائدهم ، قيمة علمية وأدبية كبيرة " وأما القيمة الأدبية فهي تتجلى في كون كثير مما أورده هؤلاء الرحاليون في مذكراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى علم الأدب والخيال كأنموذج من أرق النماذج على الوصف الفني الحي .^{١٦٣}

قام رشيد رضا برحلات كثيرة ، قادته إلى الشام والقسطنطينية والهند ومسقط والبصرة والكويت والجaz وأوربا ، وكان ذلك بعد أن اشتهر بالعلم الواسع وممارسة الإصلاح ، والاهتمام الكبير بقضايا الأمة العربية والإسلامية ، والتصدي لمناهضة الاستعمار وأذنابه من المترنجين الداعين إلى نبذ الإسلام وخلع تعاليمه ، والسير في ركب الحضارة الأوروبية من غير تمييز ولا تمييع ، ومقارعة حاملي لواء الجمود ، ورافضي كل جديد من مقلدي المذاهب ، الذين كانوا يرون بوجوب النقيض بالفروع الفقهية والعقدية ، التي ورثت من عصر الاجتهد ، ولا يبيحون لأحد مهما بلغ علمه ، وكبير عقله ، وصفا ذهنه ، أن يعيد النظر في تلك المقررات الفقهية ، أو يجتهد فيما يستجد من قضايا العصر ، كما نازل السيد كذلك شيخ الطرق الصوفية ، الذين انحرف كثير منهم عن هدي الإسلام ، وابتعد عن الزهد الحقيقي الذي يقوم عليه فكر التصوف الإسلامي ، فكان رشيد بجهاده ومجلته الشهيرة مناراً ، تعشوا إليه نواذير الحيارى في ظلمات الجهل والتخلف والاستعمار ، التي تردى فيها العالم الإسلامي آنذاك.

لم ينشئ رشيد رضا هذه الرحلات لمجرد الترويج عن نفسه فراراً من زحمة العمل ، أو استجماماً من وقدة الحر في صيف مصر ، ولا كانت بوعاثها طلباً في مغنم

^{١٦٣} - الرحلات وتطوره في الأدب العربي ، أحمد أبو سعد ، دار الشرق الجديد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١ م ، ص ٦

دنيوي من تجارة ونحوها ، بل كانت كلها جزءا من جهاده الإصلاحي ونضاله في سبيل الدين والوطن ، ما عدا رحلة الحجاز التي كان سببها أداء فريضة الحج ، ومع ذلك لم يخلها من السعي لقضية العربية - التي كانت ساخنة آنذاك - بما يوافق رؤيته الإسلامية في الجمع بين استثمار وتوجيه الحركة العربية وبين الحفاظ على كيان الخلافة الإسلامية ، التي كانت تمثلها الدولة التركية .

يقول رشيد رضا في رحلته إلى القسطنطينية : "رحلت في العام الماضي - وهو العام الأول للدستور - إلى الديار السورية لصلة الرحم التي قطعها الاستبداد على إحدى عشرة سنة ، ولاختبار حال البلاد بعدها عاثت به فيها حكومة الاستبداد وللوعظ والإرشاد ، والبحث على الاتفاق والاتحاد وبيان مزايا الدستور وفوائده ، وما يجب على الأمة من العمل للتقدم في عهده ، وقد نشرت في المنار ملخص تلك الخطب والدروس ، فعرفها قراؤه ، ورحلت في هذا العام - وهو العام الثاني للدستور - إلى القسطنطينية عاصمة الدولة ، لأسعى في أمرين عظيمين ، أحدهما وهو أحجلهما : خدمة للدين الإسلامي ولجميع المسلمين ، وثانيهما : خدمة للدولة العلية من حيث هي حكومة الدستور القائم على أساس العدل والمساواة ، ولعنصري الأمة العثمانية الكبارين .

أما الأول: فهو إنشاء معهد ديني علمي في العاصمة للتربية الإسلامية الصحيحة الكاملة ، وأما الأمر الثاني الذي سعيت إليه فهو : إزالة ما وقع أخيرا من سوء التفاهم بين عنصري الدولة الكبارين - العرب والترك .." ١٦٤

ورحل إلى سوريا ثانية للمشاركة في بناء الدولة السورية ، التي قامت برئاسته الملك فيصل بن الحسين ، بعد انحسار ظل الدولة التركية عنها في الحرب العالمية الأولى ، وكانت مشاركة رشيد في هذه الدولة - التي لم تدم طويلا - مشاركة جليلة ، تجلت في اختياره رئيسا لمؤتمرها الوطني ، الذي كان بمثابة الهيئة التأسيسية لمجلس الشعب أو البرلمان^{١٦٥} كذلك كان الشأن في رحلته إلى سويسرا ، حيث كان مقر عصبة الأمم المتحدة ، إذ كان سببها المشاركة في مؤتمر للأحزاب السورية ،

دعا إليه حزب الاتحاد السوري ، الذي كان رشيد رضا من زعامتها ، وكان رشيد من مهندسي هذا المؤتمر ، الذي كان الهدف منه صياغة موقف موحد لجميع الأحزاب السورية تجاه انتداب الاستعمار الفرنسي على سوريا ثم رفع القضية إلى عصبة الأمم^{١٦٦} وأما رحلة رشيد رضا إلى الهند فكانت تلبية لدعوة جمعية ندوة العلماء ، كبرى الجهات الدينية والتعليمية في الهند للمشاركة في اجتماعها العام باعتباره رئيس شرف له^{١٦٧}.

استطاع رشيد رضا أن يجمع بين أداء المهام وقضاء الحاجات التي كانت وراء كل رحلة ، وبين استغلال هذه الرحلات في تكميل عقله وتجاربه بالاختبار والاعتبار بما يرى ويسمع^{١٦٨} ، وتسجيل كل ذلك بشكل موضوعي وفني ، "من هنا فإن الرحلات التي قام بها ، منطلقاً من مصر إلى سوريا والقدسية والهند والهجاز وأوروبا ، إذ تسلط مزيداً من الأضواء حول سيرته ، والدور الإسلامي الذي لعبه ، تقدم لنا في الوقت نفسه كشفاً بما كانت عليه يومذاك المجتمعات العربية والإسلامية ، يضاف إلى ذلك أن الشيخ رشيد رضا ، المنتقل إلى رحمة ربه في الثاني والعشرين من آب عام ١٩٣٥م قدم لنا زيادة على أفكاره الإصلاحية المسندة إلى الإسلام ، نوعاً من أدب الرحلة ، يمزج بين هدف الإصلاح ، ومتاعة السياحة ، وحب الاستكشاف"^{١٦٩}

لقي رشيد في رحلاته من الترحيب والضيافة والاحتفاء به ما يسر له أمره وسهل له كل صعب ، فقد كان في معظم رحلاته في ضيافة الدول أو الجمعيات الإسلامية ، وكان سهل الوصول إلى الوجاهات والمسؤولين وصنع القرار في كل بلد يزوره ، وكانت البرقيات تقدمه إلى كل ناحية يرحل إليها ، إما من أوليائه لغرض استقباله واستضافته ، أو من سلطات الاحتلال لمراقبة تحركاته ومتابعة نشاطه ، والتحذير من أفكاره ، وهذا يدل على منزلة رشيد وخطر أمره .

^{١٦٦} المنار: ١١٥/٢/٢٣

^{١٦٧} السابق: ٦٢١/٨/١٥

^{١٦٨} السابق: ١١٥/٢/٢٣

^{١٦٩} الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل، سمير أبو حمدان، ص ٥٤

كان رشيد رضا على وعيٍ وإدراكٍ جيدٍ بما كان يقوم به من تسجيل ملاحظاته ومشاهداته ، وما كان يحرره من الكتابة عن رحلاته ، فكان يراجع ما كتبه الرحالون قبله في بعض الأقاليم ، مستقida منها ومناقشاً لبعض ما جاء فيها ، فقد نقل كثيراً عن الرحالة الأندلسي ابن جبير في وصفه لمدينة مكة ومشاعر الحج^{١٧٠} كما ناقش ما ورد في كتاب "الرحلة الحجازية" لصديقه محمد لبيب بك البیانوی الذي ألفه في

١٧١ سنة ١٣٢٨ هـ

أما منهج رشيد في كتابة رحلاته ، فكان يقوم على وصف مشاهداته وتسجيل ملاحظاته ، والتركيز على استخلاص العبرة واستنتاج الخبرة دون التقيد بالاتساع اليومي في الكتابة ، وإن كان يلجأ إليه أحياناً ، كما صنع في الرحلة الحجازية^{١٧٢} يقول في رحلته الثانية إلى سوريا : "جريت فيما كتبت في هذه الرحلة على طريقة بيان أحوال سورية الاجتماعية والأدبية والسياسية في هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه بعد الحرب ، لا على طريقة بيان تفصيلي في البلاد بتواریخه ، وذكر المشاهدات وما يتبعها في الآراء تبعاً له كما اعتاد المؤرخون"^{١٧٣} ومع أن رشيد رضا كان مولعاً في وصفه للأمور بالاستقصاء والتفصيل كقوله في وصف (ترموس) في الرحلة الحجازية : "وهذا الإبريق من نوع الروايات الوارد (أوعية الماء للسفر) الإفرنجية التي يسمون واحدها (ترموس) وأكثر هذا النوع عمودي الشكل ، وهو يحفظ ما يودع فيه من بارد وحار يوماً وليلة بالتقريب... وسبب حفظ الترميس لما يودع فيه مدة طويلة هو أنه مؤلف من إناءين أحدهما وهو الظاهر معدني ، وثانيهما زجاجي باطن كالمراة ، وظاهره مغشى بمادة من المواد البطيئة التوصيل للحرارة والبرودة ، ويوضع الزجاجي في باطن المعدني منفصلاً عنه ، ويكون الاتصال بينهما من أعلى الفوهة ولهذه الفوهة صمام (سداد) من الفلين على رأسه قطعة من معدنه الأبيض ، ويكون فوقها غطاء المعدني المتصل به ، فإذا رفع الصمام قليلاً أمكن صب الماء من بليل الإبريق"^{١٧٤} مع كل ذلك كان يجمع قلمه حيث لا يرى فائدة في الإطالة

^{١٧٠} المنار : ١٥٥/٣/٢٠

^{١٧١} السابق : ١٩٥/٤/٢٠

^{١٧٢} السابق : ٦٩٦/٩/٢٣ ، ١١٤/٢/٢

^{١٧٣} السابق : ٢٣٥/٣/٢٣

^{١٧٤} المنار : ١١٠/٢/٢٠

بالوصف فلا يصف الحرم المكي لأن "وصفه مبين بالتفصيل في كتب المتقدمين والمتأخرین من المؤرخین والرحالین"^{١٧٥} ويقول في معرض حديثه عن مدينة "تریسته" الإيطالية في رحلته الأولى: "ولو شئنا لفينا من كتب التاريخ شيئاً من وصفها كما يفعل كثير من الناس فيما يكتبون في رحلاتهم ، ولسنا من مستحسنی هذه الطريقة بإطلاق ، وإنما يحسن فيها تقييد بعض الشوارد المبعثرة ، والنواودر التي لا تزال باليسيير من المراجعة ، والنواودر التي تزدان بها المحاضرة ، وما يستبطه السائح من العبرة والفائدة حتى فيما صورته الفکاهة والتسلية"^{١٧٦} ومما يدل على أن رشید رضا راعى في كتابة رحلاته أسلوب وطريقة فن الرحلات ، أنه لم يدخل فيها ما كان يلقىء من الدروس والمحاضرات ، وما كان يمارسه من الأنشطة السياسية والاجتماعية أثناء رحلاته ، بل نشر ذلك في مجلة المنار مستقلاً عن الرحلات^{١٧٧}

لم يجمع رشید رضا ما كتبه في رحلاته الست في كتاب مستقل ، ولو فعل ذلك لخرج في كتاب كبير الحجم ، تربو صفحاته على الثلاثمائة صفحة ، وذكر في رحلة الهند أنه عازم على إفرادها في كتاب ، فقال: "وقد استفدت في رحلتي إلى الهند والبلاد العربية الشرقية فوائد كثيرة جديرة بأن تنشر في المنار ، وأن تدون في كتاب مستقل ، ولذلك عزمت على تأليف رحلة خاصة في ذلك"^{١٧٨} ولعل هذا هو السبب في قلة ما نشر عن هذه الرحلة في المنار ، حيث لم تزد عن أربع حلقات ، اشتان منها في شكر من استقبلوه هناك ، غير أنني لم أجده في مؤلفاته كتاباً عن رحلته الهندية أو عن غيرها من رحلاته الأخرى .

الرحلة السورية

إن ما يستوقف القارئ في رحلة رشید الأولى إلى سوريا هو ما حظي به رشید من الترحيب المنقطع النظير من كل فئات الشعب ، من السياسيين والعلماء

^{١٧٥} السابق : ٢٠/٣/٥٠

^{١٧٦} السابق : ٢٣/٤/٣٠

^{١٧٧} السابق : ١٢/١٢/٩٥٦

^{١٧٨} السابق : ١٥/٦/٤٤

والحكوميين الرسميين ، ومن عامة المجتمع ، وخاصة في طرابلس وقريته القلمون ، فعندما رست السفينة التي كانت تقله في ميناء طرابلس "كان في الانتظار على رصيف الجمرك في الميناء جماهير من جميع الطبقات وجوقة موسيقية أرسلتها جمعية الاتحاد والترقي"^{١٧٩} ثم انتقل من طرابلس بعد أسبوع إلى قريته "القلمون" فتلقاه جموع غفير في الطريق قبل وصوله إلى القرية ، وشرع الشبان في إطلاق الرصاص في الهواء تسلیماً عليه وترحیباً به ، يقول رشید : "وكان من حفاوة أهل القلمون بي ، أن حمل بعض نسائها مجامر العود الهندي وغيره من البخور أمامي من طرابلس إلى القلمون ، وكان فيمن خرج للقاء ممن بقي فيها من يحمل المجامر أيضاً... وكان النساء يغنين ويزغردن ، ولهم في ذلك أغاني مناسبة للمقام ، وهذه العادة قديمة عند نساء الباشية والقرى والبلاد التي لم يتسع نطاق الحضارة فيها"^{١٨٠}

يواصل في شرح مظاهر الاحتفال له فيقول: "بدأت الوفود تند من الكورة على القلمون للسلام علينا منذ اليوم الثاني من وصولنا إليها ، كرئيس دير البلمند ووجهاء البلاد من المسلمين والنصارى ، وقد نزل معظم أهل (دره) وهي على قمة الجبل بإزاء القلمون على الساحل بعد العشاء ، وهو يطلقون البارود من بنادقهم ، والرصاص من مسدساتهم ، وبهزجون بالأغاني ، فتلقاهم شباب القلمون في خارجها وأدخلوهم باحتفال يناسب ما هم فيه ، وقد قيل لي : إن من الرسوم المعتادة في ذلك ، أنه لو لم يخرج شبان القلمون للقائهم لما دخلوه ، لأن ذلك يعد من الإهانة في عرفهم ، وعند وصولهم إلى دارنا تحلقوا أمامها ، وطفقوا يهزجون ويطلقون العيارات النارية إلى قريب من نصف الليل ، ثم انصرفوا مشيعين مشكورين"^{١٨١} ويقول رشید رضا كالمعتر عن حكايته لبعض ما ورد في الاحتفال له من الألعاب الشعبية "وقد ذكرت هذا ، لأنه من العادات التي لم أكن أعرفها من قبل"^{١٨٢}

كانت رحلته الأولى إلى سوريا بعد غيبة دامت إحدى عشرة سنة ، فلما أتيحت له أول فرصة لزيارتها ، بعد إقرار الدستور ، وأمن الناس من بطش الدولة

^{١٧٩} المنار: ٧١٠/٩/١١
^{١٨٠} السابق: ٨٧٤/١١/١١
^{١٨١} السابق: ٨٧٨/١١/١١
^{١٨٢} المنار: ٨٧٤/١١/١١

بادر إلى زيارة بلده وأهله ، فلما دخل مدينة طرابلس راوه ما رأه فيها من عدم التطور والتغير ، لأن عجلة الزمن الدوارة غفلت عنها ولم تلاحظها ، فبقي كل شيء فيها على ما كان عليه ، قبل أكثر من عشر سنوات ، فوصف لنا هذا الأمر قائلاً: "رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ إحدى عشرة سنة ، كأنه لم يتبدل ولم يتحول فيها شيء ، حتى خيل لي أن ما رأيته في الدكاكين ومخازن التجار هو الذي تركته فيها بعينه ، وقلما رأيت أحداً من أعرفهم انتقل من دكانه سواء كان مالكاً أم مستأجراً".^{١٨٣}

يتذكر رشيد في طبائع الناس وعوائدهم وهو يتجول في مدن الشام الشهيرة فيستوقفه أن أهل حمص أقل تأناً في المأكل والمشرب ، وأبعد عن الترف في الطعام من أهل بيروت وطرابلس ، وبعد ذلك محمدة لأهل حمص وبالمبالغة وإسرافاً من أهل طرابلس ، وأهل طرابلس في رأيه يفوقون في التوسع على أنفسهم في الطعام ، وتخير الجودة فيه ، على أثرياء القاهرة حيث يقول : "وإني لأعلم أن المصري المقيم في القاهرة نفسها ، الذي يزيد دخله في الشهر على دخل الطرابلسي في السنة ، لا يأكل من الحلوي في السنة كلها ، بقدر ما يأكل منها الطرابلسي في شهر واحد".^{١٨٤} وما تحدث عنه رشيد رضا في رحلته الثانية إلى سوريا ، إثر الحرب العالمية الأولى ، وخروج الأتراك من الأراضي العربية ، ما لحق بالبلاد من الدمار والخراب جراء الحرب^{١٨٥} وما عاناه الشعب من الفقر والعدم وهلاك خلق كثير بسبب الجوع ، يقول رشيد في هذا الصدد: "وما جرى في السواحل وجنوب لبنان ولا سيما قضائي التين ، وكسروان منه ، فهو فوق ما كانت تشرحه الجرائد في مصر ، ويظنه أكثر أهلها من المبالغات التي يقصد بها الطعن في حكومة الترك ، فالحق أن كل ما وصفته كان دون الذي وقع ، وقد ثبت عندي أن بعض الناس كانوا يأكلون ما يجدونه في المزابل والطرق ، إن كان رطباً يمضغ ، أو يابساً يكسر... وثبت عندي

^{١٨٣} السابق: ٧١٥/١١/١١

^{١٨٤} السابق: ١٥١/٢/١٢

^{١٨٥} السابق: ٤٣٠/٨/٢١

أكل الناس الجيف ، حتى ما قيل من أكل بعض النساء لحوم أولادهن والعياذ بالله

١٨٦

الرحلة القسطنطينية

وفي رحلته إلى القسطنطينية عاصمة الخلافة العثمانية ، يسترعي نظر رشيد ما وجد عليه أهلها ، من الد茅ة في الخلق ، والنظافة في كل شيء ، "فلا تكاد تتكر على ربيع ولا وضع قولاً خشناً ، ولا كبراً ولا ترفاً ، ولكنك كثيراً ما تتكر عليه إخلاف الوعد وما في معنى الإلحاد ، حتى يقل أن يثق المختبر بقول يسمعه ، وسبب ذلك تأثير الاستبداد الشديد"^{١٨٧} كما أن رشيد رضا تبه إلى خلاف ما كان يعتقد ، وينشره في مجلة المنار وغيرها ، من أن القسطنطينية أرقى البلاد العثمانية في العمران ، فلما زارها ومكث فيها سنة كاملة ، وخبر حالها عن كثب كتب يقول : "كنت كتبت في المنار ، وقلت في بعض الخطاب التي ألقيتها في العام الماضي بالبلاد السورية ، أن أرقى البلاد العثمانية الأستانة ، وما يقرب منها من ولايات الروملي ، وسوريا ، وأدنىها العراق والجaz واليمن ، وقد تبين لي أن هذا القول خطأ ، والأستانة لا تفوق سوريا إلا بكثرة عدد المتعلمين من الرجال والنساء ، وبالآداب الاجتماعية كما تقدم... وأما النسبة بين الأستانة ومصر فهي أن عامة أهل الأستانة أرقى من عامة أهل القاهرة ، وخاصة أهل القاهرة النابغين أرقى من خاصة أهل الأستانة النابغين ، وأما من جهة الثروة وال عمران فمصر أغزر ثروة وأرقى عمراناً"^{١٨٨}

^{١٨٦} المنار: ٤٩٨/٩/٢١

^{١٨٧} السابق: ٣١٦/٤/١٣

^{١٨٨} السابق: ٣١٦/٤/١٣

الرحلة الحجازية

حج السيد رشيد رضا في عام ١٩١٧ م في بعثة مصرية كبيرة ، قدمت لها الحكومة المصرية كثيراً من التسهيلات ، وكانت معه أمه وشقيقته ، وكان هذا أول حج له ، لأنه كان يخاف قبل ذلك من بطش الحكومة التركية ، التي كان كالمعارض لها ، فلما زال ذلك المانع بادر إلى أداء الحج ، ونزل على ضيافة الشريف الحسين بن علي ؛ ملك الحجاز ، وأفاض رشيد في الحديث عن هذه الرحلة ، التي كتب فيها عشر حلقات في مجلة المنار ، في وصف مكة المكرمة والمشاعر المقدسة ، والحالات الروحية التي تتناسب الحاج ، أثناء أدائه لمناسك الحج الطاهرة ، وما يملأ قلوب المتنسكيين من هيبة وجلاة المشاعر ، وذلك بعد وصفه لمشهد الوداع ، عند شروع الفراق للأهل والأولاد قائلاً : "وقد كنا بلونا لوعة الوداع بتعدد الأسفار ، وكان أشجارها وداع الوالدين والأقربين والأصدقاء عند الهجرة إلى هذه الديار ، ولكنني لم أذق قبل هذا اليوم توديع الأهل والأولاد ، لأنني لم أكن في حال سفر من أسفاري السابقة زوجا ولا والدا" ^{١٨٩} وكان لرحلته هذه أهمية متميزة ، لأن "الكتابة في الرحلة إلى الحجاز تحتل مكانا بارزا في أدب الرحلات العربية ، فدعواي الرحلة مستمرة ، وأثرها في النفس عميق ، وتفاعل المشاعر معها عين ثرّ بالأعمال الأدبية". ^{١٩٠}

خرج رشيد من جدة إلى مكة بعد صلاة العصر وحده بعد أن أرسل أهله في الصباح ، ولم يكن معه إلا خفيران أو جنديان ، لحراسته من نهب قطاع الطرق ، ووصل إلى مكة ضحى اليوم الثاني ، ولم يسترح في الطريق إلا قليلا ، وقطع عامة المسافة ، التي بين جدة ومكة في الليل ، وهو على حمار ، فوصف ما لقيه في الطريق ، وما سمع به ، ومنه اعتداء وقع على بعض السالكة من قطاع الطرق ، فكان من أحسن ما كتب ، وصفه لمشاعره في هذه الليلة ، وهو في الطريق فقال : "كنت قبل عودة المشيعين لي من جدة ، ألبى في السير قليلا ، وأتكلم معهم كثيرا ، فلما عادوا وولى النهار بأنسه وبهائه ، وأقبل الليل بوحشته وظلماته هدأت المشاعر ،

^{١٨٩} - المنار: ٤٤٩/٨/١٩

^{١٩٠} - الرحلة إلى الحجاز في الأدب العربي الحديث ، د. أحمد محمد على حنطور ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ م ص ١٠

وقرت الناظر ، وخشعـت السـائـر ، وـتـزـاحـمـتـ الـخـواـطـرـ فـكـانـ الـغالـبـ منـهـ عـلـىـ الـفـكـرـ وـالـقـلـبـ ،ـ مـاـ يـثـيـرـ تـأـثـيرـ الـزـمـانـ وـالـمـكـانـ ،ـ وـزـيـ الإـحـرـامـ فـيـ النـفـسـ ،ـ فـأـمـاـ الـزـمـانـ فـهـوـ شـهـرـ ذـيـ الـحـجـةـ الـحـرـامـ ،ـ وـأـمـاـ الـمـكـانـ فـهـوـ الطـرـيقـ إـلـىـ بـيـتـ اللهـ الـحـرـامـ ،ـ وـأـمـاـ زـيـ الإـحـرـامـ فـهـوـ الـذـيـ كـانـ يـتـزـيـاـ بـهـ إـبـرـاهـيمـ خـالـيلـ اللهـ ،ـ وـإـسـمـاعـيلـ ذـبـيـحـ اللهـ ،ـ وـمـحـمـدـ خـاتـمـ رـسـلـ اللهـ ،ـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ رـسـلـ اللهـ الـكـرـامـ ،ـ وـكـلـ مـنـ حـجـ الـبـيـتـ أـوـ اـعـتـمـرـ مـنـ أـصـحـابـهـ وـأـتـبـاعـهـ هـدـاـةـ الـبـشـرـ ،ـ فـيـاـ لـهـاـ مـنـ ذـكـرـ لـذـيـ الـلـبـ ،ـ يـخـشـعـ لـهـاـ الـقـلـبـ ،ـ وـيـرـجـىـ بـهـ رـضـوـانـ الـرـبـ بـمـاـ تـثـمـرـهـ مـنـ قـوـةـ الـإـيمـانـ وـطـهـارـةـ الـوـجـدـانـ ،ـ وـخـلـوـصـ السـرـ وـالـإـعـلـانـ ،ـ وـلـوـ لـمـ يـقـتـرـنـ بـهـ ذـكـرـ لـسـانـ وـلـاـ عـمـلـ أـرـكـانـ ،ـ فـكـيـفـ إـذـاـ صـحـبـهاـ تـكـرـارـ التـلـبـيـةـ ،ـ الـتـيـ تـزـيدـ حـرـارـتـهاـ تـذـكـيـةـ وـإـخـلـاصـهـاـ تـرـكـيـةـ ،ـ لـبـيـكـ اللـهـمـ لـبـيـكـ لـبـيـكـ لـبـيـكـ لـكـ لـبـيـكـ ،ـ إـنـ الـحـمـدـ وـالـنـعـمـةـ لـكـ وـالـمـلـكـ لـكـ ،ـ تـأـمـلـتـ فـيـ نـفـسـيـ فـيـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ الـلـيـلـاءـ ،ـ وـالـطـرـيقـ الـجـرـاءـ ،ـ فـرـأـيـتـيـ حـاسـرـاـ حـافـيـاـ ،ـ فـيـ إـزارـ وـرـدـاءـ ،ـ غـيـرـ مـبـالـ بـمـاـ يـكـونـ مـنـ تـأـثـيرـ الـهـوـاءـ ،ـ وـهـيـ حـالـ لـمـ أـعـهـدـهـاـ فـيـ سـالـفـ الـأـيـامـ إـلـاـ بـيـنـ جـدـرـ الـحـمـامـ .ـ^{١٩١}

الرحلة الهندية

رـحـلـ السـيـدـ رـشـيدـ رـضاـ إـلـىـ الـهـنـدـ فـيـ عـامـ ١٩١٢ـ مـ بـدـعـوـةـ مـنـ جـمـعـيـةـ الـعـلـمـاءـ بـلـكـنـؤـ ،ـ لـحـضـورـ مـؤـتـمـرـهـ السـنـوـيـ كـضـيـفـ شـرـفـ ،ـ فـكـانـ هـذـهـ الـدـعـوـةـ فـرـصـةـ أـخـرىـ لـلـتـعـرـفـ عـلـىـ الـبـلـادـ إـلـاسـلـامـيـةـ ،ـ وـمـعـرـفـةـ أـحـوـالـهـاـ وـرـجـالـهـاـ عـنـ كـثـبـ .ـ

وـصـفـ رـشـيدـ رـحـلـتـهـ إـلـىـ الـهـنـدـ وـالـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ الـشـرـقـيـةـ بـأـنـهـ جـدـيـرـ بـتـأـلـيـفـ كـتـابـ فـيـهـ ،ـ لـمـ حـوـتـهـ مـنـ الـفـوـائـدـ الـجـلـيلـةـ ،ـ بـلـ عـزـمـ عـلـىـ ذـلـكـ ،ـ غـيـرـ أـنـهـ لـمـ يـتـمـكـنـ مـنـهـ وـلـمـ يـكـتـبـ عـنـ تـلـكـ الـرـحـلـةـ الـتـيـ شـمـلـتـ الـهـنـدـ وـمـسـقـطـ وـالـبـصـرـةـ وـالـكـوـيـتـ ،ـ وـلـقـيـ فـيـهـاـ مـنـ التـرـحـيبـ وـالـتـوـقـيـرـ مـنـ وـجـهـاءـ وـعـلـمـاءـ الـهـنـدـ وـأـمـرـاءـ مـسـقـطـ وـالـكـوـيـتـ ،ـ مـاـ جـعـلـهـ يـخـصـصـ حـلـقـتـيـنـ فـيـ شـكـرـ هـوـلـاءـ الـقـومـ ،ـ وـأـمـاـ عـنـ مـشـاهـدـ الـرـحـلـةـ نـفـسـهـاـ فـلـمـ يـزـدـ فـيـهـاـ عـلـىـ حـلـقـتـيـنـ ،ـ وـرـبـماـ أـرـجـأـ أـكـثـرـ حـدـيـثـهـاـ إـلـىـ حـيـنـ إـصـدـارـ الـكـتـابـ الـذـيـ وـعـدـ بـهـ قـرـاءـ مـجـلـةـ الـمنـارـ ،ـ وـالـذـيـ لـمـ يـرـ النـورـ عـلـىـ مـاـ يـبـدـوـ .ـ

من أولى العبر التي استقادها رشيد في رحلته إلى الهند ما شاهده وهو في السفينة من اهتمام الإنجلiz بالرياضة البدنية التي لم يغفلوا عنها أو يساموا من ممارستها أثناء السفر ، وهذا ما أثار إعجاب رشيد أذ يقول: "لا يرى المسافر في سفينة إنجلizية عبرة تهديها عيناه إلى فكره أعظم من انهماك الإنجلiz في الرياضة البدنية في عامة أوقاتهم ، فإذا هو زار الهند بعد ذلك ، ورأى فيها حكامهم وعسكرهم يعيشون في ذلك الحر المحرق بلا ضرر ولا ضجر ولا سأم ، يعلم من أسرار تلك الرياضة البدنية ومنافعها ما لم يكن يعلم ، ويرى كيف وصل العقل البشري إلى الجمع بين الترف والنعيم والباس والقوة ، وكان هذا في العصور السابقة مجهولاً" ^{١٩٢}

لما وصل إلى الهند وصف عوائدهم في اللباس والطعام ، كما وصف أصناف المجتمع الهندي وطبقاته ، وحال التعليم والعمaran في البلد ، فكان مما قال: "إن أزياء أهل الهند أول ما يشغل نظر السائح فيها وبيثير ، يرى في بمبى - وهي زينة بلاد الهند في حضارتها وعمرانها - ألوفاً من النساء مكشوفات البطنون والسوق والأفخاذ ، ويرى الرجال حتى الأغنياء منهم مشدودي الأوساط بأزر بيضاء ، مرفوعات الأطراف بين الرجلين ، بحيث يرى باطن الفخذ والساقي ، ويرى كثيراً من الرجال والولدان عراة الأجسام ، لا يسترون منها إلا السواعتين فقط وهم يبيعون في الأسواق" ^{١٩٣} وذكر من عادات الهند في الأكل أن الوثنين منهم يأكلون على ورق الشجر ، ولا يؤكلون أحداً سواهم ، وليس هذا لأنهم أكثر طبقات الهند تخلفاً ، وإنما لأن هذه من عاداتهم المتصلة التي يضنون على التفريط فيها ، وأما من حيث الرقي فهم "أرقى أهل الهند حضارة ومدنية وعلماً وثروة ، والسبب في ذلك أن الإنجلiz عنوا بتزييتهم وتعليمهم ما لم يعنوا بغيرهم ، ل حاجتهم إلى الاستعانة بهم على بعض الأعمال الوطنية ، وعدم خوفهم من عاقبة ارتقائهم لأنهم قليلو العدد" ^{١٩٤} ومن عادات أهل الهند العجيبة "في الدعوات والآداب أن يضعوا في عنق الضيف قلادة من أنواع الزهر الذي يوجد في البلد ، ويعطوه بيده باقة منها مؤلفة تأليفاً حسناً ، وهي التي يسميها المصريون الصحبة ، فإن لم يوجد زهر يجعلون في عنقه قلادة من الزهر

^{١٩٢} المنار : ٤٤٩/٦/١٥

^{١٩٣} السابق : ٤٥١/٦/١٥

^{١٩٤} السابق : ٤٥٢/٦/١٥

الصناعي أو ما يشبه الزهر ، ولا يستثنى من هذه العادة عالم ولا حاكم ولا شيخ كبير السن^{١٩٥} وأما من حيث التقدم العمراني والتطور الصناعي فلا تفوق الهند فيما أمة من أمم الشرق إلا اليابان^{١٩٦} وما أعجب به رشيد من حال أهل الهند قلة تأثرهم بالاستعمار والأجانب عموما فيما يستعملونه من الملبوسات وما عون النبي^{١٩٧}

الرحلة الأوروبية

زار السيد رشيد رضا عدة بلدان أوربية في رحلة واحدة ، كان هدفها خدمة الوطن السوري ، بالمشاركة في مؤتمر وطني كان هو من الداعين إليه ، لتقديم مطالب السوريين بالاستقلال الكامل من الانتداب الفرنسي إلى عصبة الأمم ، التي كان مقرها في جنيف ، فسافر عن طريق البحر من الإسكندرية ، وشق إيطاليا في طريقه إلى جنيف عاصمة سويسرا ، حيث كان قصده ، ثم بعد انتهاء المؤتمر واصل رحلته إلى ألمانيا.

وصف رشيد رضا مشاهد الطبيعة في البلاد الأوربية التي زارها ، بما يدل على إعجابه الشديد بجمالها المنقطع النظير ، الذي يتجلّى في كل مظاهرها من جبال ووهاد وير وبحر وBADIE وحاضرة ، فأطلق العنوان لقلمه ليمعن في تصوير ما نقطته ذاكرته ، واستوعبه ناظره ، من سحرها الفائق ، وجمالها الأخاذ ، فلما استوى على قطار أوريا الدولي من مدينة تريسته الإيطالية ، وانطلق به إلى سويسرا ، بدت له مشاهد الطبيعة الخلابة ، فطفق في تصويرها بقلمه البارع : "سار بنا القطار في خيف شجير من ذلك الجبل النضير ، فكانت شجراؤه عن يميننا في الجبل ، وعن يسارنا فوق البحر ، وما زال يتسلق بنا ، متلويا كالأرقام في الأجم ، حتى استوى على تلك السهول الفيحة ، والسهوب الشجراء ، ذات المروح الخضراء ، والرياض الغناء ، الكثيرة النوار ، والمفتحة الأزهار ، حتى كأن الزمان قد استدار ، فتحول الشطر الثاني من آب إلى مثله من نيسان وأوائل أيار... وأجمل مناظر هذه البلاد - على الإطلاق - البحيرات ، فقد مررنا ببعضها عن بعد ، وببعضها من كثب ،

١٩٥ المنار · ١٥/٦/٤٥٦

١٩٦ - المسابقة ٤٥٥/٦/١٥

١٩٧ - السارق - ٤٥٦/٦/١٥

ولم ^{١٩٨} أنس لا أنسى أصيل ذلك اليوم ، إذ بلغنا بحيرة ماجورا (ميغارو) فراغني ذلك المنظر البهيج ، الذي لم أر له فيما سبق من عمري من شبيهه ولا نظير ، وإنما رأيت نظيره بعد ذلك في سويسرا فأقول : إن مثل هذه البحيرة وبحيرة "لوسرن" التي بين الجبال هو أجمل ما خلقه الله في هذه الأرض ، البحيرة واسعة ، بين جبال شاهقة ، مزданة بالجذان الألف والأجم الغبياء ^{١٩٩} من أدنى الغور المساوي للماء ، إلى الشماريخ التي تناطح السماء وترى فيما يدنو من هذه الجذان المعروشات منها وغير المعروشات أصناف الأعناب وأنواع الثمرات ، وهي ذات تعاريف كثيرة ، وفيها جزائر صغيرة بنيت فيها قصور نضيرة يصلون إليها بزورق جميلة ، ومباهها زرقاء صافية ، وهي تتسع في مكان وتضيق في آخر ، وأخياف ^{٢٠٠} الجبال المحيطة بها تمتد على بعض الضفاف وتتقلص عن بعض ، ولبعضها ألسنة مستطيلة فيها ، ورؤوس مقنعة في بعض نواحيها ، والقطار يسايرها في جوانبها ويلتف على معاطفها فيدنو ويبعد ، ويغير وينجد ، ويصوب ويصعد ، ونحن فيه متلئون الرؤوس شاخصو الأ بصار ، نقلب الطرف ذات اليمين ذات اليسار ، فمنظر البحيرة العجيب عن أيمانا ، ومنظر الجبال الغريب عن شمائنا ، وفي كل منهما آيات للناظرين ، ومعان للمتفكرين تثير في الخيال هواجس الشعر ، وتنفتح في الوهم رقى السحر ، وتلقي في العقول معاني الفنون ، وتوحي إلى القلوب حقائق الإيمان بمن يقول للشيء كن فيكون ^{٢٠١} لم يقل رشيد شعرا استجابة لتلك الطبيعة الخلابة التي ملأت نفسه إعجابا وخياه إحساسا ولكنها ذكرته بأمرین :

أحدهما: أبيات من مصوريته في وصف روضة في بلده استقلها بجانب شموخ وعظمة ما رأه في أوريا.

والأمر الثاني: سر تهافت الأغنياء في البلاد العربية على الديار الأوروبية وتعلقهم الشديد بها وهرعهم إليها كلما تغيرت الأجواء في بلادهم ، وإن كان لامهم فيما علم

^{١٩٨} - هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : " وإن أنس "

^{١٩٩} - شجرة غبياء : مُلْفَةٌ وَغُصْنٌ أَغْنَى . (القاموس المحيط : ١٦٩٧/١)

^{٢٠٠} - الخيفُ ما انحدر عن غلظ الجبل وارتقاء عن مسيل الماء (مختار الصحاح (١٩٦/١)

^{٢٠١} - المنار: ٤/٢٣ - ٣٠٦/٣٠٧

من إسرافهم الشديد وتبذيرهم الفطيع لثروات البلاد في ملذات وملاه لا تعود عليهم ولا
على بلادهم إلا بالخسران والبوار.^{٢٠٢}

المطلب الرابع : ترجمة الأدبية

ترجمة الغيرية

تناول السيد رشيد رضا كثيرا من الشخصيات الكبيرة المؤثرة بالترجمة والدراسة بعضهم كانوا معاصرين له ، قضوا نحبهم في حياته ، فترجم لهم وبعضهم شخصيات تاريخية استثارت إعجابه ، فأحب إحياء ذكراهم للاعتبار بسيرتهم والاستهان من عقرياتهم ، فمن الصنف الأول من كانوا زعماء وقادة سياسيين منهم الملك فيصل بن الحسين ؛ ملك سوريا ثم العراق ، وأحد ألمع قادة العرب في فترة الانتداب الاستعماري للبلاد العربية ، ترجم له رشيد رضا في مجلة المنار في عشرة حلقات ، أربت صفحاتها على خمسين صفحة ، يدور معظمها حول تجربة فيصل السياسية في سوريا برأه فيها من الخيانة والانتهازية ولم يبرئه من الخطأ وسوء التدبير ^{٢٠٣} ومنهم الزعيمان مصطفى رياض باشا ^{٢٠٤} وسعد زغلول ^{٢٠٥} المصريان ومن هذا الصنف من كانوا علماء أو أدباء ومفكرين كالشيخ محمد كامل الرافاعي السوري ^{٢٠٦} والشيخ علي يوسف الأديب الصحفي المشهور ^{٢٠٧} والأديبة باحثة البادية ^{٢٠٨} وفي كل هؤلاء كتب حلقات في ترجمتهم تتقاوت في الطول والقصر . وأما الصنف الثاني فمنهم الإمام الشافعي والإمام الغزالى الذي أطّال ترجمته حتى بلغت أربعا وتسعين صفحة في ثمانى حلقات ، ونقف بالعرض والدراسة عند ترجمتين تميزتا بالطول والأهمية ، إحداهما ترجمته لشيخه وأستاذه الإمام محمد عبده في كتابه تاريخ الأستاذ الإمام ، والثانية ترجمته الذاتية في كتابه المنار والأزهر .

تلمذ رشيد رضا على مدرسة العروة الوثقى قبل أن يعرف شخص صاحبيها ، فأعجب بها غاية الإعجاب وهام بحب محرريها ، وعزم على أن يلتحق بهما ويستمد من روحهما الإصلاحية ، فمات أولهما قبل أن ينعم برؤيته ، فأسرع بالهجرة إلى مصر لمقابلة الثاني وهو الشيخ محمد عبده ^{٢٠٩} فوجد عنده بغيته فكان معه ثمانى

^{٢٠٣} - المنار : ٣١٧/٤/٣٤

^{٢٠٤} - السابق : ٤٧٤/٦/٣٤

^{٢٠٥} - السابق : ٥٨٤/٨/٢٨

^{٢٠٦} - السابق : ١٥٣/٣/٢١

^{٢٠٧} - السابق : ٨٧٣/١١/١٦ - ٢٣٩/٣/١٧

^{٢٠٨} - السابق : ١٠٥/٢/٢١

^{٢٠٩} - تاريخ الأستاذ : ٩٨٨/١

سنين يغرس من علمه وينهل من حكمته ويتربى عليه في طريق الإصلاح الديني والمدني ، وينشر أفكاره في مجلة المنار التي أنشأها في مصر باستشارته ، فلما مات الأستاذ الإمام في عام ١٩٠٥م انهم منه ركين كان يستند إليه في كل أموره ^{٢١٠} ولم يكن الوحيد في الitem بل شاركه فيه تلميذ الإمام الكثرين من الحزبين المدني والديني ، ومن ورائهم خلق عظيم من امتد إليه تأثير الإمام ، فشرع فورا في كتابة ترجمته لتكون منارا يهتدى به ، بدأها بمقالات كان ينشرها في مجلة المنار ^{٢١١} ثم طلب منه بعض كبار تلاميذ الإمام أن يكتب تاريخ الإمام بتفويض منهم ، وأن يشركهم في الأمر ولا ينفرد به وأن يتحملوا معه نفقات الطبع والنشر ^{٢١٢} غير أن ظروف مصر السياسية حالت دون إنجاز التاريخ على الوجه المرجو ، فاكتفى بإصدار الجزء الثاني والثالث من هذا التاريخ ، أما الثاني فيتضمن إنتاج الإمام من مقالاته الاجتماعية والأدبية ، ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والأدبية للعلماء والأدباء ، وأما الجزء الثالث ففي التأبين والتعازي والمراثي التي قيلت فيه إثر وفاته ، ولم يصدر الجزء الأول الذي يتضمن التاريخ الحقيقي لأستاذ ، ويصور ما خاصه من الصراعات المديدة وما تعرض له من المحن الأليمة ، وما جرى بينه وبين السلطات الثلاث: سلطة الوزارة والسلطة الملكية وسلطة الاحتلال ، وما قاساه من معاناة في إصلاح المؤسسات التعليمية وعلى رأسها الأزهر والمؤسسات القضائية - لم يصدر هذا الجزء الذي اعتبره رضا جوهر ترجمته إلا بعد ربع قرن من صدور الجزء بين الثاني والثالث ، حيث أصبحت الفرصة سانحة والظروف مناسبة والحرية مضمونة ، وأمكن كتابة تاريخ نزيه لا يخضع لرقابة خارجة عن ضمير كاتبه ^{٢١٣} صور رضا في هذا التاريخ حياة أستاذه منذ ميلاده إلى مثواه الأخير ، فذكر أنه ولد في أسرة متواضعة لا يميزها نسب شريف ^{٢١٤} ولا يسندها ثراء وريث ولا وجاه وسلطان عريق أو وليد ، فكان في نشأته الأولى كأحد أبناء قريته " محله النصر" من مديرية البحيرة بمصر ، ولما بلغ مبلغ التعليم أرسله

^{٢١٠} - السابق : ٢/١

^{٢١١} - السابق : ٣/١

^{٢١٢} - السابق : ٢/١

^{٢١٣} - السابق : ٤٠٢/١

^{٢١٤} - تاريخ الأستاذ : ٩٧٥/١

والده بعد أن حفظ القرآن في القرية إلى المسجد الأحمدي بطنطا ، لتجويد القرآن الكريم وتلقى الدروس الدينية فيه على منهاج الأزهر الشريف ، ليلاحق بعد ذلك بالأزهر في القاهرة^{٢١٥} وكان آنذاك شابا غير أنه لم يستسغ طريقة التعليم في المسجد ، مما كره إليه العلم وجعله ينقطع عن الدرس ، ويعود قافلا إلى قريته عازما على الاشتغال في شيء آخر غير العلم ، وتزوج أثناء ذالك غير أن والده أصر على أن يعود إلى الاشتغال بطلب العلم ، ونزاولا على رغبة والده كر راجعا إلى المسجد الأحمدي ومدرسته ، وفي الطريق عرج على قرية فيها بعض أقاربه ، فقيض الله له فيها شيخا من صلحاء الصوفية يدعى الشيخ درويش ، فتلطف في استمانته وقرأ له شيئا من معارف الصوفية وطرفا من كلامهم في آداب النفس ، وترويضها على مكارم الأخلاق ، وتطهيرها من دنس الرذائل ، وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا^{٢١٦} فكان هذا الشيخ سببا في رجوعه إلى التعلم في المسجد الأحمدي ، ثم مواصلة التعليم في الأزهر الشريف ، حتى تخرج فيه ، ونال منه إجازة التدريس العالية^{٢١٧} وكان يتردد على الشيخ في فترات الإجازة ويستزيد منه التربية الروحية حتى انتقل الشيخ إلى رحمة الله^{٢١٨} ويدرك السيد رشيد رضا أن أستاذه محمد عبده لم يفارق نفوره وعدم إطمئنانه إلى كثير من الدروس التي كانت تلقى عليهم في الأزهر ولا إلى طريقة تدريسها ، وبعد أن قضى في الأزهر ثلاث سنوات فقط استوعب أهم الفنون التي كانت تدرس فيه ، ومل من التكرار والشرح التي لا نفع فيها^{٢١٩} وتأقت نفسه إلى العلوم العقلية والعصرية التي كان نصيبها في الأزهر قليلا ، وفي أثناء ذلك قدم إلى القاهرة السيد جمال الدين الأفغاني ، فنمى خبره إلى الشيخ محمد عبده فزاره على الفور مع بعض مشايخه ، فلاح له من كلامه وحديثه ما لم يتتبه إليه من كان معه ، فصحبه من لحظته وانقطع إلى الأخذ عنه " فسكت نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها وأقصى أمنيتها" ^{٢٢٠} وأهم ما أفاده

^{٢١٥} - السابق : ٢٠/١

^{٢١٦} - السابق : ٢٢/١

^{٢١٧} - السابق : ١٠٣/١

^{٢١٨} - السابق : ٢٤/١

^{٢١٩} - السابق : ٢٥/١

^{٢٢٠} - تاريخ الأستاذ : ٢٥/١

الأفغاني إضافة إلى العلم الغزير الذي لم ير مثيلا له عند غيره إخراجه من خمول أزهريته إلى ميدان الإصلاح السياسي والاجتماعي والتربوي ^{٢٢١} ويلخص رضا مراحل تعلم أستاذه فيقول: " فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الأزهر المعروفة ، من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتنون مع الشرح والحواشي والتقارير ، سلكها زمانا حتى ملها وتوجهت نفسه إلى علم أعلى وفهم أجيلى ، فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فانتسله من الإلحاد إلى أرض العبارات الركيكة والأساليب الضعيفة والاحتمالات البعيدة ، ورفعه إلى سماء عرفان الحقيقة والإفصاح عنها بالعبارة البليغة بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين وتعويده الحكم بالبيقين ، فهذا هو الدور الثاني ، وهو خاص كسابقه بالعلوم الإسلامية التي كتبت باللغة العربية مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الإفرنج. قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ، ثم تعلم الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الأيام ، وكانت عنایته بعلوم الأخلاق والنفس وأصول الاجتماع الإنساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنایته بسائر العلوم ، وقلما علم بكتاب لإفرنجي يتكلم فيه عن الإسلام إلا واستحضره وقرأه " ^{٢٢٢} ويفت رضا عند سلوك أستاذه في تلقي العلم ليستخرج منه العبر وليستدل به على تميزه بل عظمته وعقربيته فيقول : " هذا ما يقال في طلبه العلم ، وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسيرة العظام وتأريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيخوخ بما يقولون من غير أن يفهمه ، وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم اكتفائة بما ألقى عليه شيوخه في أكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس أستاذة آخرين ، وخاتمتها عدم الغرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف " أطلب العلم من المهد إلى اللحد " ^{٢٢٣}

^{٢٢١} - السابق : ٢٦/١

^{٢٢٢} - السابق : ١٠٤/١

^{٢٢٣} - تاريخ الأستاذ : ١٠٥/١

ويصل رشيد رضا بأستاذه في تحصيل العلوم الشرعية إلى مرتبة الاجتهد فيقول:^{٢٤} وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماما مجتها ، وإن كبرت هذه الكلمة على الدين سجلوا على أنفسهم الحرمان من فضل الله أن يؤتى المتأخرین من العلم والفهم ما آتاه المتقدمین"^{٢٥} وأما في علوم التصوف فكان فيها من الراسخین وبعبارة رشيد كان في التصوف "نكرة لا تعرف أي صاحب مقام لا تغلبه الأحوال "^{٢٦} وكما تدرج رضا في تصوير حياة أستاذه العلمية ، حتى أوقفنا في نهاية بحثه على ما يعتقد فيه من الإمامة في العلوم الشرعية والرسوخ في العلوم العصرية ، كذلك يرسم لنا أطوار حياته العلمية ، فيطالعنا الشيخ محمد عبده في هذه الترجمة في طوره الأول وهو شيخ أزهري لا كبقة الشيوخ ، يحتل ركنا في الجامع الأزهر يقرئ طلابه مباحث العلوم الكلامية على أساس جديد ، يعتمد على البراهين القطعية^{٢٧} ثم مدرسا لمادة التاريخ في دار العلوم يقرأ لطلابه مقدمة ابن خلدون ، ليصরهم بأدوات الأمم والحضارات ، وليمرنهم على تلمس الحلول للعلل الكثيرة التي تحاصر أمتهم الإسلامية^{٢٨} ثم تسند إليه مادة اللغة العربية في مدرسة الألسن الخديوية فيعود بطلابه إلى بلاغة العربية في عصور ازدهارها ، ويبلغ بما كان يريده في هذا الشأن عندما أسننت إليه إدارة المطبوعات والجريدة الرسمية ، فيتمكن من إصلاح أمر الكتابة في الإدارات الحكومية^{٢٩}

وتحدث الثورة العربية ويقف منها موقف المعارض الصريح ، لأنها في نظره تهدم ولا تبني ، ومع ذلك يصلى بنارها فيسجن وبيتلی ، وهذا ختام الطور الأول من حياة الأستاذ الإمام العلمية ، ويببدأ الطور الثاني بنفيه عن مصر إلى سوريا فيغادر منها إلى باريس ليلتئم شمله بأستاذه جمال الدين الأفغاني ، ويصدرأ مجلة العروة الوثقى التي ملأت الدنيا وشغلت الناس ، وأشعلت النار على المستعمرين في البلاد الإسلامية ، فلما أغلقت الجريدة عاد إلى بيروت ، وتفرغ للتدريس والتأليف والتربيه. درس في المدرسة السلطانية في بيروت ، وفي جامع الباشورة فيها ، الذي درس فيه

^{٢٤} - السابق : ١٠٣٢/١

^{٢٥} - السابق : ١٠٢/١

^{٢٦} - السابق : ١٣٥/١

^{٢٧} - السابق : ١٣٧/١

^{٢٨} - السابق : ١٣٧/١

التفسير على مثل منهاجه الأخير في الأزهر^{٢٢٩} وترجم رسالة جمال الدين الأفغاني التي رد بها على الدهربين ، كما شرح كتاب نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، وأما الطور الثالث من حياة الشيخ محمد عبده العملية ، فيبتدىء بعودته من المنفى ، ويتمكن بسرعة من نيل ثقة المالك ورئيس الوزارة ، وتغضي الطرف عنه سلطة الاحتلال ، ثم يسند إليه القضاء الشرعي ، ويترقى فيه حتى يصل إلى مستشار محكمة الاستئناف^{٢٣٠} ثم يعين مفتي الديار المصرية^{٢٣١} ويعني بإصلاح الأزهر الشريف ، ويبذل فيه ما لم يبذل في غيره من الجهد والنصح ، لأنه كان يرى في إصلاحه إصلاحاً للمؤسسة الدينية برمتها ، في مصر بل وفي العالم الإسلامي كله ، غير أنه اضطر إلى الاستقالة من مجلس إدارته بعد صراع ممير ، ويلخص السيد رشيد رضا ما وصل إليه الشيخ من جهده في هذا المجال المهم فيقول: " إن الإصلاح الذي كان ينشده الأستاذ الإمام في الأزهر قسمان: صوري ومعنوي فاما الصوري فهو (١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية و (٢) توسيع دائرة العلوم والمعارف و (٣) ترقية اللغة العربية. وأما المعنوي فهو (١) إصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و (٢) صحة القصد فيه بما يفضي إلى ارتقاء الأمة في دينها ودنياهـ و (٣) إصلاح الأخلاق بالصدق والإخلاص وعزـة النفس والسخاء والوفاء إلخ.. فاما الأول فقد شرحنا ما قاساهـ في وضع قوانينهـ وتنفيذـ نظمـهـ معـ أداءـ النـظامـ ، ولكنـ النـظامـ وجـدـ ولاـ يزالـ يصارـعـ ما تـرـيـ عـلـيـ الـقـوـمـ منـ الفـوضـىـ وـالـخـلـلـ فـيـ كـلـ شـيـءـ ، ولاـ بـدـ أـنـ يـنـتـهـيـ الـأـمـرـ بـاـنـتـصـارـهـ وـلـوـ بـعـدـ حـيـنـ . وأـمـاـ الثـانـيـ فـعـمـدـتـهـ فـيـهـ مـاـ كـانـ يـبـثـهـ هـوـ فـيـ دـرـوـسـهـ الـتـيـ تـفـيـضـ رـوـحـاـ مـحـيـاـ وـتـتـأـلـقـ نـورـاـ سـاطـعـاـ.. وـقـدـ قـالـ فـيـهـ مـاـ مـعـنـاهـ : إـنـيـ بـذـرـتـ فـيـ الـأـزـهـرـ بـذـرـاـ إـمـاـ أـنـ يـنـبـتـ وـيـؤـتـيـ أـكـلـهـ الـمـغـذـيـ لـلـعـقـلـ وـالـرـوـحـ فـيـحـيـاـ بـهـ الـأـزـهـرـ حـيـاـ جـدـيـدـةـ ، وـإـمـاـ أـنـ يـقـضـيـ اللـهـ عـلـيـ هـذـاـ مـكـانـ قـضـاءـهـ الـأـخـيـرـ ، وـقـدـ نـبـتـ ذـلـكـ الـزـرـعـ فـصـارـ زـرـعـاـ أـخـرـجـ شـطـأـهـ ، وـلـكـ قـلـ مـنـ يـتـعـاهـدـهـ بـالـسـقـيـ ، وـمـنـعـ الـحـشـرـاتـ

^{٢٢٩} - تاريخ الأستاذ: ٣٩٧/١

^{٢٣٠} - السابق: ٤٢٠/١

^{٢٣١} - السابق: ٦٠٣/١

الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله .^{٢٣٢} وأما ما دعا إليه الإمام من الإصلاح فكان ثلاثة أمور هي " تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريق السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .. أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواعين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجمًا من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس .."^{٢٣٣}

والأمر الثالث هو دعوة الأمة إلى التمييز بين ما للحكومة عليها من حق الطاعة وما لهم عليها من حق العدالة ، وما يلزمهم من مناصحة ومراقبة تصرفاتها ، وينقل رضا عن أستاذه الإمام محمد عبده تقييمه لمبادئه الإصلاحية هذه في أخriات حياته: " لا أبرح أدعوا إلى عقidi في الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة وقد قارب ، أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدرها ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه وتقوم على تتميته السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعني به الآن "^{٢٣٤}

وهكذا اتجه الشيخ محمد عبده في آخر حياته إلى التربية ، ونفض يده عن الإصلاح السياسي الذي كان يدعو إليه مع أستاذه جمال الدين الأفغاني في فترة نفيه وصحبته للأفغاني في باريس ، فلما سدت السبل أمامهم بإغلاق مجلة العروة الوثقى ، نصح أستاذه بأن يتوجه إلى التربية ، واقتصر عليه أن يختارا عشرين من طلاب المسلمين الأذكياء ويفيداهم ما عندهما من العلوم العقلية والنقلية ويبالغا في تربيتهم ، حتى يتخرجوا عليهما وهم مثلكما في العلم والفهم والتربية ، فإذا رأى كل من هؤلاء العشرين عشرة على مثل ذلك لتحصل مائتا عالم عامل ، وكان ذلك أرجى في إصلاح المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي ، غير أن أستاذه استصغر منه هذا التفكير^{٢٣٥} ولم تزل هذه الفكرة تراود الإمام محمد عبده وتعاوده ويحدث بها خاصته ، فلما استقال من عضوية إدارة الأزهر سعى إلى تأسيس مدرسة خاصة تغنيه عن

^{٢٣٢} - تاريخ الأستاذ : ٥٦٧/١

^{٢٣٣} - السابق : ١١/١

^{٢٣٤} - السابق : ١٢/١

^{٢٣٥} - تاريخ الأستاذ : ٥١٦ ، ١٣٠/١

الأزهر وتحقق رؤيته الإصلاحية في التربية والتعليم الإسلامي وقضى نحبه
٢٣٦ والمشروع حي في نفسه والسعى متصل له

وصور رشيد رضا ما اكتفى حياة الحكيم المصلح من المحن والأزمات ، وما خاضه من الصراعات والصدامات منذ بداية حياته العلمية التي لم ترق له مضموناً ومنهجاً ، وما جوبه به في أروقة الأزهر من التكير والجفاء عندما ظهرت بوادر استقلاليته الفكرية ، حتى رمي بالاعتزال واتهم في دينه ، وكاد أساندته يحرمونه من نيل الإجازة العلمية في التدريس ٢٣٧ وما ناله من أذى السجن والنفي في الثورة العربية التي عارضها بشدة ، ثم ما صادفه من المقاومة العنيفة عندما تصدى لصلاح الأزهر والأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية " ولم يزل يخوض غمرات الثورات وتقاذفه أمواج الأسفار وتكافحه فتن النساء المستبدن وجهالة حملة العمامات الجامدين " حتى لقي ربه ٢٣٨ وأما عن خلقه فيقول رشيد: " ولقد كملت للأستاذ الإمام أصول الفضائل الأربع (العفة والشجاعة والعدالة والحكمة وما نشأ عنها وتفرع " ٢٣٩ وكان له في مهابته ووقار مجلسه مع التواضع نصيب واخر من شمائل الرسول (ص) الذي يشير إليها الحديث (من نظر إليه بيده هابه ومن عاشره معرفة أحبه) ٢٤٠ وكان أليها الوفا ودوداً إلى الناس " يجتمع بحضرته علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقال الدروز ، وإلى جانبهم أساقفة النصارى وأحبارهم من كل فريق منهم ، وكانوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً ويجدون فيه مرجعاً عاماً) ٢٤١ ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سعة علمه فقط بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة ، من العلم المقرن بالطهارة ، ومن الذكاء المزدان بالعفة ومن الفصاحة المتجلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تماماً وكان عظيماً من كل جهة" ٢٤٢

ولا يزال رشيد يعلى من قدر أستاذته حتى ينتهي به الأمر إلى قوله : " أنبتت تربة مصر أليها كثيرة من العلماء والصلحاء والأدباء والقضاة والحكام ، ولكننا لا نعرف

٢٣٦ - السابق : ٩٤٧/١

٢٣٧ - السابق : ١٠٢/١

٢٣٨ - السابق : ١/١ ط

٢٣٩ - السابق : ٩٥٠/١

٢٤٠ - السابق : ٩٥١/١

٢٤١ - السابق : ٤٠٢/١

٢٤٢ - تاريخ الأستاذ : ٤٠٥/١

في تاريخها ذكرًا لرجل جمع من فضائل العلم والعمل والصلاح والإصلاح مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، في مواهبه الفطرية والكمالية وكمالاته الشخصية ، وفي صرف حياته العملية كلها إلى إصلاح بلاده ووطنه وترقية أمته وإعلاء شأن ملته" ^{٢٤٣} ومع هذا الإعجاب بالشيخ الذي بلغ ذروته ، فإنه لم يكن مبرأ من النواقص ولا ملكا مطهرا من العيوب في نظر مريده ومترجمه ، بل ذكر له من المؤاخذات ما يتصل بخلقه ودينه وعلمه وفكره ، أما ما يتصل بخلقه فهو أنه كان يتعاطى التدخين ثم تركه ^{٢٤٤} وأما ما يتصل بدينه فهو ما أخذ عليه من الجمع بين صلاتين في الحضر مخالفًا به المذاهب الأربعة ^{٢٤٥} وأما الذي يتصل بعلمه فهو قصر باعه في الحديث وعلومه ^{٢٤٦} وأما ما يعد مأخذًا عليه في فكره و سياسته فمنه اصطدامه بالخديوي في قضية جزئية تتعلق بالأوقاف ، مما كان سببا في غضب الخديوي عليه وحرمانه من دعمه في إصلاح الأزهر ، وكان الأولى رعاية المصلحة العامة وارتكاب أخف الضررين ^{٢٤٧} غير أن هذه المؤاخذات لا تناول من عقريته الفذة ، ولا من إمامته العامة التي تجلت في فقده " فقد بكاه السنى السلفي وغير السلفي ، وحزن عليه الشيعي والإباضي ، ورثاه اليهودي والنصراني ، وأبنه الشرقي والغربي ، واستوى في التعزية عنه القريب بالأجنبى" ^{٢٤٨} حوى كل ذلك الجزء الثالث من هذه الترجمة ، وهو فيض من غيض ضاق عنه الكتاب ^{٢٤٩} على أن الأستاذ الإمام لا يزال موجودا بوجود علمه مدونا ، ورأيه في التجديد مبينا ، ووجود تلاميذه في الأزهر وغيره ، أضعاف ما كان له في عهد حياته الجسدية". ^{٢٥٠}

^{٢٤٣} - السابق : ١٠٦٥/١

^{٢٤٤} - السابق : ٩٦٧/١

^{٢٤٥} - السابق : ١٠٤٣/١

^{٢٤٦} - السابق : ٣٣-١/١

^{٢٤٧} - السابق : ٥٧٢/١

^{٢٤٨} - السابق : ٣/٣

^{٢٤٩} - السابق : ٧/٣

^{٢٥٠} - تاريخ الأستاذ : ٩٨٣/١

ترجمته الذاتية

ترجم سيد رشيد رضا لنفسه في كتابه المنار والأزهر ، بما يمكن أن يسلك به في الترجم الأدبية في حجمه وأسلوبه ، وأهميته في الاعتبار بسيرة رجل يعد بحق من رواد الحركة العلمية والفكرية المعاصرة ، ومن بناء النهضة الحديثة في العالم العربي والإسلامي ، ومع أن الترجمة الذاتية لا تقل أهمية عن الترجمة الغيرية في بواطنها وفوائدها ، فإن السيد رشيد رضا أوضح مقاصده من ترجمته لنفسه ، ربما دفعا لما قد ينهم به من حب الظهور والشهرة ، فذكر أن ترجمته من مادة تاريخ الإصلاح الإسلامي في هذا العصر ، لكونه جزءا من رجاله ، وأن المؤرخين قد لا يجدون ما يسعفهم من تاريخه في القلمون وطربالس ، لانقراض المعاصرين له ولكونه غير مدون ^{٢٥١} ولهذا لم يتسع في تاريخه بمصر ، بل اكتفى منه بالإشارة إلى مظانه ، لأنه مشهور بين تلاميذه وأصحابه ، ومدون في مجلة المنار وغيرها ^{٢٥٢} ومما عزز شعور السيد رشيد رضا بتدوين ترجمته ما ذكره من أن جمعية علمية في شيكاغو طلبت منه مرارا أن يكتب لها ترجمته ، غير أن الأهم في نظره من هذا التاريخ هو ما ذكره بقوله " إنني أذكر قارئ هذه الخلاصة من طلاب العلوم الدينية والمياليين إلى الإصلاح الإسلامي بمسائل مجلمة ، عسى أن ينتفع بها المستعد لها ، ولهذا أقتصر على الكسيبي منها دون الوراثي والوهبي .. وهذا ما أريد الاعتبار به مما ذكرته في هذه الترجمة ، تحدثا بالنعمة وتذكيرا بمواضع العبرة .." ^{٢٥٣} ثم ذكر جملة مسائل اعتبرها أهم الفوائد وال عبر ومنها :

١-أن طول المكت في المدارس ضار لأنه يضعف ملامة الحكم ، ويصرف هم الطالب إلى حفظ الحواشى والتقارير ، وكان هذا رأى أستاذه الإمام محمد عبده أيضا ^{٢٥٤} ونقل مثله عن بعض علماء التربية من الإفرنج ^{٢٥٥} وفي هذا ما يشير إلى أن كلاما من رشيد رضا وأستاذه محمد عبده قد سلما من هذه الآفة إذ كان مكتهما في مقاعد الدراسة محدودا.

^{٢٥١}- المنار والأزهر: ١٩٤

^{٢٥٢}- السابق: ١٩٤

^{٢٥٣}- السابق ١٩٤

^{٢٥٤}- المنار والأزهر: ١٩٦

^{٢٥٥}- تاريخ الأستاذ: ٢٦١

٢- النية وصحة القصد وتوجه الإرادة سبب لتحصيل العلم الصحيح النافع و"العلم الصحيح ما كان صفة للنفس ، والعلم النافع ما كان باعثاً على العمل الصالح ، والعمل الصالح ما صلحت به نفس العامل".^{٢٥٦}

٣- الاستقلال وترك التقليد في طلب العلم مهم في تحصيل العلم ، ويبدأ بالاستقلال في الفهم والاستقلال في الاقتناع بالمفهوم ، وهذا أدنى مراتب الاستقلال و "ما يسمى بالاجتهاد في جميع أبواب الفقه هو مرتبة عالية من مراتب العلم الاستقلالي بالأحكام الشرعية ، سواء أريد به الاجتهاد المطلق أو الاجتهاد في مذهب واحد".^{٢٥٧}

وحذر طلاب العلم من التسليم بما شاع في عصور الانحطاط والجمود من أن باب الاجتهاد قد أغلق ، وما على الخلف إلا اتباع السلف دون نظر أو بحث فقال: "فلا تقلد من قالوا إن بعض العلوم قد أحاط به العلماء الأولون علما ، فليس على من بعدهم إلا أن يقلدهم في كل ما دونوه فيه بغير بحث ولا محاولة تمحيق ولا تحقيق ، إنما الإحاطة بالعلم من صفات الله الخالصة به ، وقد أمر رسوله خاتم النبيين بطلب مزيد من العلم بقوله (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)"^{٢٥٨}

ويضيف الأمير شكيب أرسلان سبباً آخر في إقدام السيد رشيد رضا على تسجيل سيرته الذاتية ، وهو أنه كان كثير الخصوم جم الأعداء ، بحيث لم يوجد في عصره " عالم تعرض للمهاجمات واستهدف لسهام الواقعة ما استهدف له الشيخ رشيد في أيامه.. فلا عجب أن اضطر إلى الدفاع عن نفسه بما يشبه أن يكون تمدحا ، وهو لم يقصد في ذلك إلا تبديد الشبهات التي أثارها أعداؤه في حقه "^{٢٥٩} ورداً لما وجهوا إليه من التهم في نسبه ودينه وعلمه وخلقه و سياساته ، فاقتضى منه ذلك أن يبسط في هذا الكتاب ترجمته

^{٢٥٦} - المinar والأزهر: ١٩٨

^{٢٥٧} - السابق: ١٩٨

^{٢٥٨} - سورة طه: ١١٤

^{٢٥٩} - السيد رشيد رضا: ٢٣

بأسلوب يميل إلى التفصيل والاستقصاء والإحالات الكثيرة إلى شهادات الأحياء من أصحابه ومعارفه ومخالطيه.

سرد رشيد رضا حياته ، بادئاً بمحل ولادته قرية "القلمون" بضاحية مدينة طرابلس الشام وساكنيها من السادة الأشراف المتواتري النسب ^{٢٦٠} وذكر ما يمتاز به أهل بيته من العلم والإرشاد والرئاسة الدينية ، وما كان له من الحظوة لدى الدولة التركية ^{٢٦١} وأن رئاسة الأسرة انتهت إلى والده وورثها هو عنه ^{٢٦٢} وكان رشيد كما ذكرنا سابقاً شاعراً بمنزلة بيته ، شديد الاعتزاز بها يقول في تصوير ذلك "وكان بيتنا وما زال بفضل الله تعالى بيت كرم وضيافة ، كما كتب على لوح من الرخام الذي على الباب الكبير للدار التي بناها جدي الثاني ، يقبل الضيوف من جميع الملل ، ويؤوي أبناء السبيل من جميع الأقطار ، وعهدي بأكبر علماء طرابلس وحكامها ووجهائها يغشون دارنا في أيام الصيف ، ويقيمون فيها أياماً للتمتع بهؤلئها اللطيف ، ومياه ينابيعها النقية ، وأصناف الطعام الفاخر عندنا". ^{٢٦٣}

ثم تحدث عن نفسه وعن استعداده الشخصي ، فذكر أنه كان قليل الميل إلى اللعب واللهو كعادة الصبيان والشباب ^{٢٦٤} وأنه كان يوصف بالذكاء النادر كما صور لنا رشيد تدرجه في التعلم حيث تلقى مبادئ القراءة والكتابة في مكتب القرية ، ثم درس في المدرسة الرشدية الحكومية نحو سنة وتركها لأنها كانت تتخذ التركية لغة للتدريس ، فتحول إلى مدرسة أهلية أسسها أحد علماء طرابلس المشهورين ^{٢٦٥} غير أنها لم تستمر طويلاً فكان هذا آخر عهد رشيد بالتعليم النظامي ، وتفرغ بعد ذلك للأخذ عن العلماء والمشايخ في المساجد وفي الحلقات العلمية ، ومنمن أخذ عنهم وتخرج على أيديهم الشيخ محمود نشابة والشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ محمد القاوقجي والشيخ

^{٢٦٠} - المنار والأزهر: ١٣٣
^{٢٦١} - السابق: ١٣٣
^{٢٦٢} - السابق: ١٣٣
^{٢٦٣} - السابق: ١٣٤
^{٢٦٤} - السابق: ١٣٣
^{٢٦٥} - المنار والأزهر: ١٣٩

حسين الجسر ^{٢٦٦} وأشار إلى أنه كان في مبدأ حياته العلمية يميل إلى مطالعة الكتب الأدبية وكتب التصوف ، وأنه أعجب من بين كتب التصوف كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ، وأطال رشيد رضا في الحديث عن أثر هذا الكتاب في حياته السلوكية والفكرية ، ومضى رشيد في طريق التصوف شاؤا بعيدا وأوغلا فيه إigaala شديدا وكاد ينقطع إليه ويصطفع بصبغة مرديه ثم أقطابه لولا أن تداركه علم الحديث الذي برع به وأنقذ تحصيله ^{٢٦٧} وذلك قبل اطلاعه على فكر ابن تيمية الذي اتهم بالتصور عنه وقبل الاتصال بالحركة الوهابية في نجد والجاز ^{٢٦٨} فاعدل في تصوفه ولم يعاد قط إلا الخرافات والشعوذات التي لا تمت بصلة إلى التصوف الحقيقي ، والدليل على موقفه المعتدل من التصوف المقيد بالشرع شرحه المسهب لحقائق التصوف وثمراته وما يعرض للسلوك من الأذواق الخاصة والأمور الروحانية العجيبة والمكاشفات المتنوعة ، تحدث عن كل ذلك حديث المجرب العارف بصححه عن سقimه ، وزاد على ذلك حكايته عن نفسه كثيرا من المكاشفات والرؤى الصالحة والرقى الشافية والدعاء المستجاب ، وانتقام الله له ولأهلها في الدنيا من كل من نال منهم بأذى وغير ذلك مما اعتبره بعض الباحثين تزيدا وتمدحا لا يليق بمقام الشيخ ^{٢٦٩} وكان من أثر اهتمامه بالأدب ، وميله إلى مطالعة كتبه منذ الصغر وحفظه لكثير من الأشعار الجيدة ، أن ظهرت موهبته الشعرية مبكرا فقال الشعر واسתר به وهو بعد طالب في المراحل التعليمية الأولى. ^{٢٧٠}

لم يزل رشيد يتكامل في علمه وأدبه ويزداد خبرة في الدعوة والإصلاح والتوجيه الديني حتى شعر بأن بلده يضيق عن تلبية طموحاته ، وأن السلطة السياسية التي تحكمه لا تمكنه من ممارسة الإصلاح الذي يريده ، ومن هنا جاءته فكرة الهجرة إلى مصر كما يوضحه بقوله: " تلك خلاصة ترجمتي وما

^{٢٦٦} - السابق: ١٤١

^{٢٦٧} - السابق: ١٤٠

^{٢٦٨} - السابق: ١٧٩

^{٢٦٩} - رشيد رضا صاحب المنار : ١٢٩

^{٢٧٠} - السيد رشيد رضا : ١٠٧

انتهيت إليه في وطني من تربية صوفية وتعليم استقلالي وأثار قلمية وشهرة علمية وأدبية ، أشعرتني بأنني مستعد لاستزادة من العلم والاختبار لا أجدهما في وطني ، وأنني قادر على خدمة ديني وأمتى بما لا تبيحه سياسة الحكومة في بلادي ، فعزمت على الاتصال بالسيد جمال الدين لتكمل نفسي بالحكمة والجهاد في خدمة الملة.. فلما توفاه الله تعالى واشتهر أن السياسة الحميدية هي التي قبضت عليه ، ضاقت علي المملكة العثمانية بما رحبت وعزمت على الهجرة إلى مصر ، لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم ، ومن مناهل العلم العذبة الموارد ، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر ، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الإصلاح ، التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين ، وأن أعمل معه وبإرشاده في هذا الجو الحر.

٢٧١

المبحث الثالث : نقد السيد رشيد رضا

المطلب الأول : اتجاهه النقدي

عاش السيد محمد رشيد رضا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، وهي الفترة التي كانت اللغة العربية تشهد حالة مخاض تفصل بين عصر انحطاط وركود طال أمده ، وعصر إحياء وتجديد وبعث تستعيد فيه اللغة العربية عافيتها ، وتسترد قدرتها وحيويتها ، لتكون وعاء النهضة الجديدة للأمة العربية. نلقى رشيد رضا علومه على الطريقة القديمة ، فلازم العلماء والشيوخ في المساجد وفي الحلقات العلمية الخاصة ، يقرأ عليهم الكتب وشروحها وحواشيها فناً بعد آخر حتى برع في العلوم العقلية والنقلية ، ونال من أسانته أعلى الإجازات في تلك الفنون وساند هذا الرصيد العلمي ما كسبه رشيد من المعرف من توفره على مطالعة ومدارسة كتب التراث منذ صباه في مكتبة الأسرة العتيقة ، فكان بهذه الثقافة مهياً ليكون شيخاً تقليدياً من أولئك الجامدين على القديم ، المتشبثين بما ورثوه وألفوه دون تمييز أو تمحيق ، الرافضين لكل جديد أياً كان نوعه ، الذين أطاحوا رشيد - فيما بعد - في مناقشتهم وردهم ، والكشف عن سلبياتهم وجنائتهم على التراث الذي ظنوا أنهم يدافعون عنه ، غير أن رشيداً سلك طريقاً آخر غير ما كان متوقعاً بحكم تكوينه الثقافي لعوامل ثلاثة:

أولاًها: ما أتيح له من توجيهات شيخه حسين الجسر الذي كان له بصر بعلوم العصر ، وعناية بمطالعة المجالات والجرائد ، فوجه رشيداً إلى الاستفادة من المعرف الحديثة والعمل بمقتضى معطيات العصر ، وكان ينفعه بما لديه من تلك الجرائد والمجالات ، ومنها مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها من باريس السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، فكانت هذه النافذة الأولى التي أطلّ منها رشيد رضا على الثقافة العصرية.

والعامل الثاني الذي أسهم في تحرير رشيد من رقة التقليد: هو اشتغاله بعلم الحديث وتضلعه منه ، فنمى فيه حسّ النقد ، وارتفع به عن كثير من الأوهام الفكرية والثقافية

التي كانت سائدة آنذاك ، وكانت خير معين له على دراسة الواقع الجديد بروح علمية تتشد الحق وتطلب العلم الصحيح.

وأما العامل الثالث: فهو ما فطر عليه رشيد من حب الاستقلال وكراهية التقليد والتسليم منذ نشأته العلمية الأولى ، حتى اشتهر بين أساندته في الابتدائية بأنه سؤول كثير المناقشة فيما يلقى على الطالب من الدروس ، وكان هذا سبباً فيما حصل بينه وبين شيخه حسين الجسر من الجفاء.

هذه العوامل الثلاثة تضافرت على صياغة شخصية السيد محمد رشيد رضا الفريدة ، فأخرجت منه عالماً يعتز بالتراث ، ويحب الإصلاح ، ويعنى بالمعارف العصرية وهي التي لوتت أو صبغت فكره النقي الذي سنوجز معالمه فيما يلي:

١-وعيه بما أصاب اللغة العربية من الجمود: بما أن السيد رشيد رضا عاش في عصر اليقظة فلا يستكثر عليه في التبيه على ما آلت إليه العربية من جمود في العصور الوسطى ، ولكن الذي يحتاج إلى الوقوف عنده ملياً هو ما علل به هذا الجمود وجعله سبباً له ، وهو أن علماء العربية انحرفوا في تعليمها عن الطريقة المثلثى ، وسلكوا فيها مسلك العلوم النظرية من التعليل والتدقيق ، وشغلوا بذلك عن دراسة اللغة نفسها شعرها ونثرها ، حتى صار تحصيل ملكة هذه العلوم غير تحصيل ملكة اللغة العربية في القول والكتابة ٢٧٢ وحال الاهتمام بقوانين النحو ومدلول الألفاظ المفردة دون النظر في معاني الأساليب ومجازي التراكيب وما فيها من ألوان التجوز والكناية ٢٧٣ وهذا هو ما يعتبره رشيد رضا الصدمة الأولى التي صدمت بها اللغة ونالت من رقيها وتطورها ، ثم تلتها صدمة ثانية تمثلت في انحراف الشعر العربي عن التعبير عن تجربة الحضارة الإسلامية الفريدة ، وما في الإسلام من المثل العليا والقيم الخالدة، وعن غير ذلك من التجارب الإنسانية الخاصة أو العامة التي يعيشها الشعراء. تركوا هذا المجال الواسع والفضاء الريح وقصروا الشعر على "وصف الأنسي أحياه (بالمدح والهجاء) وأمواتاً (بالرثاء) إلى ما يلتحق

بذلك من الغزل والتشبيب الذي يستهلون به قصائد المديح ... فصار الغرض من الشعر الكدية والاستجاء (الشحادة) وكثير فيه الكذب (في المدح) والبذاء (في الذم) فألف منه أهل الهم ، وترفع عنه أرباب المراتب ، فهبط لمنتحليه في مهواه عميقه مظلمة"^{٢٧٤} وامتد هذا الضعف والركود باللغة العربية إلى أيام نشأة رشيد رضا العلمية التي قال فيها وهو يتحدث عن صديقه شاعر الفيحاء عبد الحميد الرافعي: "ولكن مجال الشعر في عصر نشأته كان ضيق الساحة ، وحرية الكلام كانت في الدولة التركية قليلة المساحة ، والباعث على إجاده المنظوم كان في حكم المعدوم ٢٧٥ وحينئذ تتبه جماعة من عقلاه هذا العصر وفضلاه إلى إحياء اللغة التي يئس الجماهير من إحيائها ، وذلك بإصلاح كتب الفنون وطريقة التعليم (اللتين صارتتا عقبة في طريق العربية)"^{٢٧٦} وبالتالي على الطريقة التي تطبع ملكرة اللغة في النفوس ومن هؤلاء العقلاه الفضلاء شيخاه: الشيخ محمد عبده المصري، والشيخ حسين الجسر الطرابلسي.

٢- الالتزام بما انتهى إليه أئمة اللغة بشأنها في عصور الاحتجاج ، فقد كان السيد رشيد رضا يرى أنه ينبغي الانطلاق من مبادئ اللغة وقواعدها التي أرساها أئمة اللغة في النقل والتفسير في عصور الاحتجاج المعروفة ، ويرى أن التساهل في هذا أو الخروج عليه بحجة التجديد والتوسيع في اللغة تفريط وتقصير في حق اللغة، فقال: "إنه يجب على كل كاتب أن يتبع أئمة اللغة وفنونها فيما قرروه ، فلا يقيس على سمعاعي ، ولا يخرج في القياس عن حدوده ، ولا يدخل الكلمات العامية المحسنة في كتابه، ولا بأس بغير المحسنة وهو ما كان عربي الأصل ، وهو أكثر كلامهم على تحريف فيه يسهل تصحيحة ، ذلك أن التساهل ، وترك الأمر فوضى للكاتبين ، بدعوى العناية بالمعنى ، مما يفسد اللغة ، بما يجرئ الجهلاء والضعفاء على التأليف

^{٢٧٤} المنار: ١٥٠/٩/١

^{٢٧٥} السابق: ٦٢/١/٣٤

^{٢٧٦} السابق: ١٠١/٦/١

، مع كثرة غلطهم ودخيلهم ، ويتنى همة غيرهم عن التحصيل والإتقان" ٢٧٧ ويدهب رشيد رضا إلى أبعد من ذلك ، فيسحب هذا الحكم على كل من جاء بعد عصور الاحتجاج من علماء اللغة ، فلا يقبل منهم ما خالفوا فيه القياس ، يقول: "وما انفرد به قدماء المؤذين ، من أساطين علماء اللغة وأدبيائها ، لا يحتاج به إذا خالف القواعد القياسية ، فما القول في المتأخرین من أهل القرون الوسطى إلى اليوم" ٢٧٨ ولا يعني هذا أن رشيداً يضفي قدسيّة على من وضع تلك العلوم ، ويرئهم من الخطأ فيما استنتاجوه من مقاييس اللغة ، أو دونوه من القواعد ، وإنما قصده أن هؤلاء بنوا أحكامهم على استقراء نصوص اللغة في عصر صفاتها ، وقبل أن يشوبها اللحن ، فأما من جاء بعد عصور الاحتجاج ، فلا يحتاج من كلامه إلا ما وافق المنقول ، ولا يدخل في هذا ما استدرك به المتأخر على المتقدم بنظر صحيح أو حجة تستند إلى الكلام العربي الفصيح الصحيح النقل ، ومن ذلك بعض ما بنى عليه المتقدمون أصول مذهبهم ، مثل تضييق البصريين دائرة الشواهد التي تبني عليها القاعدة وإلى هذا يشير رشيد بقوله: "إنني أميل إلى مخالفة المتقدمين في بعض ما قالوا إنه سماعي ، ولكنني لا أجيئ لنفسي الانفراد بذلك ، واستعماله لضرورة حتى يوفق الله علماء هذه اللغة لتأليف جمعية تنهض بهذا العمل ، وعسى أن يكون ذلك فريباً" ٢٧٩

٣-الشاعر الكامل: الشاعر الكامل عند رشيد رضا هو القادر على التعبير عن تجربته بصورة كاملة ، لا الذي يحسن التعبير عن بعضها دون بعض ، بأن يحسن التعبير بما تؤدي إليه حواسه دون ما يحسه بوجданه أو يستتبّه بعقله ٢٨٠ ثم يستمد معانيه من بيئته وتصطّبُغ صوره وأخْيلته بصبغة عصره ويلتزم مع ذلك في النظم في الموضوعات الشريفة السامية ، لأن الأدب الحقيقى عند رشيد رضا هو الذي ينمي أدب النفس ويزكي الخلق ٢٨١ ، يقول

^{٢٧٧} المنار: ٥٢٩/٧/٩

^{٢٧٨} السيد رشيد رضا: ٥٤٨

^{٢٧٩} المنار: ٥٣٣/٧/٩

^{٢٨٠} السابق: ١٢٠/١٠/١

^{٢٨١} المنار: ١٣٣/٨/١

رشيد رضا: "إن الشعر ينبغي أن يكون في كل عصر مناسباً لحالته ، وأنه ينبغي للمشتغلين بهذه الصناعة أن ينظموا في المواضيع الشريفة، ويصوغوا المعاني التي تعطيها الاختراعات الصناعية والاكتشافات العلمية ٢٨٢ إضافة إلى مراعاة الأوزان والقوافي التي يؤكّد رضا على أهميتها بقوله: "ومن أراد الشعر العربي فلا بد له من معرفة أوزانه" ٢٨٣ فشروط الشعر الجيد عند رشيد تتلخص في: اللّفظ الفصيح ، والمعنى الشريف ، والصورة المستمدّة من الواقع المعاش ، مع الالتزام بموسيقى الشعر التقليدية المتمثلة في الوزن والقافية ، وحسن تصرف الشاعر ، وتقنه في التعبير عن تجربته دليل على بلوغه الشّأو البعيد في الشاعرية .

واللافت للنظر أن رشيد رضا يعد شرف المعنى شرطا في جودة الشعر والأدب على العموم ، بمعنى أن يكون الأديب ملتزما بالقيم والأخلاق الرفيعة، يدعو إليها ويدافع عنها ، ناهيك أن ينقضها أو يستخف بها ، وقد التزم رشيد بهذا المبدأ في كل ما نقدّه من ألوان الأدب كالشعر والقصة والرواية وغيرهما كما سنشير إليه ، يقول رشيد في تقرير أهمية حسن المعنى: "التركيب اللّفظيّ للأجساد ، والمعنى أرواحها ، وكأين من ذي جسد مليح لا تشويه في جثمانه ، لكن صفاته الروحية مشوّهة ، فهو لذلك يمّقت من كل ذي طبع سليم وفطّرة صحيحة:

والشكل والخفة في الأرواح أملح ما يعشق في الملاح
كذلك الكلام منظوماً ومنثوراً لا تكمل محاسنه إلا بحسن معانيه ومتانة مبانيه"

٢٨٤

٤- الجمع بين التجديد والمحافظة: دعا السيد رشيد رضا إلى التجديد ومواكبة العصر في كل الأمور ، فدعا الفقهاء إلى إعادة النظر في الفروع على ضوء قضايا العصر المستجدة ، ودعا إلى تجديد التعليم الديني بإدخال المواد العصرية ، وتبني طرق التدريس الحديثة ، ودعا الشعراء والأدباء إلى

٢٨٢ السابق: ٢٠٩/١٧/١

٢٨٣ السابق: ١٧٠/١٠/١

٢٨٤ السابق: ١٩١/١١/١

الاستلهام من روح الحضارة الإنسانية المعاصرة وما استجد فيها من العلوم الاجتماعية والبحوث النفسية والإنجازات التقنية والاكتشافات العلمية وتوظيف ذلك كله في تلوين معانيهم الشعرية وتكوين صورهم الأدبية، كما دعا إلى حفظ تراثنا اللغوي والأدبي ، وإحياء مواتها ، وعدم الاستهانة بما أرساه أساطين علماء اللغة العربية من قوانين وقواعد ومقاييس لضبط اللغة وصيانتها وحفظها من الفوضى والاندراس ، ورأى أن المجدد الحق هو الذي ينطلق من هذا التراث ويستند إليه ، ويستمد من معينه ، ثم يمارس التجديد على بصيرة من أمره ، دون أن يفرط في شيء قديم نافع ، والأولى بل الواجب عنده أن يتم هذا التجديد برعاية مؤسسات علمية مختصة ومسؤولة كالجامعات اللغوية ، توفيرًا للجهد وفرارًا من الاضطراب والفوضى ، يقول رشيد في هذا الصدد: "آفة الدعوة إلى الإصلاح الغلو في القدح في القديم ومدح الجديد الذي يدعى إليه ، ولا يخفى أن حالة العصر الحاضر تقتضي أن تكون الأديبيات موافقة للشؤون الاجتماعية فيه ، فنحن في أشد الحاجة إلى الشعراء والمنشئين الذين يصرفون قوتهم الخيالية إلى جذب وجدان الأمة إلى الفضائل الاجتماعية التي ترقي بها وتساوي الأمم العزيزة ، وتجول في ميادين المعلومات التي انتهت إليها المدنية الحاضرة لأجل ذلك ، كما أثنا في أشد الحاجة إلى إحياء موات لغتنا العربية الشريفة بالاستعمال ، لأن الأمة لا تحى بدون لغة ، فإذا وجد في عالمنا الأدبي من يشتغل بإقامة هذين الركينين لا ينبغي لنا أن نهضم حقه لأنه لم يقم الركينين كليهما ..." ^{٢٨٥}

كان السيد رشيد رضا يكره السجع المتكلف والمحسنات البديعية المسرفة ، ويشدد النكير عليها، ويذم من أجلها مقامات الحريري ، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ، لأجل ما فيه من الشواهد على أنواع البديع ^{٢٨٦} فإن جاء السجع عفوا غير متكلف ، فلا يذم صاحبه وإن كان عصريا ، ولهذا حمد للمستشرق مرجليوث كلاما له فيه سجع حسن فقال: "فأنت ترى هذا

السجع الرقيق لا يأبه لنفسه أكتب كتاب العصر ، فإن وجد من الكاتبين من يرى مثلا قوله (المقة والمقت عند قديم الوقت) من التكليف في التجنيس والتسجيع فأنا ضامن بأن ابن الفارض يتمنى مثله في شعره ، ولا يأبه الحريري في نثره^{٢٨٧} ومن مواقف رشيد الدالة على المرونة والإصلاح والبعد من التزمت دعوته إلى إصلاح الخط العربي ، بل تقديمها مقترحا في كيفية إصلاحه إلى نادي دار العلوم بالقاهرة^{٢٨٨} ودفاعه عن الغزل إذا لم يكن في معين أجنبي ، ولم يكن فيه فحش^{٢٨٩} ودعوته كذلك إلى تحسين الأغاني والأناشيد إذ يقول: "هذا وإنني أسررت إلى الأستاذ يحيى الدرديرى أن يقترح على الشعراء أن يبدؤوا بوضع أغاني وأناشيد لحفلات الأعراس وغيرها يضمنونها تعظيم أمر العفة وعزة النفس والشرف وكراهة الأمة، ويلقونها إلى الملحنين فيلقنونها إلى المغنين فينسخون بها تلك الأغاني (والطقاطيق)

المجونة"^{٢٩٠}

٥- تفضيله لكتاب الجيل الناشئ على غيرهم من حيث صحة الأسلوب والبصر بالنقد اللغوي ، فقد كتب السيد رشيد رضا إلى صديقه شبيب أرسلان أمير البيان ، ومؤرخ الإسلام في عصره ، ينصحه بنقد أسلوبه ، وتحرير كلامه بتجنب ما عسى أن يغمس به ، وينتقد عليه: "فإن الفئة الراقية من كتاب مصر وأدبائها في هذه السنين أرقى في النقد اللغوي ممن قبلهم من كبار كتاب هذا العصر وأدبائه ، بل لم يوجد النقد الدقيق إلا في هذا العهد من عصرنا ، وغرضي أن تنتقد نفسك في الحلة السندينية قبل تمثيلها للطبع"^{٢٩١} والheed الذي يشير إليه رضا هو عهد العقاد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم من عاصرهم من الأدباء والنقاد ، ويعتبرون الجيل اللاحق لجيل رشيد رضا ، ويدل على ذلك تاريخ خطاب رشيد وهو: يوليو سنة ١٩٣١ م ٢٩٢ وكان

^{٢٨٧} المنار: ٩٤٣/٢٤/٦٦

^{٢٨٨} السابق: ١٩١/٣/١٣

^{٢٨٩} السابق: ٦٢٦/١٦/٤

^{٢٩٠} السابق: ١٥٩/٣/٣٤

^{٢٩١} السيد رشيد رضا: ٦١٤

^{٢٩٢} السيد رشيد رضا: ٦١٢

لرشيد رضا مناظرات ومناقشات وردود مع كثير من هؤلاء على صفحات الجرائد ومنابر النوادي في القضايا الفكرية والاجتماعية، فقد ناظر الدكتور عبد الوهاب عزام ٢٩٣ في نادي دار العلوم في حرية المرأة ، وناظر الدكتور لطفي جمعة في المفاضلة بين المدنيتين الفرعونية والערבية، وجرت بينه وبين الأستاذ فريد وجدي ردود مربحة على صفحات الجرائد ٢٩٤ كما نقد كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي ، واتهمه بالدعوة إلى الإلحاد ٢٩٥ ورفض نقد العقاد لكتابه "الوحي المحمدي" كما رفض من قبل نقده لكتابه الآخر "تاريخ الأستاذ الإمام" ٢٩٦ واتهمه بالتعالي وأنه "نظر إلى كتاب الوحي المحمدي ومؤلفه بالعين التي نظر بها إلى أحمد شوقي وشعره من قبل" ٢٩٧ وشكا من الدكتور محمد حسين هيكل وجريدته "السياسة" فقال: "بلغنا أن الكاتب المغرور محمد حسين هيكل بك ؛ رئيس تحرير جريدة السياسة الغرور، لسان حال الحزب الحر الدستوري ، وحزب الملاحة ، قد قرر لمرؤوسه محري جريدة السياسة لا بد من قتل صاحب المنار ، فوافقوه وهم يعنون بهذا القتل ما يكون بالسنة أقلامهم الطعنة ، فالمت被迫 أنهم يعنون القتل المعنوي أو ما يسمونه الأدبي" ٢٩٨ ومع هذا نجد في معرض حديثه عنهم أنه يصف كلامهم بالخلابة كما يصفهم بالتمكن من الأدب ونقده ، كقوله في العقاد إنه "درس الأدب وظهر فيه الاستعداد للشعر وكذا النثر في سن الصبا ، وقويت ملكته فيه نظما ونقدا في سن الشباب" ٢٩٩ وقوله في طه حسين: "إن من أساليب الدكتور طه حسين المعروفة في كل ما كتبه أنه يخترع مسائل يجعلها من قبيل القضايا المسلمة ، بما يزينها من خلابة القول ، ثم يستدل بها أو يورد عليها بعض الشبهات ويرد عليها دفاعاً عنها" ٣٠٠

٢٩٣ المنار: ٥٣٥/٧/٣٠
 ٢٩٤ السابق: ٤٦٥/٦/٣١
 ٢٩٥ السابق: ٦٢٨/٩/٢٧
 ٢٩٦ السابق: ٧٨٢/١٠/٣٣
 ٢٩٧ السابق: ٧٨٣/١٠/٣٣
 ٢٩٨ السابق: ٢٤٠/٣/٢٨
 ٢٩٩ المنار: ٧٨٣/١٠/٣٣
 ٣٠٠ السابق: ٦٧٩/٩/٢٧

المطلب الثاني : تطبيقاته النقدية

إذا تمهد هذا انتقلنا من العموم إلى الخصوص ودراسة نماذج من نقده التطبيقي مع الإشارة بأن رشيد رضا لم يتعرض للنقد الأدبي إلا عرضاً، ودون أن يتعمق فيه أو يستقصي كل جوانب النماذج الأدبية التي يتناولها بالنقد لأنه لم يشاً أن يكون أدبياً وناقداً بالمعنى الوظيفي أو التخصصي، وسنحصر نقده التطبيقي فيما يلي :

٣٠١

١- النقد اللغوي : النقد اللغوي أكثر ملاحظاته النقدية ، لاهتمامه باللغة بحماية اللغة من تعدي أدعية التجديد ، وحرصه الشديد على إحياء المفردات العربية المهجورة القابعة في بطون المعاجم والقواميس العربية ، لهذا كان يتعمد استعمال الكلمات الغربية في مكتوباته حتى الشخصية أو الإخوانية منها كقوله في إحدى رسائله إلى بعض إخوانه: "وقد تبين لي أنني كنت غيداراً" ٣٠٢ وكان يكثر منها في المنار في سنواته الأولى حتى انتقده عليها أستاذه وشيخه محمد عبده بأن هذا يصرف الناس عن قراءة المجلة ، فقلل منها ولم يتركها البتة ٣٠٣ وكان يرى أن إحياء مثل هذه الكلمات بالاستعمال أولى من اللجوء إلى اشتغال غير قياسي أو تعريب الكلمات الأجنبية للتعبير عن المعاني الجديدة التي أفرزها التقدم الحضاري ، وأداه هذا الحرص والاجتهاد إلى محاولة تأليف كتاب في المفردات التي يؤدي الواحد منها معنى جملة لعل الكتاب يستعملون منها ما يروق لهم ، وفعلاً شرع في تأليف الكتاب ولم يتمه ٣٠٤ ولنقد رشيد اللغوي صور منها: انتقاده لعموم كتاب العصر، وأن أكثرهم تدقيقاً وتحريأً لا يسلم من الخطأ، ويعذرهم بأن تعرضهم المستمر للغة الجرائد التي لا تعبأ بتحري الصواب يفسد عليهم ما اكتسبوه من ملامة الفصاحة بالعلم والممارسة ، ويحاول رشيد أن يحصر أنواع الأخطاء

^{٣٠١} - ملاحظاته النقدية تلقي في عمومها بآراء نقاد التيار الإحيائي ، الذي كان من رواده الشيخ حسين المرصفي ، ومن أهم أسس هذا النقد : النقد اللغوي ، والعنابة بالموازنات. انظر في : النقد الأدبي الحديث ، د.

^{٣٠٢} علي جابر المنصوري ، دار عمار - الأردن ، الطبعة الأولى ، ٤٨ ص ٢٠٠٠ م ، ص ٤٨

^{٣٠٣} السيد رشيد رضا ، ص ٤٥٣ . والغيدار هو الذي يسيء الظن فيصيّب. القاموس المحيط ، ص ٥٧٧

^{٣٠٤} السيد رشيد رضا: ١٧٩

٢٩١/٤/١٠ : المنار

التي يكثرون من الواقع فيها فيقول: "أكثـر ما يقع لنا من ذلك استعمال كلمة عـامية ، أو جـمع غير قـياسي ، أو تـعـدية فـعل بـما لم تـعـده بـه العـرب" ^{٣٠٥} ومنها انتقاده لكتـاب معـينـين ، لأنـه يـرى مـنـهـم تـسـاهـلاـ في تـحـري الدـقـة وـتسـامـحاـ في مـخـالـفةـ الـأـفـصـحـ أوـ الـفـصـيـحـ ، وأـكـثـرـ هـؤـلـاءـ مـنـ أـصـدـقـائـهـ وـمـحـبـيـهـ ، فـيـنـبـهـهـمـ وـيـنـاقـشـهـمـ غـيـرـةـ لـهـمـ ، وـصـيـانـةـ لـأـسـلـوـبـهـمـ مـنـ الـضـعـفـ وـالـرـكـاـكـةـ. وـلـأنـ "ـالـأـنـتـقـادـ عـلـىـ هـفـوـاتـ الـكـتـابـ الـبـارـعـينـ وـالـعـلـمـاءـ الرـاسـخـينـ وـعـلـىـ الـمـتـوـسـطـينـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ أـوـلـئـكـ الـمـتـطـلـفـلـينـ هـوـ الـذـيـ يـحـيـيـ الـلـغـةـ ، وـيـرـقـىـ بـهـاـ إـلـىـ أـعـلـىـ عـلـيـينـ" ^{٣٠٦} وكان من هـؤـلـاءـ صـدـيقـهـ الشـاعـرـ الـأـدـيـبـ الـكـاتـبـ الـمـؤـرـخـ شـكـيـبـ أـرـسـلـانـ الـذـيـ لـقـبـهـ بـأـمـيـرـ الـبـيـانـ فـاشـتـهـرـ بـهـ ، وـالـذـيـ جـرـتـ بـيـنـهـمـ مـنـاقـشـاتـ لـغـوـيـةـ طـوـيـلـةـ فـيـماـ تـبـادـلـاهـ مـنـ الرـسـائـلـ ، كـانـ مـثـارـهـ اـنـتـقـادـ رـشـيدـ الـمـسـتـمـرـ لـمـكـتـوبـاتـ صـدـيقـهـ ، وـكـانـ شـكـيـبـ قـلـيلـ التـسـلـيمـ بـمـلـاحـظـاتـ صـدـيقـهـ فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ ، فـيـنـقـبـ فـيـ الـمـعـاجـمـ بـحـثـاـ عـنـ سـنـدـ يـدـعـمـ اـسـتـعـمـالـ الـلـغـوـيـ الـمـنـقـدـ إـنـ كـانـ الـأـمـرـ يـتـعـلـقـ بـمـعـانـيـ الـمـفـرـدـاتـ ^{٣٠٧} وـيـلـجـأـ إـلـىـ بـعـضـ عـلـمـاءـ الـعـرـبـيـةـ إـنـ كـانـ الـخـلـافـ فـيـ قـوـاعـدـهـاـ ^{٣٠٨} وـيـبـدـوـ أـنـهـ لـمـ تـبـيـنـ لـهـ قـوـةـ حـجـةـ صـدـيقـهـ ، وـنـبـالـةـ قـصـدـهـ ، صـارـ يـرـجـعـ إـلـيـهـ فـيـمـاـ يـشـكـلـ عـلـيـهـ أـوـ يـنـقـدـهـ عـلـيـهـ غـيـرـهـ ^{٣٠٩} وـمـنـ أـمـثـلـةـ نـقـدـ رـشـيدـ عـلـىـ شـكـيـبـ قـوـلـهـ: "ـوـقـبـلـ الشـرـوعـ فـيـ الـجـوـابـ قـرـأـتـ وـرـقـاتـ مـنـ قـصـةـ (ـآـخـرـ بـنـيـ سـرـاجـ) فـرـأـيـتـيـ أـعـثـرـ بـبـعـضـ الـكـلـمـ وـالـجـمـلـ الـتـيـ عـهـدـتـكـ تـتـحـامـيـ مـثـلـهـ ، وـلـوـلـاـ أـنـ هـذـهـ تـرـجـمـةـ قـدـيمـةـ لـاستـبـدـلـتـ بـهـاـ غـيـرـهـ ، وـإـنـنـيـ أـذـكـرـ لـكـ نـمـوذـجـاـ مـنـهـ يـتـعـلـقـ بـأـدـيـالـ الـمـعـانـيـ وـالـبـيـانـ فـيـ الـأـكـثـرـ ، وـبـأـصـلـ الـلـغـةـ فـيـ الـأـقـلـ ، وـبـعـضـهـاـ لـهـ نـظـرـ إـلـىـ الـدـيـنـ ، كـقـولـكـ فـيـ الـمـقـدـمـةـ: "ـوـهـوـ الـزـعـيمـ بـحـسـنـ الـمـالـ"ـ فـهـذـاـ صـحـيـحـ بـالـلـغـةـ وـلـكـنـ صـفـةـ الـزـعـيمـ لـمـ تـرـدـ فـيـ الـكـتـابـ وـلـاـ فـيـ الـسـنـةـ صـفـةـ اللـهـ تـعـالـىـ ، وـأـسـمـاءـ اللـهـ وـصـفـاتـهـ تـوـقـيـفـيـةـ فـأـسـتـحـسـنـ أـنـ تـسـتـبـدـ بـهـاـ الـمـسـؤـولـ ، وـكـقـولـكـ: "ـوـهـمـ فـيـ كـلـ خـمـسـةـ أـيـامـ يـقـيـمـونـ فـيـ الـمـسـجـدـ الـصـلـاـةـ لـأـجـلـ رـجـوعـ غـرـنـاطـةـ إـلـىـ

^{٣٠٥} المنار: ٥٢٩/٧/٩

^{٣٠٦} السابق: ٥٢٩/٧/٩

^{٣٠٧} السيد رشيد رضا: ٣٩٣

^{٣٠٨} السابق: ٣٩٥

^{٣٠٩} السابق: ٥٤٣

يد الإسلام" فالذي يظهر لي: أنها ترجمة حرفية، وأن ما يسميه الإفرنج بالصلاوة في هذا المقام هو ما نسميه بالدعاء، وهو من معاني كلمة الصلاة لغة ، ولكن غالب عليها معنى العبادة المعروفة، وعثر فهمي في قولكم: "بل لم يكن عندهم خارجا عن أبراج الحمراء ثمار طيبة ولا عيون صافية" فوصف هذه الأشياء بالخروج المنفي عن أبراج الحمراء فيه غموض وخفاء ، ومما قدم فيه المفعول المطلق على المفعول به بغير مسوغ قولكم: "فإنهم كانوا فارقوا فراق الأرواح للأجساد ميدان ذلك الجهاد" ويتبعن هنا العكس، ومنه قولكم: "شدة الحزن الذي ليس مثله في هذه القوى الإنسانية الباطنة" فاستعمال "ليس" هذا الاستعمال الجرائي أي بحذف اسمها أو خبرها مما لم أستطع هضمها على كثرة قرائتي له في كلام أكثر كتاب العصر، وأنزه قلمكم البليغ عنه ، فإما أن نقولوا كما قال الله تعالى: "(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)"^{٣١٠} أو ما يقرب منه، وإنما أن تأتوا بلا النافية للجنس التي نسيها جميع كتاب العصر حتى كأنها ليست من اللغة"^{٣١١}

ومن انتقادهم أيضاً على ما بينهم من المودة ، ومع الشهادة له برسوخ القدم في العربية الأستاذ جبر ضومط أستاذ اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت^{٣١٢} الذي رأه لا يحفل بانتقاد اللغة بل يكتفي بأن يكون ما يكتب مما فهمه القارئ ، وإن مزج بالألفاظ العامية التي ليست من اللغة والأغلاط النحوية، وأبقى من أساليب اللغة"^{٣١٣} وكان نقده عليه في أمرين:

الأمر الأول: عدم تحاشيه من الأخطاء مع قدرته على ذلك ، ومن ذلك قوله في عنوان قاعدة وضعها: "الاقتصاد على فهم السامع" فالاقتصاد لا يتعدى بعى ، والمعنى المراد من القاعدة لا يفهم منها بذاتها بل بما شرحها به"^{٣١٤}

^{٣١٠} سورة الشورى : ١١

^{٣١١} السيد رشيد رضا: ٣٤٨-٣٤٧

^{٣١٢} المنار: ٥٣٢/٧/٩ حيث قال في آخر نقاده: "هذا ما يأتي به التساهل وهو إذا كان سهلاً في نفسه ويمكن تأويل بعضه فهو عظيم من عالم يعد من أوسع علماء اللغة اطلاقاً في هذا العصر"

^{٣١٣} المنار: ٥٢٩/٧/٩

^{٣١٤} المنار: ٥٣٠/٧/٩

ومن مخالفته القياس في مقالته (انتقاد فتاة مصر) قوله: "كما في ص ٥٤٥ المقتطف: والتقدم فيها على الخراب، لا يقال في اللغة: تقدم عليه ، كما يقال هجم عليه ، وإنما قالوا: تقدم الفرس بصاحبها إذا ندّ به، فلم يضبط رأسه"^{٣١٥} ومنها قوله في ابتداء كلام: "أولاً: الاقتصاد النحوي" ثم قوله: "ثانياً: الاقتصاد البياني" إلخ وهو يكثر من مثل هذه في كتبه تساهلاً في محاراة كتاب الجرائد وأمثالهم ، وهذا غير معهود في الكلام العربي الصحيح أو الفصيح ، ولا يمكن إعرابه إلا بتكلف لا حاجة إليه لمكان الاستغناء عنه بقولنا: (الأول: كذا، الثاني: كذا ٣١٦ ومنها ابتدأه الكلام بالعاطف قوله: "وأكثر كتابنا" وإدخال "قد" على الفعل المنفي، قوله: "قد لا يعدّ، قد لا يعقل، قد لا تخلو) وقد استعمل المناطقة قد مع النفي في القضايا الشرطية السالبة،

وهو يحتج بمن دونهم في الاستعمال كابن الفارض وابن عابدين"^{٣١٧} والأمر الثاني الذي رده رشيد على الأستاذ ضومط: تصحيحة ألفاظاً كان يتداولها الكتاب ولم يرد سماع فيما استحدث لها من معانٍ أو في قياسية اشتقاها مثل "تكافوا" بمعنى تعاونوا، فقد رأى الأستاذ ضومط أن تكافوا مثل ظاهروا في الاشتراك وفي المعنى، بل "إن وضع الكتف للكتف في التعاون أقرب للفهم ، لأنه أكثر مشاهدة من وضع الظهر للظهر"^{٣١٨} وعند رشيد رضا أن معنى ظاهروا "كان كل منهم ظهيراً للآخر أي معيناً"^{٣١٩} ومن تلك الألفاظ لفظ "العائلة" بمعنى الآل أو العشيرة، فهو كالعاقلة لدى الأستاذ ضومط، ويرده رشيد لأن العاقلة "الجماعة التي تعقل إيل الديمة عن القاتل من عشيرتها ، فإذا كانت العائلة من عال عياله بمعنى كفاهم معاشهم ومؤئتمهم يكون معنى الكلمة: الجماعة العائلة، أي المنفة، وإنما المنفق هنا واحد وهو

^{٣١٥} السابق: ٥٣٠/٧/٩

^{٣١٦} السابق: ٥٣١/٧/٩

^{٣١٧} السابق: ٥٣١/٧/٩

^{٣١٨} السابق: ٥٣١/٧/٩

^{٣١٩} السابق: ٥٣١/٧/٩

العائل، والمنافق عليهم هم الجماعة أي العيال ، ولو قيل إن الكلمة محرفة عن العاقل بإبدال القاف همزة كدأب العوام لم يكن بعيداً^{٣٢٠}

ومن أمثلة نقده اللغوي قوله في الشوقيات، وقد أهداها إليه صاحبها أحمد شوقي: "وأما الانتقاد فالشوقيات أعصى منظوم العصر على الانتقاد الشديد ، معان عالية وعبارات زاهية، وأفكار دقيقة في أساليب رشيقه اللهم إلا ما لا يخلو عنه كلام المولدين ولا سيما المتأخرين من كلمة لم تنطق العرب بها، أو لفظة وضعت في غير موضعها كلفظ(احتار) فقد استعمله شوقي ، وإنما سرى إليه من مثل ابن الفارض القائل:

وما احترت حتى اخترت حبك مذهبها : فوا حيرتني إن لم تكن فيك خيرتني
والشيخ عبد الغني النابلسي القائل:

حكم حارت البرية فيها : وحقيق بأنها تحتر

ومن هنا سمي ابن عابدين حاشيته المشهورة (رد المحتار إلى الدر المختار) وأما ابن الفارض فقد أوقعه في الخطأ الغرام بالتجنيس ، وتبعه ابن عابدين، وأما النابلسي فلعلها سرت إليه من استعمال مثل ابن الفارض وكذلك شوقي بك وغيره^{٣٢١}

٢-الموازنة والمفاضلة: يأتي كثير من ملاحظات السيد رشيد رضا على شكل موازنات ومفاضلات واستحسانات مطلقة، تتبع صورها وتتعدد أشكالها، فقد تكون بين علين ينتميان إلى جنس أدبي واحد، وقد تكون بين شاعرين في الشاعرية، وقد تكون بين قصائد في موضوع واحد أو بين قطر وآخر، وتأتي أحياناً بين شعر الشاعر الواحد، وأحياناً أخرى بين العصور الأدبية ، ومنها التفضيل المطلق والاستحسان غير المعدل ، فمن ذلك تفضيله مقامات بديع الزمان الهمذاني على مقامات الحريري ، لأنها أقرب منها إلى السليقة العربية وأبعد عن التكلف ، فقال: "مقامات البديع أشهر من نار على علم ، وهي أحسن من مقامات الحريري أسلوباً ، فهي مفيدة في طبع ملكرة الإنشاء العربي

في نفوس المتأدبين ، وأسلوب الحريري ليس بعربي ، فهو لا يحتذى في الكتاب ، وإن كان قد بلغ الغاية في إتقان الصنعة ، أو إتقان التكاليف كما كان يقول الأستاذ الإمام رحمة الله تعالى^{٣٢٢} وفضل أحمد شوقي على حافظ إبراهيم لأنه "طرق جميع أبواب الشعر القديمة والحديثة ، ففتحت له أغلاقها ، وكان له السلطان الأعلى على أرواح عشاقها بما أجاد في كل فن من فنونها إلا الهجاء والمجون ، فقد نزه شعره ولسانه عنهما"^{٣٢٣} ولم يقبل ما كان يزعمه حافظ من أن شعر شوقي يعلو لمكانته من أمير البلاد ، بل إن "شعر شوقي علا بعد دولة ذلك الأمير بنفسه فوق ما علا به في عهده ، حتى علم أن قريه من الأمير كان سبباً لوقفة في استعداده ، حالت دون الوثبة التي وثبها بعد إخراج الحرب العالمية إيه من فقص قصر عابدين ، حتى أن حافظاً بايعه بإمارة الشعراء"^{٣٢٤}

ويرى رشيد أن المؤس والضنك أدعى إلى قدح زناد العظماء من الأدباء والحكماء وال فلاسفة من الترف والنعيم ، كما يقول في جواب حافظ: "ولعله لو نشأ في حجر الترف والنعمة كشوقي لما كان له من نفسه ما يبعثه إلى النبوغ في الأدب النافع ، فأكثر حكماء الأدباء وحكماء العلماء وأصحاب الأفكار الإصلاحية الناضجة كانوا من أهل النتفش والمؤس في بداياتهم"^{٣٢٥} ولو لا شعر حافظ الاجتماعي وشرفه بشرف موضوعاته العامة لما كان له أي مزية عند رشيد رضا ، وإن انتهى إلى أعظم أمير ولما سلم من الابتذال حتى ليعجز عن إعلانه الأمير والسلطان على استغناه من تهذيب صبري وصفق سلمان"^{٣٢٦}

ومن الموازنات والمفاضلات التي يجريها بين القصائد في الموضوع الواحد تفضيله قصيدة شوقي على جميع قصائد أشهر شعراء مصر في التهاني السلطانية بمناسبة عيد الجلوس للخديوي إسماعيل باشا ، لأنها "لم

^{٣٢٢} المنار: ٦٢٩/٨/٩

^{٣٢٣} السابق: ٧١٩/٩/٣٢

^{٣٢٤} السابق: ٧١٩/٩/٣٢

^{٣٢٥} السابق: ٧١٩/٩/٣

^{٣٢٦} السابق: ٢٩١/٤/١٠

تكن مدحًا وثناءً مجرداً كغيرها، بل تمثيلًا لشعوره ووجوداته الخاص من حيث هو ربب بيت الخديوي إسماعيل باشا وغرس نعمته^{٣٢٧} كذلك يفضل قصيدة لحافظ إبراهيم في الشيخ محمد عبده على كل القصائد التي مدح بها الشيخ لجزالتها وبلاغتها، فيقول: "ولقد هنئ الأستاذ بقصائد كثيرة منها ما نشر في الجرائد، ولكن قلماً كان أحد منهم ليداني محمد حافظ أفندي ، بل قلماً رأينا في منظوم العصر مثل هذه الأبيات في جزالتها العربية وبلاغتها"^{٣٢٨} ويفاضل بين شعر الشاعر الواحد، كفضيله لشعر الجزء الثاني من ديوان حافظ إبراهيم على شعر الجزء الأول منه لأن معظمه في الأغراض العامة ، فقال في تقريره الجزء الثاني: "قد طبع الجزء الثاني من ديوان حافظ أفندي إبراهيم ، وهو أرقى من الأولى نظماً وموضوعاً ، فإن معظم قصائده في الأمور العامة من اجتماعية وسياسية... وبهذا صار شعر حافظ عزيزاً شريفاً"^{٣٢٩} ومن ذلك قوله في تقريره (ديوان تذكار راغب وصيري) للشاعر رشيد أفندي مصوبع: "ومن أحسن ما رأينا له في هذا الديوان قوله في استذكار بعض نساء الأغنياء^{٣٣٠} :

عار على الغيد أن تزهو وتتفخرا وتبدي التيه في الأعطف والأشرا
بأي عطف تميل الخود تائهة ويفخر العطف إما صين واستثرا
قدر الغولي بتحصين الجمال وإن تهتك زال ذاك الحسن واندثرا
لو ترك العاشق المسكين ملتهباً شوقاً لها ظل ذاك الحسن معتبراً

وأما موازنته بين العصور الأدبية ونظرته إلى تطور الشعر وخصائص كل طور فتطالعنا في مثل قوله: "وحاصل القول في الشعر والشعراء: أن العرب كانوا مندفعين إلى الشعر من طبيعتهم ، فكانوا يتناولون بشعرهم كل ما في الطبيعة وما ينتزعه الذهن منها كالخيالات والأوهام ، وأن الجاهليين بلغوا به قبيل عصر النبوة الشأو البعيد، والغاية التي لا وراءها بالنسبة لمعارفهم ،

^{٣٢٧} المنار: ٥٩/١/١٨

^{٣٢٨} السابق: ٢٦٥/١٧/٢

^{٣٢٩} السابق: ٢٩١/٤/١٠

^{٣٣٠} السابق: ٨٧٢/١١/٩

وإن الإسلاميين ارتفت في أول الإسلام ملائكتهم في البلاغة على ملائكت الجاهلية ، فكان كلامهم في المنظوم والمنثور أحسن ديباجة وأرفصف مبني وأعلى معنى وأنه جاء في القرون المتوسطة - لاسيما الثالث والرابع والخامس- من ساهم السابقين وخاطر المقرمين ... وإن المتأخرین هبطوا إلى

^{٣٣١} أسفل الدركات"

ومنه تفضيله كتاب وأدباء مصر في الثلث الأول من القرن العشرين على من سبقهم من كتاب العصر ، وذلك حيث قال: "فإن الفتة الراقية من كتاب مصر وأدبائها في هذه السنين أرقى في النقد اللغوي ممن قبلهم من كبار كتاب هذا العصر وأدبائه" ^{٣٣٢} وتميز شعراء العراق بحسن الإنشاد وجميل الأداء ، وبأنهم أقرب إلى السليقة العربية من غيرهم ، فقال في سياق الإشادة بروعة إنشاد عبد المحسن الكاظمي العراقي : "وكل أدباء العراق يخلبون الألباب بضرورب الإنشاد" ^{٣٣٣} ووصف شعر الكاظمي بأنه على الطريقة العراقية القديمة ، طريقة الشريف الرضي ومهيار الديلمي ^{٣٣٤} ثم قال: "والظاهر أن بلاد العراق لا تزال أقرب إلى السليقة العربية من أهل هذه البلاد ، وأن النابغين فيها أكثر منهم في غيرها" ^{٣٣٥}

ومن تفضيله المطلق ، وتمييزه غير المقيد ما قاله في محمود سامي البارودي وهو يقدم ديوانه بعد أن أورد قطعة كبيرة من شعره تزيد على مائة بيت في عشر مقطوعات وقصائد: " فهو كما ترى قد ناهز الجاهليين في القوة والمتانة وخاطر المخضرمين في الفصاحة والبلاغة ، وبذ المولدين في الرقة والسلسة ، فصح أن يلقب برب السيف والقلم ، وصاحب الحكم والحكم ، وفارس الميدان والبيان ، والصائل بالسنان واللسان" ^{٣٣٦} ونحوه تفضيله لبعض القصائد تفضيلاً عاماً ، كما جاء في تقرير جريدة (الإخاء) ^{٣٣٧} : "ثم

^{٣٣١} المنار: ١٩٣/١١/١

^{٣٣٢} السيد رشيد رضا: ٦١٤

^{٣٣٣} المنار: ٧٤/١٣٥

^{٣٣٤} السابق: ٣٢٨/١٤/٣

^{٣٣٥} السابق: ٣٢٨/١٤/٣

^{٣٣٦} المنار: ٨٣٠/٢١/٧

^{٣٣٧} السابق: ١٨٣/٨/٣

جاء فيها ب النقد مقالة أوربا والإسلام قصيدة غراء من أرق الشعر وأعذبه في مدح سماحة أبي الهوى أفندي الشهير ... ومنها في المديح والاستماحة" ٣٣٨

هو عذبي للحوادث وعمتي في المشكلات أرى به ما لا أرى
 إن رمته للجود رمت كنهوراً أو هجته للخطب هجت غضنفراً

فيه الغنى كل الغنى وهو الحمى كل الحمى يثني المخوف إذا انبرى

٣- النقد التحليلي: يقوم رشيد رضا أحياناً بأعمال نقدية أقرب ما تكون إلى النقد التحليلي ، حيث يقف عند النص الأدبي ، يستكنته ويفحصه ويتلمس مزاياه أو يكشف ما به من قصور ، وهو وإن كان لا يدرس النص من جميع جوانبه اللغوية والأسلوبية والموسيقية إلا أنه يقارب ذلك ، ويقاد يقنع القارئ بنتيجة نقده ، ويبدو أنه كان لا ينقصه في ممارسة النقد التحليلي شيء ، غير أن طبيعة دراسته العابرة وغير المتأنية لم تمكنه من ذلك ، لأنه لم يكن يمارس النقد ممارسة الأديب المتخصص المنقطع إلى هذا المجال ، وإنما يمارسه ممارسة الأديب المتذوق الذي يسجل ملاحظات سريعة فيما يصادفه من النصوص الأدبية ، وفي مراسلاته إلى صديقه الأديب شكب أرسلان ما يدل على وعيه بالنقد التحليلي الذي كان مذهباً جديداً كما يظهر من كلامه، حيث يقول: "وقد أتعجبت بما كتبته له .. فإنه غاية في التمحيص والنقد الذي يسمونه في هذه الأيام بالتحليلي" ٣٣٩ أما تلك النماذج التي يمكن أن تدخل في هذا الباب فمنها ما علق به على محاضرة للدكتور محمود بك لبيب محروم في نادي المدارس العليا بالقاهرة بعنوان "تربية النفس بالنفس" ملأ فيها مصطلحات غريبة فقال رشيد في نقدها: "أما موضوع الخطاب فيعرف من عنانه، وأما أسلوبه فيتمثل لك أسلوب بعض المتصوفة الذين كتبوا الأحكار والمصنفات في علوم الأسرار، في مزجهم اصطلاحات العلوم الكونية بما يضعونه من اصطلاحات الغيبية الملكوتية، بل هو أغرب مفرداته وجمله

ومثاله ومثله، وإليك مثلاً منه: "إن الحقيقة فردية لا تتجزأ وإن الكون جوهر لا يتداعم ، هؤلاء لا يفتشون عن بوطن الأشياء ، ويكتفون بعلم ظواهرها العامة ، هؤلاء لا يعرفون للكون في الكون إلا نقطاً (طبعت في الأصل كقفل) واحداً فسمه المركز لأهل الكرة الأرضية ، وادعه مركز السماء لأهل السموات العلية ، وأطلق عليه قلب الفلك للسموات والأرضين السمية والدينية ، وسمه الطبيعة إن كنت من يصبح بأن (المادة لا تتجدد ولا تتعذر) وقل عنه الروح (بالفتح) إن سألك أحد طلبة (تناسخ الأرواح) وصفه بالجريدة (الميكروب) إن تجھورت في نظرك الذرات ، وعرفها بالتلخق إن درست علوم النشوء وتابعت (داروين). حسب القارئ هذا ، فقد ملّ أو كاد إذ لم يقرأ في حياته كلاماً كهذا الكلام ، ألفاظ في اصطلاحات العلوم الطبيعية والدينية والصوفية والجغرافية، تشبه خرزًا في أنواع شتى ، وضع في علبة وغضّ خضر حتى اختلط بعضه ببعض ، ثم استخرج فنظام نظماً غير مألف ولا معروف ، فيا ليت شعري ماذا كان من أمر أعضاء النادي عندما ألقاه عليهم الدكتور؟ ماذا فهموا منه؟ هل قابلوه بتصفيق الاستحسان أم بصفير الاستهجان؟" ٣٤٠ هكذا نقد رشيد هذه الخطبة التي لم نورد كل ما اقتطفه منها ، والتي ألف الدكتور ألفاظها من مجالات متباينة ، دون أن يقتضي استعارة مصطلحات العلوم المتناقضة ، ثم لم يحسن تأليفها ، مما جعل رشيداً يتعجب من صنيعه ، بل يسخر من إخفاقه ، وقد رأينا رشيداً ينتقد في سوء اختيار ألفاظه التي أصاب في وصفها ، وفي كون محاكاة أسلوبه لأساليب المتصوفة في غموضه وإبهامه. وما يشبه هذا المسلك من نقد رشيد ما كتبه في مؤلف أدبي لأحد الشيوخ ، زعم فيه أنه مبتكر ، وأن كثيراً من أجزاء العلماء قرظوه وأشادوا به كما نوهت به بعض الجرائد المعتبرة ، فما كان من رشيد رضا إلا أن درس الكتاب فوجده على غير ما زعم ، ثم كتب عنه ما يكشف عن حقيقته فقال: "(مطمح الفصحاء) كتاب ألفه الشيخ علي فؤاد المنوفي ، في شيء سماه الإنشاء ، وجعله عشرة أقسام... قال المؤلف في

فاتحة كتابه (وكل ما فيه من المنشآت ابتكاري كما أن بعض ما به من الأبيات اختياري) ونقول إنه ليس فيه شيء من الابتكار، وهكذا هذا النموذج مما فيه من المنظوم والمنثور، وهو ما قاله في أول قسم الاستعطاف بعد أبيات لغيره (مهما في التجني علي أفرطت وأدقنتي بصدق المهاون ، فروحي لموتك أو هبت يا إنسان كل إنسان)

الله أشكو غرامي وما أعاني وألقى
قطعت حبل ودادي ولم أخن لك حقا
وببي تبدل غيري فالله خير وأبقى

ولا يحسبن القارئ أننا تعمدنا نشر أدنى ما في الكتاب بعد البحث عنه، بل هذا من أحسنـه ، فإن أساءـنا بـنا الـظن أورـدنا لـه أـبياتـنا كـتبـ بها إـلـى صـديـقـ آخر وهي:

بـما أـبـدـاهـ من شـرـفـ الطـبـاعـ	أـيـاـ من فـارـقـ أـهـلـ العـصـرـ طـراـ
وـأـبـدـلـتـ التـوـصـلـ بـانـقـطـاعـ	أـسـأـتـ إـلـيـكـ فـاسـتـوـحـشـتـ مـنـيـ
وـأـنـتـفـ شـعـرـ رـأـيـ من مـجـاعـيـ	فـصـرـتـ أـقـارـعـ الـأـهـوـالـ ضـنـكـاـ
بـأـصـوـاتـ كـأـصـوـاتـ الضـبـاعـ	وـأـصـرـخـ فـيـ (ـالـشـوـارـعـ وـالـحـوـارـيـ)
وـمـنـ أـسـفـيـ أـعـضـ عـلـىـ صـبـاعـيـ	وـأـزـرـىـ دـمـعـ عـيـنـيـ فـوـقـ خـدـيـ
وـأـنـ الرـوـحـ مـنـيـ فـيـ النـزـاعـ	وـلـمـاـ أـنـ رـأـتـ عـيـنـايـ مـوـتـيـ
وـرـجـلـيـ فـوـقـ كـتـفـيـ بـانـخـفـاضـ	أـتـيـتـ إـلـيـكـ مـعـتـرـفـاـ بـذـنـبـيـ
لـأـنـ بـحـرـ جـوـدـ ذـوـ اـتـسـاعـ	أـوـمـلـ فـيـكـ أـنـكـ تـعـفـ عـنـيـ
لـأـشـفـيـ الـقـلـبـ مـنـهـ بـالـرـضـاعـ	فـأـلـقـمـنـيـ بـفـضـلـكـ ثـدـيـ عـفـوـ

هـكـذـاـ جـاءـتـ فـيـ الـكـتـابـ فـلـاـ تـظـنـ أـنـ مـطـبـعـتـاـ حـرـفـتـ فـيـهاـ أـوـ صـحـفـتـ ،ـ هـنـاـ يـقـولـ الـقـارـئـ:ـ مـاـ بـالـمـنـارـ أـطـالـ الـكـلـامـ عـلـىـ هـذـاـ الـكـتـابـ وـخـالـفـ عـادـتـهـ فـيـ مـثـلـهـ؟ـ وـأـنـاـ أـقـولـ لـهـ:ـ "ـإـنـ السـبـبـ فـيـ ذـلـكـ بـمـكـانـةـ كـتـابـ كـتـبـ مـصـنـفـهـ فـيـ أـوـلـهـ أـنـهـ وـرـدـ إـلـيـهـ ٢٦ـ تـقـرـيـظـاـ لـهـ مـنـ أـكـابـرـ الـعـلـمـاءـ وـأـفـاضـلـ الـشـعـرـاءـ ،ـ وـذـكـرـ مـنـهـاـ تـقـرـيـظـاـ لـلـشـيـخـ سـلـيـمـ الـبـشـرـيـ الـذـيـ هـوـ شـيـخـ الـمـالـكـيـةـ الـيـوـمـ ،ـ وـكـانـ شـيـخـ الـأـزـهـرـ بـالـأـمـسـ ،ـ يـشـهـدـ فـيـ الـكـتـابـ بـأـنـهـ مـفـيدـ وـنـافـعـ...ـ وـقـدـ كـانـ حـظـهـ مـنـ كـبـرـ الـجـرـائـدـ

كحظه من أكابر العلماء ، فإن جريدة المؤيد قرظته تقرظاً جعلته في منتهى البلاغة.... أفيال المنار بعد هذا كله أن أطال القول فيه" ٣٤١

عرف رشيد في البداية الكتاب وصاحبه ، ثم كشف عن محتواه ، وأنه كتاب أدب أريد به تتفيف الأدباء وتوجيههم إلى الكلام العالي ، ثم عرض لما ناله الكتاب من العناية والشهرة بسبب تقرظ العلماء والأدباء والصحف المشهورة له ، وهذا ما حدا برشيد إلى طلب الكتاب ودراسته ، فوجده دون مستوى النقد الحقيقي لعموم فساده ، وقلة الأدب الصحيح فيه، فاكتفى بعرض ما في الكتاب من نثر ونظم ، من أحسنها وأضعفها ، لأن هذا كاف في نظر رشيد في إقناع القارئ بما في الكتاب من الهزل الشديد ، الذي لا يخفى على أحد ولو كان قليل البضاعة في الأدب ونقده ، حتى إن بعض القراء ليتدار إلى أذهانهم أنه حصل تحريف أو تصحيف فيما نقله رشيد من نصوص الكتاب ، وكان قصد رشيد في نقده اللاذع لهذا الكتاب ، تتبيله العلماء والأدباء والجرائد ودور النشر إلى عدم التساهل في نشر الكتب الضعيفة.

ويتجه تحليل رشيد أحياناً إلى النص الأدبي دون ملابساته فيديم النظر فيه ليضع يده على مكامن سره ، ومبعد خصائصه التي تميزه بالتفرد ، كتحليله لبيتين من قصيدة لمحمود سامي البارودي في الفخر وهما:

من النفر الغر الذين سيفهم لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استلّ منهم سيد غرب سيفه تفرعت الأفلاك والفت الدهر

يقول رشيد مبدياً إعجابه بهذين البيتين: "ويا الله ما أرق حاشية قوله: (لها في حواشي كل داجية فجر) وما أدق غزل خياله فيه، وأما البيت الثاني فإنه ليكاد يروع ببلاغته السامع ، حتى يخيل إليه أن الأفلاك تصدعت مما تفرعت ، فيلمس رأسه مخافة أن يصيبه كسف منها ، ويتمثل له الدهر رجلاً فجأه العجب فالتفت إلى السبب ، ولilikad يلتفت ما يتخيل من التفاتات الدهر ، ويلم به الدهش والذعر ، أو يذهب به الوهم إلى أن التفاتات الدهر هو التفاتات أهله ، فيحسب كل فرد من الناس قد ألوى عنقه ، وشخص ببصره مقطباً ، ينظر ما

يكون من فعل ذلك السيف ، المستل في يد ذلك البهمة الأمثل ، وجملة ما يقال في البيتين: إنهم من السحر الذي يأخذ المرء عن نفسه ويحكم سلطان الخيال في عقله وحسه ، ولكنني لا أعرف صيغة (تفزع) في هذه المادة لغيره ، ولو كان أن أجي梓 مثلها لأجزتها ، وقلت إنها مما يشتق قياسا ، فإني لا أرى لغيرها مثل روعتها" ٣٤٢

هذا الشرح المسهب للبيتين قائم كله على الصور الأدبية الثلاث التي تضمنتها الأبيات (حواشي كل داجية) و (تفزع الأفلاك) و (التفت الدهر) وهي صور قوية موحية ، تتعدد ظلالها حسب ما تؤل به من استعارة أو محاز مرسل كما يظهر من تفسير رشيد ، وأوحيت صيغة (تفزع) إلى رشيد أن الأفلاك عندما تفزع تمايزت وتقطرت وأصبحت كسفاً متطايرة ولها أعجب بهذه الصيغة غير السمعاوية التي كان يرد أمثالها لوجود ما يعني عنها من مادتها ، أما هنا فلا يرى في مادتها ما يضاهيها في الروعة.

وكما ركز رشيد في التحليل السابق للبيتين على الصور البيانية نجده في بعض الأحيان يتجه به إلى الإنشار الذي يؤدي به الشاعر إلقاء قصيده ، وهو أمر لا يقف عنده النقاد كثيرا، ويستعيضون عنه بموسيقى القصيدة ، ربما لأن الإنشار قل ، لأن معظم القصائد تنشر في الجرائد أو في الدواوين الشعرية فلا يعرف كيف أنسدتها الشاعر. يقول رشيد في سياق حديثه عن الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي: "لعمري إن إنشاده للشعر لأبلغ من نظمه له في إثارة الشعور بما شاء من شجو وشجن وحنين إلى سكن ووطن وشوق إلى لقاء حبيب وحزن على فراق عشيق أو صديق .. وإن أنس فلن أنس إنشاده إياي قول الشاعر:

وارحمنا للغريب في البلدانا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه بما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعوا
فلئن قال ابن المنير في بائته:
وما المدامه بالأباب البدو في ألفاظ تركي فصاحة البدو من

فإن لنا أن نقول: ما لعبت المدامة بالعقل، ولا عرف الفارابي بالقانون ، بما أضحك التغور ، وأثار الشجون ، وأجرى الشؤون ، وران على العيون ولا نعى جميل لبيثينة أمام دارها ، ولا كلمتها للناعي سافرة نابذة لوقارها ، بأعظم سلطانا على القلوب من إنشاد الكاظمي لهذين البيتين ، بصوته الرخيم ، ولهجته العراقية ، وقطعه للبيت بغير أوزانه الشعرية ، كوقفه على كلمة الغريب والنازح والعيش ، فإني لأنذكر الآن خفات قلبي لسماعها ، فأجد الذكرى تعيدها سيرتها الأولى^{٣٤٣}

ويهدى إليه ديوان المواكب لجبران خليل جبران ، فيقرظه وينتقده ، كما ينتقد صاحبه بأنه يمزج شعره بالفلسفة النظرية ، التي يميل إليها فيشتبط في الخيال ، حتى إن قارئ ديوانه ليكاد يخرج منه خاوي الوفاض ، صفر اليدين ، هذا من حيث المعنى ، وأما من حيث الموسيقى ، فمعظم قصائد الديوان من بحر البسيط ، وقافية الراء المضمومة، وفيها أبيات لا يلتزم فيها بقافية ، وتخرج من بحر البسيط ، ثم يورد رشيد نماذج من الموكب الأول ، ويقف عند بعض الألفاظ التي تصرف فيها للضرورة الشعرية ، فيعذرها في هذا التصرف ، بل يرى أن هذا هين لأنه "قد يجيز هذا الشاعر وأمثاله من العصريين في مثل هذا ما لم يجزه علماء العربية من قبل"^٤ ثم يستوقفه قوله في الناي:

أعطي الناي وغنى فالغنى يرعى العقول

فلا يستسيغه ويعلق عليه بقوله: "وينظر ما معنى قوله: فالغنى يرعى العقول فهو من مبهماته التي يقف فيها الذهن حائراً"^{٣٤٥}

٤-نقد القصة والرواية: أفردت القصة والرواية بالحديث ، مع أن الحديث عن نقد رشيد يشملهما ، لأنه اهتم بما اقتضى هذا التخصيص ، وهو أن القصة فن جديد لم يكن الأدب العربي القديم يعرفه ، وكانت في أيام رشيد وليدة وناشئة ، ومعظم نماذجها كان مترجمًا من الآداب الأجنبية ، وبما أن الغالب

^{٣٤٣} المنار: ٧٣/١/٣٥

^{٣٤٤} المنار: ٥٥٩/٧/٢٧

^{٣٤٥} السابق: ٥٥٩/٧/٢٧

على موضوعاتها غرامي وفي لغتها تسامح كبير، فقد كان من المفترض أن لا يتحمس لها رشيد ، بحكم منزلته الدينية ، وجنوحه إلى الأدب الرفيع الفخم معنى ومبني ، ولكننا نجد رشيد رضا على العكس من ذلك يحتفي بها ، ويروج لها ، ويبحث الأدباء والكتاب على الكتابة فيها ، لأنه أدرك دورها الخطير في التأثير على الشباب وفي توجيه المجتمع ، كما قال: "إن قراءة القصص المعروفة (بالروايات) من أنجح الذرائع في نشر الأفكار الصحيحة بين طبقات القراء ، ومن أكبر وسائل التهذيب ، ولها شأن عظيم في البلاد المتقدمة ، وقد انتشرت الروايات بيننا باللغة العربية ، ما بين منشأة ، ومعرية لكن أكثرها غرامي"^{٣٤٦} ومن مظاهر اهتمام رشيد بالقصص أنه قرط بقلمه في مجلة المنار وحدها نحو مائة قصة ، وكان يعشق قرائتها كما يفهم من قوله في تقديم بعض الروايات: "والرواية عذبة قرأتها في سهرة واحدة ، على أني لست من المغermen بقراءة القصص والروايات"^{٣٤٧} وقد لامه قراء المنار على تقريره قصة (الحجاج بن يوسف) لجري زيدان لأنها تمس الصحابة^{٣٤٨} علامة على حثه الكتاب على الإسهام في كتابة القصص والروايات ، في مثل قوله في تقديم بعض الروايات: "فتح الكتابة على إنشاء الروايات في هذا الموضوع المفيد ، وعسى أن يواصلها مؤلفها الأديب الجري في هذا المضمار مع مراعاة حسن السبك وسلامة العبارة مع سلامتها التي هي فيها ، مما أجرد المعنى الصحيح في الأسلوب الفصيح"^{٣٤٩} وفي هذه العبارة إشارة إلى ما يمكن أن نعده أساس بناء القصة الجيدة لدى رشيد رضا وهي الموضوع المفيد وحسن السبك وسلامة العبارة ، فالمعنى الشريف أو الموضوع المفيد شرط عند رشيد في جودة القصة وفي غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى كما ذكرنا سابقاً ، وكان هذا محور نقه فيما يرد إليه أو يقع في يده من القصص أو الروايات ، وخير مثال على ذلك ما أجاب به الكاتب

^{٣٤٦} السابق: ١٢٩/٧/١

^{٣٤٧} السابق: ٧٠٠/٤٤/٢

^{٣٤٨} السابق: ٣٩٧/١٠/٥

^{٣٤٩} المنار: ١٢٩/٧/١

نقولا أفندي رزق الله الذي أرسل إليه قصته (حواء الجديدة) قبل نشرها يطلب منه رأيه فيها ، فكتب إليه رشيد رأيه ، ثم نصحه بقوله: "وأرجو أن تتroxى فيما ستكتب الغاية والفائدة أكثر مما تتroxى حسن الوضع ولطف التعبير وقوه التأثير ، وأجدر بمن يعرض عمله لنقد الرجال أن يبلغ منه غاية الكمال" ٣٥٠ وأما حسن السبك وجمال البناء ودقة ترابط أحداث القصة فعنصر مهم لا تستغنى عنه القصة عنده ، لأنه يضفي عليها المنطقية ، ويقربها من الواقع كقوله: "غرائب الاتفاق قصة طويلة تدخل في ثلاثة أجزاء بنيت حوادثها على المصادرات الغربية التي لا تكاد تقع ، ولكن حسن البناء يقربها من الأذهان" ٣٥١ وقد نقد إحدى الروايات لما ورد فيها مما يضعف واقعية الحدث وهو أن العشيقين كانا يجتمعان ويسهران معاً بعلم أبيهما ، وهذا كما يراه رشيد رضا بعيد حدوثه في المجتمع المصري ٣٥٢ ونقد قصة أخرى لأن اسمها لا يطابقها أو يناسبها ٣٥٣ وأما اهتمام رشيد بلغة القصة فيأتي في الدرجة الثانية بعد المعنى من حيث الأهمية ، ولا يكاد ينسى أن يضمن نقده للقصة نقد لغتها تنويها أو تفقيضاً ، كقوله: "أحسن القصص التي تنشر في مصر لهذا العهد عبارة ما عربه فقيه التحرير نجيب أفندي الحداد..." ٣٥٤ وكلما اقتربت لغة القصة أو الرواية من لغة الأدب العربي القديم ، وأظهر الكاتب فيها التفنن في القول ، نالت استحسان رشيد ، وهذا ما نستتجه من تقريره قصة (شفاء المحبين) للكاتب العنجوري ، حيث يقول: "فـلما رأيت ترجمة لأحد من الكتاب المعروفين كترجمة هذه القصة تكثر فيها فرائد اللغة التي هجرها الكتاب لقلة اطلاعهم ، وتزين بالأمثال والاقتباس والتضمين ، وحل المنظوم من كلام الشعراء الأولين المجيدين ، وتقل فيها الأغلاط الشائعة الآن" ٣٥٥

^{٣٥٠} السابق: ٧١٧/٩/٩

^{٣٥١} السابق: ١٢٩/٨/٩

^{٣٥٢} السابق: ١٢٩/٧/١

^{٣٥٣} السابق: ١٤١/٢/١٠

^{٣٥٤} المنار: ٥٩٣/١٥/٥

^{٣٥٥} المنار: ٣٠٢/٤/١١

الفصل الثالث

الدراسة الفنية لأدب السيد رشيد رضا

المبحث الأول :

الدراسة الفنية لشعر السيد رشيد رضا

المبحث الثاني :

الدراسة الفنية لنثر السيد رشيد رضا

المبحث الثالث :

الدراسة الفنية لنقد السيد رشيد رضا

المبحث الأول : الدراسة الفنية لشعر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : شعره التقليدي

ذكرت فيما مضى أن شعر رشيد رضا يستقى من ثلاثة مصادر أولها : مجلة المنار ، وثانيها المقصورة الرشيدية ، وثالثها ديوانه ، الذي سماه (ديوان السيد) ، ويستقيم هذا التقسيم الثلاثي مرة أخرى عند دراسة شعره دراسة فنية ، فقد نجد رشيد شعره ، وقسمه إلى قسمين ؛ قسم تقليدي قاله في مبدأ حياته الشعرية وقسم عصري قاله بعد أن تتفق بالثقافة العصرية ، وبذا للباحث أن شعره في ديوانه لا ينتمي من حيث خصائصه الفنية إلى أي من القسمين السابقين ، فهو إذا قسم ثالث.

أما القسم الأول من شعره ، الذي وسمه بأنه تقليدي فأكثره المراثي التي قالها في مشايخه ، وفي أعيان بلده ، والمدائح التي نظمها في مناسبات مختلفة ، وهذا النوع من شعره منشور في مجلة المنار ، وفي بعض كتبه ، وهو على شكل مقطوعات ومحاترات أو بالأحرى مجترءات أوردها رشيد للاستشهاد والتمثيل ، وكأنه أراد أن لا يرى عنه ، ومن ذلك قوله في رثاء نسيب له :^١

لَا حَوْلَ لِلْخَلْقِ مِنْهُ بِالْخَلَاصِ وَلَا

فَإِنَّهَا كَخِيَالٍ عِنْدَ مَنْ عَقَلَ

تَدْرُوْهُ قَدْ ضَرَبَ الرَّحْمَنُ ذَا مَثَلًا

وَمِنْهَا :

إِنْ كُنْتَ فِي غُفَلَةٍ فَإِنَّهُ مَا غَفَلَ

مُؤْذِنُ الْمَوْتِ نَادَى النَّاسَ حَيْ عَلَى

ويذكر رشيد أن هذه القصيدة - وهي أول قصيدة ظهرت له - نالت استحسان الناس ، بدليل أن أحد المشايخ ، المشهور بحسن صوته ، أنسدتها في حفل التأبين ، نيابة عن رشيد رضا ، ولما علم شيخه حسين الجسر أن القصيدة له ، أكبرها ، وجعل ينشدتها للناس في مجالسه الأدبية ، وبنوه ب أصحابها ، مما يدل على مناسبتها لذوق عصرها ، غير أن رشيدا انتقدتها فيما بعد ، وعدها من قصائد التقليدية ، التي لا

تناسب العصر ، لأن أسلوبها عظي ، وما تخلعه على الفقيد من صفات المدح لا يراعي فيه خصوصية المدح. يقول رشيد : "فهذا أسلوب وعظها ، ويشبهه أسلوب مدح الفقيد. وأما معانيها فهي تقليد للمأثور في المراثي من المبالغة في المدح ، بما يقصد به حسن اللفظ ، و المناسبة لصنف المدح ، ومركزه الاجتماعي ، دون مطابقته للواقع أو عدمها".^٢

ولا يرى رشيد رضا أن هذا القسم من شعره ضرب واحد في القيمة الشعرية ، بل إن بعضه يعلو على بعض. يقول في هذا : "ثم إنني في أثناء طلب العلم رثيت من توفي من كبار علمائنا ، وأصدقاء والدي ، بل أصدقاء بيتي ، بما هو أرقى أسلوبنا ، وأقوى مناسبة ، وأصح معنى ، وفي مقدمتهم شيخ الشيوخ محمود نشابة ، والأستاذ الشيخ عبد الغني الرافعي ، والمرشد الأكبر الشيخ أبو المحاسن محمد القاوقجي .."^٣ ولكن لا يبدو أن هذا ليس على إطلاقه ، فإن مرثية الشيخ محمود نشابة ليست بأرقى في مجملها من مرثية نسيبه ، ولنتأمل فيها :^٤

ووارثُ المصطفىٰ فِينَا وَنَائِبِهِ شِيَخُ الشِّيُوخِ إِمَامُ الْعَصْرِ أَوْحَدُهُ
يَمِّ الشَّرِيعَةِ رَاسِيهِ وَرَاسِيهِ فَلَكُ الْطَّرِيقَةِ أَوْ دُرُّ الْحَقِيقَةِ فِي
حَلِّ الْعَوِيْصِ إِذَا أَعْيَثْ مَذَاهِبَهُ وَمَرْجِعُ الْكُلِّ فِي حَمْلِ النُّصُوصِ وَفِي
مُوْدِ الْخَلَائِقِ مَنْ جَلَّتْ مَوَاهِبُهُ رَبُّ الْحَقَائِقِ مِكْشَافُ الدَّقَائِقِ مَدِّ
وَزَاحَمَتْ مَنْكِبَ الْجَوَازِ مَنَاكِبَهُ مَنْ حَلَّقَتْ هَامَةُ الْأَفْلَاكِ هَمَّتْهُ
وَلَيْسَ تُحَصِّنَ بِتَقْيِيْبِ مَنَاقِبِهِ مَنْ لَا تُحَدِّ بِتَعْرِيْفِ مَعَارِفِهِ
وَلَانَّ عَنْ رِفْعَةِ الْنَّاسِ جَانِبَهُ مَنْ كَانَ عَنْ خَشِيَّةِ اللَّهِ مُنْكِسِرًا
وَأَفَقَتْ الْبِدْعَةُ السُّوْدَا قَوَاضِبَهُ مَنْ أَحْيَتْ السُّنْنَةَ الْغَرَّا مَأْثِرَهُ
وَالْكِتَبُ كَمْ أَلْفَتْ مِنْهَا كَتَابَهُ وَمَا قَوَاضِبُهُ إِلَّا يَرَاعِتُهُ

ويقينها تجرى على هذا المنوال ، فلا ترى فيها إلا أوصافا متراكمة ، بصورة تقريرية خالية من الخيال الشعري ، علاوة على ما فيها من المبالغات المسرفة في كل شيء

^٢ - المنار والأزهر : ١٨١

^٣ - المسابق : ١٨٢

^٤ - المنار: ٢١/٥٥٣

، فشيخه شيخ الشيوخ ، وفالك الطريقة ، ودرّ الحقيقة ، و ويم الشريعة ومرجع الكل ، وصاحب همة تحلق هامة الأفلاك ، و معارفه ليس لها حدود.

ونحوها مرثية شيخه عبد الغني الرافعي ، الذي توفي بمكة حاجا ، فرثاه بقوله:^٥

طوبى لمن بجوار الله قد نزلا
وقد أعد له جناته نُزلا
في معهد القرب من كأس الشهد طلا
ويا هنيئاً لمن أسقاهم سيده
ومنها :

شمس الرشاد ، ويدر الهدى قد أفلأ^٦ نعم لقد مات علم لدين الله وانكفت

نصف^٧ منا وجد الفقه قد عطلا نعم لقد قبضت روح التصوف ولا

واصطلم التمكן مرتاحلا^٨ ين نعم قد اخترم التبيين واحتكم التلو

وهي كسابقتها في التقريرية والمبالغة ، التي تدل على أن الشاعر لم يكن له هم سوى إضفاء كل ما خطر في باله من الصفات الحميدة على الفقيد ، على سبيل المبالغة المفرطة ، وهذا أشبه بكلام نائحة منه بإلهام شاعر ، حركت موهبته غائلة الموت ، التي حلت بساحة شيخه الحبيب وهو في الغربة ، أو هو شعر عالم يعتمد على معرفته بفنون اللغة ، لكي يصنع ما عرف بشعر العلماء ، لا شعر الشعراة الذين يغترفون من خيالهم الشعري ، ومن وحي إلهامهم.

وأمثل من القصيدين السابقتين ، ومن الأولى التي انتقدتها رشيد مرثيته في الأمير

أحمد حسان الأيوبي ، وهي قوله:^٩

والنعش مثل المهد للأولاد إن المنية غاية الميلاد
بعد الفنا وزيارة الألحاد والله قد برأ الخلائق للبقاء
وبيها كمال الخلق والإيجاد والموت باب النشأة الأخرى لنا

ومنها :

أطبيعة ذا الحزن ليس يشدُّ عن
ناموسه فردٌ من الأفراد

^٥ - المنار: ١٥٨/٣/٢١

^٦ - لا يستقيم وزن الشطر الأول ، والضمة في "الهدى" في الشطر الثاني تفسد الوزن ، والظاهر أن هذا من الطابع.

^٧ - هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : الإنفاق

^٨ - في توزيع البيت خطأ ، ولعل الصواب "التمكين" بدل "التمكن"

^٩ - المنار والازهر : ١٨٢

ديان من هذِي لنا ورشادُم ذاك مما أوجَبَتْه شرائعُ الأَ
 كل الشعوب بهذه الأصفاد أم ذلك العقلُ السليمُ قضى علىَ
 لكنه ضَرَبُ من المعتاد كلا فليس الأمر ضربةً لازِبٍ
 ليس بنهج العقل ذاتَ سداد فاخْلَع سَرَابِيلَ العوائد إن تكنَ
 كيما ثَافِحَ جيشَها بِجَهَادٍ وتقَدَّمَ الحزمُ الشَّرِيفُ كصارمٍ
 تَرْثُو بها لولادة الأَوْلَاد فانظُرْ لموتِ الناس بالعينِ التي
 طرفانُ مُسْتَوْيَانَ لِلنَّقَاد هاتِيكَ مَبْدُونَا وهذا تَمْنَا
 بالاعتبارِ به والاستعداد بِل آخِرُ الطرفينِ خيرُهُما فَخُذْ
 ومنها في وصفِ الأميرِ الفقيدِ ووصفِ جنازتهِ :
 إلا كبعضِ الضَّيْفِ والقُصَّاد قد جاءَهُ هذا الحِمَام فلم يكنَ
 فسخاً بها فاعْجَبَ لذِي الإِرْفَاد لم يَرْضَ إلا نفْسَهُ منهُ قرِيَ
 بل ظَلَ كالأَطْوَاقِ في الأَجْيَاد وَقَضَى الأَمْيَرُ وما قَضَى إِحْسَانُهُ
 بِمَوَاقِبِ الأَعْرَاسِ وَالْأَعْيَادِ حُفْتَ بِهِ زُمْرَ وَسَارَ كشَائِنَهُ
 قد كانَ إِذ يَعْلُو مُتُونَ جِيَاد دَلَفَاً عَلَى الأَعْنَاقِ لَا عَنَقَاً كَمَا
 (أَعْلَمْتَ مِنْ حَمَلُوا عَلَى الأَعْوَادِ) وَسَرِيرُهُ الْمَرْفُوعُ أَفْصَحَ مُنْشِداً
 (أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي) ما ذاكِ إِلا الْبَدْرُ أَمْسَى آفَلَا
 هذه المرثية مع تقليديتها أرقى أسلوباً ، وأصح معنى ، وأقرب مناسبة من
 سبقاتها لأن الشاعر حاول أن يتأمل ظاهرة الموت ، وأن يتذمر فيما يصاحبها من
 جزع الناس منه ، وبكائهم على صرعاهم ، واجتهد في تفسير ظاهرة الموت بما قد
 يخفف من وطأته على الناس ، ثم مدح الأمير بما اشتهر به من الكرم ، وبصفات
 تناسبه ، وإن كانت معهودة تقليدية ، ومقابلته بين موكب جنازته ، ومواكبه في
 المناسبات المختلفة في حياته ظريفة وجميلة.

أما مدائِه في هذه المرحلة فعلى نمط مرايَّه في خصائصها الأسلوبية
 التقليدية ، ومنها موشح في تهنئة صديق له بمناسبة زفافه ، وقد انتقدَه رشيد
 واستضعفه بقوله: "وتشفع لي البداية في ضعفها." ¹⁰ ومنها :

أُسْقَطَ الْطَلْ فِي نَبْتِ الْحَمَى ؟	أَمْ لَآلَ فَوْقَ بَسْطَ السَنْدَسْ ؟
أَمْ نَجُومُ تَتَرَاءَى فِي السَمَا	أَمْ ثَغُورُ زَيْنَتْ بِاللَعْسِ
وَمِنْهُ	
يَا عُرَيْبَا تَخْذُوا نَبْتَ الْلَمَى	عِنْدَ فَقْدِ الْحَرَثِ مِنْهُ بَدْلَا
وَبِقَلْبِيْ قَدْ تَرَكْتُمُ الْمَا	لَمْ يَغْاَدِرْ لِنْجَاتِيْ أَمْلَا
لِي مِنْكُمْ غَادَةً لَمْ يَدْرِ مَا	بِفَوَادِيْ طَرْفَهَا قَدْ فَعْلَا
حَيْثُ قَالَتْ حِينَ زَارَتْ رِيَثَمَا	نَقْفَ الْأَنْجَمِ بَعْدَ الْغَلْسِ
اَحْذَرُ الْأَنْسَ بِغَيْرِيِّ إِنْمَا	كَنْتَ إِنْسَانًا لَفْرَطَ الْأَنْسِ
وَمِنْهُ	
مَدْحَهُ فِي :	
لِسْنَ إِنْ نَظَمَ الشِّعْرَ غَدَا	يَتَرَاءَى فَوْقَ طَوْقَ الْبَشَرِ
تَنْصُتُ النَّاسُ إِذَا مَا أَنْشَدَا	كَيْفَ تَصْغِي لِاسْتِمَاعِ السُّورِ
كُلَّمَا كَرَرَ يَحْلُو مُورَدًا	وَهُوَ لَمْ يَهْجُرْ لَفْرَطَ الْخَصْرِ
مَا أَبُو الطَّيْبِ إِمَا نَظَمَا	وَابْنَ هَانِي شَاعِرُ الْأَنْدَلُسِ

فهي بموضوعها و قالبها و معناها تسلك في قصائده في مرحلة التقليد ومحاكاة طريقة القدماء ، وفيما يلي خصائص شعر هذه المرحلة :

الخصائص الفنية لشعره التقليدي 11

بالنظر إلى موضوعات شعره في هذه المرحلة ، يلاحظ أن رؤيته الشعرية كانت مقصورة في تسجيل المناسبات الاجتماعية ، بما يناسب ذوق المجتمع ، فكان يبادر - وكأنه يريد اعتراف المجتمع بشاعريته - إلى رثاء من تخترمه المنية من أعيان بلده ، من العلماء والشيوخ والزعماء ، لكي تتشد قصائده في حفلات التأبين ، وذكر رشيد بعض من رثاهما ، فقال : "وفي مقدمتهم شيخ الشيوخ محمود نشابة ،

١١ - أي المرجعية التي تؤطر فكر الأديب أو المفكر أو الطريقة التي ينظر بها إلى الكون من حوله. انظر: الرؤيا والتشكل في الأدب المعاصر: د. أحمد عثمان رحمني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ ، ص ٥٩

والأستاذ الأكبر الشيخ عبد الغني الرافعي ، والمرشد الأكبر الشيخ أبو المحاسن محمد القاوقجي ، وقد تقدم ذكرهم في هذه الترجمة ، وكذا العالم المرشد الشيخ عبد الرزاق الرافعي ، والشيخ عبد القادر الميقاتي إمام الجامع الكبير في طرابلس ومرثية هذا نظمت في ساعة ، وقرئت عقب دفنه ، وسائر المراثي أنشدتها في حفلات التأبين ، في الجامع الكبير في اليوم الثالث للوفاة ، أو للعلم بها ، فإن الشيخ عبد الغني والشيخ القاوقجي توفيا في الحجاز ، وقد دفنا في مكة المكرمة ، ولم أرث من وجهاء الدنيا إلا الأمير أحمد حسان الأيوبي ، من سروات الكورة (جبل لبنان) رثيته بأمر والدي.¹²

لم يورد من هذه المراثي إلا نماذج بسيرة لأربعة منها ، كما أنه لم يذكر من مدائنه في هذه المرحلة إلا نموذجا واحدا ، وهو الموشح السابق ، ويفهم من كلامه أنه قال عددا من القصائد في هذا الغرض ، وذلك حيث يقول : "وكنت أكره المدائح والتهانى الشعرية ، ولكنني لاشتهرى بالشعر كنت مضطرا إلى إرضاء بعض خواص الأصدقاء بشيء منها".¹³

يستخلص من هذه أن موضوعات شعره في هذه المرحلة تتحصر في الأغراض التقليدية ، وخاصة في غرضين اثنين هما المدح والرثاء ، ويرى الباحث أن الشاعر تأثر في اتجاهه هذا بعوامل عدة منها :

أن هذا الشعر يمثل باكورة شعره ، الذي توجه به إلى مجتمعه ، لانتزاع 1- الاعتراف منه بشاعريته ، والإقرار ببنوته ، ولهذا كان يتحين المناسبات الاجتماعية (حفلات التأبين - حفلات العرس) لإذاعة شعره.

أن ذوق المجتمع كان يحبذ مثل هذه الأغراض المألوفة له ، التي درج على 2- اجتارها عبر القرون ، ولهذا نجد أستاذه حسين الجسر - الذي وجهه فيما بعد إلى مجال الشعر العصري - يعجب بأولى قصائده التقليدية ، ويشيد بها في مجالسه الأدبية.

^{١٢} - المنار والأزهر: ١٨٢

^{١٣} - السابق ١٨٣

أنه كان يجاري المجتمع في بعض هذه القصائد ، لأنه كان مضطرا إلى ٣- استجابة بعض طالب خواصه وأهل بيته في قول الشعر في المناسبات العزيزة عليهم ، وهذا ما صرخ به في قوله السابق : "وكنت أكره المدائح والتهانى الشعرية ، ولكننى لاشتهرت بالشعر كنت مضطرا إلى إرضاء بعض خواص الأصدقاء بشيء منها".^{١٤} قوله : "ولم أرث من وجهاء الدنيا إلا الأمير أحمد حسان الأيوبي من سروات الكورة (جبل لبنان) رثيته بأمر والدى".^{١٥}

أنه لم يكن قد اطلع بعد على ثقافة العصر ، وشئون الاجتماع ، فلم يكن ٤- بمقدوره أن يخرج من فلك المأثور ، الذي تكون فيه قبل أن تتاح له فرصة الاطلاع على ما يغايره ويثير فكره وتجاربه.

هذه هي أبرز العوامل التي طبعت شعره في هذه المرحلة بطابع التقليد ، الذي اعترف به رشيد رضا ، ووسم شعره بمسميه.

المبالغة في المعاني والصور

ومن السمات الفنية المتصلة بمعانيه ومضامينه الشعرية جنوحه إلى المبالغة في الصفات والتهليل في الصور ، ولعل طبيعة الموضوعات التي اهتم بها في هذه المرحلة كان لها صلة قوية بهذه الظاهرة ، وكل قصائده المتبقية من شعره في هذه الفترة طافحة بهذه السمة ، فمن ذلك قوله في رثاء شيخه محمود نشابة :^{١٦}

مراة الكون وارتاعت مغاربه خطب أصاب فؤاد الشرق فانفطرت
ومن مكوبه انقضت كواكبه قد مزق الإفك العلمي أطلسه
وعرّا تجوب مجاهيلًا جوابه ومنهج العلم أمسىاليوم مسلكه
قامت على (مسلم) تبكي نوادبه وصدر (شرح البخاري) ضاق فيه وكم
فالدين من بعده ضاقت مذاهبه لئن بكي تابعو النعمان مذهبته
دروس مذهبة وارتاع طالبه هذا (ابن إدريس) بعد الشيخ قد درست

^{١٤}- المنار والأزهر: ١٨٣

^{١٥}- السابق: ١٨٢

^{١٦}- المنار: ١٥٥/٣٣/٢١

إن المبالغة في هذه الأبيات تبدو واضحة ، فمظاهر الكون شاركت في الحزن على المفقود ، بل كان نصيتها أوفي ، بحيث انفطرت مرارة الكون قاطبة ، بعد أن أصيب فؤاد شرقه وارتاعت مغاربه ، وتوعرت مسالك العلوم الدينية من بعده ، فلا معول عليه في علوم السنة ، ولا في فقه المذاهب ، فالشاعر يتکي على المبالغة والتهويل في تلوين معانيه. ومثل هذا يقال في النماذج المتقدمة من مراثيه ومدائمه.

مصادر ثقافته الشعرية

تلوح في معانيه طوابع ثقافته الدينية والصوفية والفلسفية ، حيث يضفي على من رثاهم صفات التقوى والصلاح ، والزهد والتصوف ، والرسوخ في العلم ويشير إلى نوع العلوم التي برعوا فيها ، كما تتردد في شعره بعض المصطلحات الصوفية والفلسفية مما يعكس مخزونه الثقافي الذي يستمد منه معانيه الشعرية.

الخصائص اللغوية والأسلوبية

لغة رشيد رضا في شعر هذه المرحلة لغة سهلة ، قليلة الغريب ، وهذا أمر يثير التساؤل ، لأن رشيدا كان من دعاة إحياء موات اللغة باستخدام المفردات الغربية في اللغة الأدبية المعاصرة ، كما كان يدافع عن اتهما بالتقعر ، واصطياد أوابد اللغة وشواردها^{١٧} إضافة إلى أنه كان في هذه المرحلة مقدما ، ومحاكيا لطريق الأقدمين ، ولعل مرد ذلك إلى قلة محفوظه للغريب في هذه المرحلة المبكرة ، وسيظهر في شعره العصري ما قد يثبت ذلك.

تشير في لغته الشاعر ألفاظ مستمدة من قاموس الصوفية مثل : شيخ الشيوخ - فلك الطريقة - در الحقيقة - رب الحقائق - روح التصوف - كأس الشهد - ناموس)

18

يكثُر من استخدام أسلوب الاستعارة ، بالمقارنة إلى الصور البينية الأخرى وتضفي الصور الاستعارية على شعره مسحة من التفاعل والحركة ، كقوله:^{١٩} (حافت

^{١٧} - المنار: ٤٢٢/١٨/٣

^{١٨} - السابق: ١٥٥/٣/٢١

^{١٩} - المنار: ١٥٥/٣/٢١

هامته - زاحمت همته - منكب الجوزا - كان منكسرًا لخشية الله - لأن جانبه - أحيت مآثره السنة - أفت قواضبه البدعة - ألفت كتبه الكتائب - فؤاد الشرق - انفطرت مرارة الكون - ارتاعت مغاربه - مزق أطسه - صدر شرح البخاري ..) وهي كثيرة وشائعة في شعره ، وإن كانت من النوع المأثور ، أما التشبيه والكناية فهما قليلاً الورود في نماذج شعر هذه المرحلة.

يقل احتفال الشاعر بالمحسنات البدعية في شعره في هذه المرحلة ، فلم يرد منها إلا نزر يسير مثل :²⁰

- المقابلة : أحيت السنة الغراء .. أفت البدعة السوداء -
- الطلاق : قضى الأمير وما قضى إحسانه. -
- الجنس : (الكتب - كتائب) (تراب - ترائب) (الثار - ثراه) (نَزْلَا - نُزْلَا)
- (راسيه - راسبه) (إنسانا - الأنس)
- الاقتباس والتضمين :²¹ (لا تغرنك الدنيا - إذا ما الذاريات أتت تذروه - حي على - أعلمت من حملوا على الأعواد -رأيت كيف خباء ضاء النادي)

ويلاحظ تكرار الشاعر لبعض الأساليب ، مثل كلمة (قد) التي كررها تسعة مرات مقتربة بأفعال ماضية في مقطوعة من تسعة أبيات ، في مرثية أحد شيوخه ، كأنه أراد أن يؤكد بها ما عبر عنه بتلك الأفعال من الفجيعة والفراغ الهائل الذي لا يصدق ، وكأنه يجادل منكرا.

وكرر كذلك كلمة (من)²² الموصولة خمس مرات في نموذج من خمسة أبيات متتالية ، كما كرر كلمة (مثوى) ثلاثة مرات في ثلاثة أبيات متتالية ، وكرر اسم الإشارة (ذا - ذاك - ذلك) ثلاثة مرات في ثلاثة أبيات متتالية أيضاً.

الخصائص الموسيقية

النرم السيد رشيد رضا بأصول القصيدة العربية العمودية في الموسيقى ، فلم يخرج عن الأوزان المعهودة ، ونظام القافية المتبوع ، وإذا عدنا ما تبقى من قصائده

²⁰- انظر : المنار: ١٥٥/٣/٢١ و ١٥٥/٣/٢١ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٦٣/١/٣ ، والمنار والأزهر: ١٨٣ - ١٨١

²¹- لقمان ، آية : ٣٣ ، الذاريات ، آية: ١:

²²- المنار: ١٥٥/٣/٢١ ، السيد رشيد رضا: ١١٠

في هذه المرحلة ، وهي أربع قصائد ، وجدنا أن اثنتين منها في بحر البسيط ، وواحدة في بحر الكامل ، والرابعة موشح من بحر الرمل ، وهي الوحيدة التي فيها خروج عن النظام الخليلي إلى نظام كان يعد في أيامه من الظواهر الموسيقية القديمة ، وكان هذا الالتزام قناعة من رشيد رضا بضرورة مراعاة القوالب الفنية لقصيدة العربية التقليدية ، ولهذا يقول : " ومن أراد الشعر العربي ، فلا بد له من معرفة أوزانه ". ²³

المطلب الثاني : شعره العصري

رؤيته الشعرية

تطورت نظرة رشيد رضا إلى الشعر في هذه المرحلة ، التي رقي فيها فكره ، وازدادت ثقافته العصرية ، وسما على المؤثرات المحلية ، وتصدى للإصلاح والتوجيه ، فآمن بأن للشعر رسالة أبل من اتخاذه زينة وتسليمة في المناسبات الاجتماعية ، أو التوجه به إلى الأشخاص رثاء أو مدح ، وتمثل هذه الرسالة في توجيه المجتمع ، وتهذيب سلوكه ، وتنمية مداركه ، وتربيته بالفضائل الاجتماعية ، وهذا ما سماه رشيد بالشعر العصري ، وللعصريه عنده مفهومان ؛ **المفهوم الأول** أن يكون موضوع الشعر شريفاً لأن يخدم القضايا العليا التي تهم المجتمع والإنسانية جماء ، من الدعوة إلى الفضائل الخلقية ، والعدالة الاجتماعية وإصلاح الأمة ، ومحاربة الفساد والاستبداد والاستعمار ، وغير ذلك مما يخدم المصلحة العامة ، أو يدافع عن الحق فيما كان شكله ، أو بتعبير نceği أوضح أن يكون الشاعر ملتزماً. **والمفهوم الثاني** أن يستوحى الشعراء أفكارهم ، ويستمدوا معانيهم من الحياة المعاصرة ، بما فيها من الفنون الجديدة ، والمكتسبات العلمية ، والمخترعات الحديثة ، حتى يكون الشعر مسيراً لعصره في معانيه وأخلاقه ، وحتى لغته ، إذ كان رشيد يدعو إلى إطلاق الكلمات العربية الميّة القابعة في بطون القواميس ، على المسميات الجديدة ، بدل اللجوء إلى التعريب، يقول في هذين المفهومين : "إن الشعر ينبغي أن يكون في كل عصر مناسباً لحالته ، وأنه ينبغي للمشتغلين بهذه الصناعة ، أن ينظموا في المواضيع الشريفة ، ويصوغوا المعاني الجديدة ، التي تعطيها الاختراعات الصناعية والاكتشافات العلمية".²⁴

ويشرح معنى المواضيع الشريفة فيقول : "فنحن في أشد الحاجة إلى الشعراء والمنشئين ، الذين يصرفون قوتهم الخيالية إلى جذب وجдан الأمة إلى الفضائل الاجتماعية ، التي ترقى بها ، وتساوي الأمم العزيزة ، وتجول في ميادين المعلومات التي انتهت إليها المدنية الحاضرة".²⁵

ولم يكتف في تقرير ذلك نظرياً ، بل نجده مطالباً به في نقده التطبيقي ، حيث يقول في تقرير الجزء الثاني من ديوان حافظ إبراهيم : "قد طبع الجزء الثاني من ديوان حافظ أفندي إبراهيم ، وهو أرقى من الأول نظماً وموضوعاً ، فإن معظم قصائده في الأمور العامة ، من اجتماعية وسياسية .. وبهذا صار شعر حافظ عزيزاً شرifa ، فلولا شرف معناه لما سلم من الابتذال".²⁶

فشرف شعر حافظ بشرف معناه ، دون غيره من مقومات الشعر ، بل يصرح بأنه لا يسلم من الابتذال ، ولكن يغترف ذلك بشرف مضمونه ومعناه. ويقول أيضاً في تقرير ديوان الشوقيات : "إذا وفق صاحب الشوقيات ، للنظم في انتقاد العادات ونحوه ، من المواضيع الاجتماعية ، ينفع أمته نفعاً يحفظ له التاريخ ، ويشكره له الله والناس ، وبهذا يكون الشعر من أفعى وسائل التهذيب ، وأجل حاجات العمران".²⁷

إذا تمهدت هذه الرؤية الشعرية ، التي تبناها السيد رشيد رضا في شعره العصري ، فإننا ننتقل إلى هذا الشعر ، لنقف على خصائصه الفنية ، ومرة أخرى يعين رضا الدارسين على تحديد هذا الشعر بالتعيين والتسمية ، كما يمدهم بالمؤثرات التي وجهته إلى هذه الوجهة الجديدة ، وصرفته عن المأثور الذي قضى فيه شطراً من حياته الأدبية فيقول : "ثم إنني بعد الاطلاع على شؤون الاجتماع وسياسة العصر ، بتأثير مجالس المرحوم الوالد مع أصدقائه ، وقراءة الجرائد التي كانت تأتيه (وعنده وجدت بعض أعداد جريدة العروة الوثقى) ، ثم بتأثير صحبة أستاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر ، ومطالعة المجلات العلمية كالمقطف والطبيب ، مالت نفسي لإدخال المعاني العصرية في الشعر ، فكان مما نظمته في ذلك القصيدة التي سميت (قصيدة الجاذبية) ، وقد نشرت أبياتها في المجلد الأول من المنار ، والقصيدة الجمالية ، التي خاطبت بها السيد جمال الدين الأفغاني ، في السنة التي جاء بها الأستانة ، ثم نشرتها في المجلد الثاني من المنار والقصيدة الشرقية ، التي عاتبت بها الشرق على تأخره عن الغرب ، وكان آخر ما نظمته من الشعر (المقصورة الرشيدية) ، وكان سبب نظمها اقتراح صنوبي وزميلي في طلب العلم .. أن أنظم

^{٢٦} - المنار: ٤/١/٢٩٢
^{٢٧} - السابق: ٣/٢/٥٦٦

مقصورة ، أهنه فيها بزفافه ، فنظمت مائة بيت ونيفا ، ثم بدا لي أن أتمها في معارضة الدرية ، بإيداعها معاني كثيرة من فلسفة هذا العصر ، وفنون الأدب والاجتماع المناسبة له ، ولاسيما الإصلاح الإسلامي ، الذي وقفت كل حياتي على السعي له ، ثم هاجرت إلى مصر لأجله ، فزادت على أربعين بيتا .²⁸

فقد سمي رشيد أربع قصائد من شعر هذه المرحلة ، تدخل في شعره العصري ، إحداها مقصورته التي تزيد على أربعين بيت ، والقصيدة الجمالية ، وأورد منها خمسة وخمسين بيتا ، وقصيدة الجاذبية ، وأورد منها أيضا خمسة وخمسين بيتا ، وذكر أنها كانت في الأصل نحوا من مائة وعشرين بيتا ، وأما القصيدة الشرقية التي عدها في قصائده العصرية ، فلم يورد منها شيئا ، والظاهر أنه لم ينشرها من قبل ، وضاعت مسودتها منه لقوله : "لا أحب أن يؤثر عنِي من الشِّعْرِ غَيْرَهَا"²⁹ إلا أن أج مسودة القصيدة الشرقية وأنقحها.³⁰

ويمكن عدّ قصيدة مدح بها السلطان عبد الحميد من شعره العصري ، حسب خصائصها ، وعدد أبياتها ستة وعشرون بيتا ، وهذا القدر من شعره صالح لاستخلاص الملامح الفنية العامة ، التي تميزه وتفرده عما سبقه من شعره التقليدي وما لحقه مما يغايره في الخصائص الفنية.

الخصائص المعنوية

(أ) أغراضه الشعرية

رأينا أن من شروط عصرية الشعر عند رشيد رضا أن يكون شريف المعنى ، وأن هذا الشرف يحصل بأمررين بتوجيهه إلى المجتمع ، وإلى المصالح العمومية ، لا إلى الأشخاص والأفراد بالمدح والرثاء ، وتضمينه المعاني العصرية التي تعطيها الفنون العلمية ، والمكتشفات الحديثة ، وذكر رشيد إضافة إلى ذلك أنه كان يكره المدائح الشخصية حتى في مرحلته الأولى ، ولكن الغريب أن يكون كل شعره العصري في المدائح الشخصية ، فقصيدة الجاذبية في تهئة ومدح الأمير محمد

٢٨ - المنار والأزهر :

٢٩- أي : المقصورة الرشيدية

١٨٥ - المنار والأزهر :

باشا ، بمناسبة تقلده منصباً كبيراً في الدولة العثمانية ، والمقصورة الرشيدية أصلها في تهنئة أحد أصدقائه في زفافه ، والقصيدة الجمالية في مدح السيد جمال الدين الأفغاني ، والقصيدة الرابعة في تهنئة السلطان عبد الحميد في عيد جلوسه على العرش.

أليس هذا نقضاً وتقوضاً للأسس التي وضعها لشعره العصري ؟ هذا ما يبدو واضحاً في أول الأمر ، ولكن يمكن ملاحظة أن مدحه لجمال الدين في القصيدة الجمالية ، والشيخ محمد عبده في المقصورة ليس لشخصيهما ، بل لكونهما رمزين من رموز الإصلاح الإسلامي ، الذي يدعو إليه رشيد مثهما ، ، ولهذا يمدحهما بما قدمه للإسلام وال المسلمين من نصح ، وما جاهدا في سبيل رفع أنقال الجهل والتخلف عن المسلمين ، قوله في شيخه محمد عبده بعد مدح خصه بجمال الدين الأفغاني :

مُرِيدُهُ الْوَارِثُ كُلَّ مَا حَوَى ثَمَتْ بِالْإِصْلَاحِ قَامَ بَعْدَهُ
وَغَيْرِهِ تَأَكَّلْتُ فِيهَا الْجُدُى من حِكْمَةٍ تَكْشِفُ أَحْلَاكَ الدُّجَى
تُبَيِّحُ أَسْرَارَ تَصَارِيفِ الْقَضَا وَهِمَةٍ إِنْ جُرِدتْ لِحَادِثٍ
فِرْعَوْنُهَا الَّذِي اسْتَبَدَ وَعَلَا تَازِرًا لِيُنْقِذَا الْأَمَّةَ مِنْ
دَجَالِهِ الَّذِي بِبَدْعِهِ غَلَا تَآخِيَا لِيُنْقِذَا إِلَسْلَامَ مِنْ
تَآخِيَا وَالْمُصْطَفَى وَالْمُرَتَضَى قَدْ وَرِثَا مُوسَى وَهَارُونَ بِمَا
حَرَّرَ مَا أَمْلَاهُ ذَاكُ أَوْ هَذَا وَاعْتَصَمَا (بِالْعَرْوَةِ الْوُثْقَى) فَذَا

فهو كما يلاحظ يمدحهما بتعاونهما في إنقاذ الأمة ، من الاستبداد السياسي والحكام الفاسدين ، وإنقاذ الإسلام من عبث الدجالين وغلو الغالين ، وافتراء المفترين ، فهو إذا مدح للإصلاح الإسلامي في شخص رموزه ودعاته البارزين ، ومثل هذا يقال في قصيده الجمالية ، من أنه عشق في جمال الدين - الذي لم يلتقط به ، ولم يعرفه إلا بأثاره - مذهب في الدعوة ، ومنهجه في الإصلاح الإسلامي ، وحسن بلائه في جهاده في إيقاظ الأمة ، وتنبيتها من غفلتها ، وذلك قوله :

٣١- السيد رشيد رضا: ٣٠٠
٣٢- المنار: ١٨٧/١٢/٢

كروض أرض باكرته النسائم في أيها الحبر الذي لطف طبعه
 فثم الأثابي جمة والتوائم [٣٣] وياً أوحداً في حبه لست أوحداً
 ونبت بجثمان له الأم فاطم ومن فصلت من عالم القدس روحه
 وقد كاد يقضي وهو بالجهل نائم نفخت بجسم الشرق روح تبه
 نهوضاً فحالت دون ذاك الصواكم [٣٤] فهباً بنوه للمعالي وحاولوا
 بأفاقهم غيم الونى متراكماً فأوضحت أعلام السلوك وإنما
 غزلت ولم تكسر لديك المبارم [٣٥] غزلت ولم ينسج سواك دقيق ما
 هي العروة الوثقى لمن هو حازم وأبديت من سحر البيان عجائبًا
 إرادتكم ما قاربته المآزمولو أن أعمال الإدراة قارنت
 لها جاهم أو مكره وهو عالم ولكن أباها الحاكمون فكاره
 وللوجه سلطان على النفس حاكم يدلية شيطان العدا بغروره
 مفانم هذا الشرق فيهم مغامر فأواه من دهر يقدم معشراً
 فهذا لا يشبه مدحه التقليدي ، الذي يركز فيه على الصفات الخاصة بالشخص ،
 دون أن يستثمرها فيما يتجاوز الشخص الممدوح ، وإنما لمجرد إرضائه.
 ويمكن أن تفهم مدائنه الأخرى على هذه النحو ، ما عدا مدح صديقه العريض ،
 فيكون مدحه للسلطان عبد الحميد الثاني إعلاء لهذا المنصب الخطير في الإسلام ،
 الذي كان يتعرض لتهديد حقيقي من أعداء الإسلام في الداخل والخارج ، لاسيما وأنه
 مدحه بالعدالة ، وحسن السيرة في الرعية ، والحزم وسداد الرأي ، وبعد النظر ،
 والاجتهاد في تطوير البلاد في شتى المجالات ، وكأنه يرشده إلى التحلية بهذه
 الصفات ، وأما مدحه لصديقه العريض ، وتهنئته له في تلك المناسبة السعيدة فمن
 باب مدائنه القديمة ، والتقريرية فيها واضحة.

٣٣ - الأثابي : الجماعات ، والتوائم : الأزواج .

٣٤ - التوائم .

٣٥ - المغازل .

معانيه العصرية

أما المعاني العصرية التي زعم الشاعر أنه ضمنها شعره في هذه المرحلة فأوضح ما تجلى فيه قصيدة الجاذبية ، التي قال في تقديمها : "وكان أول نظم نظمته في ذلك قصيدة أشرت فيها إلى مذاهب المتأخرین في الشعر بصيغة الإنكار وشبيبت ذلك بالمعاني الجديدة التي تعطیها الفنون والصناعات العصرية".³⁶

وفي هذه القصيدة يذكر من أسماء المخترعات والحقائق العلمية ومصطلحات الفنون الحديثة أسلاك البرق ، والآلية الراصدة التي تقرب البعيد (التلسكوب) والصورة الشمسية ، والموجب والسلالب ، والدورة الدموية ، وتشكل السحب الماطرة من الأبخرة الصاعدة من المحيطات والبحيرات والأنهار³⁷ كما يتحدث عن بعض النظم والمفاهيم الجديدة مثل البرلمان ، والمدنية ، والحرية ، ويدح السلطان عبد الحميد³⁸ بجهوده في تطوير العلوم المختلفة في المملكة فيقول :

لِنفُوسِ الْجَمِيعِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فَأَبَاحَ الْعَمَرَانُ سَرَّ التَّرْقِيِّ
أَيْقَظَتْهَا الصَّنَاعَةُ الْعَمَلِيَّةِ فَأَفَاضَتْ مَاءُ الزَّرَاعَةِ عَيْنُ
أَحْرَزَتْ فِي مَجَالَهَا السَّبْقِيَّةِ وَأَقَامَتْ لَهَا التَّجَارَةُ سُوقًا
صَوَّحَتْهُ الْبَوَارِخُ الدَّهْرِيَّةِ وَيَغْيِثُ الْغَلُومُ أَيْنَعَ رَوْضُ
مِنْهُ عَرْفَ الْمَعَارِفِ الْحِكَمِيَّةِ فِيهِ شِمْنَا شَمْسَ الْهُدَى وَشَمِّنَا
بَارِتِقَاءِ الصِّنَاعَةِ الطِّبِّيَّةِ وَوَجَدَنَا جَسْمَ الْوُجُودِ صَحِحًا
مِنْ زَوَّاِيَا الْفُؤُونِ كُلَّ خَيْرِهِ وَرِيَاضِيٌّ فِكْرُهُ ظَلَّ يُبَدِّيَ
بَلْ عَرَجَنَا لِلْقَبَةِ الْفَلَكِيَّهِ وَتَدَلَّتْ زَهْرُ النُّجُومِ إِلَيْنَا

وفي مقدمة المقصورة الرشيدية يشرح السيد رشيد رضا بإسهاب سنة الزوجية الكونية ، فيذكر أن الصخور تولدت من اقتران الماء والتربة ، وحباب الماء من تعاكس الماء وتيار الريح ، والكهرباء من تلاقي الموجب بالسلالب ، والمطر من

^{٣٦} - المنار: ١٩٣/١١/١

^{٣٧} - السابق: ١٩١/١١/١

^{٣٨} - المنار: ١٩٣/٢٤/١

تلاع المعصرات والرياح ، وهكذا ، كما يذكر امتصاص الأشجار للكربون ، وانبعاث الأكسجين منها.^{٣٩}

هذه هي المعاني العصرية التي استقادها رضا من الفنون والمعارف العلمية والفلسفات والمبادئ والنظم الحديثة ، والآلات والاحتراكات التي توافرت في عصره.

الخصائص اللغوية والأسلوبية

بناء القصيدة

هناك ظاهرة أسلوبية تجلت في شعر هذه المرحلة ، وهي أن قصائده يمهد لها بمقيدة ، قبل الدخول في الموضوع ، أو الغرض المنشأ لها ، فقصيدة الجاذبية بدأت بمقيدة غزالية طويلة ، والقصيدة الجمالية افتتحها بمقيدة تحدث فيها عن همه وتفكيره في حال الأمة ، تخلص منها بقوله :

لَئِنْ هَامَ فِي حُبِّ الْحِسَانِ فَإِنِّي بِحُبِّ جَمَالِ الدِّينِ لَا جِسْمَ هَائِمٌ

واستهل المقصورة التي أنشأها في تهنئة عريس بمقيدة طويلة في الثناء على الله ، والتبر في عجيب صنعه ، وبديع خلقه ، وانتقل منها إلى وصف روضة ، فوصف كتاب ، وهذه من رسوم القصيدة التقليدية ، استصحبها رشيد في شعره العصري ، مما يدل على أن العصرية عنده لا تتنافى مع هذه التقاليد الفنية القديمة وإنما كان يريد التجديد في المضامين والمعاني ، وليس من المعروف ما إذا كانت هذه الظاهرة الأسلوبية خاصة بهذا القسم من الشعر الذي سماه (بالشعر العصري) أم كانت موجودة كذلك في شعره التقليدي ، الذي لم يتيسر الاطلاع على مطالع قصائده ، لأنه لم يورد منه إلا نماذج مختارة.

^{٣٩} - السيد رشيد رضا: ٢٨٥ ٢٨٧

^{٤٠} - المنار: ١٢٦/١٢/٢

اللغة

تحتوي لغة رشيد في هذه المرحلة على قدر غير قليل من غريب اللغة ، فسر بعضه ، ومعظمها يقع في كلمات القافية ، كأنه ألجأ إليها ، فمن بين عشر كلمات فسرها من القصيدة الجمالية ، وقعت ست منها في القافية ، ويكثر الغريب كذلك في المقصورة ، لأنه عارض بها مقصورة ابن دريد اللغوي ، ولما عهد من حشو الغريب في قصائد الرجز ، ولطولها الذي اقتضى من رشيد رضا أن ينفض فيها كل الكلمات المقصورة في القاموس العربي بعد التتفيق عنها ، ولذلك تمنى رشيد أن تناح له فرصة يشرح فيها ، لما توقع من كثرة الغريب فيها ^{٤١} ومع هذا فإنها أقرب إلى السهولة ، بل هي سهلة في عمومها ، وما فيها من الغريب يكاد ينحصر في الكلمات المقصورة الواقعة في القافية كما سبقت الإشارة إليه.

الصورة الأدبية

تفتتني الوجهة الجديدة التي اتجه إليها رشيد في هذه المرحلة ، وهي إدخال المعاني العصرية في شعره أن يستمد صوره البيانية من محيط هذه البيئة المعاصرة ليتلاءم المضمون مع الوسائل الفنية ، وهذا ما حاوله رشيد فيما اصطنه من الاستعارات والتشبيهات كما يلاحظ في هذه الأبيات :

وتصيح الآذان تسترقُ السَّمْعَ جواباً يأتي من العاِمِرِيَّةِ
 قد أقامت لك الأمانِيُّ سِلْكًا لأداء الرسائلِ البرقِيَّةِ
 إن نَّا يُدِنِّيهِ الْخَيَالُ مِن التَّمَثِيلِ فِي آلَهٍ لَه رَصَدِيَّهِ
 وعَلَامُ الْوُقُوفِ حَوْلَ رُسُومِ دَارِسَاتٍ مَا ثُمَّ مِنْهَا بَقِيَّهِ
 تُمْطِرُ السُّحْبُ مِنْ عَيْوَنَكَ مَا ثَارَ بُخَارًا عَنْ نَارِكَ الْقَلْبِيَّهِ
 بَحْرٌ دَمِعٌ وَفُلُكُّ جَسْمِكَ فِيهِ سَيِّرَتِهِ أَنفَاسُكَ الصَّدْرِيَّهِ
 خَلَّ عَنْكَ التَّمَوِيهِ بِالْغَيْدِ وَأَسْلِمَ إِنَّمَا الْحُبُّ لَذَّهُ وَهُمِيَّهِ
 قد أقامت على الْحَقَائِقِ سِرَّاً فَاسْتَسِرَّتْ نُجُومَهَا الدُّرِّيَّهِ

^{٤١} - المنار والأزهر: ١٨٤
^{٤٢} - المنار: ١٩٤/١١/١

حَبَّتْ عَنْكَ شَمَسَهَا بَسَّاحِبٍ ظِلُّهُ قَامَ صُورَةً شَمَسِيهِ

فقد استعار أسلاك البرق للخيال الذي تثيره الأماني المعسولة ، فينادي الشاعر محبوبته البعيدة عنه بخياله ، كما يت天涯جى البعداء ، ويتوصلون بواسطة الرسائل البرقية ، ثم يشتبه خيال المحب فيستحضر صورة الحبيبة البعيدة ، ويدينها من الحبيب ، كما تدّنى وتقرب الآلة الرصدية (التلسكوب) الأجرام البعيدة ، ويثبت لقلب العاشق المتيم ناراً تبخر سوائل جسمه فت تكون منها سحب تمطر عن طريق عيونه فيتحول مطر الدموع إلى بحر تجري فيه سفينة جسم العاشق بقوة أنفاس و زفرات صدره. وهكذا يحاول رشيد رضا أن يستمد صوره الاستعارية من معطيات وأدوات الحضارة الحديثة. وفي مدحه للسلطان عبد الحميد ، يشكل رشيد رضا صوراً فنية عبادها التشبيه التمثيلي بأدوات من المحيط المعاصر ، وذلك كتشبيهه للسلطان عبد الحميد وهيئة وكلائه ونوابه ومعاونيه ، الذين يصدرون عن أوامره ، ويستضيئون برأيه ، بالشمس ونظامها ، فمقام السلطان في حاشيته كمقام الشمس في الكواكب الدائرة في محيطها ، الجارية في فلكها ، المستمدّة منها ضوءها وخصائصها :

سَارَ فِي نَهَجِ مَلْكِهِ وُكَلَاءَ مَثَّلُوا نُورَ عَدِيلِهِ لِلرَّاعِيَهِ^٣
بِالشَّمْسِ نِظَامُهَا فِيهِ دَارَتْ وَاسْتَارَتْ سَيَارَهُ بَشَرِيَهِ

وكتشبته دار الخلافة (المابين) وكونه مقصد الجميع ، ومحط الآمال ، والحركة الدائبة التي تجري حوله بصورتين إحداهما مألوفة ، والأخرى لا تخلو من جدة وظرفية ، أما الأولى فالكعبة المشرفة المعهودة دائماً بالقادرين الطائفين من الحجاج والمعتمرين والزائرين ، والثانية مركز الجاذبية ، الذي ينتهي إليه ، وتحيط به كل الأجسام المشاكلة له :

فَكَانَ الْمَابِينَ وَالنَّاسُ مَا بَيْنَ مُجَدًّ سَعِيَا وَذِي بُطْنِيَهِ^٤
كَعْبَهُ وَالْحَجِيجُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ يَنْتَهِيهَا أَوْ مَرْكُزُ الْجَاذِبِيهِ

^{٤٣} - المنار: ١١/١/١٩٦

^{٤٤} - السابق: ١١/١/١٩١

ومن صوره التشبيهية العصرية ، تشبيه حبه الدائم للأمير محمد باشا ، الصادر إليه من كل عضو من أعضاء جسمه بالدورة الدموية ، في تسلسلها وانتظامها في جميع أجزاء الجسم :

وِيَكُلِّي تَسْلُسَلَ لَهُ وُدٌ دَارَ فِيهِ كَالدَّوْرَةِ الدَّمَوِيَّةِ

ويلاحظ أن قصيدة الجاذبية قد حوت الكثير من المعاني والصور العصرية أكثر من غيرها ، كما أنها أول قصيدة طبق فيها مذهبه الجديد بضرورة عصرنة شعره بملاحظة مقتضيات العصر ، ومعطيات علومه ومعارفه ، مع المحافظة على م坦ة الأسلوب وجزالة اللفظ ، كما يقول فيما يشبه خاتمتها :

هَكَ بِكْرًا جَاءَتْ بِمُبْتَكَرَاتٍ مِنْ مَجَانِي جَنَاتِهَا مَعْنَوِيهِ
أُشْرِبَتْ رِقَّةً الْحَضَارَةِ لَكِنْ رُوِيَتْ بِالْجَرَالَةِ الْبَدُوِيَّهِ
أُعِجَّبَتْ بِالْمَدِيْحِ فِيْكَ فَقَامَتْ تَتَهَادَى كَأَنَّهَا حُورِيهِ
رَامَتِ الْحُلُّ فِي التَّثَاءِ فَلَبَّتْ هَا عُقُودُ الْكَوَاكِبِ الدُّرِيَّهِ
فَبَدَتْ شَتَّاحِي عُلَّاَكَ وَنَاهِيكَ بِبَادِ أَوْفَى عَلَى الْمَدَنِيَّهِ
تَسْتَمِّيْخُ الرِّضا لَكِي تَغَتِّي رَاضِيَّهُ عَنْ رِبَّهَا مَرْضِيَّهِ

المحسنات البديعية

لا يبدو أن السيد رشيد رضا يعني بتحليله شعره بالمحسنات البديعية المجتبأة ، وتعمد تصيدها ، وما يوجد منها فيه جاء دون استكراه ، وأكثر ما يكون ذلك الجناس والاقتباس من القرآن والحديث ، وكلاهما ينم عن قوة ثقافته اللغوية والدينية ، فمن ذلك :

الجناس :

(رقيقا - رقيق) (شمنا - شمننا) (عذبا - عذابا) (التحديق - الحدائق) (عرف المعرف) (قرب - القرابة) (النبوة - البنوة) (دار - دورة) (قصور - قصور)^{٤٧} (الظهور - الظهور)^{٤٨} (روض - أريض) (الإدارة - الإرادة)

^{٤٥} - السابق: ١٩٦/١١/١

^{٤٦} - المنار: ١٧٦/١١/٢ ، ١٥٤/١١/١

^{٤٧} - أحدهما جمع قصر ، والآخر بمعنى التقصير.

الاقتباس :

- فقال اتل لا تلقوا فبسملت قارئا ولا تيأسوا من روحه فهو راحم اقتباسا من الآيتين الكريمتين : قوله تعالى (ولَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْكِةِ)^{٤٩} وقوله تعالى : (ولَا تَيَأسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)^{٥٠}
- وضل على علم فإلهه هواه وتلك الواجبات المحارم اقتباسا من قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)^{٥١}
- يدلية شيطان العدا بغروره وللوهم سلطان على النفس حاكم اقتباسا من قوله تعالى : (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ)^{٥٢}

الخصائص الموسيقية

لم يخرج رشيد رضا في هذه المرحلة أيضا عن نظام القصيدة العمودية في الأوزان والقوافي ، بل حافظ على المتعارف عليه في موسيقى القصيدة العربية التقليدية ، فجاءت قصيدة الجاذبية بائية من بحر الخفيف ، والقصيدة الجمالية من بحر الكامل ، وقافيتها اللام المضمومة ، والقصيدة التي مدح بها السلطان عبد الحميد الثاني من بحر البسيط ، بقافية الياء المشددة ، وأما المقصورة الرشيدية فمن بحر الرجز ، وقافيتها الألف المقصورة.

^{٤٨} - أحدهما جمع ظهر ، والآخر مصدر ظهر.

^{٤٩} - سورة البقرة : ١٩٥

^{٥٠} - سورة يوسف : ٨٧

^{٥١} - سورة الجاثية : ٢٣

^{٥٢} - سورة الأعراف : ٢٢

المطلب الثالث : شعره في آخر حياته (ديوان السيد)

أما القسم الثالث من شعر رشيد ، الذي ميزناه عن القسمين السابقين ، اللذين سمي أولهما بالشعر التقليدي ، وسمى الثاني بالشعر العصري ، فهو الذي تضمنه ديوانه الوحيد الذي سماه (ديوان السيد) ، وقال في تمهيده : "فكرة اخترمت في نفسي ، وكمنت في ثايا الضلوع ، وسرت مع الدم في الشريان .. دموع هي خلاصة دم القلب ، تحدرت من العيون ، فكان منها المداد جرى به القلم على صفحات القرطاس .. ليس ديواني طاقة من الزهور المنسقة أو تحفة أدبية مصنوعة .. كلا ، لا هذا ولا ذاك ، بل هي دموع تفجرت ينابيعها ، وقلب فاضت زفاته".^٣ وقال في ختامه (كلمتي) : "نعم انتهيت من ديواني الأول "ديوان السيد" - الحمد لله - وها أنت تقرؤه الآن أيها القارئ الكريم ، ولعلك تجد فيه ما تصبو إليه نفسك ، ويتحرك له شعورك ، وهذا مبتغاي. وإلا .. فحسب ما قمت به من مجهد يعجز مثلي عن القيام به ، وما كان هذا إلا إرضاء لضميري ، وإظهاراً لشعوري".^٤

الرؤية الشعرية

في هذين النصين السابقين ما يشير إلى طرف من الرؤية الشعرية الجديدة التي انطلق منها رشيد في ديوانه ، فهو شعر جاء بعد تجربة شعورية اخترمت في نفسه ، وكمنت في ثايا ضلوعه ، وسرت مع الدم ، إنه وليد معاناة شعرية حقيقة وليس شعر مناسبات اجتماعية لا يسنده إلا شعور باهت مصطنع ، ولا شعراً يقصد به خدمة مذهب أو فلسفة معينة ، ولا كان تطبيقاً شعرياً لفكرة أدبية لم تخامر شعور الشاعر ، ولم تلامس شغاف قلبه ، ليولد أشبه ما يكون بتحفة أدبية مصنوعة كما قال. إنه شعر يعبر عن ذات صاحبه ، لم يكن باعثه إلا إرضاء لضمير الشاعر ، وإظهاراً لشعوره الذي طفح به الكيل ، وهو شعر "قوامه الرؤيا الذاتية إلى الأشخاص ، والأحداث ، وأشياء الكون ، والوجود".^٥

^٣ - ديوان السيد: ٣

^٤ - السابق: ٩٠

^٥ - الفن والأدب ، د. ميشال عاصي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الثانية ، ص ١٤٢ ، ١٩٧٠ م ، ص ١٤٢

الخصائص المعنوية :

تکاد أغراض الديوان الذي حوى ثلثين قصيدة ، تتراوح ما بين قطعة من خمسة أبيات ، وقصيدة من أربعين بيتاً تتحصر في غرضين رئيسيين ، وهما الوطنية والوجدانيات ، فأما شعره الوطني فهو الذي يقفه على قضايا الوطن ، التي من أهمها تحريره ، وطرد المستعمر منه ، ويحمس به المقاومة ، ويحثها على التضحية من أجله ، والجهاد في سبيله تحت راية الإسلام :

قُم لِلْعُلَا وَارْفَعْ عَنِ النَّفْسِ الصَّغَارِ وَارْفَعْ لِوَاءَ الدِّينِ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ

لأن هذا ما نال به الأجداد المجد والعزّة والرُّفْعة ، ومن ساورة الشك في ذلك فما عليه إلا أن يقرأ التاريخ ، ويستنطق شواهدنا :

بِيَرْتُنِي سَلْهَا وَسَلْ غَرْنَاطَةً عَنْ خَيْرِ مَجِدِ الْلَّغْزَةِ الظَّافِرِينَ
سَلْ قُبْرُصَا سَلْ رَوْدِسَا وَالْقَيْرَوَا نَ وَقْرَطْبَا وَالْقَادِسِيَّةِ وَالْحُصُونَ
سَلْ خَالِدَا سَلْ طَارِقَا سَلْ سَعَدُكُمْ فَتَكَتْ سُيُوفُهُمْ بِجِيشِ الْكَافِرِينَ
بُرْنَايِ سَلْ أَبْطَالَهَا فَدِمَاؤُهُمْ ذِكْرَى لِنِصْرِ الْغَافِقِيِّ عَلَى السِّنِينِ

وهو إذ يحث على المقاومة والجهاد ، لاستعادة سيادة وطن الآباء والجدود ، يستثير نخوة الأبطال ، ويستدر حماستهم بتذكيرهم بأن الأعاجم تعيث في أرضهم الفساد ، وتسوم أبناء يعرب وقططان الذل والهوان :

هَذِي بِلَادُكُ لِلْأَعْاجِمِ سِلْعَةٌ كَمْ سَامَهَا نَذْلُ وَكَمْ فِيهَا اغْتَدَى
أَيْنَ الرَّجَالُ وَأَيْنَ مِنْهُمْ يَعْرُبُ أَيْنَ الشُّعُورُ الْحَيُّ أَيْنَ تَبَدَّدا
أَفَلِيسَ مِنْ قَحَطَانَ أَصْلُ دِمَائِكُمْ أَفِيَقْلَنْ قَحَطَانُ أَنْ يُسْتَغْبَدَا

ويصف رشيد بكل ألم المعركة التي دارت بين الجيش الفرنسي المهاجم ، وبين المقاومة السورية في مدينة دمشق عقب الحرب العالمية الأولى ، فيصور هولها ،

^{٥٦} - ديوان السيد: ١١

^{٥٧} - السابق: ١١

^{٥٨} - السابق: ١٤

وفطاعة ما ارتكبه المحتل من الجرائم ، وما أحدثه فيها من دمار وسفك للدماء
بأسلحته المتطورة الفتاكه : ^{٥٩}

ما للرَّصَاصِ تَثَارَتْ وَهَادِهِ	ما للْمَدَافِعِ قَدْ تَطَابَرَ نَارُهَا
ما لِلْقَدَائِفِ جَدَّلَتْ أَسْدَ الشَّرَّى	شِيبَاً وَشُبُّانَاً طَوَّثْ نِيرَانُهَا
ما لِلْدُخَانِ تَكَاثَّفَ طَبَقَاهُ	حَجَبَ السَّمَاءَ مُشَرِّداً عَقْبَانَهَا
ما لِلْجِبَالِ التَّانِكُ يَصْعُدُ فَوْقَهَا	كَالسُّلْحُفَاةِ تُرَى يَدِبُّ دَبِيبُهَا
ما لِلْجِيَادِ تَخَذَّلَتْ فُرْسَانُهَا	وَالطَّائِرَاتُ تُحْدُّ فِي تَبْدِيدِهَا

ويُعْسِرُ الْأَلْمَ قَلْبَهُ ، عِنْدَمَا يَجِدُ نَفْسَهُ بَعِيداً عَنْ سَاحَاتِ الْقَتَالِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ
فِي الْوَطَنِ بِأَحْوَجِ مَا يَكُونُ إِلَى كُلِّ أَبْنَائِهِ لِلْدِفَاعِ عَنْهُ : ^{٦٠}

وَالْأَرْضُ قَدْ مَادَ فِيهَا كُلُّ رَاسِيَّةٍ	مَا أَصَابَ رِجَالَ الْعَزْبِ فِي الشَّامِ
النَّفْسُ ثَائِرَةٌ وَاللَّهُ يَا وَطَنِي	وَالْبَعْدُ عَنْكَ يَزِيدُ الْيَوْمُ تِهِيَامِي
قَلِيلٍ سَقِيمٌ وَأَحْشَائِي مُمَزَّقَةٌ	وَالْعَيْنُ فِي أَرْقِ مِنْ جَوِّ أَيَامِي

كَمَا يَنْدَدُ بِفَرْنَسَا ؛ الْمُحْتَلُ الْغَاشِمُ ، وَيَهْدِدُ وَيَتَوَعَّدُ لَهَا بِالْوَلِيلِ ، وَأَنَّهَا سَتَصْطَلِي بِنَارِ
الْمَقَاوِمَةِ ، وَلَنْ تَجْنِي مِنْ عَدُوَّنَاهَا عَلَى الْبَلَدِ الْحَبِيبِ إِلَّا الْخَسَارَةَ : ^{٦١}

إِيَّهِ فَرْنَسَا ضَلَّ سَعْيُكَ فَاحْدَرِي	نَاراً يَطِيرُ شَرَارُهَا وَسَتَنْدَمِي
وَسَتَصْنَلِيَّكَ يَا فَرْنَسَا نَارُهَا	وَلَتَسْقِيَّكَ مِنْ نَقِيعِ الْعَلَقِمِ

وَمَا يَسْتَثِيرُ بِهِ حُمَيْةُ الْمَقَاوِمَةِ ، مَا يَقُومُ بِهِ الْمُحْتَلُ مِنْ نَهْبِ خَيْرَاتِ الْبَلَدِ ، وَثِرَوَتِهِ
الْطَّبِيعِيَّةِ ، وَاسْتَثَارَهُ لَهَا ، دُونَ أَبْنَاءِ الْبَلَدِ : ^{٦٢}

فَلَمْ التَّغَافُلُ وَالْتَّكَاسُلُ وَالْوَنِي وَبِلَادُنَا لِلْغَرْبِ خَيْرُ نِتَاجِهَا	
فِبِلَادِهِ غَزَّلَتْ لَنَا أَفْطَانَنَا	نَسَجَتْهُ أَيْدِي الْعَامِلِينَ بِأَرْضِهَا
وَأَعَادَتْ الْمَنْسُوْجَ يَزْهُو لَوْنُهُ	وَابْتَرَّتْ الْأَمْوَالَ فِي أَرْبَاحِهَا

كَمَا يَنْدَدُ بِالْمَوَالِينَ لِلْاسْتِعْمَارِ ، الَّذِينَ يَسْتَخْدِمُهُمْ فِي بَسْطِ سُلْطَانِهِ ، وَبَطْشِ أَبْنَاءِ
الْبَلَدِ ، وَيَرْمِيُهُمْ بِالْخِيَانَةِ وَالْعَقُوقِ ، وَيَنْفِيُهُمْ عَنْهُمُ الْوَطَنِيَّةَ الْحَقَّةَ : ^{٦٣}

^{٥٩} - دِيَوَانُ السَّيِّدِ : ٢٤

^{٦٠} - السَّابِقُ : ٥١

^{٦١} - السَّابِقُ : ٤٤

^{٦٢} - السَّابِقُ : ٦٤

^{٦٣} - دِيَوَانُ السَّيِّدِ : ٨١

وطن الغروية كم تضافر خائنٌ مع خائنٍ لفتوك فيك وذبباً
 وطن الغروية كم عُقوقي خبٌ في بحر العماية في الضلاله كبكباً
 وطن الغروية كم داعيٌ ينتمي زوراً لمجده كي يكون محبباً
 وطن الغروية كم خؤون خادع قد باع أرضك للغريب وحبيباً
 وطن الغروية كيف يجسر مؤمنٌ بك أن يخون عهود ودك راغباً
 ليتال حظاً من دخيلٍ غاصٍ يعطيه ما يهوى ويَهوى المنصباً
 فيسوم خير مواطنٍ تَعْسُفَ ظلماً ويُظْهِر فيك حباً كاذباً

وتصيب الديار الشامية ، وهي بعد في ظل الاستعمار بعض التقدم ، فيطرد
 له الشاعر ، ويحيي الشباب ، الذين تحقق على أيديهم هذه النهضة ، لكن يذريهم
 من الركون إلى هذا التطور النسبي ، وأن يغفلوا عن القضية الكبرى ، وهي تحرير
 الوطن ، وطرد المستعمر ، ويدركهم بأن تحرير الوطن منوط بإرادتهم ، التي لا تقهقر
 ولا تغلب إذا ثارت : ^{٦٤}

في سوريا المجد لما شبَّ وازدهرا
 وأنظم قصيده آياتٍ يُخلِّدُها
 تُجلِّي لنا ناظرها ما كان مُستيراً
 أعلم نهضتها قد رفقت وغدت
 به الحوادث فالشُّبُانُ أَسْنَدُ شَرَىً
 هذا الشَّبابُ أَرَاهُ الْيَوْمَ قد نَهَضَت
 هل تَرَضَى بَدْلًا عن حَقِّهَا الدَّرَارَا
 سَلَ النُّفُوسَ إِذَا مَا ثَارَ ثَائِرُهَا
 إِنَّ الشَّبَابَ إِذَا مَا أَقْدَمَ انتَصَرا
 لَا تُظْهِرُوا لِلَّمَلَأِ خَوْفًا لَا ضَجَّراً
 لا دَعِمُوا بَدِمِ الْأَحْرَارِ نَهَضَتُمْ

والغرض الثاني الذي استبد بشعر رشيد في ديوانه ، هو شعره الوجданى ،
 الذي يقف فيه مع نفسه ، ويتأمل فيه حظه من كفاحه ، ويعبر فيه عن همومه
 الخاصة به ، وهذا اللون من شعره يطبعه الحزن ، ويفعل عليه الأسى ، وتسمه
 الشكوى المريدة من حظ الشاعر النك ، في حياة الغربة في مصر ، وكان قد قدم
 إليها لطلب مستقبل أفضل ، وكان أمله الذي يريد تحقيقه ، والذي هاجر من أجله ،
 وكافح في سبيله ، هو أن ينعم بحياة سعيدة هانئة ، وأن يصيّب في مصر مجدًا
 يبيؤه مكانة مرموقة ، تؤهله لقيادة المجتمع العربي والإسلامي ، وكان هذا من أهم

مطلوبيه ، وأعز مقصديه ، لأنه كان يطمح إلى أن يخلف أستاذه الإمام محمد عبده ، في الزعامة الدينية ، ولم يكن ينقصه العلم ولا الحماسة والجهد لبلغ هذا الهدف ، غير أن هذا الحلم لم يتحقق له على النحو الذي أراده ، ربما لأنه كان غريبا ، أو لأنه كان دون أستاذه في مواهبه القيادية ، فساعده ما فاته من ذلك : ^{٦٥}

شَتَّى الْمَوَاقِفِ مِنْ بُعْدِ وَمِنْ أَمْ
إِذْ بِتُّ مُرْتَقِبًا نَجَمَ السَّعَادَةِ فِي
أَرْجُو الْحَيَاةِ نَعِيْمَا فِي جَوَانِبِهَا
وَالْمَجْدُ مُطْلَبِي مِنْ غَايَةِ النِّعَمِ
فِيهِ الشِّفَاءُ لِنَفْسِي بِتُّ أَرْقَبُهُ
بَيْنَ السَّوَاحِنِ وَالْفَيْنَاتِ مِنْ قِدَمِ
لَكُنْ نَوَائِبُ الدَّهْرِ وَغَوَائِلُ الزَّمْنِ حَالَتْ دُونَ رَشِيدٍ وَمَا كَافَحَ مِنْ أَجْلِهِ السَّنَنِ الطَّوَالِ ،
مِنْ اعْتِلَاءِ ذِرَوَةِ الْمَجْدِ . ^{٦٦}

كَمْ عَرَكْتُ الدَّهْرَ فِي هَذِي الْحَيَا
وَسَبَرْتُ الْغَوَرَ فِي شَتَّى الشُّؤُونِ
وَأَرَدْتُ الْمَجْدَ أَعْلَوْ هَامَهُ غَيْرَ أَنَّ الدَّهْرَ غَدَارُ مَجُونِ

ويرفض رشيد الاستسلام ، بل يصر على بلوغ الأمل ، وتحقيق المنشود ، مهما بهظت التكاليف ، وتوعرت المسالك : ^{٦٧}

كَمْ خَانَنِي زَمْنِي وَالْدَّهْرُ يَمْنَعُنِي عنْ أَشَيَّدِ صَرَحِ الْمَجْدِ تَشَبِّهُ
لِكُنْنِي أَبْدَا بِالْجَدِّ مُعْتَصِمٌ مِمَّا رَأَيْتُ مِنْ الْأَيَّامِ تَكْيِيدًا

وظل يبحث عن أمله في كل مكان ، وبشتى الوسائل ، برغم العرقيل التي تشتت جهده ، وتضلله سعيه ، وتصيبه بالحيرة والإحباط : ^{٦٨}

نَادَيْتُ يَا أَمْلِي أَيْنَ الْمَقَامُ لَكِي أَسْعَى إِلَيْكَ عَلَى عَيْنِي بِلَا مَهَلَ
أَفِي السَّمَاءِ مَقِيمٌ أَمْ بِبَادِيَّةٍ أَمْ فِي الْخَفَا أَمْ تُرِي فِي ذِرَوَةِ الْجَبَلِ
إِنِي وَحْقِكَ لَا أَحْيَا بِلَا أَمَلٍ أَخْطُو خُطَّاكَ وَلَوْ تَخْطُو إِلَى زُرْحَلِ

ثم استولى عليه التبرم ، ونال منه طول الطريق ، وبعد الشقة ، فزار بقوله : ^{٦٩}

بِاللَّهِ يَا أَمْلِي كَمْ بِتُّ مُرْتَقِبًا مِنْكَ الْوِصَالِ فَهَلَا جُدَّتْ يَا أَمْلِي
قُلْ لِي بِرِبِّكَ مَا ذَنَبِي تُعذِّبِنِي بِالْهَجْرِ وَالْبُعْدِ لَمْ تَرَحَّمْ وَلَمْ تَصِلِ

^{٦٥} - ديوان السيد : ٣٨

^{٦٦} - السابق: ٨٦

^{٦٧} - السابق: ٥٦

^{٦٨} - السابق: ١٥

^{٦٩} - ديوان السيد : ١٥

ثم يبلغ به اليأس مبلغاً جعله نهباً للحزن والأسى ، فقد تضافت عليه الأزمات ؛ أزمة الضيق المعيشى ، وطول الغربة ، وإعراض وخذلان من يجاريه ، عندما كان حظه أحسن ، وماهه أوفر ، بل يتعرض لاضطهاد البعض من أصحاب الأرض ،

لأنه غريب ، ولمواقفه التي لا تواتيهم ، لأنهم يريدونه تابعاً لا متبعاً :^{٧٠}

ما أرَى يَا دَهْرُ إِلَّا أَنَّ يِي
كُلُّمَا أَهْرِيقْتُ صَبَاحاً جُرْعَةً
أَفَلَ السَّعْدُ وَحْلَتْ بَعْدَهُ
وَتَوَالَّتْ بَعْدَهُ هَذَا مَحْنٌ
خَانَنِي الْدَّهْرُ وَقَدْ أَمْلَأْتُهُ خَانَنِي الْدَّهْرُ وَخَانَنِي الرِّفَاقُ
مَنْ مُجِيرِي يَا إِلَهِي مِنْ أَسْيَ يَا بَنِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ الْمَسَاقُ
قَدْ كَفَانِي يَا إِلَهِي مَا أَرَى مِنْ عَذَابٍ وَشَقَاءٍ وَاحْتِنَاقٍ
مِنْ هُمُومٍ وَشُجُونٍ سُعْرَتْ وَاضْطِهَادُ بَيْنَ خُلُفٍ وَشِقَاقٍ
ضِفْتُ ذَرْعَأً بِالذِّي أَعْيَا الْوَرَى عَبْدُ الْحُرَّ لِأَرْبَابِ النِّفَاقِ
لَيْ ضَمِيرٌ عَاشَ حَيَا يَقِظَا لَسْتُ أَرْضَى عَيْشَ ذِلٍ لَا يُطَاقُ

وكان تخلي بعض أصحابه عنه في ساعة الشدة وال الحاجة من أوجع ما شكي منه رشيد ، فإن بعض من كان يثق فيهم ، ويرجو اتصال مودتهم ومساعدتهم له ، لم يثبتوا معه عندما تغيرت ظروفه ، وتكاثرت عليه المشاكل ، فانفضوا من حوله ، فضاعف ذلك همه وغممه :^{٧١}

هلا نظرت إلى من كان يَصْبَحُنِي يوم النَّعِيمِ وقد أورَدْتُه الجُودَا
 قد كان لي عَضُداً يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي شَتَّى الْمَوَاقِفِ يُولِينِي الْمَقَالِيدَا
 لِكُنَّهُ الْيَوْمِ أَمْسَى نَائِيَاً عَجَباً قد أَنْكَرَ الْوَدَّ إِذْ لَمْ يُوفِ مَوْعِدُهَا
 يَا غَارَةَ اللَّهِ قَدْ عَقَ الصَّدَاقَةَ مُذْ وَلَى النَّعِيمِ وَصَارَ الْعِيشُ مَنْكُودَا
 ضَلَّ الزَّمَانُ وَخَانَ الصَّحْبُ لَسْتَ تَرَى إِلَّا الْمُنَافِقُ يُزْجِيَكَ الْأَنَاشِيدَا
 وَانْتَهَى حَالُ رَشِيدٍ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَى طَرِيقِ مَسْدُودٍ ، لَا أَمْلَ في تَخْطِيهِ وَتَجَاوِزِهِ
 فَأَسْقَطَ بَيْنَ يَدِيهِ ، وَأَصْبَحَ فَرِيسَةً لِلْهَمَومِ ، وَتَضَاعَلَ أَمْلَهُ وَرَجَاؤُهُ لِأَنَّ الظُّلُمَاتَ
 الْحَالَكَةَ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَهَةٍ حَتَّى غَطَتْ عَلَى ضَوْءِ نَهَارِهِ ، فَالْجَسْمُ سَقِيمٌ ،
 وَمَصَابِبُ الْدَّهْرِ مُتَوَالِيَّةُ ، وَالْبُؤْسُ تَمْكَنَ مِنْهُ ، بَعْدَ أَنْ اغْتَالَ أَمْلَهُ^{٧٢}
 هَذِي الْحَيَاةُ بِهَا أَصْبَحْتُ مَنْكُودَا وَالْجَسْمُ مِنْ سُقُمٍ قَدْ صَارَ مَكْدُودَا
 وَهَذَا الدَّهْرُ يُولِينِي مَصَابِبَهُ وَاسْتَنْزَفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِيَ تَرْدِيدِهَا
 وَاغْتَالَ مِنْ أَمْلِي مَا كُنْتُ أَرْقِبُهُ وَخَانَنِي الْحَظُّ فِيمَا كَانَ مَنْشُودَا
 تَلَكَ الْمَآسِي وَالْأَمَّيِ تُرْوَعْنِي وَالْبُؤْسُ أَفْرَغَ فِي نَفْسِي أَغَارِيدَا
 هَذَا الظَّلَامُ أَرَاهُ حَالِكَاً عَجَباً الشَّمْسُ زَاهِيَّةٌ مَا رُمِثْ تَأْكِيدَا
 أَرَى مُصَابِيَّ مِنْ دَهْرِي يُخَيِّلُ لِي نُورًا تُحِيطُ بِهِ الظَّلَمَاءُ مَمْدُودَا
 ثُمَّ لَا يَنْتَظِرُ إِنْصَافًا ، وَلَا حَكْمًا عَادِلًا مِنْ أَحَدٍ ، هَذَا مَا عَلِمْتَهُ التَّجَارِبُ ، وَشَهَدَ بِهِ
 التَّارِيخُ ، فَلَا جُرْمَ أَنْ يَنْتَظِرَ مَعَ سَائِرِ الْمُسْعَفَاءِ عَدَالَةَ السَّمَاءِ يَوْمًا لَا عَدْلٌ إِلَّا عَدْلُهُ
 سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى :^{٧٣}

أَيْنَ عَدْلٌ حُجَّبَتْ آيَاتُهُ عَنْ ضَعِيفٍ حَطَمَتْهُ الْأَقْوَيَاءُ
 مَا عَرَفَنَا الْعَدْلَ يَوْمًا بَيَّنَنَا كَمْ تَمْنَنَتِنَا مِنَ الْعَدْلِ الْوَفَاءُ
 فَأَطْرَخَ يَا صَاحِبِنَا أَسْمَالِهِ وَتَجَلَّدَ وَاقْطَعَنَّ مِنْهُ الرَّجَاءُ
 لَا تَرَى مِنْ غَايَةِ مَنْشُودَةٍ بِاسْمِ عَدْلٍ تَاهَ فِيهِ الْحُكْمَاءُ
 وَانْتَظِرِ إِنْ رُمِثَ حَقًا يُرَى يَوْمًا لَا عَدْلٌ سِوَى عَدْلِ السَّمَاءِ
 يَوْمًا تَلَقَّى النَّفْسُ مَا قَدْ قَدَّمَتْ لِإِلَهِ الْعَرْشِ مِنْ حُسْنِ الْوَلَا

ومن حكم رشيد الذي هدته إليها طول التجارب أن الهوة سحقة دائمًا بين الأمالي والأملول الذي لا يستجيب لكل آمل وراغب ، ولا ينقاد إلا لأولي العزائم الفولاذية: ^{٧٤}

يلعب الدهر بآمال الفتى وأمانٍ العلا دُر مَصْنُون
 بينما النفس تَرَى في ساحِها مُبْتَغى الآمال في كافٍ ونون

ويتجه رشيد أخيراً إلى الدهر مستعطفاً ومسترحاً ، راجياً منه أن يخف عن بعض همومه ، وينيله شيئاً من آماله ، حتى لا يظل مرطماً بصخر الحياة طول حياته:

٧٥

أَظْلُّ مُرْتَطِمًا عَلَى صَخْرِ الْحَيَاةِ تَأْفُّفًا
 وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْحَيَاةِ وَكُنْهِهَا مِنِي فَهَلَا جِئْتِنِي لِتُخْفِفَا
 فَلَقَدْ كَفَى يَا دَهْرٌ مَا قَاسَيْتُهُ وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ فَارْحَمْنِي قَدْ كَفَى

الخصائص اللغوية والأسلوبية

لغة الديوان

لغة الديوان سهلة وواضحة ، ويکاد يخلو من الكلمات الغريبة ، التي تحوج القارئ إلى الرجوع إلى معاجم اللغة ، ولهذا خلا الديوان من الهوامش التفسيرية ، ولعل طبيعة موضوعات الديوان الوطنية والاجتماعية والوجدانية غير العميقة تقتضي هذا التبسيط اللغوي ، كما أن رؤية رشيد الشعرية في هذا الديوان ، التي لا تراعي إلا مشاعره وضميره ، أثر كذلك في عدم احتفاله بما كان يدعو إليه من إحياء موات اللغة بالاستعمال في اللغة الأدبية المعاصرة.

بناء القصيدة

من خصائص شعر رشيد الذي حوى ديوانه أنه قصير النفس ، قليل الأبيات فمن بين ثلاثين قصيدة ومقطوعة ، هي مجموع ما في الديوان ، لم يتجاوز ثلاثين بيتاً إلا قصيدتان ، إحداهما أربعون بيتاً ، وهي أطول ما في الديوان ، والأخرى اثنان

^{٧٤} - ديوان السيد: ٨٧
^{٧٥} - السابق: ٨٩

وثلاثون بيتاً ، وفيه مقطوعة من خمسة أبيات ، وأخرى من ثمانيه أبيات ، والباقي يتراوح ما بين عشرة أبيات وثمانية وعشرين بيتاً.

النزعه الخطابية

من الظواهر الأسلوبية البارزة في شعر رشيد في ديوانه ميله إلى الخطابية لا يستثنى من ذلك شعره الوجданى ، وقصائده الغزلية ، حتى شعره الذى مدح به الأزهر وشيخه لا يخلو منها ، فهذه السمة عامة في هذا الشعر كله ، وأمارات الخطابية تتجلى في استخدامه الكبير للأساليب الإنسانية ، سواء الطلبية منها كالامر والنهى والاستفهام والنداء ، أم الخبرية كأسلوب التعجب ، وأسلوب المدح وكم الخبرية ، التي أكثر من استخدامها بطريقة لا فتة للنظر .

ويذكر أحد الباحثين أن الخطابية سمة تطبع شعر عهد النهضة والإصلاح فيقول : "يبدو أن النزعه الخطابية ، والطريقة المباشرة هي من أبرز سمات شعر عهد الإصلاح ، ولعل هذا يعود إلى أن أغلب الشعراء كانوا أصحاب رسالة ، يتوجهون بها إلى الجماهير الشعبية ، فالشعر في تقديرهم ، وفي ظروفهم تلك كان يتخد أداة للنهوض ، ووسيلة من وسائل الدعوة إلى الإصلاح." ^{٧٦}

وهذا في شعر رشيد الوطني محتمل ، أما شعره الوجданى ، وما جرى مجرى فلا ينطبق عليه هذا التعليل ، والظاهر أن نفسية رشيد ، والظروف والمدة الزمنية التي أنتج فيها هذا الشعر كانت متشابهة ومتقاربة ، فلم يختلف أسلوبه في شعره باختلاف موضوعاته.

التكرار

من علامات التقريرية والخطابية في أسلوب رشيد في ديوانه التكرار ، وقد لجأ إليه رشيد كثيراً ، فكرر بعض العبارات كثيراً ، بطريقة قد تقيد دلالات تتجاوز مجرد التكرار التوكيدى ، وقد رصدت بعض ما كرره فوجدت الآتى :

١ - كرر كلمات (العرب - يعرب - قحطان) خمساً وخمسين (٥٥) مرة.

٢- كرر كلمة (المجد) إحدى وأربعين (٤١) مرة.

٣- كرر كلمات (الوطن - البلد - الأرض) خمسين (٥٠) مرة

هذه هي الكلمات الأكثر دورانا في ديوان السيد ، تليها كلمات (الدم - الدهر - الأمل - الشرق - الشام وسوريا ودمشق)

نظمت قصائد هذا الديوان في فترة بُرُز فيها الشعور العربي ، بصورة علّت - حتى عند الإسلاميين - على الشعور الإسلامي العام ، وهي الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، التي قهرت فيها الخلافة الإسلامية ، ثم ألغيت ، ووّقعت معظم الدول العربية تحت الاحتلال الأجنبي ، فكان من الطبيعي أن يغنى رشيد رضا على وتر العروبة ، وهو يحمّس المقاومة العربية ، ويستهضّ الشعب العربي قاطبة على رفض الاستكناة والخضوع للاحتلال الغاشم ، وأن يذكّرهم بمجد الآباء والجذود ، ومجد العروبة والإسلام ، ليتحمّسوا للدفاع عن الوطن السليب ، والبلد الذي غالب على خيراته الأجنبي المعتمدي ، والشام وسوريا ودمشق من مفردات هذا الوطن ، الذي يجري في ساحاته الجهاد من أجل استعادته ، وتسيل فيه الدماء الزكية ، والشرق كان رمزا للأمم المستضعفة من قبل الغرب القوي بآلته العسكرية الجبار ، وعارفه الواسعة ، وعنجهيته وكبرائه.

وكانت معاناة رشيد ومقاساته ، التي رفع بها عقيرته في قصائد الشكوى في هذا الديوان ، بسبب ارتطامه بصخرة الحياة ، والتي وقفت حائلاً منيعاً ، بين دوافع آماله العظام ، ومثبطات الدهر القاسية :

أَظْلَلْ مُرْتَطِمًا عَلَى صَخْرِ الْحَيَاةِ أَلَا تَرَى صَخْرَ الْحَيَاةِ تَأْفَافًا

فكان الدهر رمزاً للخصم الذي يعاكس حظه ، ويغتال أمله ، ويأبى عليه الانطلاق في طريق بناء المجد ، وكان صراعه معه وشكواه منه سبباً في تكرر كلمات الدهر والزمن.

ومن الخصائص المميزة لشعر الديوان أنه يرمز عن القوة بالأسلحة التقليدية القديمة ، فيطلب من الأبطال أن ينالوا العدو بالسيف والرمح والنبل ونحوها من الأسلحة العتيقة ، مع أنهم كانوا مسلحين في الواقع بالأسلحة النارية الحديثة ، وهذا

يدل على أن رشيد رضا لم يلتفت في الديوان إلى ما كان يدعو إليه من استمداد المعاني العصرية من أدوات الحضارة المعاصرة.

الصور الأدبية

الصور الأدبية التي استعان بها رشيد في تجليه معانيه ، والتعبير عما يجول في خياله ، هي من النوع المألف في مادتها وأسلوبها ، وقد ذكرنا أن رضا قد تخلى في شعره هذا عن نشдан المعاني العصرية ، وانتقام وسائله البينية من محيط البيئة الجديدة ، وأن هذا الشعر يمثل تجربته الخاصة على سجيتها ، دون مراعاة قيم فنية معينة ، أو رؤى شعرية لم تختلط شعوره ، ولم تلون خياله ولم تصبح بعد جزءا من تجربته ، فإن وجد في صوره ما يشير إلى الجدة ، فبحكم التطور الطبيعي ، لا بسبب القصد إلى التحديث والمعاصرة ، كما كان شأنه في المرحلة السابقة ، وأكثر صوره البينية الاستعارة ^{٧٨} ، ومن صوره الاستعارية التي تشير إلى نوع من الجدة استعارة المجنون لفعل الدهر في قوله :

واردَتْ الْمَجَدَ أَعْلَوْ هَامَهُ غَيْرَ أَنَّ الْدَهَرَ عَدَارُ مَجُونٍ

إن استعارة الاعتلاء الحسي للحصول على الشيء والتمكن منه استعارة مألفة ومطروقة ، أما استعارة المجنون لفعل الزمن والدهر فليس أمرا مألفا ، وذلك أن المجنون استهتار في الخلق والقيم ، وانحراف في السلوك ، فليس من المعهود أن يقول الشاكبي من الدهر إن الدهر فاجر أو فاسق أو ماجن ، بل المعهود أن يقول إنه معاند ومعاكس وغادر أو خائن ، على معنى أنه لا يجد فيه مأموله ، وكأنه وعده بشيء ثم أخلفه في الوعد ، ولعل رشيدا اتخذ الدهر رمزا لأولئك الذين وقفوا في طريقه ، وحالوا بينه وبين ما سعى إليه من المجد والسيادة ، ومنهم أصدقاءه الذين خانوه ، وأعداؤه الذين ناصبوه العدا عيانا ، أو من خلف الكواليس ، فكان يخلع على

^{٧٨} - الصورة الاستعارية أنساب لشعره الوجданى في هذه المرحلة كما يقول أحد الباحثين : "إذا كان التشبيه - بمفهومه البلاغي القديم - قد ساد عند شعراء الكلاسيكية الجديدة ، لما فيه من قيم موضوعية متواضع عليها ، فإن الاستعارة كأدلة تصويرية غلت على النتاج الشعري عند الوجدانين ، لما فيها من تكثيف عاطفي ، وما يستدعيه ذلك من خيال ، لتحقيق أغراضهم النفسية تحقيقا جماليا". انظر : التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية ، د. عدنان حسين قاسم ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م ، ص ١٠٧
^{٧٩} - ديوان السيد: ٨٦

الدهر وهو يشكو منه صفات هؤلاء ، الذين قد يكون من بينهم الماجن والخائن كما يصرح أحيانا أنه يريد هؤلاء : ^{٨٠}

خانني الدهر وقد أمتُه خانني الدهر وخانتني الرِّفَاق

فخيانة الدهر بخيانة أصدقائه الذين كان يأتمنهم ، ويعتمد عليهم في دهر مديد ، ويشبه ذلك قوله : ^{٨١}

ضلَّ الزَّمَانُ وَخَانَ الصَّحْبُ لَسْتَ تَرَى إِلَّا الْمُنَافِقُ يُزْجِيَكَ الْأَنْاسِيَدَا

فقد استعار الضلال للزمن ، لضلاله من عاشوا فيه معه. وفي قوله : ^{٨٢}

ما لَعِيشِ كَلَفَ النَّاسُ بِهِ قَدْ أَحَاطَتْهُ سُجُوفٌ وَفُتُونٌ

استعارة تستحق التأمل ، وهي أنه أراد تصوير نوع الحياة والمعيشة أو الترف المعيشي ، الذي فتن الناس به ، فجسده واستعار له الستائر والفتون كناءة عن الترف ، الذي قد لا يخلو من إثم لدلة "الفتون" ، والسجوف أو الستائر من أمارات الترف ، التي شاعت في هذا العصر.

ومن استعاراته المتداخلة قوله : ^{٨٣}

أَمَرِقُ أَحْشَاءَ الظَّلَامِ بِلَامِ مِنَ الْحُجَّاجِ الْبَيْضَاءِ فِي الْفَخْرِ وَالسَّعْدِ

فقد استعار التمزيق لاجتهاده في الإبطال ، وأثبت للظلام أحشاء ، وللحجج لمعانا وبياضا ، ثم ورى بالفخر والسعاد عن الكتب التي استعان بها في رفع الجهل والضلال عن نفسه ، فهي صورة متراكمة ، تعبّر عن اغباطه بما وجده في الأزهر الشريف من العلوم النافعة التي هاجر من أجلها ، واغترب في سبيلها.

ومن تصويره الموحي قوله : ^{٨٤}

**وَهَذَا الَّدَهْرُ يُولِينِي مَصَابِهِ وَاسْتَنْزَفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِيَ تَرِيدِيَا
وَاغْتَالَ مِنْ أَمْلِي مَا كُنْتُ أَرْقِبُهُ خانني الحَظُّ فِيمَا كَانَ مَنْشُودَا**

تَلَكَ الْمَآسِي وَالْأَمْيَ تُرُوَّعْنِي وَالْبُؤْسُ أَفْرَغَ فِي نَفْسِي أَغَارِيدَا

هَذَا الظَّلَامُ أَرَاهُ حَالِكَا عَجَبَا الشَّمْسُ زَاهِيَّةٌ مَا رُمْتُ تَأْكِيدَا

^{٨٠} - ديوان السيد : ٢٨

^{٨١} - السابق : ٥٧

^{٨٢} - السابق : ٨٦

^{٨٣} - السابق : ٨٠

^{٨٤} - السابق : ٥٤

أَرَى مُصَابِيَّ مِنْ دَهْرِيْ يُخَيِّلُ لِي نُورًا تُحِيطُ بِهِ الظُّلْمَاءُ مَمْدُودًا

فالاستعارات التي حشدتها في هذه القطعة ترسم لوحة قائمة من حظ رشيد رضا في أمله ، فقد اغتال الدهر أمله بعد مصائب متتالية ، استنزفت دموعه ، واستولى عليه الرعب من المأسى والآلام التي تحيط به ، وأفرغ في نفسه البؤس أغاريد الشقاء ، حتى استحال نهاره إلى ليل حالك ، وظلام دامس ، ولم يبق من آماله العراض وأمانية العظام إلا خيط ضئيل تحيط به الظلماء من كل جانب ، وفي قوله ^{٨٥} : * وأفرغ البؤس في نفسي أغاريد * استعارة طريفة ، فكان البؤس لما تمكن من نفس الشاعر ، وتغلب على مقاومته المعنوية ، احتفل لهذا الانتصار ، في داخل نفس الشاعر التي حطمتها ، بإطلاق أغاريد الفرح والسرور.

وتغلب الحسية على تشبيهاته قوله في تشبيه : (الثانك = الدبابة) بالسلحفاة في الشكل ، وربما في الحركة البطيئة : ^{٨٦}

مَا لِلْجِبَالِ التَّانِكُ يَصْنَعُ فَوْقَهَا كَالسُّلْحَفَةِ تُرَى يَدْبُ دَبِيبُهَا

وتشبيه آلة حربية معاصرة بالسلحفاة يدخل في شرط شعره العصري ، ولكنه يتيم ، وبالمناسبة ذكر رشيد في قصيدة دمشق التي منها البيت السابق عدة أسماء لآلات حربية حديثة منها : (الرصاص - المدافع - القذائف - الثانك - الطائرات) وهذا على خلاف ما قدمنا من أنه كان يرمز كثيراً عن القوة بالأسلحة القديمة ، لا الحديثة ، وهذا صحيح ، لأن الغالب على خلاف هذه القصيدة ، التي مزج فيها بين الاثنين.

ومن تشبيهاته المألفة أيضاً قوله : ^{٨٧}

هَذَا الشَّابُ دِمَاؤُهُ كَمَرَاجِلِ تَغْلِي مِنِ الضَّغْطِ الَّذِي لَمْ يَهْمَدْ

وهو في حسيته السابق ، لأن عmadه السمع ، وكذلك قوله في وصف سائل متسلول : ^{٨٨}

أَحْشَاؤُهُ فِي جَوْفِهِ كَالنَّارِ مَشَبُوبُ الْهَبِ

^{٨٥} - ديوان السيد : ٥٤

^{٨٦} - السابق: ٢٥

^{٨٧} - السابق: ٢٢

^{٨٨} - السابق: ٧٦

وعلى هذا النحو تجري تشبيهاته ، لأداء وظيفة البيان والتوضيح في المعنى المقصود. ولا تبعد كنایاته في مألفيتها ومعهوديتها عن ساحة تشبيهاته ، ومنها قوله

٨٩:

* لن تغمض الأجياف عن أوطاننا * كنایة عن عدم الغفلة أو التفريط في تحرير الوطن ، ومثلها : (رضيع الحرب) في قوله :

قم رضيعَ الْحَرَبِ مِنْ سَاحَاتِهَا وَتَقْدَمْ مَعْلِنَا آيَاتِهَا

كنایة عن البطل المترس في الحرب ، ومنها (جرد السيف من الغمد) في قوله :

جَرَدَ السَّيْفَ مِنَ الْغِمْدِ كَفِيَ ضَحِكَ السَّيْفِ إِلَامَ تَسْكِينِ

كنایة عن الاستعداد للقتال. ومنها : (ارفعوا الهمات) في قوله :

يَا شَبَابَ الْعَرْبِ يَا نَسْلَ الْأَسْوَدِ يَا رِجَالَ الْمَجْدِ مِنْ خَيْرِ الْجُدُودِ

أَنْتُمُو خَيْرُ أَمَانِيِّ الْخَلُودِ ارْفَعُوا الْهَمَاتِ هِيَّا وَالْبُنُودِ

وهي كنایة عن استشعار العزة والكرامة.

الرمز

من الصور الأدبية التي استعان بها السيد رشيد رضا في ديوانه "الرمز" الذي يغني في دلالته عن الكلمات الكثيرة ، ويكون أقدر في بعض الأحيان على التعبير عن المعنى المقصود^{٩٣} ومن هذه الرموز ما يرمز به عن معاني عامة ، ومنها ما يرمز به عن قضايا خاصة به ، فمن النوع الأول استخدام أسماء تاريخية ؛ أشخاصاً أو بلداناً للتعبير بها عما ارتبط بها من المعاني تاريخياً ، وذلك كاستعماله (خالداً ، وطارقاً ، وسعداً ، والغافقي) للتعبير بها عن أبطال الإسلام عامة ، الذين حملوا لواء هذا الدين ، في ميادين الجهاد ، فليس المراد بذكر هذه الأسماء قاصراً على أعيان أصحابها ، وإنما لكونهم نماذج ورموزاً لكل من أبلى مثل بلائهم ، وكذلك الشأن في

^{٨٤} - ديوان السيد :

^{٩٠} - السابق

^{٦٥} - السابق:

^{٩١} - السابق:

^{٦٠} - السابق:

^{٩٢} - السابق:

^{٣١} - السابق:

^{٩٣} - يقول الدكتور فايز الديمة عن وظيفة الكلمة الرامزة : إنها "لمحة في غاية الإيجاز ترد في سياق شعرى لتعزيق جنبات فيه". انظر: جماليات الأسلوب: الصورة الفنية في الأدب العربي: د. فايز الديمة ، دار الفكر المعاصر ، لبنان - بيروت ، دار الفكر ، دمشق - سوريا ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م ، ص ١٧٥

أسماء المدن والبلاد ، ذوات الدلالات التاريخية المعينة مثل (قرطبة ، القادسية ، قبرص ، القيروان ، ونحوها).

يقول رشيد مستعيناً بهذه الرموز في العبير عن الفروسية الإسلامية ، وعن الفتوحات العظيمة في فجر الإسلام :

بِيَرْتِنْتِيَا سَلْهَا وَسَلْ غَرْنَاطَةَ عن خَيْرِ مَجَدِ لِلْغَزَّةِ الظَّافِرِينَ
سَلْ قُبْرُصَا سَلْ رَوْدِسَا وَالْقِيرَوَا نَ وَقْرُطْبَا وَالْقَادِسِيَّةِ وَالْحُصُونَ
سَلْ خَالِدَا سَلْ طَارِقَا سَلْ سَعَدُكُمْ فَتَكَتْ سُيُوفُهُمْ بِجِيشِ الْكَافِرِينَ
بُرْتَأِيَ سَلْ أَبْطَالَهَا فَدِمَاؤُهُمْ ذِكْرَى لِنِصْرِ الْغَافِقِيِّ عَلَى السِّنِينِ

فقد حشد هذا الكم من الأسماء التاريخية لتعينه على الكشف عما اقترن بها ، من الخبرة التاريخية ، التي يخزنها القارئ أو المتلقى في ذاكرته ، فيقفز ذهنه إلى ما قام به هؤلاء الأبطال وغيرهم الكثيرون من الفتوحات التي شملت مع هذه المدن مناطق وأراضي واسعة ، إضافة إلى ما يستحضره القارئ عند سماعه لهذه الأسماء التاريخية من التفاصيل المرتبطة بهذه الحقبة التاريخية ، وهذا تتحققه الرموز على وجازتها.

ومن الرموز العامة أيضاً في هذه الديوان (يعرب وقططان) ، وهو جدان من جدود العرب ، ولكن رشيداً يتذمّر مزاً للعنصر العربي وللأصالة والمجد ، والأنفة والإباء ، وكل الصفات الحميدة التي كان العرب يتمذّرون بها ، لكونهم عرباً ، فيثيري هذا معانيه ، ويمكنه من التركيز والتكيّف مع التعبير الموجز الموجز الموجز. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذين اللفظين مع لفظي (العرب والعروبة) وهما مثنיהם في الرمزية ، كررها رشيد فيما يزيد على خمسين موضعاً ، ومن ذلك قوله :

٩٥

٩٤ - ديوان السيد : ١١

٩٥ - السابق : ١٤

أَيْنَ الرَّجَالُ وَأَيْنَ مِنْهُمْ يَغْرِبُ أَيْنَ الشُّعُورُ الْحَيُّ أَيْنَ تَبَدَّدَا
 أَفَلِيسَ مِنْ قَحْطَانَ أَصْلُ دِمَائِكُمْ أَفَيَقْبَلُنَّ قَحْطَانًا أَنْ يُسْتَعْبَدَا
 حَاشَا فَمَا الْعَرَبُ الْكِرَامُ بِذَلِيلٍ عَاشُوا وَلَا وَهَنَّ جَحَافِلُهُمْ يَدَا

فهذه الرموز الثلاثة هنا لمثل عليا ، ومعانٍ سامية ، يراد الاقتداء بها ، والحفظ
 عليها. وفي قوله : ^{٩٦}

مَا لَيْ أَرَى الْدَّهْرَ يَا قَحْطَانَ يُفْرِغُنِي مَا لَيْ أَرَى الْبُؤْسَ مَاجَثْ فِيهِ أَحْلَامِي
 نَجَدْ قَحْطَانَ رَمْزاً لِلنَّصْرِ الْعَرَبِيِّ ، الَّذِي يَخَاطِبُ الشَّاعِرَ بِاسْمِ جَدِّهِ الْأَكْبَرِ ، وَقَدْ
 آثَرَهُ لِيذَكُرُ الْمُخَاطِبُ ، مَا يُرْتَبِطُ بِهِذَا الْاسْمَ مِنْ دَلَالَاتٍ عَمِيقَةٍ ، وَغَنِيَّةٌ تَجْعَلُهُ أَكْثَرًا
 تَأثِيرًا وَاسْتِجَابَةً لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ بِاسْمِ هَذَا الْجَدِ الْعَظِيمِ ، وَلِهُذَا يَلْاحِظُ اعْتِمَادُ رَشِيدِ
 الْمُتَكَرِّرِ عَلَى هَذَا الرَّمْزِ وَسِيلَةً فَعَالَةً لِاستِهَاضِ الْعَرَبِ وَاسْتِثْنَاءِ حَمَاسِهِمْ كَمَا فِي
 قَوْلِهِ : ^{٩٧}

هَا رُوحُ قَحْطَانٍ أَطْلَى مِنِ الْغَلَا يَسْتَهِضُ الْهَمَمَ الْعَوَالِيِّ مَرْحَبَا
 أَبْشِرْ بَنُوكَ أَبَا الْعَرْوَةِ كُلُّهُمْ مُتَوَثِّبٌ أَوْ كَادَ أَنْ يَتَوَثِّبَا
 يَقْدُونَ مَجْدَكَ بِالنُّفُوسِ وَإِنَّهُمْ أَبْدَ الْحَيَاةِ يُحَقِّقُونَ الْمَأْرِبَ

أَمَا رموزه الخاصة ، التي تعبّر عن تجارب ذاتية ، وقضاياها تتصل بحياته
 الخاصة ف منها (دعد) الذي هو في الأصل من الأعلام المؤنثة المشهورة ، الكثيرة
 الدوران على ألسنة المغاربة ، وعلماء النحو العربي ، ولكنه يتخذ هذا الاسم رمزاً
 لمحبوبة معينة ، أو محبوبة مثالية يتغنى بجمالها الخلقي والخليقي ، ويشتبب بها
 تشبيباً عذرياً أو صوفياً بريئاً ، وفي ديوانه ثلاثة قصائد تحمل اسم دعد ، عناوينها:
 (ذكرى دعد - إلى دعد - دعد) كما ورد اسم دعد في سياق الغزل في غير هذه
 القصائد ، كقوله في قصيدة "أنا والأزهر" : ^{٩٨}

إِذَا لَمْ أَفْرُزْ يَا دَعْدُ بِالْعِلْمِ يَا فِعَاً فَلَا أَسْعَدْتُنِي فِي هَوَاكِ يَدُ الْجَدِ

^{٩٦} - ديوان السيد : ٥١

^{٩٧} - السابق : ٨٣

^{٩٨} - السابق : ٨٠

وكلامه في القصائد الثلاث متشابه ، وهو حديث عام لا يتعدى وصف دعد بالجمال ، وكمال الخلق ، وأنه يحبها من أجل هذا ، ويبقى وفيها لحبها فلا ينساها ، كما في قوله :

يَا حُسْنَهَا سَلَبْتُ عُقُولَ ذُوِي النَّهَى يَا لِلْفُؤَادِ غَرَامُهَا أَضْنَانِي
كِيفَ الْمَلَمُ بِحُبِّهَا وَعِيُونُهَا فَتَنَتْ رَجَالُ الزُّهْدِ وَالْأَدِيَانِ
حُورِيَّةٌ زَانَ إِلَهُ جَمَالَهَا بِحُلْيِ الْعَفَافِ فَضِيلَةُ الْإِنْسَانِ
وَبِحُسْنِ آدَابِ وَظَرْفِ كُمْلَتِ أَوْصَافُهَا وَالسَّحْرُ فِي الْأَجْفَانِ

ولا يبدو أنه يقصد محبوبة معينة ، وإنما كان في كلامه ما يشير إلى بعض تجاربه معها ، أو ما يدل على معاشرة حقيقة ، على شاكلة ما يتعرض له المحبون من صد وهر وحرمان ، ولما ناسب أن يقول في محبوبته المعينة إنها محبوبة كذلك لذوي النهى ، وتفتن رجال الزهد والأديان ، فهو إذا تعزل في محبوبة مثالية ، ولا يستبعد أن يكون مثار هذا الغزل ما سبق ذكره من تعرض الشاعر لأخفاقات في علاقاته الزوجية الأولى.

ومن رموزه الخاصة "الدهر" "والزمن" اللذين يرمز بهما كثيرا عن أعدائه ومبطئيه الذين يقونون في وجهه ، ويكون سببا في إخفاقاته في تحقيق طموحاته ، وبلغ مأربه ولهذا يرمي الدهر بصفات هؤلاء الخصوم من الغدر والمكر والمجون كما في قوله :

كَمْ عَرَكْتُ الْدَّهْرَ فِي هَذِي الْحَيَاةِ وَسَبَرْتُ الْغَوَرَ فِي شَتَّى الشُّؤُونِ
وَأَرَدْتُ الْمَجَدَ أَعْلَوْ هَامَةً غَيْرَ أَنَّ الْدَّهْرَ غَدَارُ مَجُونٍ

فالدهر الغدار الماجن هو الذي يحول بينه وبين اعلاء هام المجد ، ويزعجه عن أن يشيد صرح المجد ، وعن كل غاية عظيمة :

وَالْدَّهْرُ يُزِعِّجُنِي عَنْ غَايَةِ عَظُمَتْ مِنْ بَعْدِ مَا أَمَلَيْ قَدْ كَانَ مَعْقُودَا
كَمْ خَانَنِي زَمْنِي وَالْدَّهْرُ يَمْنَعُنِي عَنْ أَنْ أَشَيِّدَ صَرَحَ الْمَجَدِ تَشَيِّدا

٩٩- ديوان السيد : ٧٧

١٠٠- السابق: ٨٦

١٠١- السابق: ٥٦

بل إن دهره يسعى إلى شنقه ، وحنقه خنقاً حقيقياً أو معنوياً ، ثم يريد أن يصافيه ويواده ، بعد أن فعل به ما فعل: ^{١٠٢}

إِيَّهِ دَهَرَ الْغَدْرِ أَقْبَلَ
فَأَدْبَرَ لِسْتُ إِلَّا زَارِدًا حَبَلَ الْخِنَاقَ
بَئَسْتُ الْأَيَّامُ تَأْتِي بَعْدَمَا أَشْبَعْتُنِي عَلَقْمًا مُّرَّ الْمَذَاقَ
هَا فُؤَادِي مِنْهُ فَكَكْتَ الْعُرْقَ وَقَطَعْتَ الْوُدَّ مِنْ بَعْدِ التَّلَاقَ
أَفَبَعْدَ الْغَدْرِ يَا مَنْ خَانَنِي مِنْ وَفَاءٍ أَوْ صَفَاءٍ وَاتِّفَاقَ

وهكذا يصرح بأن من يشكو منه باسم الدهر ما هو إلا صديق غدر به وخانه ، وسعى إلى التخلص منه ، ويريد مع ذلك أن لا تفهم خيانته ، وأن تبقى الصداقة والمودة.

ومن رموزه الخاصة أيضاً "الأمل" ، وتعني في أصل اللغة ما يتمناه المرء ويحب أن يحصل عليه في مستقبله ، سواءً أكان سهل التحقيق أم بعيد المنال ، ولكل إنسان آمال وأمان ، ولكن رشيداً لا يريد به مطلق الأمل ، أو ما يصاحب الإنسان في حياته من التطلع إلى مستقبل أحسن وإلى غد أفضل ، ونحو ذلك من الترجيات والآمال التي تتبدل بتبدل الأيام ، وتقدم الإنسان في العمر ، ولكنه يريد أملًا خاصاً واحداً ثابتاً ، لا يتغير بمرور الأيام ، وطروع الظروف المغایرة ، وهو السيادة الدينية والعلمية ، اللذين بهما يتحقق مجده ، وقد سبق في ترجمته ما كان يأمله ، ويتهمياً له من خلافة شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده ، هذا هو ما كان يأمله ويتربقه ، كما يشير إليه قوله: ^{١٠٣}

أَمَلْتُ مُرْتَقِبًا وَرْدًا يُطَالِعْنِي بَعْدَ الظَّمَاءِ مُصْنَعًا إِنْ كَانَ مَوْرُودًا

بل كان في نظره - ومما علمه من رضا شيخه عنه ، وترشيحه له في هذه الخلافة - شيئاً محققاً لولا كيد الكائدين: ^{١٠٤}

وَالْدَهْرُ يُرْعِجُنِي عَنْ غَايَةِ عَظَمَتْ مِنْ بَعْدِ مَا أَمْلَى قَدْ كَانَ مَعْقُودًا

ولا يزال رشيد طالباً وساعياً إلى هذا المجد ما بقي في جسمه عرق ينبعض: ^{١٠٥}

١٠٢ - ديوان السيد: ٢٧

١٠٣ - السابق: ٥٦

١٠٤ - السابق: ٥٦

١٠٥ - السابق: ٥٨

يَا نَفْسُ صَبْرًا فَلَا تَأْسِي عَلَى زَمْنٍ كَانَ النَّعِيمُ بِهِ كَالصَّبَحِ مَشَهُودًا
 أَحَيِّ لِي الْأَمْلَ الْمَنْشُودَ وَارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ هُنَاكَ الْصَّرْحُ قَدْ شِيدَا
 وَابْنِي لِمَجْدِكَ بُنِيَانًا قَوَائِمُهُ فَوْقَ النُّجُومِ إِلَى الْعُلَيَاءِ تَمَهِيدًا
 هَذَا أَوْ أَوْمَلٌ^{١٠٦} وَالآمَالُ تَحْفِزَنِي فِي كُلِّ سَانِحَةٍ مَادِمْتُ مَوْجُودًا

الخصائص الموسيقية

حافظ رشيد كما عهدهنا في النظم على الأوزان القديمة ، وقد ظهر في دراسة نقده أنه لم يكن يرى لمن يريد أن يقرض شعراً عربياً الخروج عن النظام الموسيقي المعهود في الشعر العربي العمودي ، ولهذا يحرص في شعره في هذه المرحلة الذي ضمه ديوانه "ديوان السيد" على التقيد بالأوزان الخلiliaة ، بحيث قد انتظم شعره في خمسة أوزان على النحو الآتي

- ١- بحر الكامل : إحدى عشرة قصيدة (١١)
- ٢- بحر البسيط : عشر قصائد (١٠)
- ٣- بحر الرمل : سبع قصائد (٧)
- ٤- بحر الوافر : قصيدة واحدة (١)
- ٥- بحر الطويل : قصيدة واحدة (١)

وآخر الصور الواقية الطويلة من هذه البحور على القصيرة (المجزوءة - المشطورة - المنهوكة) فلم يستعمل من القصيرة إلا في قصيدين ، إحداهما من مجزوء الكامل ، والأخرى من مجزوء الرمل.

أما القوافي فكان فيها كذلك تابعاً أو مقلداً ، لا مخالفًا أو مبتakra ، غير أنه نظم قصيدين كلتاهم من بحر الرمل ، على نظام المخمسات في القوافي المتغيرة ، فجعل إحداهما تستقل كل خمسة أسطر منها بقافة واحدة ، وهي طويلة من ثمانية أجزاء ، تتولى قوافيها كالآتي (لامية - دالية - هائية - نونية ضادية - ميمية - نونية - ألف مقصورة) وهذا جزؤها الأول^{١٠٧} :

^{١٠٦} - هكذا في الأصل ، والظاهر أنه : أومل .
^{١٠٧} - ديوان السيد: ٦٥

يَا حَفِيدَ الْعَرَبِ يَا نَسْلَ الْأَوَّلِ
شَيَّدُوا الصَّرْخَ وَجَدُوا لِلْعَلَا
يَا ابْنَ مَنْ أَعْلَمُهُمْ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ
خَفَقَتْ لِلْمَجْدِ ثُبَّيِ الْأَمَلَا
جَدِّدَ التَّارِيَخَ وَاسْفَلَ الْعِلَالَا

وَخَالَفَ فِي الْثَّانِيَةِ بَيْنَ قَافِيَةِ الشَّطَرِ الْخَامِسِ مِنْ كُلِّ جُزْءٍ وَالْأَشْطَرِ الْأَرْبَعَةِ الْأُخْرَى ،
الَّتِي جَعَلَ قَافِيَتَهَا وَاحِدَةً ، وَجَعَلَ الشَّطَرَ الْخَامِسَ فِي كُلِّ جُزْءٍ عَلَى قَافِيَةِ نَظَرَائِهِ فِي
الْأَجْزَاءِ الْأُخْرَى ، كَمَا يَدِلُ عَلَيْهِ النَّمُوذِجُ : ^{١٠٨}

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ يَا نَسْلَ الْأَسْوَدِ
يَا رَجَالَ الْمَجَدِ مِنْ خَيْرِ الْجُدُودِ
أَنْتُمُ خَيْرُ أَمَانِيِّ الْخَلْوَةِ فَارْفَعُو الْهَامَاتِ هِيَا وَالْبُنُودِ
لِتُعِيدَ الْمَجَدَ مَجَدَ الْعَرَبِ

الْأَشْطَرِ الْأَرْبَعَةِ الْأُولَى دَالِيَةً ، وَقَافِيَةِ الشَّطَرِ الْخَامِسِ بَائِيَةً ، وَكُلِّ الْأَشْطَرِ الْخَامِسَةِ
بَائِيَةً مِثْلَهُ فِي جَمِيعِ الْأَجْزَاءِ ، وَلِكُلِّ جُزْءٍ مَا عَدَ الْخَامِسَ قَافِيَةً مُوَحَّدَةً خَاصَّةً بِهِ. ^{١٠٩}

مَكَانَتُهُ الشَّعُورِيَّةُ

يُذَكِّرُ مَعَاصِرُو السَّيِّدِ رَشِيدِ رَضَا ، الَّذِينَ تَرَجَّمُوا لَهُ ، أَنَّهُ قَالَ الشِّعْرَ فِي
صَبَّاهُ ، ثُمَّ انْقَطَعَ عَنْهُ عِنْدَمَا كَبَرَ نَصِيبَهُ ، وَثَقَلَ مِيزَانُهُ فِي الْعِلُومِ وَالْفَنُونِ . يَقُولُ
الْزَّرْكَلِيُّ : "مُحَمَّدُ رَشِيدُ بْنُ عَلَيِّ رَضَا .. صَاحِبُ مَجَلَّةِ الْمَنَارِ ، وَأَحَدُ رِجَالِ الإِصْلَاحِ
الْإِسْلَامِيِّ ، مِنَ الْكِتَابِ الْعَلَمَاءِ بِالْحَدِيثِ ، وَالْأَدْبُرِ ، وَالتَّارِيَخِ ، وَالتَّفَسِيرِ .. وَنَظَمَ
الشِّعْرَ فِي صَبَّاهُ". ^{١١٠} وَيَقُولُ الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ كَرْدُ عَلَيٌّ : "وَكَانَ يَنْظُمُ الشِّعْرَ قَبْلَ أَنْ
يَحْذِقَ الْعِلُومَ الْعَرَبِيَّةَ". ^{١١١} وَيَوْمَئِيْ كَلَامُ الْأَسْتَاذِيْنِ إِلَى أَنَّهُ تَخْلَى عَنْ قَوْلِ الشِّعْرِ بَعْدِ
أَنْ كَبَرَ فِي السَّنَ وَالْعِلْمِ ، أَوْ أَنْ اهْتَمَمَهُ فِيهِ لَمْ يَعْدْ كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلِهِ ، بَلْ تَحَوَّلُ
إِلَى الْعِلْمِ وَالْإِصْلَاحِ وَالْجَهَادِ ، فَأَصْبَحَ الشِّعْرُ مِنْ أَقْلَ بِضَاعَتِهِ الَّتِي لَا تَسْتَرِعُ
إِنْتِبَاهَ الْبَاحِثِيْنَ فِي عِلْمِهِ وَعَطَائِهِ ، وَالْمُتَرَجِّمِيْنَ لِهِ بِجَهُودِهِ وَجَهَادِهِ.

^{١٠٨} - دِيَوَانُ السَّيِّدِ : ٣١

^{١٠٩} - وَيَذَكُرُ دُ. إِبْرَاهِيمُ أَنَّيْسُ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ الثَّانِيَ مِنَ الْمَخْمَسَاتِ أَكْثَرُ شِيَوْعًا لِدِي الشِّعْرَاءِ الْمُحَدِّثِيْنَ فَيَقُولُ : "وَإِنَّمَا الْمَخْمَسَ الَّذِي اسْتَحْسَنُوهُ وَاسْتَعْذَبُوهُ مُوسِيقَاهُ هُوَ ذَلِكُ الَّذِي تَنَكَّرَ فِيهِ قَافِيَةُ الشَّطَرِ الْخَامِسِ مِنْ كُلِّ قَسْمٍ
مِنْ أَقْسَامِ الْمَقْطُوْعَةِ". انْظُرْ : مُوسِيقَى الشِّعْرِ : دُ. إِبْرَاهِيمُ أَنَّيْسُ ، دَارُ الْقَلْمَنْ ، بَيْرُوتَ ، لَبَّانَ ، ص ٣٣٩

^{١١٠} الأَعْلَامُ : ١٢٦/٦

^{١١١} - الْمَعَاصِرُونَ : ٣٣٤

كان السيد رشيد رضا صديقاً لكتاب الشعراء في عصره؛ كالبارودي، وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي، وعندما نظم مقصورته الرشيدية - وكان معجباً بها ، كثير الذكر لها - عرضها على هؤلاء الشعراء الفحول ، وسجل آراءهم فيها ، ومن ذلك قوله: "فَلَمَا قَرَأَهَا مُحَمَّدُ سَامِيُّ بَاشَا الْبَارُودِيُّ ، فَضَلَّهَا عَلَى الدَّرِيدِيَّةِ ، وَطَالِبِي بَطَّعَهَا أَوْ نَسْخَهَا" ^{١١٢} وهذا كلام يدل على إعجاب بالقصورة ، وعلى تقدير موهبة رشيد رضا الشعرية ، ولو كان ذلك أمّاً صاحبه ، بحيث لا يخلو من المجاملة والمصانعة ، وعرض المقصورة على حافظ إبراهيم أيضاً ، فقال : "إِنَّ الْقَافِيَّةَ تَسْاعِدُكَ عَلَى هَذَا التَّطْوِيلِ مَعَ الْمَتَانَةِ" ^{١١٣} وتعليق حافظ أقرب إلى النقد الموضوعي ، إذ ذكر أن المقصورة متنية في لغتها وأسلوبها ، وأن هذه الإجادة مع طول المقصورة ليس راجعاً إلى فحولة رشيد الشعرية فحسب ، وإنما أسلوبها في هذا اختيار القافية المواتية ، والوزن السهل ، وأيا كان مرد جمال المقصورة فقد أشعر نقد حافظ بأنه زكي المقصورة الرشيدية ، وأشار بشاعرية صاحبها.

ويقول فيه مقدم ديوانه ؛ الأستاذ طه عبد الباقي سرور : "وَشَاعَرُنَا الْمُوْهُوبُ الْأَسْتَاذُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ رَشِيدُ رَضاً ، خَلَقَ شَاعِرًا بِفَطْرَتِهِ وَأَمَالِهِ وَأَحَلَامِهِ ، بَلْ هُوَ فِي ذَاتِهِ قَصِيدَةُ رَائِعَةٍ ، تَرَاهُ حَالَمًا سَابِحًا ، بَلْ يَكَادُ يَكُونُ شَفَافًا ، تَلْمِسُ رُوحَهُ وَلَا تَرَى جَسْدَهُ ، وَإِذَا انْسَكَبَتْ عَيْنَاهُ عَلَى وَجْهِكَ فَأَنْتَ غَارِقٌ ، لَا تَفِيقُ فِي أَمْوَاجِ مِنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَنْغَامِ .. أَنْتَ فِي دُنْيَا ، مَلَئَتْ أَخِيلَةَ ، وَأَحَلَامَ ، وَزَهْوَرَ ، وَأَنْغَامًا" ^{١١٤} وتعليق هذا الأستاذ ، وإن كان من قبيل التقارظ المعايرة لهوى المقرظين ، فإنه يشير إلى طرف من حقيقة رشيد ، فقد كان الرجل دقيق الإحساس ، سريع التأثر ، خفيف الروح ، على ما به من حدة ، شاعري الطبع ، بعيداً عن التزمر ، الذي يجنب إليه في الغالب أمثاله من علماء الدين في عهده.

وفي تعليقات شبيب أرسلان على المقصورة الرشيدية ، التي نشرها مع طائفة من شعره في كتابه "السيد رشيد رضا" ما يدل على إجلاله لموهبة رشيد الشعرية ، إذ يشبه بعض قصائده بـ شعر الشريف الرضي ، وأبي العلاء المعري .

^{١١٢} - السيد رشيد رضا : ١١٣

^{١١٣} - السابق : ١١٣

^{١١٤} - ديوان السيد : ٦

أما الدكتور أحمد الشرياسي ، فيقرن السيد رشيد رضا بالشاعر المصري محمد عبد المطلب ، في كونه مغرما بالقديم ، متکلما بطرائق القدماء في قول الشعر ، إضافة إلى تتبع الغريب ، واستکثار الكلمات النادرة في قاموسه الشعري ، يقول الدكتور في هذا الصدد : "على الرغم من كثرة الشعراء المجيدين ، في الثالث الأول من القرن العشرين ، نجد طائفة من الشعراء تميل إلى متابعة القدماء ، أكثر مما تميل إلى الانخراط في سلك المجددين ، ومن هذه الطائفة من ظل يحن إلى روح البداوة في الشعر ، أو يكلف بالصور الشعرية الموروثة ، أو يحرص على تضمين شعره كثيرا من الكلمات اللغوية ، أو النادرة الاستعمال".^{١١٥}

هذا ما قاله بعض الباحثين في مكانة رشيد رضا الشعرية ، وفعلا كان رشيد شاعراً موهوباً ، فقد قال الشعر في صباح ، وقبل أن يتلقى مبادئ العلوم ، التي يمكن الاستعانة بها في صنع نظم يشبه الشعر ، كما جرت بذلك عادة كثير من العلماء ، وقد ذكر أنه نظم بعض قصائده في حالة تشبه الارتجال^{١١٦} مما يعكس قوة شاعريته ، وأنه لا يجتنبه بتكلف وتعمل ، وكان من الطبيعي في مرحلته الشعرية الأولى أن يستلهم من الشعر العربي القديم في عصور ازدهاره ، وأن يحتذى حذو كبار شعرائه ، وينسج على منوالهم ، ويقتفي آثارهم ، معارضاً ومقتبساً ومسترشداً ، وهو لا يخفي هذا بل يصرح به كقوله في بعض شعره : "فنظمت المرثية الدالية ، التي اشتهرت حتى كادت تذكرة مع مرثية الموري الدالية في فلسفتها ، ومرثية الشريف الرضي الدالية في تعظيم قدر المرثي بها".^{١١٧} ومن هذا المنطلق عارض مقصورة ابن دريد بمقصوريته الرشيدية ، التي أربت على أربعينات بيت ، والتي كان ينوه بها كثيراً ، ويتركها مفتوحة يضيف إليها كلما استجدى لديه عاطفة الشعر ، ويصعب تقييم شعر السيد رشيد رضا ، الذي قاله في مرحلته الشعرية الأولى ، التي كان فيها محاكياً ومقلداً ، لقلة ما تبقى منه في المصادر المتاحة ، ويکفي أن رشيداً قد حكم عليه بأنه شعر تقليدي ، ولا يعني هذا أنه كان ضعيفاً في أسلوبه وصياغته.

^{١١٥} - رشيد رضا صاحب المنار : ٦٩

^{١١٦} - السابق : ١١٠

^{١١٧} - السابق : ١١٠

وأما المقصورة الرشيدية ، فهي من شعره القوي الناضج ، وقد أسلفنا رأي الأدباء والشعراء الكبار فيها ، وفي رأيي أنها ليست سواء في مستواها الفني ، بل هي متقاوتة ، تبعاً لتنوع موضوعاتها ، واختلاف عاطفة صاحبها لاختلاف أوقات نظمها ، فمقدامتها في الاعتبار بعجائب صنع الباري ، وفي وصف الحديقة والكتاب أو المجلة ، تعلو على الجزء الذي مدح به صديقه العريض ، وكلاهما يختلف عن مدحه لشيخيه ؛ الشيخ جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وعما ختم به المقصورة ، من حث الدعاة على الصبر ، وعدم اليأس والاستسلام ، ونصحه لهم بأخذ أسباب القوة ، فهذا الجزء أقرب إلى طابع النظم منه إلى طابع الشعر.

ولشعره الذي وصفه بالشعر العصري طابع خاص به ، من حيث كونه مراعياً فيه لمقاييس ومفاهيم معينة ، وكان حريصاً على تنزيل شعره على تلك المقاييس وتطبيقه عليها ، فإذا كان الالتزام يعني إطاراً عاماً ، ومجالاً فسيحاً يحول فيه الشاعر ، بحيث لا ينافق المبادئ العامة لهذا الإطار ، ولا يخرج على مفاهيمه الأساسية ، فقد بدا رشيد رضا في رأي الباحث مبالغ في هذا الالتزام ، بحيث حجر على نفسه واسعاً ، فكشف من إيداع مصطلحات العلوم ، وأسماء المكتشفات والمخترعات في شعره ، كما يظهر ذلك في قصيدة "الجانبية" ، والقصيدة التي مدح بها السلطان عبد الحميد الثاني ، وهنأه بعيد جلوسه على العرش ، وقد ينظر إلى مذهبه في العصرنة مذهبنا هجينا ، لا ينبع من فرارة خيال الشاعر ، ولا يدل على اصطباغه بروح العصر ، بحيث يصدر من معطيات العصر تلقائياً ، من غير أن يقصد ذلك ، فيصدق عليه نقد العقاد في قصيدة ، في وصف الطائرة للشاعر محمد عبد المطلب ، الذي كان مولعاً بمذهب قدماء الشعراء ، فأراد أن يدلّي دلوه في المذهب الجديد ، ويظهر قدرته على إتيان شعر عصري ، فنعني عليه العقاد فهمه للشعر العصري ، وأنه لا يحصل باستبدال الطائرة بالناقفة وقال : "والواقع أن الشاعر العربي إنما كان يصف الناقفة لأنها جزء من حياته .. وهو أشعر ألف مرة من يحكى به بوصف الطائرة في العصر الحديث ، لأنها أحدث أدوات المواصلات ، كأننا لا

نعيش إلا لنصف هذه الأدوات .. وما هي بمستحقة منا الوصف لو ما نظرنا إلى الفن والأدب إلا بمقدار ما تبعثه فينا من شعور ، وتفتحه لنا من خيال. ^{١١٨}

وكان مما قرره رشيد رضا نفسه في آرائه النقدية ، أن علوم العصر و المعارف لا تحصل فائدة ، إلا إذا صارت "ملكات راسخة في الأمة ، وأما حشو الأذهان بالألغاز والمصطلحات ، وشغل العقول بحفظ بعض المسائل ، تقلیداً لمن نقلت عنهم ، قد يكون ضرره أكبر من نفعه." ^{١١٩} ودعا "إلى إشراع الطريق ، لجعل لغة الأمة تتسع لهذه العلوم والفنون ، وما يتجدد منها في كل آن." ^{١٢٠}

ولعل خير ما يمثل رشيد رضا من شعره ، وهو على سجيته ، شعره الذي حواه ديوانه "ديوان السيد" ، وهو شعر لا محاكاة فيه لمذهب قديم ، ولا مراعاة لطريقة أو فلسفة معينة ، وإنما جاء استجابة لرغبات رشيد ، وتصویر عواطفه ومشاعره في مختلف المواقف الوطنية والإنسانية والذاتية ، ويعكس تجربته في الحياة ، ونظرته إلى ما حوله من القضايا والحوادث "كما تجسدها المعاناة والبحث والكشف عن معاني الوجود" ^{١٢١} ، فهو في رأيي خير شعره ، وإن كان من أبرز خصائصه نزعته الخطابية ، كما أسلفت القول في الدراسة الفنية لشعره ، ولكنه من حيث صدق العاطفة ، والتعبير عن الواقع العام والخاص ، وطبيعة الموضوعات التي اتخذها ميداناً له ، كل ذلك يرسّحه ليكون أفضل شعره ، وهو أولى بالعصرنة من شعره الذي سماه الشعر العصري ، لأن الشعر العصري في الواقع هو الذي يكون "مرآة يتصلب فيها الناس صور نفوسهم في كل عصر وطور." كما يقول العقاد. ^{١٢٢}

أما ما ذهب إليه الدكتور أحمد الشريachi من أن رشيد رضا كان - مثل محمد عبد المطلب - مولعاً بمحاكاة قدامى الشعراء البدوين ، ولهذا حشا شعره كثيراً من الكلمات الحوشية والنادرة ، فلم يظهر لي من شعر السيد رشيد رضا ما يعزز هذا الرأي.

^{١١٨} - أعلام الشعر : ٢٦٢

^{١١٩} - المنار : ٧٨٦/١٠/٢٧

^{١٢٠} السابق : ٧٨٦/١٠/٢٧

^{١٢١} - الحركة الأدبي في دمشق ، د. أسكندر لوقا ، مطبع ألف باء - الأديب ، دمشق ، ١٩٧٦ م ، ص ١٣٥

^{١٢٢} - الحركات الفكرية والأدبية في العالم العربي الحديث ، أبو عوض أحمد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٧٨

المبحث الثاني : الدراسة الفنية لنثر السيد رشيد رضا

المطلب الأول : رسائله

أغراضها

معظم الرسائل التي وجدها الباحث للسيد رشيد رضا هي المجموعة في كتاب : (السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة) لشبيب أرسلان ، وعدها مائة واثنتان وخمسون (١٥٢) رسالة ناهز مجموع صفحاتها خمسمائة صفحة ، وكلها مرسلة إلى صديقه شبيب أرسلان ، الذي جمعها في هذا الكتاب ، وهناك رسائل أخرى يسيرة ، وردت في مجلة المنار ، وفي بعض الكتب المؤلفة فيه ، وتتنوع هذه الرسائل ، بتنوع الغرض المنشأ لها ، وتتنوع المرسل إليهم ، المخاطبين بها ، ولكن يجمعها رابط واحد ، من حيث الموضوع ، وهو كونها رسائل إخوانية غير رسمية ، تحمل الملامح الشخصية ، ولا تخضع لأسس فنية معينة.

أسلوبيها

ومهما اختلفت أو تتنوعت أغراض هذه الرسائل ، وتقاوت المخاطبون بها ، فإن طابعها العام ، وسماتها البارزة التي تميزها أنها متحركة من قيود الصنعة والتكلف لأنها لم تنشأ لتنشر ، وإنما لمناجاة الأصدقاء ، ومناصحة الأولياء ، ومكاتبة الأهل والإخوان ، ومع هذا فإنها عالية في أسلوبها ، فصيحة في لفظها ، لمكانة صاحبها العلمية ، ومنزلته الأدبية واللغوية ، ولأنها من إنشائه في مرحلة نضجه العلمي واستواء أدبه وفكره ^{١٢٣} ، وهذا ما يشير إليه الدكتور سامي الدهان إذ يقول : "ولا شك في أن الذين يريدون أن يدرسو رشيد رضا يستطيعون أن يقرأوا كتبه .. كما يستطيعون أن يرجعوا إلى أسلوبه الشخصي غير المتكلف في هذه الرسائل فقد كان الرجل يكره النثر المسلح ، ويعتمد إلى أسلوب الترسل الحر ، فأسلوبه يختلف في أغراضه وأساليبه عن أساليب المترسلين القدماء". ^{١٢٤}

^{١٢٣} - ذكر رشيد رضا أنه لم يحتفظ إلا قليلاً من رسائله الشخصية قبل هجرته إلى مصر. انظر : الأزهر والمنار :

^{١٢٤} : ٣٦٣ - الأمير شبيب أرسلان:

ويذهب الأمير شكيب أرسلان إلى أبعد من ذلك ، فيجزم بأن هذه الرسائل تمثل قمة أدب رشيد رضا ، لأنها تصاهي في فصاحتها ، وقوة بيانها ، أدبه المنشور ، مع أنه لم يتوقع أن تنشر هذه الرسائل ^{١٢٥} ، فدللت على أن ملكته البيانية راسخة في طبعه. يقول شكيب : "فلا تجد إنشاءه في هذه الكتب الخاصة ينزل درجة واحدة عن إنشائه في المنار ، وفي كتبه العامة ، لأن ملكة الفصاحة لا تفارق قلمه في عام ولا خاص ، ولابد للبحر أن يقذف الدر كيما تحرك. بل بروز السيد رشيد في مفاضله بلا تكلف ، ولا توقع نشر ، جعل كلامه أوقع ، وأبعد مدى في التأثير ، ولذلك قلت إن هذه الرسائل الخاصة هي من أعلى ما جرى به قلم السيد رشيد في حياته ، كما يتضح لكل ذي بصر بصناعة الكتابة." ^{١٢٦}

ومع هذه الشهادة يلاحظ في بعض رسائل رشيد ما ينتمي إلى الأساليب القديمة ، من العناية باللفظ ، والحرص على المحسنات البديعية ، والصور المجازية ، وإطلاق الألقاب والنعوت المبالغ فيها ، وهذه الملاحظة خاصة بما وجد من رسائله قبل هجرته إلى مصر ، ومن ذلك خطابه إلى السيد جمال الدين الأفغاني الذي يقول فيه : الحمد لله على أفضاله ، والصلة والسلام على سيدنا محمد وآلـه ، وعلى سيدـي المطلق ، ذـي الـقدحـ المـعـلـى ، والـجـوـادـ المـصـلـىـ الأـسـبـقـ ، سـدـرـةـ مـنـتـهـىـ الـعـرـفـانـ ، وـجـنـةـ مـأـوىـ الـمـحـاـسـنـ وـالـإـحـسـانـ ، الـذـيـ لـهـ فـيـ كـلـ جـوـ مـتـنـفـسـ ، وـمـنـ كـلـ نـارـ مـقـتـبـسـ ، الـإـمـامـ الـفـرـدـ ، وـالـعـقـلـ الـمـجـرـدـ ، حـجـةـ إـلـاسـلـامـ ، وـعـلـمـ الـأـعـلـامـ ، أـخـطـبـ الـخـطـبـاءـ ، وـأـبـلـغـ الـكـتـابـ ، مـنـ أـوـتـيـ الـحـكـمـ وـفـصـلـ الـخـطـابـ بـدـلـ الـأـبـدـالـ ، سـيـدـ الـأـلـ ، إـلـاـنـسـانـ الـكـامـلـ ، الـوـارـثـ الـكـامـلـ ، الـمـرـشـدـ الـكـامـلـ." ^{١٢٧} وفيه بعد هذه المقدمة ، يتلف في استئذان جمال الدين في الاتصال بحاشيته ، ويتلهم علىـهـ ، ويتقرب إـلـيـهـ بما يخلع عليهـ منـ المـدـحـ المـفـرـطـ : "إـنـيـ مـذـ لـاحـتـ عـلـيـ مـخـاـيـلـ الـتـمـيـزـ ، مـاـ نـمـىـ إـلـيـ

^{١٢٥} - وهذا ما يؤكدـهـ الأـسـتـاذـ أـنـورـ الجـنـديـ بـقـولـهـ : "ولـيـسـ مـنـ شـكـ أنـ المـرـاسـلـاتـ الـأـدـبـيـةـ فـيـ نـظـرـ النـقـادـةـ وـالـبـاحـثـيـنـ أـصـدـقـ مـنـ مـخـتـلـفـ الـفـنـونـ الـمـتـصـلـةـ بـالـتـبـيـرـ الـذـاتـيـ وـالـإـفـضـاءـ ، وـهـيـ أـعـلـىـ درـجـةـ مـنـ التـرـجـمـةـ الـذـاتـيـةـ وـأـدـبـ الـمـذـكـرـاتـ وـأـدـبـ الـرـحـلـاتـ ، وـكـلـهـاـ أـلـوـانـ تـتـبـعـ لـلـكـاتـبـ تصـوـيرـ نـفـسـهـ ، وـالـإـفـضـاءـ عـنـ عـاطـفـتـهـ وـمـشـاعـرـهـ تـجـاهـ الـأـحـدـاثـ الـخـاصـةـ وـالـعـامـةـ ، وـتـلـكـ أـنـ التـرـاجـمـ الـذـاتـيـةـ وـأـدـبـ الـمـذـكـرـاتـ ، إـنـماـ يـكـتـبـهـ الـكـاتـبـ تـحـتـ سـلـطـانـ إـحـسـانـ يـقـظـ ، بـأـنـهـ سـتـذـاعـ فـيـ النـاسـ ، وـتـتـشـرـ فـيـ الصـفـحـ أـوـ الـكـتـبـ ، وـمـنـ هـنـاـ يـتـسـمـ بـالـتـحـفـظـ يـضـفـيـ عـلـيـهـ ، وـتـبـدوـ وـقـدـ أـصـافـ عـلـيـهـ شـيـئـاـ قـلـيـلاـ أـوـ كـثـيرـاـ مـنـ (ـالـتـوـابـلـ). اـنـظـرـ صـفـحـاتـ مـجـهـوـلـةـ مـنـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ الـمـعـاـصـرـ أـنـورـ الجـنـديـ ، مـكـتبـةـ الـأـنـجـلـوـ الـمـصـرـيـةـ الـقـاهـرـةـ ، الطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ ، ١٩٧٩ـ مـ ، صـ ٢٠٥ـ

^{١٢٦} - السيد رشيد رضا : ٣٠٧
^{١٢٧} - تاريخ الأستاذ: ٨٥/١

خبر أذ وأشهى ، ولا أذل وأسمى ، من خبر سيدى (جمال الدين الأفغاني) ، نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف ، وسقاها بماء الحياة ، فنبت نباتاً حسناً ، وتشعبت أفنانها .. شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .."فلله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ما هب نفحة من معارفها في جو قوم إلا ونفخت في رمهم روح الفضل ولا تدفقت أمواه فضائلها في أرض أمة إلا وجرفت منها أرдан الجهل."^{١٢٨}

فهذا خطاب اعتمد فيه رشيد على المبالغة في الأوصاف والنعوت ، التي خلعتها على المخاطب ، وحاول التأنيق في الأسلوب بالسجع حيناً ، وبالاقتباس حيناً آخر ، وبالصور المجازية حيناً ثالثاً ، فعناته منصرفه إلى تزيين اللفظ ، وتحسين الأسلوب ، وإظهار البراعة في اقتناص الألقاب التي كانت مألوفة في المخاطبات في تلك الأيام الخوالي ، من صدر حياته ، دون الاهتمام بإثراء أفكار الخطاب ، إذ إن خطابه على طوله لم يتضمن إلا فكريتين أساسيتين هما : مدح السيد ، والرغبة في رفقته.

ويبدوا أن رسائل رشيد قبل هجرته إلى مصر كانت من هذا القبيل ، وربما أهلها ولم يحتفظ منها بشيء لهذا السبب ، إلا ما عز عليه كهذا الخطاب التاريخي. يقول رشيد : "وأما المكتوبات الشخصية فلا أذكر أني حفظت صورة مما كتبته منها قبل هجرتي إلى مصر ، وهو قليل ، إلا كتابي التاريخي الذي أرسلته من طرابلس إلى حكيمنا السيد جمال الدين الأفغاني .."^{١٢٩}

أساليب متكررة في رسائله

تردد بعض العبارات في رسائل رشيد بصورة متكررة ، وكأنه يؤثرها على غيرها ، لأنها أولى وأصح في الاستعمال ، أو يقصد إشاعتها وإشهارها بين الكتاب ، أو لأنها غلبت على استعماله ، فتكررت في أسلوبه أكثر من غيرها ، ومن ذلك :

^{١٢٨} - تاريخ الأستاذ: ٨٦/١
^{١٢٩} - المنار والأزهر: ١٨٧

١- (أَلْقَى إِلَيْكَ كِتَابَكَ) وهذا تعبير قرآنی ، ورد في قوله تعالى : (إِنَّمَا أَلْقَى إِلَيْكَ كِتَابًا كَرِيمًا) ^{١٣٠} وكان رشید رضا يحب موافقة أساليب القرآن ، وينصح غيره بذلك. ^{١٣١}

٢- (مِكْتُوبَاتٍ) كان يؤثر هذا الجمع مع مفرده (مِكْتُوبٌ) ويكثر من استعمالهما وينكر جمع مِكْتُوبٌ على مكاتب لأنه جمع غير قياسي. ^{١٣٢}

٣- (الكتاب) بمعنى الكتابة الشائعة الاستعمال ، فيقول مثلاً : "أَبْطَأْتُ فِي الْكِتَابِ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ" وهذا كثير في رسائله. ^{١٣٣}

٤- (مرجوع) بمعنى جواب ، من الكلمات الكثيرة الدوران في رسائله. ^{١٣٤}

٥- (لَمَا) يستعمل رشید هذا الحرف كثيراً ، وكأنه رأى أن الناس أهملوه ، واكتفوا بنظيره (لَمْ) غير شاعرين أو آبهين بالفروق اللغوية الدقيقة بينهما ، فأراد أن ينبه إلى ذلك بالاستعمال الكثير كما في قوله : "وَلَعَلَ تَقْرِيرُهُ الْمَنَارُ لَهُ قَدْ أَرْضَاكَ ، وَلَمَّا يَرْسِلُ الْحَلْبِيَ إِلَيْكَ الْمَجْدُ الْثَّانِي مِنْهُ ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ فَذَكَرْتُهُ فَوْعَدْ ، وَلَمَّا يَفِ ، وَلَكِنَّهُ لَابْدُ أَنْ يَفِي". ^{١٣٥}

٦- (وَجْهَةُ الْقَوْلِ - وَخَلَاصَةُ الْقَوْلِ) تكرر هاتان الكلمتان في رسائل رشید مما يدل على استشعاره بطول الكلام وتشعبه في الرسالة ، فيلجاً إلى تلخيصه وإجماله. ^{١٣٦}

٧- (أَوْلُ مِنْ أَمْسٍ) من العبارات الكثيرة الدوران في رسائله ، ولا يضيف ولو مرة واحدة بأن يقول أول أمس. ^{١٣٧}

٨- وهناك كلمات أخرى أقل شيوعاً في رسائله ، ولكنها تدل على طرف من أسلوبه الخاص. من ذلك : (افتراض) بمعنى انتهز الفرصة ، وهذا أكثر

^{١٣٠}- سورة النمل : ٣٠
^{١٣١}- كما نصح بذلك صديقه شكيبيا مذكرا بما كان منه مع أستاذة الشيخ محمد عبده قائلاً : " وقد راجعت أستاذنا مرة في كلمة كتبها في مقالات الإسلام والنصرانية ، مخالفة لأسلوب القرآن ، وهي صواب في نفسها ، وكانت المراجعة كتابية ، فكتب إلى بأن أصححها ، أو أغيرها ، وعلل ذلك بأنه لا يحب مخالفة القرآن ، ولو إلى صواب". انظر : السيد رشید رضا ، ص ٣٨٨

^{١٣٢}- السيد رشید رضا ، ص ١١٩

^{١٣٣}- السابق: ٣٥١

^{١٣٤}- السابق: ٤١٦

^{١٣٥}- السابق: ٧٣٠

^{١٣٦}- السابق: ٤٨١

^{١٣٧}- السابق: ٤٠٨

شيوعا في استعمال الناس من الصيغة الفعلية. ومنها : (علاوة) بمعنى الملحق ، كما في قوله : " فقد ألقى إلى أمس كتابك الكريم ، وعلاوته السياسية ، التي هي أكبر منه ، (أو ملحاوه كما يكتب النجديون)" والتعبير المعاصر أن العلامة هي الإضافة الكلامية لا المادية. ومنها (بكرة اليوم) أي : صباح ^{١٣٨} اليوم.

المطلب الثاني : مقالاته

م الموضوعات مقالاته

كان رشيد رضا من أقطاب النهضة المفكرين والمنظرين والعامليين لها ، ومن دعاء التجديد الديني ، والإصلاح السياسي والاجتماعي والطابع الغالب على هؤلاء هو الشمولية في الرؤية ، والموسوعية في المعرفة ، والتعددية في الاهتمامات ، فلا يرى أحد منهم قاصراً جهده العلمي أو العملي في مجال واحد ، وقد اتّخذ معظمهم الجرائد والمجلات من أهم وسائلهم الأدبية لنشر أفكارهم ^{١٣٩} ، فكان تنوّع موضوعاتها تبعاً لتنوع اجتهداتهم ، "ومعظم المؤلفات التي أخرجها كبار الكتاب ليست سوى مجموعات من المقالات نشرت في الصحف ثم رتّبت على حسب موضوعاتها". ^{١٤٠}

شرح السيد رشيد رضا في العدد الأول من مجلته الموضوعات التي ستعالجها المجلة فقال : "وغرّضها الأول الحث على تربية البنات والبنين ، لا الحط في الأمّاء والسلطين ، والترغيب في تحصيل العلوم ، لا الاعتراض على القضاة والقانون ، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم ، والتشيّط على مجازة الأمم المتقدمة في الأعمال النافعة ، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد ، وشرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة ، والأخلاق الريّئة التي أفسدت الكثير من عوائدها ، وال تعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد ، والتأويّلات الباطلة التي شبّهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر توحيداً ، وإنكار الأسباب إيماناً ، وترك الأعمال المفيدة توكلًا ، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً ، وإيذاء المخالف في المذهب ديناً ، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلحاً ، واغتيال العقل ، وسفاهة الرأي ولاية وعرفاناً ، والذلة والمهانة تواضعاً ، والخضوع للذل والاستبسال للضييم رضا وتسليماً ، والتقليد الأعمى لكل متقدّم علمًا وآيقاناً". ^{١٤١}

^{١٣٩} - "وكانت صحفتنا قبل الحرب العالمية الأخيرة - صحفة مقال ، أي أنها تعتمد اعتماداً كبيراً في تحريرها على المقالات المختلفة . "الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، ص ٢٢٠

^{١٤٠} - الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار: د. جودت الركابي ، دار الفكر ، دمشق - سوريا ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م ، ص ٣٢٠

^{١٤١} - المنار: ٩/١/١

وبعد أربع وثلاثين سنة كتب إلى شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي وقد استشاره في تحسين مجلة الأزهر : "أهم أبواب هذه المجلة فيما أرى سبعة." ^{١٤٢} وملخصها :

- ١- باب المقالات الدينية والعلمية والتاريخية والخطابية.
- ٢- باب الفتاوى العلمية.
- ٣- باب كشف الشبهات وحل عقد المشكلات.
- ٤- باب البدع والخرافات.
- ٥- باب التربية والتعليم
- ٦- باب آداب اللغة العربية وتاريخها.
- ٧- باب الاقتباس والانتقاد.

ولو قارنا بين الأبواب السبعة التي اقترحها لمجلة الأزهر - وهي التي تشير إليها مقدمته في العدد الأول - وبين موضوعات مجلة المنار على مدى السبع والثلاثين سنة التي اتصل عملها لوجدناها متطابقة ، وهذا يدل على أن رؤية رشيد رضا في موضوعات مجلته لم تتبدل أثناء هذه الفترة الطويلة ، غاية ما في الأمر أن التركيز على بعض الموضوعات خف مع تقدم سن المجلة ، وزاد التركيز على غيرها ، وهذا ما يبدو في إقلال رشيد من الموضوعات التربوية والعلمية ، وكثرة تركيزه على معالجة المشاكل الدينية الناشئة من تعقد الحياة المدنية بتفاعلها مع نتائج النظم العلمانية (الرأسمالية والاشتراكية) وخاصة عندما اشتهرت المجلة وصاحبها ، وأصبح كثير من المسلمين في العالم الإسلامي يعولون عليها في فهم الدين كما يشير إلى ذلك كلام العقاد: "ولقد لقيت أنا في بلدتي أنسا من أبناء أفريقيا العربية الذين يعبرون بأسمان في طريقهم إلى الحج ذاهبين أو عائدين ، فوجدت بينهم من يقرأ مجلة المنار ، ويعول عليها في فهم شعائر الإسلام وأحكامه." ^{١٤٣} كذلك قلت مقالاته في اللغة والأدب ، ولم تعد اهتماماته فيما كانت من قبل ، ويبعد أنه أفسح المجال فيما لغيره عندما كثر المشاركون في تحرير المجلة معه ، فكان يكتب المقالات الأدبية

^{١٤٢} - السابق: ٢٢٣/٣/٣٢

^{١٤٣} - المجموعة الكاملة لممؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، المجلد السابع عشر ترجم وسیر ٣ ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، ص ٥٤٧

واللغة - مع آخرين - الأستاذ محمد الخضر حسين ، الذي كتب سلسلة مقالات بعنوان : "الخيال في الشعر العربي" ^{١٤٤} وسلسلة أخرى بعنوان : "القياس في اللغة" ^{١٤٥} وفيما عدا المواضيع العلمية كان نصيب رشيد كنصيب الأسد في تحرير موضوعات المجلة .

شكل المقالة الرشيدية

المقالة الرشيدية غالباً ما تكون مبنية على الثلاثية الآتية : المقدمة ، وصلب الموضوع ، والخاتمة ^{١٤٦} وذلك أنه يمهد للموضوع في المقدمة ، ثم ينتقل إلى صلب الموضوع ، فيشرحه ويسلط فيه المناقشة بالأدلة النقلية والعقلية ، ثم يخلص إلى الخاتمة ليوجز فيها النتيجة أو يسجل العبرة المستخلصة ، ويتبع هذا المنهج حتى في مقالاته العامة (الصحفية) التي يعالج بها قضايا ووقائع آنية ، ومن أمثلة ذلك مقاله الآتي ، وعنوانه : "اليهود في فرنسا وفي مصر" الموضوع كان تعليقاً على واقعة وقعت في فرنسا ، تمس اليهود بسوء ، فكتب السيد رشيد رضا هذا المقال الذي استهل بقوله : "قبل أن يلبس بونابرت تاج الإمبراطورية كانت حجته القوية لدى الشعب الفرنسي دفاعه عن الحرية العمومية ، وخدمة المبادئ الجمهورية ، غير أنه بعد ارتفاعه العرش الإمبراطوري لم يأل جهداً في محو تلك الحرية ، ودوس تلك المبادئ الدستورية ، وهذا شأن الإنسان في كل أن يطلب الحرية مرعاً ، ويكرهها رئيساً ، يستخدم العدالة مظلوماً أن وينبذها ظالماً ، إلا من وفقه الله (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)" ^{١٤٧} ثم شرع في صلب الموضوع ، وعرض الواقعة التي حدثت فقال : "لقد شاعت أنباء المشاكل السياسية الداخلية في فرنسا إثر مسألة "دريفوس" قضية "زولا" وما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد وسوء المعاملة" ^{١٤٩} وحل مصدر هذا الاضطهاد ، مستبعداً أن يكون بسبب التعصب الديني ، لأن الدين قد خبا في نفوس

^{١٤٤} - المنار : ٢٢/٢/١٤١

^{١٤٥} - السابق : ٢٢/٨/٦٠

^{١٤٦} - وهذا من مقومات المقالة . انظر : أدب عصر النهضة : د. شفيق البقاعي ، دار العلم للملاتين ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ م ، ص ٢٦٠

^{١٤٧} - سورة ص : ٢٤

^{١٤٨} - المنار : ١/٢/٥٣

^{١٤٩} - المنار : ١/٢/٥٣

هؤلاء ، ورجح أن يكون سببه التصub العرقي ، والحسد على اليهود لثرائهم الكبير ، ثم ذكر أنه لو حدث لليهود في بلد شرقي مثل ما حدث لهم في فرنسا لكان موقفهم وموقف الفرنسيين ومن وراءهم من الأوروبيين مختلفا كل الاختلاف ، ثم تعجب رشيد - وربما هذا سبب كتابته في الموضوع - من تقليد الجرائد المصرية للجرائد الفرنسية في الهجوم على اليهود فقال : "من الغريب أن داء الجرائد الإفرنجية قد سرى إلى بعض الجرائد المصرية ، فقامت تصلي اليهود نارا حامية ، وتأخذ عليهم مهارتهم في الكسب".^{١٥٠} ثم دافع عن اليهود لكونهم شعبا لا يمكن تجريمه برمته بجريمة فرد أو أفراد معدودين ، ثم خلص إلى ختام المقال ، وسجل فيه رأيه وتوصيته بوجوب العدالة في حق اليهود أينما كانوا ، وبعدم نقل فتنة فرنسا إلى مصر فقال : "أما نحن فرأينا أن الحرية العمومية ليست مختصة بفريق دون فريق .. فالملأ أن لا يدخل الكتاب في هيئة الشرقي عاماً جديداً للنزاع والشقاق ، فحسبنا ما لدينا من تلك العوامل القبيحة ، وإنما الآن أحوج إلى عوامل الاتفاق منا إلى عوامل الشقاق".^{١٥١}

تطول أحياناً مقدمة المقال عند السيد رشيد رضا ، فتطفى على المقال ، وتستحوذ على معظم مساحته ، وكأنها المقصودة دونه ، ومن ذلك مقال له بعنوان : "القوة للحق والحق بالقوة" وغرضه فيه حث الشعوب والعناصر المكونة للخلافة العثمانية على الحرص بالاتحاد ، والتمسك بالرابطة العثمانية ، مع تحقيق المساقة الشريفة والعادلة في تطوير مناطقهم بالعلم والتنمية الاقتصادية والزراعية وكل أسباب القوة ولكنه مهد له بمقدمة في فلسفة القوة ، وأنها محبوبة ، وبها ينال الحق ويحفظ ، ومشروعية المساقة ، وتحقيق التوازن بينهما بالعدل ، وضرب الأمثلة لذلك من حياة البشر ومن حياة الأمم والدول ، وأن أوروبا نالت ما نالت من التقدم بسبب التنافس والتباري في اكتساب أسباب القوة ، والاحتماء بها ، سواء أكانت تلك القوة ذاتية بالنسبة للدول ذات الكثافة السكانية أو كانت قوة جاءت بالاتحاد والتعاون مع دول أخرى ، وهذا ما تتجأ إليه الدول القليلة السكان. استغرقت هذه المقدمة أكثر من ثلثي المقال ، وبدأها بقوله : "كن قوياً بالحق يعرف لك حرك كل أحد : العلم قوة ، والعقل

^{١٥٠} - السابق: ٥٣/٢/١

^{١٥١} - السابق: ٥٣/٢/١ - ٥٤

قوة ، والفصيلة قوة ، والمجتمع قوة ، والثروة قوة ، فاطلب هذه القوى بالحق ، تتل بها كل حق ، وتحفظ كل حق موجود. ^{١٥٢}

ثم انتهى إلى معالجة الموضوع الأساسي ، فقال : " علينا نحن معاشر العثمانيين أن نكون على بصيرة في حياتنا الجديدة التي نستقبلاها للدستور .. نحن أمة مؤلبة من شعوب شتى ، لا جامعة لها كلها إلا اعتقادها أن ارتباط بعضها بعض يكون لها قوة عامة ، يعتز بها كل واحد منها ، وتكون مباراته ومنافسته للأخر من غير بغي ولا عداون سببا لقوة الوحدة العامة بقوة أفرادها". ^{١٥٣}

وفي خاتمة المقال لخص الهدف من ورائه ، وزبدة أفكاره ، ونقطة ارتكاذه بقوله : " وجملة القول : أن هذا العصر هو عصر المباراة والمنافسة ، من سبق فيه ساد وعلا ، ومن تخلف فيه خاب وخسر ، وامتهن واحتقر ، فعلى العقلاه من كل عنصر ، وفي كل ولاية ، وكل بلد أن يحثوا قومهم على ذلك ، وأن تكون وجهتهم فيه ترقية الأمة والدولة بترقية أنفسهم ، ليكونوا بعلومهم و المعارفهم و ثراثهم واجتماعهم حصنهما الحصين وركنهما الركين". ^{١٥٤}

عناوين المقالات

يلاحظ في عناوين مقالات السيد رشيد رضا أمور منها : أنها موجزة غالبا فلا يلتجأ إلى العناوين الطويلة التي تأخذ سطرا كاملا أو نحوه ، وهذا دليل على وعيه بما يتطلبه فن المقالة الحديثة من التأنق في اختيار عناوينها ، ومراعاة الدقة والإيجاز فيها ^{١٥٥} ولعل العناوين التالية - وهي لثلاثة أعداد متتالية من السنة الأولى تشير إلى شيء من هذه الظاهرة ، وهي :

العدد الخامس :

- الموالد أو المعارض.

^{١٥٢} - المنار: ٥٩٧/٨/١٣

^{١٥٣} - السابق: ٥٩٧/١١/١٣

^{١٥٤} - السابق: ٥٩٧/١١/١٣

^{١٥٥} - يقول بعض الباحثين في معايير عنوان المقالة : "ويجب أن يتسم بالتركيز والإيجاز والتعبير عن الموضوع". انظر: فن المقالة: أ.د. صالح أبو إصبع (بمشاركة) ، دار مجده لالى للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م ، ص ٢٨

- المنار في بلاد الشام.
- الشرقيين الأدنى والأقصى.

العدد السادس :

- منكرات الموالد.

- صدمة جديدة على اللغة العربية (١)

- خبر واعتبار.
- رئيس الولايات المتحدة وال الحرب.

العدد السابع :

- كيف السبيل

- صدمة جديدة على اللغة العربية (٢)

- رواية اليتيم.

ومن خصائص عناوينه انه كثيرا ما يستعيرها من القرآن والأحاديث النبوية الشريفة ، ولا يلزم أن تكون الموضوعات التي يستعير لها هذه النصوص المقدسة موضوعات دينية. بل قد تكون إصلاحية أو اجتماعية أو سياسية ، ومنها هذه الأمثلة البسيرة :

١- "ويل للعرب من شر قد اقترب" ^{١٥٦} والموضوع في الحرب بين السعودية واليمن. ^{١٥٧}

٢- (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلوا علينا السبيل) ^٤ والموضوع في الانحراف عن الإسلام. ^{١٥٨}

٣- (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) ^{١٥٩} الموضوع نقد الطرق الصوفية. ^{١٦٠}

٤- (قادعوا الله مخلصين له الدين) ^{١٦١} الموضوع في الرد على منتقد للمجلة. ^{١٦٢}

^{١٥٦} - صحيح البخاري : ٢٥٨٩/٦ ، صحيح مسلم : ٢٢٠٧/٤

^{١٥٧} - المنار : ٧٤٠/١٠/٣٣

^٤ - ^{١٥٨} - سورة الأحزاب : ٦٧

^٤ - المنار : ٦٠٦/٣٢/١

^{١٥٩} - سورة الأحزاب : ٤

^{١٦٠} - المنار : ٤١٠/٣٢/١

^{١٦١} - سورة غافر : ٤٠

٥- (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) ^{١٦٣} الموضوع في تخلف المسلمين. ^{١٦٤}

٦- تبصرة وذكر لقوم يعلمون: ^{١٦٥} الموضوع في التربية والتهذيب. ^{١٦٦}

٧- (بهتان عظيم) ^{١٦٧} الموضوع في الرد على متجن على أستاذه الشيخ محمد عبده ^{١٦٨}

٨- النبا العظيم: ^{١٦٩} الموضوع في نقد ما نشر عن اكتشافات علمية. ^{١٧٠}

الخصائص اللغوية والأسلوبية

تحدث رشيد رضا عن اللغة التي كان يكتب بها المجلة ، فقال في معرض حديثه عن النصائح التي قدمها إليه أستاذه الإمام محمد عبده : "كان يقول لي مرارا إن المنار في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص ، فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة ، وقلة غريب اللغة فيها ، ما يقربه من أفهم جميع القارئين ، حتى العوام منهم ، وقد تحررت موافقته في هذه ، حتى إن قارئي المنار ليجدون من غريب اللغة في السنة الأولى ما لا يجدون فيما بعدها ، ولكن بقي أكثر مباحثه للخواص بالرغم من ذلك التحرى". ^{١٧١} وهذا هو الذي يظهر عند التمحيص ، من أن لغته في المجلة بصفة عامة لغة الخواص من أهل العلم والأدب وليس لغة الجرائد المعهودة في أيامه ، ولعل طبيعة موضوعات المجلة ، وكونها مجلة شهرية تناسب تلك اللغة ، وأكثر ما تقع المفردات الغريبة في كلام رشيد مقالاته ذات النزعة الخطابية ، وكذلك مقدمات مقالاته التي يتوكى فيها التركيز في العبارة ، ويحرص فيها على الجمل المتراوفة والمترابطة ، فمن مقالاته الخطابية التي حشا فيها الكلمات

^{١٦٢} - المنار: ٤٤٧/٢٤/١

^{١٦٣} - سورة هود: ١١٧

^{١٦٤} - المنار: ٨٥٨/٣١/١

^{١٦٥} - لفظ الآية (تبصرة وذكرى لكل عبد منيبي) سورة ق: ٨

^{١٦٦} - المنار: ٦٩/٤/١

^{١٦٧} - سورة النور: ١٦

^{١٦٨} - المنار: ١٩٩/١٢/١

^{١٦٩} - لفظ الآية (عم يتساءلون عن النبا العظيم) سورة النبا" ٢-١

^{١٧٠} - المنار: ٦٧/٣/٦

^{١٧١} - السيد رشيد رضا: ١٧٩

الغريبة مقالة له بعنوان : "صيحة حق" ببدأها بقوله : "أيها الشرقي كيف يطيب لك النوم على غوارب هذه الأمواج المضطربة ، وفي مهاب هذه العواصف العاتية ، أما أزعجك هذا الموج الملطم ، وأرهبك هذا اللجو المغتام أما أقلك هزيز هذه الرياح المتناوحة ، وهزت جسمك زعازعها المترابطة ، أما صخت آذانك ، وخدرت جثمازك ، فيتعذر إسماعك وحسيسك ، ووقع اليأس من إيقاظك وتتبيلهاك ، لو كنت يقطن لكنت أجر بالأطيط من الغطيط".^{١٧٢} على هذا النحو تمضي المقالة ، وتتكاثف فيها الكلمات الغريبة ، التي تحتاج إلى شرح وتقدير ، فشرح رشيد بعضها ، ولم يشرح البعض الآخر ، وبلغ مشروحه ثلاثة وعشرين كلمة ، ولكن هذا الصنيع من رشيد رضا في استثنار الغريب ، كأنه مقصود لذاته نادر في مقالاته ، حتى الخطابية منها ، بدليل أنه - باستثناء المقال السابق - لم يشرح أي كلمة في الهاشم في الأعداد التسع والأربعين لمجلد السنة الأولى ، التي ذكر أن الغريب فيها أكثر من سائر أعداد المجلة ، لكنه شرح بعض الكلمات واضعا الشرح بين قوسين ، ومن ذلك قوله : "وكأني أسمع كريرا (هو صوت من الصدر كصوت المنحنق)"^{١٧٣} وقوله : "التوابل والتناوة (ترك المذاكرة والمدارسة)"^{١٧٤} وقوله : "ولا يمكن أن نسابق الفسكل (الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل)." وقوله : "تسموهم ونبدهم (نعلوهم ونغلبهم)"^{١٧٥} كما أنه ضرب صفحا عن تفسير كثير من الغريب الذي يبدو أنه كان يعتمد اجتلابه.^{١٧٦}

بين الموضوعية والخطابية

يعالج السيد رشيد رضا مقالاته بإحدى طريقتين ؛ طريقة موضوعية وطريقة خطابية .^{١٧٧} أما الطريقة الأولى فهي الغالبة على استخدامه ، ويتناول بها

^{١٧٢} - المنار: ٢١٧/١٣/١

^{١٧٣} - السابق: ٨٠٥/٤١/١

^{١٧٤} - السابق: ٣٤١/١٩/١

^{١٧٥} - المنار: ٢٢٨/١٦/١

^{١٧٦} - السابق: ٢٧٨/١٦/١

^{١٧٧} - ومنه : بهرة الإسلام أي : بلده (القاموس المحيط ٤٥٣) - هجير الجور بمعنى شدة حره (القاموس المحيط ص ٦٣٨) - الزعازع "الشائد" (القاموس المحيط ص ٩٣٦) انظر المنار: ٨٠٥/٤١/١

^{١٧٨} - يقسم بعض الدارسين المقال إلى نوعين : ذاتي وموضوعي ، وبعضهم إلى ثلاثة أقسام : المقال العلمي ، والمقال الأدبي والمقال الصحفى. انظر : فن المقالة ، د. محمد يوسف النجم ، دار صادر ، بيروت ، ودار الشرق

م الموضوعات التربوية والاجتماعية والإصلاحية والدينية وغيرها من الموضوعات ذات الطابع العلمي ، وخصائصها – كما سبق في شكل المقالة – أن يمهد للموضوع بمقدمة تشير إلى طابعه ، وتشوق القارئ إليه ثم يخلص منها إلى صلب الموضوع فيعرض لتفاصيله ، ويبسط مناقشة قضيائه بما لديه من الحجج والبرهان ووسائل الإقناع المتاحة ، ثم يختتم الموضوع بخاتمة توجز أفكاره ، و تستخلص نتائجه ، وأسلوبه في هذه الطريقة هادئ لأنه يحاطب العقل ويناجي الفكر ، ومن نماذج هذا الأسلوب قوله في بعض مقالاته بعنوان : "الصيام والتمدن" : "أكتب هذه المقالة لطائفتين من المسلمين ؛ طائفة تصوم ذاهلة عن معنى الصوم ، محرومة من فوائده ومزاياه ، فصومها أقرب إلى العادة ، وطائفة أفرطت في الترف والتعم ، واسترسلت في الشهوات استرسلا ، فشق عليها الصوم ، فتركته غير مبالة بالأمر الإلهي ، ولا ملتفتة إلى ما في هذه العبادة من المنافع الروحية والجسدية .."^{١٧٩} وهكذا يبدو أسلوب هذه الطريقة أسلوبا علميا منطقيا ، يعرض القضية على بساط البحث والمناقشة بالأدلة النقلية والعقلية ، فأسلوب هذه الطريقة إذا هو الأسلوب العلمي.

وأما الطريقة الخطابية فهي التي يصوغ بها مقالات يخاطب بها عاطفة الجمهور ، ويقصد من ورائها إثارة مشاعرهم ، وتهيج عواطفهم ، واستتهاض همهم إلى أمر يحثهم عليه ، واستثارة اشمئزازهم من منكر يقصد تغيرهم منه وإعراضهم عنه ، وهذا النوع من كلامه أشبه بالخطب المنبرية منه بالمقالات الصحفية ، وقد سبق أن عد رشيد الخطابة إحدى الموضوعات الصحفية ، حين اقترح مواجهة مجلة الأزهر فقال : "أهم أبواب هذه المجلة فيما أرى سبعة : الباب الأول : باب المقالات الدينية والعلمية والتاريخية والخطابية".^{١٨٠}

ومن نماذج مقالاته ذات الطابع الخطابي قوله في مقالة عنوانها : (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأصلونا السبيل)^{١٨١} : "اللهم غوثاً غوثاً ، ورحمة ولطفاً. اللهم عونا

١٧٩ - عمان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م ، ص ٥٣ ، فن المقال الصحفى ، د. إسماعيل إبراهيم ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م ، ص ٦٩

١٨٠ - المنار: ٦٧٤/٤٣/٢

١٨١ - المنار: ٢٢٣/٣/٣٢

١٨١ - سورة الأحزاب: ٦٧

عونا ، ومنة وفضلا. انظر اللهم إلى هذه الأمة التي شقيت بعد السعادة ، ، واستعبدت بعد السيادة ، وذلت بعد العز ، وافتقرت بعد الغنى ، وضعفت بعد القوة ، وجهلت بعد العلم ، وظلمت بعد العدل ، وفسقت بعد الطاعة ، و (كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ^{١٨٢} اللهم قد مسن الرجال ، وفناك النساء ، وعم الجهل ، وساعت التربية ، وأرسلت الحبال على الغوارب ، فصار المعروف منكرا ، والمنكر معروفا .. ^{١٨٣}

وهكذا يسترسل في مقاله كله أو خطبته بالأحرى بجمل متاظرة ، وأخرى متقابلة ، ينادي ويدعو ، ويتعجب ويعجب ، لأن المقام مقام استثارة واستهان ، لا مقام جدال وإقناع ، ولا مقام تعليم وتفهيم ، ومن مقالاته الخطابية المثيرة والعنيفة ما كتبه عندما خلع السلطان عبد الحميد ، وأودع في السجن ^{١٨٤} : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعزع الملك ممن تشاء وتعزز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قادر) ^{١٨٥} جلت قدرة الله ، ونفذت مشيئته ، وغلب قدره ، وعلت كلمته ، جعل الأيام دولا ، وجعل للدول نواميس وسننا ، فلا مبدل لسننه ، ولا محول لنواميس خلقه ، فلا يغرنك إملاؤه للظالمين ، واستدراجه للمفسدين ، (إنما يؤخرهم لليوم شخص فيه الأ بصار ..) ^{١٨٦} لا ينفع من قدره حذر ، ولا ينفذ من محيط سننه سلطان البشر ، فلا يهولنك ما ترى من رسوخ الاستبداد .. لقد صدقنا وعده ووعيده ، وأرانا بأعيننا مصدق كتابه ، فهذا عبد الحميد خان وأعوانه وقرناؤه وخصيائنه وجواريه وغلمانه ، قد بغو في الأرض ، وتركوا السنة والفرض ، وعطلوا الشريعة والقوانين ، واستبدوا بجميع العثمانيين ، وجمعوا القناطير المقنطرة من الأموال ، وحشدوا لحمايتيهم الألوف المؤلفة من الرجال ، وأقاموا المعاقل والحسون ليمنعوا أنفسهم أن يصلوا عليها المظلومون (وظنوا أنهم مانعهم حصونهم من الله فأتاهم من حيث لم يحتسبوا ..) ^{١٨٧} نعم .. إن في ذلك لکرى العبر لمن

^{١٨٢} سورة النحل : ١١٢

^{١٨٣} المنار : ٦٠٦/٣٢/١

^{١٨٤} السابق : ٢٧٦/٤/١٢

^{١٨٥} سورة آل عمران : ٢٦

^{١٨٦} سورة إبراهيم : ٤٢

^{١٨٧} سورة الحشر : ٢

يعقل ويتدبر (كلا والقمر والليل إذ أدب والصبح إذا أسف إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر..)^{١٨٨}

وهي مقالة طويلة استمد فيها رشيد من بحر بحر حماسه ، وكأنها نفثة مصدور ، ونغمة مصدوم ، وتنفس مكبوت ، وآهة مجرور ، واقتبس لها من الآيات والآثار والأشعار ما كساها حلة بدعة ، وأخرجها في ثوب أدبي قشيب ، وهكذا يبدو المقال في أسلوبه وأدواته مقالا خطابيا ، يدور حول فكرة واحدة ، وهي تسجيل خواطر وانطباعات رشيد رضا من هذا الحدث الجلل.

المحسنات البدعية

يذكر النقاد ومؤرخو الأدب أن الصحافة في العالم العربي مرت بمراحل عدّة ، يختلفون في تحديد عددها ، ويتتفقون على أنها بدأت مع جريدة الواقع المصرية ، التي أنشئت في عهد محمد على باشا ، وأن المقالات الصحفية في مرحلتها الأولى كانت متعلقة بالسجع وأنواع البدع المختلفة ، ثم عاقدت تلك المرحلة مرحلة الريادة الصحفية ، التي مثلت الانطلاقة الحقيقة للصناعة الصحفية شكلا ومضمونا ، وهذه الفترة مدينة - كما يذكرون - للسيد جمال الدين الأفغاني ؛ موظف الشرق ورائد النهضة فيه ، ثم تدرجت الصحافة في مدارج التطور إلى أن انتهت إلى الصحفيين المحترفين والمتخصصين.

يكاد رشيد رضا يكون معاصرًا لمعظم مراحل التطور الصحفى^{١٨٩} فقد أنشأ مجلة المنار في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٨م) واتصل نشاطه الصحفى إلى ما يزيد على الثالث الأول من القرن العشرين (١٩٣٥م) ويظهر على أسلوبه في أعداد المجلة الأولى سمات مرحلة الريادة ، من علو في اللغة ، وسمو أدبي في الأسلوب ، وخطابية في الأداء ، وقلة احتفال بالسجع والمحسنات البدعية.

^{١٨٨} - سورة المدثر : ٣٢-٣٦

^{١٨٩} - ومن الباحثين من يضعه في المرحلة الثالثة التي برزت فيها "طلائع المدرسة الأدبية والصحفية الحديثة" ويقرنه بأحمد لطفي السيد ، وعلى يوسف ، وخليل مطران ، وعبد العزيز جاويش. انظر: دراسات ومقالات في الأدب العربي: د. أحمد بن ناصر الدخيل ، نادي المنطقة الشرقية الأدبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩م ، ص ١٧٠

ويبدو أن السيد رشيد رضا قد تخلص من الأسلوب المسوغ في وقت مبكر ، بتأثير من أستاده الشيخ حسين الجسر ، ودليل ذلك أن أول مقالة كتبه رشيد في مجلة "طرابلس" بطلب وحث من شيخه المذكور ، ثم نشره فيما بعد في مجلة المنار ، لا يختلف في قوته لغته ، ومتانة أسلوبه ، وخلوه من السجع المتكلف عن بقية مقالات مجلة المنار ، وأما السجع غير المتكلف فمقالاته حافلة به ، كما لاحظ شكيب أرسلان الذي قال تعليقا على ذكر رشيد رضا نفوره وكراهيته للسجع : "كان السيد المترجم يكره تكلف السجع ، ولكنه كثيرا ما يستعمل السجع إذا جاء عفوا بدون تكلف".^{١٩٠} وكثرة وقوع السجع في أسلوبه من غير طلب أو استكراه دليل على اتساع محفوظه اللغوي ، وكثرة محصوله الأدبي ، وشاعرية طبعه ، "والشاعر فيما نرى تأثيره السجعات عفو الخاطر غالبا الأحيانا".^{١٩١} كما لاحظ هو في نثر أحمد شوقي فقال : "نعم إنه في الشعر أعلى كعبا ، وأرسخ قدما ، وإن روح الشعر اللطيفة تطوف في جميع منثوره".^{١٩٢} ومن سجعه غير المتكلف ما في هذه المقالة بعنوان : "الدين والمدنية في الشرق" : فالشرق هو مهبط الوحي ، وشرق شموس الأديان ، وهو الجدير بالمحافظة على الدين ، وإن استهان به سائر العالمين ، والدين وضع إلهي حق يأمر بتزكية النفس وتطهيرها ، ويبحث على الحب والاختلاف ، وينهى عن العداء والاختلاف".^{١٩٣}

ومن سمات أسلوب رشيد البديعية كثرة اقتباساته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وسبب ذلك يرجع إلى كونه عالم دين ، تجري هذه النصوص المقدسة على لسانه ليلا نهار ، في مواضعه وخطبه ، وفي كتابة رسائله ومؤلفاته الدينية ، فلا غرابة إذا أن يتسرب كثير من هذه النصوص - وهي قمة النماذج الأدبية - إلى مقالاته الصحفية ، ولاحظ الباحث أنه كثيرا ما يأتي بهذه الاقتباسات في مفتاح مقالاته ، ويعطها منطقا في حديثه ، وكأنه أراد أن تحقق له براعة الاستهلال ، وقوه الاستناد في آن واحد ، وذلك كقوله في مقال بعنوان : (دائرة

^{١٩٠} - السيد رشيد رضا: ١١٧

^{١٩١} - لأمير شكيب أرسلان ١٦١

^{١٩٢} - المنار: ٣/٦٦: ٢٤

^{١٩٣} - المنار: ١/١: ٢٤٢

المعارف الإسلامية ومفاسدها) : "اسم خادع كسور له باب ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب" ^{١٩٤} وفي آخر عنوان : (التربية الإسلامية والتعليم الإسلامي) : "كلمات خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، تلوكهما الألسنة والأقلام ، وتجولان في جميع الأذهان ، ويتحدث بهما الرجال والنساء والولدان" ^{١٩٥} ويقول في مستهل ثالث عنوانه : (الاستقلال ما هو ؟) : "الاستقلال ما الاستقلال وما أدراك ما الاستقلال" ^{١٩٦}.

وهكذا يكثر رشيد من الاعتماد على النصوص المقدسة في بداية المقال ، ربما لتعطى كلامه قوة وجمالا في وقت واحد ، وأما اقتباساته في غير هذا الموطن فكثيرة ، لا تحتاج إلى الاستشهاد والاستدلال ، وقد لا يخلو منها أكثر مقالاته ، وخاصة الطويلة منها.

^{١٩٤} - السابق: ٣٨٦/٥/٣٤ ، انظر في سورة الحديد : ١٣

^{١٩٥} - السابق: ٥٤٤/٧/٣٤ ، انظر صحيح البخاري : ٢٣٥٢/٥ ، ومسلم : ٢٠٧٣/٤

^{١٩٦} - السابق: ٢٩٧/٦/٢١ ، انظر مثلا سورة القارعة : ١، ٢

المطلب الثالث : أدب رحلاته

منهجه في كتابة الرحلات

لم يكن رشيد رضا سائحاً أو رحالة يقصد من رحلاته الاستجمام والتمتع أو الاستكشاف والاطلاع ، وتسجيل مشاهداته على أساس يومي ، وإنما دفعه إلى القيام بذلك الرحلات أغراض أخرى أهم وأولى بالنسبة إليه من مجرد السياحة والزيارة ، فقد كان وراء كل رحلة غرض محدد ومهمة واضحة ، غالباً ما تكون إصلاحية أو دينية ، ولهذا اختلف أسلوبه في الكتابة باختلاف دائرة اهتمامه في كل رحلة ، ومع ذلك فقد حرص رشيد في كل رحلاته على الآتي :

١- أن يستبعد المعلومات العامة المعروفة غالباً عن الجهات التي يزورها ، والتي قد يكون بعضها مدوناً في الكتب ، كما استبعد أن ينقل أو يستمد مادة رحلاته من كتاب.

٢- أن يصرف اهتمامه إلى ما فيه العبرة والفائدة والنكتة ، وإلى الأشياء التي يعجب بها أو يستظرفها ، وهذا ما يعبر عنه بقوله: "إنما يحسن فيها تقييد بعض الشوارد المبعثرة ، والنوادر التي لا تتناول باليسir من المراجعة ، والنوادر التي تزدآن بها المحاضرة ، وما يستتبعه السائح من العبرة والفائدة ، حتى فيما صورته الفكاهة والتسلية".^{١٩٧}

٣- أن لا يلزم نفسه باتباع الطريقة اليومية في تسجيل المعلومات ، وإنما يصوغ ما لديه من المعلومات واللاحظات بطريقة موضوعية ، لا تخضع للإطار الزمني الذي وقعت أو جمعت فيها المعلومات ، وقد يشير إلى الأيام ، ويرتب المعلومات على أساس يومي ، وخاصة إذا كان على ظهر سفر ، وكانت المعلومات مشاهدات عامة أو أحداث متسللة.^{١٩٨}

٤- الفصل بين ما يكتبه عن المهام الأساسية ، التي قام من أجلها بالزيارة ، وبين ما يراه مناسباً لأدب الرحلة ، فينشر الثاني بمجلة المنار بعنوان : الرحلة الفلانية ، وينشر الأول بموضوع يناسبه ، ولا يدخله في الرحلة غالباً.

^{١٩٧} - المنار: ٢٣/٤/٢٠٦
^{١٩٨} - السابق: ٢٣/٢/١١٤

أسلوبه في كتابة الرحلات

أسلوبه في تدوين رحلاته هو الأسلوب العلمي ، الذي يراعي الوضوح والدقة ، لأنه في الغالب يشرح قضايا تحتاج إلى وضوح الأسلوب ، ودقة الأداء ، لكي تفهم ، ولكنه يلجاً أحياناً إلى الأسلوب الأدبي^{١٩٩} وذلك عندما يصف مشاهدات عامة أو يعبر عن إحساسه الخاص بما يستثير مشاعره من منظر طبيعي آخاذ تهش له نفسه ، وما يخشع له وجدانه من جلالة الشعائر المعظمة في المدن المقدسة التي زارها ، فيستعين بخياله في تصوير تلك المشاهد ، كوصفه لمشاعره عند رؤية الكعبة المشرفة لأول مرة في حياته ، وما غشيه من المشاعر الفياضة قائلاً : "حتى إذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة ، وراغ القلب ما جلها من المهابة والعظمة ، تذكر أنها أول بيت وضع للناس ، ومبركاً وهدى للعالمين .. فإذا دنا من مهبط الروح الأمين ، ومصطف الملائكة والنبيين والصديقين وشهداء الصالحين ، فلا تسأل ثم عن الدموع كيف تتسلك ، وعن الضلوع كيف تضطرب ، وعن الأعناق كيف تخضع ، وعن القلوب كيف تخشع ، ولا عن وجдан الإيمان كيف يتألق نوره في الجنان ، ويفيض بيانه على اللسان ، فيحركه بما يلهم من الثناء ، وما يشعر بالحاجة إليه من الدعاء ، لا تسأل - أيها القارئ - عن شيء من ذلك ، ولا عن غيره مما يكون عند أداء المناسك ، فمن ذاق عرف ومن حرم انحرف".^{٢٠٠}

إن من أبرز سمات أدب الرحلات كما يراه بعض الدارسين "الانصراف عن اللهو والعبث اللفظي ، والطلاع السطحي ، والإيثار للتعبير السهل ، المستقيم الناصح بمعنى التجربة ، وصدق اللهجة الشخصية ، مما لا نجده متوافراً عند البلغاء ، والأدباء المحترفين ، ونجد بقوه عند العلماء ، وفقهاء الدين ، والمؤرخين ، وهؤلاء الرحاليين".^{٢٠١}

^{١٩٩} - وأسلوب أدب الرحلة تتجاذبه فنون أدبية عدّة كما يشرحه أحد الباحثين بقوله : "يعد أدب الرحلات من أهم فنون الأدب العربي بعد الشعر والرواية وأكثرها خصباً ومتعدّة لأن هذا الأدب لم يكن وصف الرحلة فيه خالصاً فقد امتنزج بعض القصص والتقرير العلمي والمذكرات واليوميات والسيره الغيرية والسيره الذاتية." أسلوب

التعبير الأدبي : ص ١٩٧

^{٢٠٠} - المنار : ٢٢١/٢٢٠

^{٢٠١} - أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي : ٦

المطلب الرابع : ترجمة الأدبية

الدرجة الفنية في ترجمة الأدبية

اقتصر الباحث على نموذجين من ترجمة الأدبية ، أهمهما ترجمته الغيرية في أستاذ الإمام محمد عبده ، وعنوانها : (تاريخ الأستاذ الإمام) ، والآخر ترجمته لنفسه في كتابه : (المنار والأزهر) ، فإذا عدنا بهما إلى الأسس الفنية لفن السير الأدبية ، وعرضناهما على مقاييسه ومميزاته ، التي تفصله عن علم التاريخ وفن القصة ، وتضعه في الأشكال الأدبية ، وجذناهما قد استوفيا هذه الأسس والمقاييس ، فمن حيث الدوافع والبواعث ، يظهر أن رشيدا كان معجبا ومحبا لأستاذه إعجابا وحبا لا حدود لهما ، الأمر الذي جعله يفضله ويقدمه في علمه وعمله وفكرة على كل أحد ، وجعله داعية لزعامته وإمامته ، لإيمانه بأن الإصلاح الإسلامي لا ينهض إلا به

كان هذا الحب والإعجاب أكبر سبب في أن يكتب سيرته ، ليس لتخليل ذكره فقط ، وإنما ليجعله نموذجا يحتذى به ، ويستهدي بسيرته ، ولهذا توجه إلى الأمة المصرية بقوله : "قد آن للأمة ، وقد صار لها زعماء تقاد لهم ، ومجلس نواب يسيطر على حكومتهم ، وكتاب بلغاء يدعون إلى المصلحة العامة ، وخطباء مصاقع يهزون قلوب الخاصة والعامة ، أن تراجع مناقب هذا الإمام ، التي فصلناها في هذا التاريخ ، وتقرر ما يجب عليها ، من إحياء ذكره ، والاهتداء بإرشاده ، وبناء أسس التربية والتعليم الديني والمدني على أسس قواعده ، وتعاون أحزابها وحكوماتها على تنفيذ ما قررته في الوقت القريب المناسب له ، فإنها لهي القواعد الحكيمة ، التي تحفظ لها قواعدها وأخلاقها ، وتكوين بيئتها (عائلاتها) ، ونماء ثروتها ، وترسيخ دعائم استقلالها ، وجعلها قدوة للبلاد العربية والشعوب الإسلامية".^{٢٠٣}

^{٢٠٢} - وفي هذا الشأن يقول د. طه وادي : "ويلاحظ في الترجمة الغيرية - غالبا - أن المترجم معجب بالشخصية التي يترجم لها". انظر: هيكل رائد الروية: د. طه وادي ، دار النشر للجامعات ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٦م. ، ص ٣٨

^{٢٠٣} - تاريخ الأستاذ: ١٠٧٠/١

تجمع لدى رشيد رضا من أخبار الإمام ، بحكم اختصاصه به ، ما خفي على غيره ^{٢٠٤} فأراد وفاء له للتاريخ ، ونصحا للأمة أن يضطلع بواجب نشره ، ولتحقيق الموضوعية والصدق التاريخي بعيد عن التزييد ، وعن الخيال غير الواقعي ، وتوثيقاً للمعلومات التي عرضها ^{٢٠٥} ذكر السيد رشيد رضا المصادر التي استقى منها مادة سيرته ، فبلغت عشرين مصدراً ومرجعاً ، معظمها مستمد من صاحب الترجمة ^{٢٠٦} ثم ذكر أنه يلتزم الموضوعية والنزاهة ، في تقديم الصورة الحقيقية للمترجم له ، دون القصد إلى إبراز الجوانب المضيئة فقط من حياته ، وإسقاط أو إهمال الجوانب السلبية فقال : " وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين ، في بيان آراء الأستاذ ، وعاداته وشمائله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق ، ومنها ما هو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق الذي يندر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس ، وأنا أعلم أن منها ما يكون منتقداً في نظر غيري وإن كان صواباً عندي ، ومنها ما ينتقد نشره ، لأن مثله غير معناد ، أو لأنه من مبالغاته ، التي ربما كان يقصد بها التأثير الخاص ، ككلمته في تحريف الفقهاء ، وهذا نادر ، ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى أن أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية ، كي يحيط به القارئ خبراً ، ويحكم عليه حكماً صحيحاً ، فإن الذين يترجمون الرجال بذكر محسنهم ومناقبهم ، وإخفاء هناتهم ومثالبهم ، إنما هم شعراً مداحون ، لا مؤرخون حقيقيون ". ^{٢٠٧}

أحاطت هذه الصورة التي رسمها السيد رشيد رضا لشيخه ب حياته الكاملة ، في تدرجها وتطورها ، وما تقلب فيه من نعم ، أو اكتافه من محن ، وما ثبت عليه من آرائه ، أو هجره بما أفاده الزمن من خبرة ، وسلك في سيرته منهج السرد والشرح ،

^{٢٠٤} - ومنها ما كان يقول له فيه : " هذا لا يكتب ، أو هذا لا يقال لكل أحد ". انظر : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ، ص ٨٩٠ ، ومن ذلك لائحة تربوية ، قدمها إلى (السر أفنان بارنج) يقول رشيد بشأنها : " وخبر هذه اللائحة سر لم يكن يعرفه أحد ، ولم أصرح به في ترجمة الأستاذ التي نشرناها في المنار ، ولكن التاريخ يجب أن ينطق بجميع الحقائق ، التي لا ضرر فيها على أحد ، وما أخرت نشر هذا الجزء منه إلا لأنتمكن من هذه الحرية ". انظر : تاريخ الأستاذ ^٤ ١٩٦١

^{٢٠٥} - وهذا أيضاً شرط أساس في التراجم الأدبية كما يقول د. إحسان عباس : " البد له (أي : كاتب السيرة) أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي ". انظر : فن السير : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت

^{٢٠٦} - لبنان ، ص ٧٥

^{٢٠٧} - تاريخ الأستاذ : ١/٤

^{٥/١} - السابق

وأقام ترجمة شيخه على تقسيم ثلاثي ، فصل فيه حياته ونتاجه العلمي ، وما قيل فيه عند وفاته شعراً أو نثراً ، ودرس حياته في مرحلتين ؛ مرحلة النشأة والتكوين العلمي ، ومرحلة العمل والعطاء ، ولكل منها تقسيم ثلاثي ، فقد قسم المرحلة الأولى على حياته الأسرية ، وحياته العلمية ، وحياته الصوفية ، والمرحلة الثانية ثلاثة أطوار ، الطور الأول ما قبل النفي ، الطور الثاني فترة النفي ، والطور الثالث ما بعد النفي.

هكذا بني رشيد هذا العمل الضخم الذي بلغ أربعة مجلدات كبيرة على تصور هندسي واضح ، على أن في الكتاب أمرين قد يلاحظهما القارئ بعين سلبية ؛ أولهما الاستطرادات الكثيرة الطويلة النفس ، مثل ترجم بعض الأشخاص المؤثرين ، كالسيد جمال الدين الأفغاني ، ورياض باشا ، وغيرهما من رجال الفكر والسياسة ، كما أطال في شرح بعض الأحداث الكبيرة ، مثل الثورة العربية وكل ذلك له صلة قوية بسيرة صاحب الترجمة ، ولكنه قد يقطع تسلسل السيرة على القارئ ، والأمر الآخر هو تكرر بعض مسائل الكتاب في مطان مختلفة ، وقد اعتذر رشيد عن هذا الأمر بقوله : "كتبت هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة ، وفترات بعيدة ، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور .. ومن ثم يجد القارئ فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد ، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ ، كاختلاف الورق ، ولاسيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي ، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض".^{٢٠٨} أما سيرته الذاتية فهي من حيث المنهج والبواعث والخطة كسيرة شيخه ، إلا أنها دونها في الحجم بكثير.^{٢٠٩}

^{٢٠٨} - تاريخ الأستاذ: ٤/١

^{٢٠٩} - بلغ ملخص ترجمة رشيد لنفسه في كتابه (المنار والأزهر) في القسم الثالث منه اثناتين وسبعين (٧٢) صفحة ، والكتاب كله - ويقع في نحو من ثلاثة صفحات - جزء من سيرته ، لأنه يصور تجربته مع الأزهر.

أسلوبه في ترجمة الأدبية

أسلوب رشيد في ترجمة وسيره الأدبية أسلوب علمي واضح ، لا يجح إلى الخيال الأدبي ، ولا يتضمن الغريب أو المحسنات البدعية ، لأنه يشرح الحقائق ، ويعرض مادة علمية ، ولهذا يكون عامة أسلوبه على شاكلة النموذج الآتي : "ألف الأستاذ هذه اللجنة من الجمعية الخيرية الإسلامية ، وكان يذهب بنفسه إلى منازل أمراء الأسرة الخديوية ، وغيرهم من الكبار ، فيطلب منهم الإعانة لها .." ^{٢١٠}

وأحياناً يتخذ أسلوبه سمة أدبية ، وذلك عندما يصور موقفاً تضنه العاطفة ، كقوله في وصف خلق شيخه : "كان على ما علمنا من صفحه عن الأعداء ، وكمال الوفاء للأحباء ، والثقة بصدق بعض الأصفباء ، والإحسان بأولئك وهؤلاء .." ، وكذلك عندما يحل ولا يشرح قوله في ختام ترجمة جمال الدين الأفغاني : "وعجب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ، وضمه بين حاشيتي علوم المتقدمين والمتاخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة ، يجمع الدنيا به بنظرة ، ويستقصي أطرافها بلمحة ، وقد تجردت له عن زينتها وزخارفها ، وأمامطت له اللثام عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى في نفسه مكان لشيء منها يقال له الرئاسة ، وتتنزع همته إلى حال من أحوالها". ^{٢١١}

مكانة رشيد في النثر الفني

منزلة رشيد رضا في مجال النثر الفني مقدمة على منزلته في المجالات الأدبية الأخرى ، لأنه توافر عليه ما لم يتوافر على جنس آخر من الأجناس الأدبية ، وقد ذكرنا في ترجمته في الفصل الأول ، ما قاله صديقه أمير البيان شكيب أرسلان ، وما قاله كذلك صديقه في النضال السياسي عبد الحميد الزهراوي في غزارة إنتاجه ، وسylan قلمه ، وسهولة الكتابة عليه ، وكان يقول عن نفسه إنه قلماً يقع الترميم أو الشطب فيما يكتبه ، وهذا يدل على تمكنه في اللغة ، وطول باعه في المجالات العلمية والفكرية التي يكتب فيها ، وكأنما يغرس من بحر ، ولا ينحت من

^{٢١٠} - تاريخ الأستاذ: ٨٤٣/١
^{٢١١} - السابق : ٩٨/١

صخرة أفكاره ، فما أن يتوجه عزمه إلى الكتابة في موضوع ، إلا انتالت عليه المعلومات انتياً ، وانقاد له لغة التعبير انقياداً عجيباً ، بل إن بعضها من مخالطيه يذكر أنه كان يكتب أثناء الحديث مع ضيوفه ، فلا يقطع الحديث حبل تفكيره^{٢١٢} ومكتوباته الكثيرة شاهدة على قوته ملكته الكتابية ، فله من المؤلفات الموسوعية تفسير القرآن الكريم في اثني عشر مجلداً ، وصل فيه إلى سورة يوسف ، ومجلة المنار في خمسة وثلاثين مجلداً ، تتراوح صفحات المجلد الواحد ما بين ثمانمائة إلى ألف صفحة تقريباً ، وتروي نسبة السيد رشيد رضا في تحريرها وكتابتها على سبعين في المائة ، وبما أن المجلة كانت شهرية في غالب أحوالها ، فقد كان يكتب في الجرائد اليومية ، والمجلات الأسبوعية ، وله إلى جانب ذلك عشرات الكتب ، ولو جمعت مؤلفاته ، وما خلفه من تراث مكتوب في مجموعة متكاملة متسلسلة ، على نحو ما تفعله بعض دور النشر في أعمال كبار الكتاب ، لربما بلغت أو زادت على مائة مجلد كبار الحجم.

ومما يعطي نثر رشيد رضا قيمة فنية كبيرة ، ويكسوها حلة أدبية بهيجة ، أنه دخل في عالم الكتابة ، وهو راسخ القدم في علوم اللغة العربية ، متمكن من ناصية قواعدها ، متضلع من شعرها ونثرها. يقول شبيب أرسلان في تصوير ذلك : "وأكثر ما أ美的 في خطته هذه قوته ملكته العربية ، وفهمه من أسرار العربية ما لا يفهمه غيره".^{٢١٣} ويصفه في مكان آخر "بالرسوخ العظيم في اللغة ، والطبع الريان من العربية".^{٢١٤} ويدرك رشيد أنه عرض مقدمة أحد كتبه على شيخه الإمام محمد عبده ، فلما قرأها قال : "أسلوب رفيع" وكان من عادته إذا أعجبه الكلام أن يقول "مش بطال"^{٢١٥} هذا مع ما اكتسبه أسلوبه من التمرن والدرية الطويلة الأمد ، وأفاده من الخبرة المتراكمة.

ومما عزز منزلة رشيد رضا في مجال النثر الفني أيضاً سمو الموضوعات التي كان يكتب فيها ، وبراعته في معالجتها ، وما ساند أسلوبه من الرصيد العلمي الذي مكنه من بلوغه شأوا بعيداً فيها ، وخير مثال على ذلك كتابه "الوحى المحمدي"

^{٢١٢} - المنار : ٤٨٠/٦/٣٥

^{٢١٣} - السيد رشيد رضا : ٢٢٥

^{٢١٤} - السابق : ١٥

^{٢١٥} - السابق : ١٢٦

، الذي أشاد بجالة قدره ، وعظم فائدته كبار العلماء في عصره ، وتبارت الأقلام الموهوبة في تقريره وتأييده ، ومن هؤلاء شيخ الجامع الأزهر والأستاذ العقاد ، ومن كتبه المبرزة في مجالها "الخلافة أو الإمامة العظمى" و "حقوق النساء في الإسلام". وقد تضمن تفسيره موضوعات دينية واجتماعية وعلمية كثيرة ، عالجها في ضوء نصوص القرآن المعجزة ، بأسلوب عصري مشرق الدبياجة ، غير أن مجلة المنار ستظل في رأي الباحث المرجع الخصب لنثره الفني ، بشتى أنواعه الأدبية ، والعلمية ، والصحفية ، وغيرها.

ومما يحسب لرشيد رضا ، ويرفع منزلته بين أدباء عصره ، ما أدى إلى الحركة العلمية والأدبية في عصره ، من خدمة جليلة ، في بعث ونشر كنوز الأجداد ، وإنتاج المعاصرين ، فإليه يرجع الفضل في طباعة ونشر كتب عبد القاهر الجرجاني ، مثل أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، بعد أن طلب من أستاذه الشيخ محمد عبده مراجعتهما وتصحيحهما ، ونشر كذلك مقامات بديع الزمان الهمذاني ونهج البلاغة بتصحيح شيخه ، وطلب من الشيخ كذلك شرح القرآن وتفسيره للناس ، على نحو قريب من أفهم أهل العصر ، ولم يزل يراجعه والشيخ يتعدد في ذلك ، حتى تم له ما أراد ، ثم خلفه فيه بعد أن قضى الشيخ نحبه ومضى إلى ريه ، وهو الذي طلب من الشيخ كتابة سيرته الذاتية ، فاستجاب له ، ولم يتمها^{٢١٦} ولما مات الشيخ كتب سيرته ، ونشر تراثه من رسائل^{٢١٧} ومقالات ومؤلفات ، وحوى كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام" الكثير من ذلك. الكتاب من أربعة مجلدات كبيرة ، وكان ينوي نشر ذيل له ، غير أنه توفي قبل أن يوفق في ذلك.

ومن مظاهر تشجيعه للحركة العلمية والأدبية في عصره ، أنه أفصح مجالاً واسعاً في مجلته ، لأعمال الأدباء والشعراء والعلماء ، بالتقدير والتقويم والنقد والنشر ،

^{٢١٦} - الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، د. يحيى إبراهيم عبد الدائم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، - لبنان ص ٥٩
^{٢١٧} - يقول الدكتور عمر الدسوقي : "وها هو ذا الشيخ محمد عبده يسجل له الشيخ رشيد رضا أكثر من أربعين رسالة". انظر : نشأة النثر الحديث وتطوره ، د. عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ١٠٩

المبحث الثالث : الدراسة الفنية لنقد السيد رشيد رضا

المطلب الأول : السمات القديمة في نقده

النقد اللغوي

"يحدد عالم الرياضيات ، أو الكيمياء ، أو الفيزياء ، أو رجل القانون ، أو المؤرخ أو الجغرافي ، أو عالم الاجتماع ، أو الفيلسوف ، أو اللغوي ، عمله قياساً إلى أشياء محددة ، ويستعين بمنهجيات صريحة ، ويسعى إلى تحقيق غايات مسلم بها. فبعيداً عن المجال الخاص بكل حقل .. يميل كل هؤلاء إلى الانفاق على طبيعة العلم الذي يشتغلون فيه ، وعلى المناهج التي تخصه .. أما الحقوق والمناهج الأدبية فيندر مثيلها في نظر العلماء في عدم الدقة ، وسرعة التبدل ، ومفاهيمها ضمنية غالباً ، ومتغيرة وغامضة".^{٢١٨}

وقضايا النقد من أكثر قضايا الأدب خضوعاً للتغير والغموض ، لما للذوق فيها من نصيب وافر وقد يعجب بعض النقاد بالشعر الحولي المحكك ، الذي يتوافر عليه الشاعر ، حتى يخرج أبيات قصائد مسيرة في الجودة ، ويرى من أي مغمز ، بينما رفض هذا الصنيع آخرون وعدوه تجنياً على الفطرة ، ونوعاً من التكلف يخل بقيمة العاطفة ، وبينال من صدقية التجربة^{٢١٩} والأبيات التي استشهد بها ابن قتيبة على أنها نموذج للشعر الضعيف^{٢٢٠} نالت إعجاب واستحسان الإمام عبد القاهر الجرجاني ، واستشهد بها على الشعر المثالي الصياغة.^{٢٢١}

ومهما يكن من أمر هذا التفاوت والتتنوع في النظارات النقدية ، فقد كانت هناك أسس نقدية محورية ، ينطلق منها النقاد جميعاً ، وكان أكثر النقاد في عصر رشيد رضا - بما فيهم العقاد ومدرسته المجددة - يحتكمون إلى الأصول القديمة للنقد العربي ، فكانوا : "يعنون بالنقد اللغوي وصحة الألفاظ والتركيب ، ومقاييس البلاغة

^{٢١٨} - قضايا أدبية عامة : إيمانويل ، فرييس ، وبرنار موراليس ، ترجمة د. طيف زيتوني ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٤ ، ص ٦٣

^{٢١٩} - العمدة في محسن الشعر وأدبه: ٢٢٦/١ ، والبيان والتبيين: للباحث ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة

الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٥ ، ١٣/٢ م

^{٢٢٠} - ابن قتيبة ، الشعر والشعراء: لابن قتيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١٩٨١ م ص ١٤

^{٢٢١} - دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، علق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ص ٧٤

، وأوجه الاستعارة والمجاز والتشبيه.^{٢٢٢} وميخائيل نعيمة الذي يعد من أكثر النقاد المعاصرين تحررا لا يشكو من وجود مقاييس نقدية ثابتة يتحاكم إليها بقدر ما يشكو من قلة من يحسنون استعمال هذه المقاييس.^{٢٢٣}

وعلى هذا فلا غرابة في أن يتكئ رشيد على مقاييس النقد العربي القديم في معظم أحکامه النقدية ، كما ظهر من دراسة نقده السابقة ، ومن أهم أسسها النقد اللغوي ، الذي يراه بعض الباحثين السمة البارزة في نقد عصر النهضة فيقول : "فإننا نستطيع أن نقول الآن بعدما قدمنا ، إن النقد منذ أيام النهضة الأدبية ، التي بزغت إبان الثورة العربية إلى مطلع القرن العشرين وأوائله ، كان نقدا لغويا ، يتمتع ببعض الذاتية من جهة أخرى ، معتمدا في حكمه على الذوق ، ويفضل الاستطراد ."^{٢٢٤}

الذاتية في النقد

من السمات البارزة في نقد رشيد رضا أنه نقد ذاتي ، غير معلل ولا مبرر فكثيرا ما يطلق الأحكام النقدية ؛ من تحسين أو تفضيل أو تهجين ، دون أن يذكر لهذه الأحكام سببا ، ودون أن يكلف نفسه بالكشف عن مكامن الجمال ، ومواطن القصور والماخذ في النص الذي ينتقده ، ليشرك القارئ أو المتلقى معه في تذوق النص ، فيسلم له ما أصدره من الأحكام ، أو يناقشه فيها ، ولعل مرد ذلك إلى ما سبق ذكره من قبل ، من أن رشيدا كان دارسا متذوقا لما يعرض له من فنون الأدب المختلفة ، من شعر وخطبة وقصة ، فيبدي رأيه فيما يستثيره منها بإعجاب أحيانا ، وبإنكار أحيانا أخرى ، وقد يصاحب ذلك تعليل وتبرير ، وقد لا يصاحب شيء من ذلك ، وهو الأكثر ، لأنه ليس أدبيا محترفا أو متخصصا منقطعا إلى هذا المجال ، فلا يلزم نفسه بالتعليق والشرح والمناقشة الطويلة . "وما دمنا قد سلمنا بأن الأدب موضوع غير دقيق بطبيعته ، أي ليس له دقة العلم وموضوعيته ، وأن جانب الفردية متوافر فيه ، بل شرط أساسى لامتيازه ، فيكون من البديهي أن نسلم بذلك في منهج

^{٢٢٢} - في الأدب العربي الحديث : د. عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، ط٦ ، ٢٨٢/٢

^{٢٢٣} - الغربال: ميخائيل نعيمة ، ص ٧٤

^{٢٢٤} - التراث النبدي قبل مدرسة الجيل الجديد ، عبد الحي دياب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٦٤ م، ص ١٩٦٨

دراسة الأدب ، ونعمل حسابه عند الحكم على الأثر الفني وتقدير قيمته .. فالذوق في مجال الحكم على الآثار الفنية أمر لابد من قيامه على أن يكون الذوق الذي تربى وقوت أسانيده .^{٢٢٥}

الاعتدال في النقد

من خصائص رشيد النقدية اعتداله في تعامله مع القضايا النقدية التي كانت مثاراً في أيامه ، ومنها القديم والجديد ، والفصحي والعامية ، والالتزام والتحرر منه ، وغير ذلك من القضايا التي استجدة مع تولي عصر الضعف الأدبي .^{٢٢٦} فلم يكن رشيد رضا أديباً تقليدياً متعصباً لكل قديم ، وإن انطوى على دخن ، ولا متهافتاً على كل جديد ، وإن لم يكن فيه غناً ، بل كان متوسطاً ، يضمن بالقديم ، ما لم يتبيّن فيه فساداً ، ومرحباً بالجديد ، الذي تلوح له فوائد وثماره .

لهذا كان يدعو الأدباء والشعراء إلى تمثيل معاني العصر ، والاستفادة من معطيات ما استجد من العلوم والمخترعات ، والنظم والمبادئ والأفكار الحديثة ، بل تجاوز الدعوة المجردة إلى محاولة تطبيق ما دعا إليه على شعره ونتاجه الأدبي ، ولما ارتفع نداء البعض بنبذ الأوزان والقوافي ، لأنها تقييد حرية الشاعر في الغوص على معانيه كيما شاء ، ناقشهم بموضوعية وهدوء ، دون أن يبادلهم صراغاً بصراخ ، فكان مما قال : "أي عيب في الأوزان حملته على جعلها رقاً يجب أن يحرر الشاعر نفسه منه ؟ وأما القوافي فإن صح أنها قيد أو مداعاة ملل ، فاللغة العربية لا تقيده بشيء منها ، وقد كسر المولدون من شعراء العربية في الأندلس ، وفي المشرق منذ قرون ، وزاد شعراء هذا العصر عليهم ."^{٢٢٧}

فهذا تفريقي منه ، بين الأوزان التي لا يستقيم شعر بدونها في نظره ، وبين القوافي التي هي زيادة حلية في إيقاع الشعر الموزون ، فلا مانع لديه من النظر في أمرها إذا صح أنه بتجاوزها يصيب الشعر تطوراً ، غير أنه رفض أن ينبذ القديم

^{٢٢٥} - قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، د . محمد زكي العشماوي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ م ، ص ٣٨٠

^{٢٢٦} - مثل إصلاح الخط العربي ، أو استبدال غيره به .

^{٢٢٧} - المنار : ٣٩٦/٥/٢٧

لمجرد قدمه ، لا لعيب في ذاته لأنه "ما من قديم إلا وكان جديدا ، ولا جديد إلا وسيكون قديما ، ومن لا قديم له لا جيد له ، بل لا وجود له ، وإنما الأمم بتاريخها".^{٢٢٨}

وكان يرتبه من هذه الدعوة أن أصحابها يمجدون قديم الغير ، ويرفضون قديم أمتهم العربية والإسلامية ، يمجدون الشعر اليوناني ، والشعر الروماني ، وشعر شكسبير ومعاصريه من شعراء الأمم الأوروبية ، وينتقضون الشعر العربي القديم ، بل وجد أن بعض هؤلاء يعتز بالقديم الذي يسبق الإسلام ؛ ورأي من المصريين من يقول إن اللغة العربية "ليست اللغة المصرية الصميمية بل هي منا كاللغة اللاتينية من الأوربيين"^{٢٢٩} ويعتز بالتراث الفرعوني^{٢٣٠} وتراث حوض البحر الأبيض المتوسط^{٢٣١} الذي يربط المصريين والمغاربة بنظائهم الأوربيين في القاسم الجغرافي المشترك.^{٢٣٢} فلما رأى رشيد أن هذه دعوة تتجاوز المنطق الأدبي ، والقيم الفنية ، وأنها تتخذ من الأدب والفن وسيلة إلى تحقيق مأرب أخرى حمل عليهم حملة شعواء ، وأطالت في مناقشاتهم وردودهم ، ونسبهم إلى الإلحاد.^{٢٣٣}

كان رشيد كذلك وسطاً بين المتشددين في المحافظة على مقاييس اللغة العربية وقواعدها والمتناهيلين فيها ، فقد انتقده أحد أساتذة اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت ، واتهمه بالجمود على قواعد العربية القديمة فقال : "وكثير من منتقدينا يأتون في هذا النوع من الانتقاد بالمبكريات المضحكت ، ولا أحashi جلة من أكابر علمائنا وكتابنا معا ، والغريب أن بعضهم ينكر القياس ، فلا يجوز في الاستعمال إلا ما نص عليه في كتب أمهات اللغة ، فإن لم ينص الصاحح أو الفيروزآبادي ، أو لسان العرب على (احتار) مثلا ، يؤخذون من يستعملونها من أكابر الشعراء والفقهاء ، وكاد العلامة السيد محمد رشيد رضا ؛ صاحب مجلة المنار

^{٢٢٨} - المنار: ٣٩٦/٥/٢٧

^{٢٢٩} - الأدب العربي المعاصر في مصر : د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة / ص ١٨١

^{٢٣٠} - في الأدب العربي القديم: ٢٣٥/٢

^{٢٣١} - المنار: ٢٣٧/٢

^{٢٣٢} - المنار: ٧١٨/٩/٢٩

المشهورة ، يهوي في مهواه هؤلاء الأقوام فإنه على سعة علمه ، لم يرقه استعمال بعضهم (احتار) مع معرفة أنه قد استعملها قبله الإمام ابن فارض المشهور.^{٢٣٣}

إن رشيد رضا هو الذي أخذ على أحمد شوقي استعماله لهذه الكلمة غير القياسية^{٢٣٤} ولم يشفع له عنده أن سبق إلى استعمالها كل من ابن فارض ، وابن عابدين ، والشيخ عبد الغني النابلسي ، لأنهم ليسوا بحجة عنده ، إذ يرى أن "ما انفرد به قدماء المولدين من أساطين علماء اللغة وأدائها لا يحتاج به ، إذا خالف القواعد القياسية ، فما القول في المتأخرین من أهل القرون الوسطى إلى اليوم".^{٢٣٥}

ثم إن رشيد رضا دافع عن نفسه ما رمى به الأستاذ البالغ من الجمود والتشدد فقسم العلماء في هذا الشأن إلى ثلاثة أقوام : قوم متساهلون إما بسبب قلة بضاعتهم ، وهم كثيرون ، أو بسبب سوء نيتهم ، وقصدهم إفساد اللغة ، وهم قلة أو بسبب إيثارهم للمعنى على الألفاظ مع سعة علمهم وقوه فهمهم ، "وهناك قوم آخرون وسط بين هؤلاء وأولئك يقولون : إن باب القياس في أصل العربية أوسع منه في عرف واضعي الفنون ، ولا سيما البصريين منهم ، وإنه ينبغي لنا أن نسلك في العربية مسلك أهلها في الاشتغال من الجوامد والتعريب والتجوز وغير ذلك ، ولكن يجب أن لا نجد فيها إلا ما نحتاج إليه ، ولا نجد في كتابها ، إلا كانت الزيادة تكثيرا يشق علينا احتماله بغير فائدة .. فكلمة (احتار) مثلا لا حاجة إليها ، لأنه ورد بمعناها حار وتحير ، وكانت هذه السطور يرى هذا الرأي ولكنه لا يطلق العنان فيه للأفراد ، لما يترتب على ذلك من الفساد الذي أشرنا إليه في فاتحة الكلام ، بل يحتم أن يكون برأي جمعية من العلماء يبحثون في ذلك و يجعلون له نظاما ، وينشرون ما يرون أنه صوابا في الصحف ، ليعلم الاستعمال ويؤمن الخلاف".^{٢٣٦} وأصرح من ذلك في اعتدال رشيد ووسطية نقه بين المغالين والمتساهلين في قضية قواعد اللغة ومقاييسها ، ما كتب به إلى صديقه الأمير شبيب أرسلان ، في مناقشات لغوية جرت بينهما: "أخبرك بأن هذه المسائل كلها قد كانت موضوع مناقشات طويلة عندنا ، في

^{٢٣٣} - المنار: ٤٤٤/٦/٩

^{٢٣٤} - السابق: ٥٦٦/٢٤/٣

^{٢٣٥} - السيد رشيد رضا: ٥٤٨

^{٢٣٦} - المنار: ٤٤٤/٦/٩

المجمعين اللغويين الذين ألفناهما هنا ، ولاسيما الأول ، فقد كان من المتشددين في المحافظة على النقل والقواعد حفيي بك ناصف ، والشيخ أحمد الإسكندرية ، ومن الواقفين على الطرف المقابل الدكتور يعقوب صروف وغيره ، وكنت أنا والشيخ أحمد إبراهيم في الوسط".^{٢٣٧}

وهكذا يبدو رشيد معتدلا في القضايا اللغوية والأدبية المثارة في أيامه ، مما يدل على اعتزازه وتمكنه من التراث الأدبي القديم بدون تعصب ، وتعلمه إلى أي جديد مفيد ونافع دون التفريط بالقديم بلا سبب ولا مقتض ، ولو حاول الباحث استقصاء الشواهد الدالة على اعتداله في مختلف القضايا اللغوية والأدبية لطال الكلام.

المطلب الثاني : السمات التجديدية في نقده تطور دلالات الألفاظ

عني رشيد في السنوات الأولى من مجلة المنار بدراسة تطور دلالات الألفاظ ومفردات اللغة العربية ، ولاحظ أن كتاب العصر من صحفيين وغيرهم ، يمارسون هذا التطوير ، بما يلقوه من المصطلحات العصرية المتتجدة ، التي تحتاج إلى مقابل لها في اللغة العربية ، فإما أن يكون هذا المقابل من الكلمات العربية الموجودة ، وحينئذ يستجد لها معانٍ إضافية ، وإما أن يلجأوا إلى التعرير ورأى رشيد أن هذا التطور أمر طبيعي . تقتضيه ظروف كل عصر ، فإذا توافر كتاب العصر أو اصطلحوا على كلمات يؤدون بها معانٍ أو مسميات جديدة ، فلا مشاحة في الاصطلاح .

ثم وعد بأن يتتبع هذا التطور اللغوي ، بالتبني والشرح والتفسير ، لكي يساير جمهور القراء كتابهم في هذا الأمر فقال : "من القضايا المسلمة أن لا مشاحة في الاصطلاح ، ولا مذوحة عن مراعاة ما يتواتر عليه الجمهور ، ومجاراة الناس على ما يصطلحون عليه في كل زمان ومكان ، وقد انطلقت ألسنة أهل هذا العصر وجرت أفلامهم بالألفاظ ، يريدون بها من المعانٍ غير ما تدل عليه في أصل اللغة أو في عرف أهل العصور السالفة ، ولهم ألفاظ أخرى جاءتهم من الفنون الحادثة ، والاكتشافات الجديدة ، والكثير منها ما لم تستعمله العرب ، فرأينا أن نشرح في صحيفتنا هذه الألفاظ ، حيناً بعد حين ، لأن كثيراً من القراء غير عارفين بها ، على الوجه الذي نستعمله ، وبالمعنى الذي يعرفه العارفون".^{٢٣٨} ومع أن دراسة التطور الدلالي لمفردات العربية الفصحي في أي من العصور المتأخرة بعد عصور الاحتجاج لا يضيف جديداً إلى معاني تلك المفردات إلا أنه يعين على توسيع الأعمال الشعرية التي طورت هذه الدلالات الجديدة.^{٢٣٩}

ومما ذكر من هذه الألفاظ :

^{٢٣٨} - المنار: ١٤/١/١

^{٢٣٩} علم الدلالة العربية: د. فايز الديمة ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، سوريا ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ ص ٢٨٥

١- الطبيعة : له معانٌ عديدة عند الأطباء وال فلاسفة والصوفية ، ومعناه الجديد المخلوقات أو الحالة التي هي عليها ، وهذا يوافق معنى اللفظ في أصل اللغة ، والطبيعي عند العامة الدهري. ^{٢٤٠}

٢- النوميس : أصله (ناموس) يوناني ، ومعناه الشريعة ، ويستعمل الآن بمعنى السنة الكونية. ^{٢٤١}

٣- الكافر : معناه المخالف في الدين ، ويطلق اليوم على الملاحدة. ^{٢٤٢}

٤- الملحد : الميل ، ومنه الميل عن الحق ، ومن إطلاقاته المعاصرة العلماني.

^{٢٤٣}

٥- السيد : يطلق في عرف المسلمين على أهل بيت النبوة أو الحسينيين منهم وعند النصارى على المسيح ، وكبار رجال الدين. "وابتدع بعض الجرائد العربية المحدثة في زمن الحرب إطلاق لقب (السيد) على كل أحد ، وجعله بدلاً من كلمة أفندي التركية ^{٢٤٤} (ومسيو ومستر) الإفرنجيتين ، فأنكر ذلك السواد الأعظم من العرب المسلمين والنصارى جميعا .. وسبق المغاربة والمصريون إلى استعمال كلمة (السيّ) في هذا المقام .. ومعناه المثل ، ومثناه : سيان .. وهو جدير بأن يعم في هذا الاستعمال". ^{٢٤٥} ولكن الذي حدث أن السيد بمعنى (مسيو ومستر) شاع واشتهر ، ولم يكتب لكلمة (السيّ) التي تمنى رشيد أن تحل محل السيد في الإطلاق على كل فرد الخلود والبقاء فضلاً عن الشيوع والشهرة.

٦- الدعاية : مثل الدعاوة في أصل اللغة ، وفي اصطلاح كتاب العصر في معنى ما يسميه الإفرنج "برو باغند" ^{٢٤٦} وأول من أطلق هذا المصطلح هو السيد رشيد رضا نفسه ، حيث راجعه في استعماله الأمير شكيب أرسلان فأجابه بقوله : "الدعاية" وردت في كتاب النبي (ص) إلى هرقل ، قال

^{٢٤٠} - المنار: ١٥/١/١

^{٢٤١} - السابق: ١٥/١/١

^{٢٤٢} - السابق: ١٧/١/١

^{٢٤٣} - السابق: ٧١٨/٩/٢٩

^{٢٤٤} - أصل لفظ "أفندي" إنجليزي ، ثم استعارته التركية.

^{٢٤٥} - المنار: ١١٢/٢/٢١

^{٢٤٦} - هذا التفسير من شكيب أرسلان. انظر السيد رشيد رضا ، هامش صفحة ٣٤٤

"أدعوك بدعائية الإسلام" كما في كتاب "بدء الوحي" من أول صحيح البخاري ، وهي كالدعوة الكثيرة الاستعمال في كل ما يدعى إليه ، فأحببت استعمال الكلمة الطريفة في الدعوة الخاصة بالمذاهب العامة ، من سياسية ودينية ، واتبعني بها كثير من الكتاب.^{٢٤٧}

وهذا بحث طريف ومفيد ، ولو اتصلت عناية رشيد به ل كانت فائدته عظيمة في اللغة والأدب جميا.

تطور نظرة المجتمع إلى الأدباء

لاحظ السيد رشيد رضا أن منزلة الأديب تعلو في المجتمع ، وأن هذا يدل على تسامي وعي المجتمع ، كما أنه نتيجة لتطور موقف الشعراء ، وتحولهم إلى التعبير عن قضايا المجتمع ، حيث لم يعد الأمراء والملوك والوجاهاء محورا لاهتمام الشعراء ، فلم يلبث الجمهور أن التقوا حولهم ، وأحلوهم منزلة سامية تليق بمكانتهم الأدبية ، وهذا ما استوحاه رشيد من وفاة شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم فرأى من وجع المجتمع لموته ، وإحساسه العميق بالفقد والحزن الذي تجلى في كل المظاهر من إقامة المآتم ، وحفلات التعازي ، وتبادل المواساة ، واهتمام وسائل الإعلام المختلفة ، وأصحاب الكلمة والقلم بهذا الحدث الجلل ، وقد تزامنت وفاته وفاة أحد أمراء الأسرة الخديوية الحاكمة ، فلم يكن لها من الصدى معشار ما كان لوفاة الشاعر الاجتماعي الفقير ، "الذي شعر بالآلام شعبه وهمومه"^{٢٤٨} بانتقامه إلى الطبقة الفقيرة منه ، فأحسن التعبير عن شعبه ووطنه. يقول رشيد في ذلك : "والعبرة في هذه أنه آية بينة على ارتقاء الأمة العربية في أدابها النفسية والاجتماعية ، ببشر بقرب زوال العظمة الوهمية ؛ عظمة الألقاب الموروثة والثروة المادية ، وإعاقاب العظمة الحقيقية لها ؛ عظمة العلم والأدب وخدمة الأمة".^{٢٤٩}

كان رشيد قد دعا الشعراء والأدباء إلى تجديد معانيهم ، بمعطيات علوم العصر ، والاستمداد من الفنون الحديثة ، والمخترعات الجديدة ، وكل المعارف

^{٢٤٧} - السيد رشيد رضا: ٣٤٤

^{٢٤٨} دراسات في الشعر العربي المعاصر: د. شوقي ضيف ، دار المعرف بمصر ، الطبعة الثامنة ، ص ١٢

^{٢٤٩} - المنار: ٦٢٥/٨/٣٢

الإنسانية التي تسهم في التطور العمراني ، في مختلف المجالات ، وتنبه رشيد إلى أن التجديد المطلوب لا يحصل ولا يتم باستظهار أسماء المخترعات ، والنظريات العلمية الجديدة ، وترديدها في الشعر وفنون الأدب المختلفة ، وإنما يتم الاقتباس المفيد ، إذا أخذت هذه العلوم بالاستقلال الفكري والاجتهاد في الفهم ، بحيث تتحول هذه العلوم إلى ملكات راسخة في ذهن الأمة ، وتندمج في ثقافتها ، وتنسج لها لغتها ، عندئذ فقط تصبح المعاني العصرية جزءا لا يتجزأ من تجربة الشعراء ، ولهذا حث العلماء والأدباء إلى : إشراع الطريق الموصل لجعل لغة الأمة تتسع لهذه العلوم والفنون ، وما يتجدد منها في كل آن.^{٢٥٠}

وعيه بأسس النقد الأبي الجديد

يقول رشيد رضا في تقادمه وتقديره لكتاب أسرار البلاغة ، للإمام عبد القاهر الجرجاني : "تمتاز كتب الإمام عبد القاهر الجرجاني ، واسع فنون البلاغة (رحمه الله تعالى) على سائر الكتب التي ألفت من بعده مزايا ، منها أن عبارتها بلغة ، وأساليبها رشيقه ، ومنها تصوير المعاني شخوصا تامة سوية ، حتى كأن المعقولات ملموسة مرئية ، ومنها كثرة إيراد الشواهد والأمثلة على الوجه الذي اختاره الأوربيون ومقلدوهم في كتب التعليم لهذا العهد".^{٢٥١}

إن تصوير المعاني شخوصا هو ما يعبر عنه بالتجسيد ، بل إن هذا الوصف جامع للتجسيد والتشخيص لأنه يحصل بنقل المعاني إلى عالم المحسوسات المجسدات ، ثم خلعها صفات الأشخاص الآدميين^{٢٥٢} وهذا النوع من الاستعارات هو ما يحتفي به النقاد المعاصرون ، لأنه يكشف عن إحساس الشاعر الدقيق بالأفكار التي تعتاج في وجده ، وتلوينها بما يدل على عمق تفاعله مع تلك المعاني والمشاعر ، فتارة يجسدتها لإعطائها أبعادا مادية تتراءى له في خياله ، وأحيانا يشخصها بما يدل على طبيعة علاقته بها.

^{٢٥٠} - المنار: ٧٨٦/١٠/٢٧

^{٢٥١} - السابق: ٩٤٣/٣٤/٦

^{٢٥٢} - التصوير الشعري (رؤى نقدية لبلاغتنا النقدية) : د. عدنان حسين قاسم ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م ، ص ١٤٩ - ١٥٢

ومن نظراته النقدية التي فيها روح الجدة ، إعلاؤه لمكانة شعور الشاعر ، وحسن تمثيله له في شعره ، بحيث يكون الشعر تمثيلا صادقا ، وتعبيرها حقا عن شعوره ووجوداته ، وهذا لا يصدق كثيرا على الموضوعات التقليدية التي يطرقها الشعراء في المناسبات الروتينية. يقول رشيد في هذا المقام : "نظم أشهر شعراء مصر القصائد في التهاني السلطانية ، وفي مقدمتهم إسماعيل صبري ، وأحمد شوقي باك محمد حافظ باك ، وامتازت قصيدة شوقي بأنها لم تكن مدحًا وثناءً مجرداً كغيرها بل تمثيلاً لشعوره ووجوداته الخاص ، من حيث هو ربيب بيت الخديوي إسماعيل باشا ، وغرس نعمته".^{٢٥٣}

نظرته إلى ثقافة الأديب

لاحظ السيد رشيد رضا أن ثقافة الأديب المعاصر وعدته ، لم تعد قاصرة على اجتذار الموروث القديم من لغة وأدب وقواعد ، وإنما عليه أن يواكب ثقافة العصر ، وأن يعي المعطيات المدنية الحديثة ، ليستقيم تعبيره عنها ، ويتمكن من مخاطبة أهلها بأسلوب العصر ، فقال : "ويستمد علم الأدب اليوم من ينابيع ، لم تكن مفجرة في أرض أسلافنا من قبل ، ويحتاج في تحقيق نتائجه التي علمت ، إلى فنون كثيرة لم تكن في العصور الأولى ، أو كانت ، لكن على غير هذه الحالة التي هي عليها اليوم ."^{٢٥٤} ودعا الأدباء "إلى معرفة كل ما في العصر من الفنون والصناعات في الجملة ؛ ليقدروا على مخاطبة كل صنف من الناس بما يناسب ذوقه ، ويتصرّفوا في كل موضوع بما هو أمسّ بحالة أهله ."^{٢٥٥}

^{٢٥٣} - المنار : ١٨/١٥٩

^{٢٥٤} - السابق : ١/٨/٣٤

^{٢٥٥} - السابق : ١/٨/٣٤

الدعوة إلى الأدب الإسلامي

كان السيد رشيد رضا يدعو إلى الأدب الملائم ، ويرى أن الأديب الحق هو الذي يتبنى قضايا الأمة ، ويدعو بأدبه إلى الفضائل والقيم الإنسانية العليا ^{٢٥٦} ، ويرد على من يفرق بين أدب النفس (الأخلاق) وأدب اللسان (الأدب) بقوله : إن أدب النفس لا يكون كاملا إلا بأدب اللسان ، فال الأول يستلزم الثاني . ^{٢٥٧} ويقاد رشيد يسلب صفة الأديب ، ومن لا يخدم بأدبه مصالح أمته ، ومنافعها ، وقيمها . " فمن لا يقدر على الكلام الفصيح في التغفير عن الرذائل والترغيب في الفضائل ، وفي سائر المواضيع المتعلقة بمنافع أمته ومصالحها قولًا وكتابًا ، لا يكون أديبا . ^{٢٥٨} وعلى هذا يكون رشيد من أوائل الأدباء المعاصرين ، الذين دعوا إلى نظرية الأدب الإسلامي .

ملاحظة تطور النثر في عصره

من نظرات رشيد النقدية ، التي تدل على مواكبته للحركة الأدبية في عصره ، ومتابعته لما يستجد فيها ، ملاحظته أن النثر ارتقى في عصره أكثر من الشعر ، وذلك بفضل الجرائد التي نهجت أسلوباً جديداً في الكتابة النثرية ، ويفضل الحركة التأليفية النشطة . يقول رشيد منها ببعض أدباء عصره : " ثمرات أدواههم ظاهرة في جنات الجرائد ، والمصنفات الحديثة النافعة ومنها يعلم أن الترقى في المنثور أكثر منه في المنظوم ." ^{٢٥٩}

إذا أضيف إلى هذه الملاحظات ذوات الطابع التجديدي ، اهتمام رشيد الكبير بالفنون الأدبية الجديدة ، مثل القصة والرواية ، حيث خصص لها مساحات كبيرة في مجلته ، بالتقدير والتقديم ، وحث الأدباء على المساهمة فيهما بالتأليف والترجمة ، علامة على ما سبق من اعتدال موقفه من القضايا اللغوية والأدبية التي دار النقاش حولها في عصره ، أمكن القول بأنه كان مؤيداً ومناصراً للتجديد وهذا ما

^{٢٥٦} - معلم الأدب الإسلامي ، د. عمر عبد الرحمن الساريسي ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع - الكويت انطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م ، ص ٦٣

^{٢٥٧} - المنار : ١٣٣/٨/١

^{٢٥٨} - السابق : ١٣٤/٨/١

^{٢٥٩} - السابق : ٥/٨/١

يقتضيه أيضاً إصلاحه الديني والمدني ، وينسجم مع مواقفه الأخرى التجديدية ، حيث كان مع التجديد في المجالات الفقهية والعقدية والتعليمية والاجتماعية والسياسية ، فكيف يكون إذا مقلداً أو جامداً على القديم في المجال الأدبي ؟ !

يتم بعض الدارسين رشيد رضا بأنه كان عقبة أمام تحرير الأدب المصري ، وتجديد الشعر فيه ، كما كان عائقاً في طريق الأفكار التقدمية كالقومية حسب رأيهم ، فيقول : "لكن رشيد رضا لم يكن قومياً في تفكيره ، وكان ينود بحماسة دافقة عن الدعوة إلى جامعة الإسلام ، بحيث تصبح البلاد الإسلامية جمِيعاً أمة واحدة ، لا اثر فيها للقوميات ، بل كان يرى في فكرة القومية مبدأً غريباً عن الإسلام ، هذا إلى أنه وقف موقف المعارضة ، من تقدم نزعات التجديد في الأدب المصري الحديث ." ^{٢٦٠} ، وإنما رفض رشيد رضا ترك كل الضوابط الأدبية ، والمقاييس اللغوية ، بحجة ابتكار وهمي ، يتذرع به ضعاف البضاعة ، لإخفاء عجزهم عن تحصيل العلوم المكملة للمبدعين ، والفنون الالزمة للأدباء المعتبرين ويشاركه في هذا حامل لواء التجديد في الأدب العربي الحديث ؛ الأستاذ عباس محمود العقاد ، إذ يقول مناقشاً لميخائيل نعيمة ، في دعوته إلى التحرر من الضوابط اللغوية والأدبية : "وزيدة هذا الخلاف أن المؤلف يحسب العناية باللُّفْظِ فضولاً ، ويرى أن الكاتب أو الشاعر في حل من الخطأ ، مادام الغرض الذي يرمي إليه مفهوماً ، واللُّفْظُ الذي يؤدي به معناه مفيداً ، ويعن له أن التطور يقضي بإطلاق التصرف للأدباء ، في اشتراق المغendas وارتجالها ، وقد تكون هذه الآراء صحيحة في نظر بعض الزملاء ، ولكنها في نظري تحتاج إلى تتحقق وتعديل ، ويؤخذ فيها بمذهب وسط بين التحرير والتحليل .. ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم ، فنخلق قواعدها وأصولها في طريقنا ، وأن التطور إنما يكون في اللغات التي ليس لها ماضٍ وقواعد وأصول ، ومتى وجدت القواعد والأصول فلماذا نهملها أو نخالفها ، إلا لضرورة قاسرة لا مناص منها ." ^{٢٦١} وهذا عين موقف رشيد رضا ، فيما جرى بينه وبين الأستاذ جبر ضومط ، الذي كان يدعو بمثل دعوة ميخائيل نعيمة.

^{٢٦٠} - رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده : ٢٦٧

^{٢٦١} - مقدمة الغربال لميخائيل نعيمة : ١٠

مكانة رشيد في النقد الأدبي

ذكر الباحث فيما مضى من دراسة نقد رشيد رضا ، أنه لم يكن ناقداً محترفاً أو متخصصاً ، وإنما كان أدبياً كبيراً ، وعالماً لغويًا ، وشاعراً موهوباً ، وناقداً متذوقاً ، يعلق على ما يصادفه من الآثار الأدبية ، والأعمال الشعرية تعليقاً مقتضاها ، غير متبع في شرحها ، وبيان مزاياها ، أو مواطن ضعفها ، وكانت صلته بالحركة الأدبية صلة قريبة ، لأنها كان صاحب مجلة كبيرة ، تعنى - من بين قضايا أخرى - بقضية الأدب ، حيث كان الأدباء يرفعون إليه ما ينجزونه من الأعمال الأدبية ، لتقديرها ثم نشرها في المجلة ، وعرف عنه اهتمامه الخاص بالفنون الجديدة ؛ مثل القصة والرواية ، فكثير ما يهدى إليه منها ، حتى ناهزت القصص التي قررها في مجلة المنار وحدها مائة قصة ، كما كان الشعراء - ومن بينهم الكبار - يهدون إليه دواوينهم ، فيكتب إليهم رأيه فيها ، وينصح البعض بما يراه ضروريًا في تحسين أدائه ، ومن ذلك ما أجاب به نقولاً أفندي رزق الله ، الذي طلب رأيه في قصة كتبها بعنوان "حواء الجديدة": وأرجو أن تتوخى فيما ستكتب الغاية والفائدة ، أكثر مما تتوخى من حسن الوضع ، ولطيف التعبير ، وقوة التأثير ، وأجدر بمن يعرض عمله ل النقد الرجال أن يبلغ منه غاية الكمال.^{٢٦٢} ونصح مصطفى صادق الرافعي ، بتجنب الأبيات المغسولة في شعره ، التي يقل معناها ، ويكثر لفظها ، فقال: "هذا وإنني لا أتكلم في انتقاد الديوان ، ولكنني أنسح الناظم أن يفكر عند النظم ، أو عند التقيق ، في معاني الأبيات ، التي تبقى في ذهن القارئ ، لا في التأثير فقط ، فإن من تخيلاته ، أو من أبياته ، ما يروع لفظه وسبكه السمع ، حتى إذا تأمله القارئ ، لم يجد له معنى يستقر عنده الفهم".^{٢٦٣}

هذا وكان السيد رشيد رضا ناقداً بطبعه ، قليل التسليم بالموروثات المتعارف عليها والتقاليد المرعية ، إلا بعد التمحيق والتدقيق فيها ، مما لا يسنه دليل عقلي ، أو حجة شرعية ، لفظه واطرجه ، سواء أكان شأنها دينياً أم فكريًا أم أدبياً ، كما كان

دقيق الملاحظة ، صادق الفراسة ، ويشهد على قوة حاسته النقدية ، وصحة بصره بالرجال وبمذاهبهم ومنازلهم ، ما أثر عنه من إطلاق الألقاب على العلماء ، التي اشتهروا بها ، فهو الذي لقب الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام^{٢٦٤} وهو الذي أطلق لقب أمير البيان على شكيب أرسلان^{٢٦٥} واقتبس الدكتور سامي أدهم في كتابه "عبد الرحمن الكواكبي" كلاما من رشيد رضا فيه ، وهو قوله: "رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي ، وعالم من علماء العمران ، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري".^{٢٦٦} فجعله شعارا لكتابه ، كما رجع إليه الأستاذ العقاد مرارا في تحليل بعض مواقف الإمام محمد عبده ، كقوله: "ومنه كما قال السيد رشيد رضا من الإغراء والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه".^{٢٦٧}

^{٢٦٤} - السيد رشيد رضا: ٢٧٣

^{٢٦٥} - أمير البيان شكيب أرسلان ، د. أحمد الشرباصي ، مطبع دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٣ م ، ص ٦١٧

^{٢٦٦} - عبد الرحمن الكواكبي: ٣

^{٢٦٧} - عبقري الإصلاح والتعليم ، الإمام محمد عبده: ٩١

الخاتمة

نتائج البحث .
الاقتراحات .

نتائج البحث :

بعد دراسة حياة وأدب السيد محمد رشيد رضا انتهى الباحث إلى النتائج الآتية :

- كان السيد رشيد رضا من العلماء العصاميين ، الذين وصلوا إلى مرتبة الاجتهد في العلوم النقلية والعقلية ، دون إطالة الاعتماد على العلماء والشيوخ ، ودون الانتظام الكثير في مقاعد الدراسة النظامية .
- وصل رشيد رضا إلى درجة الاستقلال في التعامل مع التراث الإسلامي فكانت له فتاوى وموافقات اجتهادية في مختلف القضايا الشرعية والفكرية تعبر عن تفرداته في الفهم .
- يعد رشيد رضا من رواد النهضة العربية والإسلامية الحديثة ، بعلمه الغزير ، وثقافته الواسعة ، وفكره المستثير ، ونضاله السياسي في الذود عن حمى الإسلام والعروبة ويسابقيته وتقدم عهده .
- كان مع أستاديه ؛ الشيخ محمد عبده ، والسيد جمال الدين الأفغاني ثالث الأعمدة ، التي قام عليها الفكر الإسلامي الإحيائي الحديث .
- يعد رشيد رضا ملهم الحركات الإسلامية المعاصرة ، على اختلاف مدارسها ، بما تفرد به بعد أستاديه من تنقية الفكر الإسلامي مما شابه من شوائب العقلانية والتوفيقية ، والعودة به إلى الأصول المأمونة للسلفية الأولى .
- كان أحد أبرز زعماء المقاومة العربية التي ناضلت من أجل الاستقلال بل يمكن عده من رموز القومية العربية في عصر النهضة ، ولم تكن قوميته تتعارض مع إسلاميته .
- من أهم ما يدل على منزلة رشيد الرفيعة ، وعلو شأنه في أمته علاقاته القوية بملوك ورؤساء العرب ، واستماعهم إلى نصائحه ، وحرصهم على علاقتهم به .
- كان رشيد خلافاً لما ذكره بعض الدارسين مطلاعاً على ثقافة العصر ، قوي المشاركة في قضايا الأمة ، وكان اهتمام المستشرقين بآرائه أكثر من

اهتمامهم بشيخه محمد عبده ، وقرّظ في مجلة المنار كثيراً من أعمال أدباء الغرب والشرق الأوروبي .

- كان السيد رشيد رضا صحفياً رائداً ، وإعلامياً بارعاً ، وكانت مجلته "المنار" رابعة أربع مجلات ، اعتبرت موسوعات ، في غزارة مادتها ، وبراعة أقلام أصحابها ، وطول اتصال عمرها ، وهي إضافة إلى المنار : المشرق للأب لويس شيخو اليسوعي ، والهلال لجرجي زيدان ، والمقططف للدكتور يعقوب صروف .
- كان رشيد رضا بشهادة معاصريه من أكثر كتاب عصره إنتاجاً ، وأغزرهم علماً ، وأسلسهم قلماً ، وأكثر مكتوباته في مجلة المنار ، وله مؤلفات تربو على الثلاثين ، منها تفسير القرآن الكريم ، في اثنى عشر مجلداً ، كما كان يكتب في الجرائد والمجلات المختلفة .
- كان رشيد أدبياً متفناً ، وشاعراً موهوباً ، ولكن شهرته العلمية ، وكفاحه الفكري والسياسي ، حجب وغطى على مكانته الأدبية ، فلم يشتهر بين الدارسين أدبه ولا شعره .
- كان رشيد رضا أدبياً بالطبع ، بمعنى أن موهبته الشعرية المودعة في طبعه ، وإتقانه للعلوم العربية بشتى فروعها ، وممارسته الكثيرة للكتابة والتأليف تضعه في مصاف أدباء عصره .
- شُغل رشيد عن قول الشعر بعد أن نبغ في العلوم الإسلامية ، وتصدر للإصلاح والنضال الفكري والسياسي ، وعاد إلى الاهتمام به في آخر حياته ، كما يظهر شعر ديوانه "ديوان السيد"
- تدرج رشيد في شعره في مراحل ثلاث : مرحلة التقليد ، ومرحلة التجديد المقصود ، ومرحلة التعبير عن الذات ، وقد اعتبرت شعره في المرحلة الأخيرة خير شعره ، لأنه يمثله أصدق تمثيل ، وأنه كان آخر عطائه الشعري .
- نسب بعض النقاد السيد رشيد رضا إلى الجمود والتزمت في نظراته النقدية ، ودافع هو عن نفسه ، ورجح الباحث أنه كان معتدلاً في الجدل

الذي احتم بين أنصار القديم ودعاة التجديد ، بل رأى أنه كان أقرب إلى روح التجديد ، غير أنه لم يستسغ التفريط بقواعد العربية ، وتجاوز مقاييسها بدون مبررات تدعو إلى ذلك ، وبدون أن يتم ذلك في مجتمع لغوية متخصصة .

- لا يوجد في شعر رشيد رضا ما يؤيد ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنه كان مولعاً ب تتبع الغريب في شعره ، ومحاكاً طرائق البدوين من قدامى الشعراء ، وأنه كان مثل الشاعر المصري محمد عبد المطلب في المذهب الشعري ، ومن ثم ذكرت أن شعره أقرب إلى الوضوح في لغته ، بما في ذلك مقصورته الطويلة التي عرض بها اللغوي الشهير ابن دريد .
- إن من أهم الآثار الأدبية التي خلفها السيد رشيد رضا مجلة المنار ، التي حوت كثيراً من المقالات المتعددة ، والآراء الأدبية المختلفة .
- تراث رشيد النثري غزير المادة ، كثير التنوع ، وخاصة ما حوتته منه مجلة المنار ، بحيث يتمثل فيه كثير من ألوان النشر الفني ، وقد اختصر الباحث في دراسته له على : الرسائل ، والمقالات ، والسيرة الأدبية ، وأدب الرحلات .
- كان رشيد رضا ذا موهبة شعرية ، وأهلية أدبية كبيرة ، لكنه انصرف إلى مجالات أخرى ، وخاصة عندما أصبح زعيمًا دينيًا ، ورمزاً من رموز الإصلاح الإسلامي .
- مكانة رشيد رضا في الكتابة الفنية مكانة سامية ، وهو يضاهي في قوته الأدبية كثيراً من أقرانه الذين حظوا بعناية الدارسين .
- كان نقد رشيد رضا جزءاً من أدبه ، ودليلًا على مكانته في فهم كلام العرب .
- لم يحظ رشيد رضا بالاهتمام الذي يستحقه من الأدباء ، فلا نجد له ذكراً في كتب الأدب ، التي تترجم لكثير من معاصريه ، باعتبارهم أدباء العصر ، من أمثال عبد الرحمن الكواكبي ، وشكيب أرسلان ، وباحثة الbadia ، ومصطفى كامل ، وعلى يوسف ، وحتى شيخه محمد عبده ،

وتدرس مختارات من أدبهم النثري ، مع أنه ليس بأقل من هؤلاء شأنًا في الأدب إن لم يفهم فيه .

- أن مصادر شعر رشيد ثلاثة : ما حوتة كتبه ومنها مجلة المنار ، ومقصورة رشيد التي بدأ نظمها في عام ١٣١٥هـ وكان يزيد فيها حتى كان منها ما اعتبره من آخر شعره ، وديوان السيد .
- أن رشيد رضا كان أقرب إلى روح التجديد والانفتاح بوعي على المستجدات الفنية ، على خلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين ، ولم يكن يترسم خطأ الشعراة القدامي في شعره إلا في المرحلة الأولى من مراحل شعره الثلاثة التي تدرج فيها ، وذلك على خلاف ما ذهب إليه البعض الذين قرنوه بالشاعر عبد المطلب .
- أنه كان رائد الأدب الإسلامي ، بما دعا إليه من ربط الأدب بالقيم الإسلامية ، وملحوظة التلازم بين الأدب السلوكي والأدب التعبيري ، فلا قيمة للأدب التعبيري ما لم يكن منميا للأدب النفسي .
- أسمهم رشيد في نهضة الأدب العربي الحديث ، بتقريظه وتقديمه لأعمال الأدباء ، وبإتاحته مساحة كبيرة في مجلته للقضايا الأدبية التي كان يسهم في تحريرها إلى جانب قلمه البارع أدباء كبار مثل : مصطفى صادق الرافعي ، وأمير البيان شكيب أرسلان والأستاذ جبر ضومط ، والأستاذ محمد خضر الحسين ، والأستاذ أحمد كمال وغيرهم ، كما كان كثير التشجيع للأدب المترجم وخاصة القصص والروايات ، وعلى هذا فقد اعتبرت "المنار" من المجلات الأدبية في عصر رشيد رضا .

الاقتراحات :

بعد صحبة السيد رشيد رضا في دراسة حياته وأدبه ، رأى الباحث بأن هناك حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة في أدب رشيد ، من خلال مجلة المنار وكتبه العديدة وخاصة في المجالات الآتية :

- **القصة والرواية :** كان لدى رشيد رضا عناية بالقصة والرواية ، حيث أشاد بأهميتها ، وقرظ وقدم كثيرا من القصص والروايات المنشأة بالعربية أو المترجمة إليها ، كما حكا في المنار بعض القصص العربية القديمة ، وصاغ هو بأسلوبه بعض القصص القصيرة مثل : تأثير الاعتقاد في العمل وكتابه الوحدة الإسلامية محاولة رواية ، فهو حوار طريف بين شخصين أحيانا ، وبين أشخاص عدة أحيانا أخرى ، في قضية الإصلاح والتقليد. وكل هذه المحاولات تدرج في جهد رشيد في القصة والرواية .
- **رسائل رشيد :** لا يزال كثير من رسائل رشيد رضا قائما في أرشيفات الدول ، ومحفوظا في خزائن مكتبات الخاصة وال العامة ، وإذا كانت رسائله إلى صديقه شكيب أرسلان فقط ، قد صدر المنشور منها في مجلد ضخم ، بلغ ثمانمائة صفحة ، فإن رسائله إلى عشرات الأصدقاء ، والعلماء ، والوجهاء ، والمسؤولين ، ورؤساء الدول لا زالت تنتظر البحث والدراسة والنشر .
- **مقالاته :** بلغ مجموع مقالات رشيد رضا في مجلة المنار وحدها ألفين وتسعمائة وثمانية وثلاثين مقالا ؛ منها الأدبية ، والعلمية ، والصحفية وغيرها ، وله مقالات أخرى كثيرة كان ينشرها في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، فلو خصصت مقالاته بدراسة ، تحصيها وتصنيفها على حسب الموضوعات ، وتدرس خصائصها وفروقها على حسب الأغراض ، والتطور الزمني ، والفكري للسيد رشيد رضا ، لكان ذلك عملا مفيدا .
- **القضايا الأدبية في مجلة المنار :** يمكن أيضا دراسة القضايا الأدبية التي كانت تعنى بها مجلة "المنار" ، وهل تمثل تلك القضايا اتجاهها أدبيا معينا كما يمكن دراسة أدب غير رشيد رضا في مجلة المنار ، مثل سلسلة المقالات

التي نشرها الأستاذ محمد خضر الحسين بعنوان : "الخيال في الشعر العربي" وعنوان : "القياس في اللغة العربية".

- **الخطابة :** من الموضوعات النثرية في أدب رشيد التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث الخطابة ، فقد كان رشيد كثير الخطب ، كثير التمثيل فيها كما أن له أراء في هذا الفن ، فهذا الموضوع من حيث حجمه ، وتعدد أغراضه ، يحتاج إلى دراسة متأنية تتوافر عليه .
- **المساجلات الأدبية واللغوية :** دارت بين رشيد ونظرياته الأدبية مساجلات ومناظرات ومناقشات وردود في اللغة والأدب والفكر ، وقد حوت "المنار" طرفا من ذلك ، كما حوى كتاب شكيب في رشيد رضا ما جرى بينهما من ذلك بواسطة الرسائل الإخوانية ، فهذا أيضا من الموضوعات التي تحتاج إلى دراسة خاصة بها ، وأهم مصادره المنار والمجلات والجرائد المعاصرة لها. ومن جرت بينهم المناظرات أو الردود : الدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور محمد لطفي جمعة ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور أحمد أمين ، والأستاذ محمد فريد وجدي والشيخ عبد الحسين شرف الدين ، وغيرهم .

ملخص البحث :

أشار البحث إلى ما اعتبرى الثقافة الإسلامية - ومن ضمنها الأدب العربي - من فتور في ظل سيادة الدول الأعمجية على البلاد العربية ، ثم شرح حال عصر رشيد رضا سياسياً وفكرياً ، موضحاً ما انتهى إليه أمر الدولة العثمانية ، التي كانت تمثل رمز الوحدة الإسلامية في نظر الشعوب الإسلامية قبل سقوطها ، وترجم البحث للسيد رشيد رضا ، بما يكشف عن سيرته الذاتية ، نشأة ، وتعلماً ، وكفاحاً في خدمة الدين والأمة العربية والإسلامية ، وأنه تلقى تعليماً دينياً على شيخ مدينة "طرابلس" الشام ، وأنه عنى بتنقيف نفسه بالثقافة العصرية ، وتأثر بمدرسة "العروة الوثقى" الفكرية ، التي ترعرعها السيد جمال الدين الأفغاني ، وتلميذه الشيخ محمد عبده المصري ، ثم هاجر السيد رشيد رضا إلى مصر ، لمقابلة الشيخ محمد عبده ، والعمل معه على ممارسة الإصلاح ، في جو أكثر حرية من الشام ، وفي هناك لمع نجمه ، وخاصة بعد وفاة شيخه .

تناول البحث في شتره الثاني أدب رشيد رضا ، فوجده أدباً غزيراً ومتنوّعاً ، إذ تبين أن لرشيد رضا شعراً منشورة ، ونشرها كثيرة ، وآراء نقدية مبئوثة في مجلة المنار الموسوعية ، فتناول البحث هذا الأدب بالدراسة والتحليل والنقد ، وظهر أن تراث رشيد رضا الأدبي لم يحظ بالعناية الكافية ، وأن معظم من تعرضوا لدراسته أو ترجموا له ، ركزوا على اهتماماته الدينية والفكرية ، فشغلوها بها عن تراثه الأدبي .

إن تراث رشيد رضا الأدبي ليضعه - بجدارة - في مصاف أدباء عصر النهضة الذين تدرس آثارهم الأدبية ، مثل الشيخ علي يوسف ، وقاسم أمين ، وشكيّب أرسلان ، ومصطفى كامل ، وغيرهم .

كان السيد رشيد رضا - رغم اعترافه ودفاعه عن التراث - ذا رؤية إصلاحية وتجددية في قضايا الدين والفكر والأدب ، وأشارت هذه الدراسة إلى طرف من نظراته التجددية في الأدب . انتهت الدراسة إلى أن السيد رشيد رضا أحد أدباء عصر النهضة ، واقتصرت على الدارسين إجراء مزيد من البحث .

الفهارس

فهرس الآيات .

فهرس الأحاديث .

فهرس الأشعار .

فهرس المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات

م	الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
١	(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَامِةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً إِبْرَاهِيمٌ: ٢٤ أَصْلُهَا تَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)	٢٤	أ
٢	(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ الْكَهْفَ: ١ عِوْجَاجًا)	١	
٣	(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكَوْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحِجْرُ: ٩	٩	١
٤	(كَمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قُرْنٍ فَنَادَوْنَا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) ص: ٣	٣	٢٢
٥	(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا فَصَلَتْ: ٤٤ وَعَرَبِيًّا فَلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْرُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ (بَعِيدٍ)	٤٤	
٦	(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ يُوسُفَ: ٥٢ الْخَائِنِينَ)	٥٢	٨٣
٧	(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الزَّمْرُ: ١٧-١٨ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ)	١٧-١٨	١٠٢
٨	(فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ الْأَمْرِ فَإِذَا عَرَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) الْأَعْمَانُ: ١٥٩	١٥٩	١٠٦
٩	(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) الْغَاشِيَةُ: ٢١	٢١	١٠٦
١٠	(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا الْأَنْعَامُ: ١٠٧ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)	١٠٧	١٠٦
١١	(أَنْحُنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ق: ٤٥)	٤٥	١٠٦

مَنْ يَخَافُ وَعِيدٍ

- ١٢ (أَلْمَ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً إِبْرَاهِيمٌ: ٢٤-٢٥) ١٦٥ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعَعُهَا فِي السَّمَاءِ ثُوَتِي أَكْلُهَا كُلٌّ حِينَ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (اقتباس)
- ١٣ (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْإِسْرَاءِ: ١) ١٧٤ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ
- ١٤ (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رِئُكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّالُّ فَأَنَّى يُونُسُ: ٣٢) ١٨٩ ثُصْرُوفُونَ
- ١٥ (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ طَهٌ: ١١٤) ٢١٧ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا
- ١٦ (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُقْيَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ٢٩٧
- ١٧ (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَنَكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاؤُدُّ أَنَّمَا فَتَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) ٣٠١
- ١٨ (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلَّوْنَا السَّبِيلًا) ٣٠٤، ٣٠٨ الأحزاب: ٦٧
- ١٩ (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبِينِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الْلَّاَئِي ثُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) ٣٠٥
- ٢٠ (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَاوْ كَرَهَ الْكَافِرُونَ) ٣٠٥ غافر: ١٤
- ٢١ (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْفَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) ٣٠٥ هود: ١١٧
- ٢٢ (تَبَصِّرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ٣٠٥ ق: ٨ (اقتباس)
- ٢٣ (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْنُمُوهُ قُلْنَمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) ٣٠٥ النور: ١٦

- ٢٤ (عَمَّ يَسْأَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ) ٣٠٥ ٢-١ النَّبِيٌّ
- ٢٥ (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيْبَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيَهَا رِزْقُهَا النَّحْلُ: ١١٢ رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) ٣٠٨
- ٢٦ (قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ آلُ عُمَرَانٍ: ٢٦ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَنْعِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ٣٠٩
- ٢٧ (وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ إِبْرَاهِيمٍ: ٤٢ لِيَوْمٍ تَشَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)
- ٢٨ (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ الْحَشْرُ: ٢ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنَّوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا وَقَدْ فَيْ قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ)
- ٢٩ (كَلَّا وَالْفَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) ٣٠٩ المدثر: ٣٢-٣٤
- ٣٠ (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتِيسُ الْحَدِيدُ: ١٣ مِنْ ثُورِكُمْ فِيلَ ارْجَعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَّمِسُوا ثُورًا فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ (اقتباس) بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبْلِهِ الْعَذَابُ)

فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث	م
٤	"لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش" مسند الإمام أحمد : ٣٣٥/٤	١
٢١٤	"ويل للعرب من شر قد اقترب" صحيح البخاري : ٢٥٨٩/٦ ، صحيح مسلم : ٢٢٠٧/٤	٢
٢١٨	عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلماتن خفيقتان على اللسان ثقلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" صحيح البخاري : ٢٣٥٢/٥ ، صحيح مسلم : ٢٠٧٣/٤	٣
٢٣٠	"أدعوك بدعائية الإسلام" صحيح البخاري : ٧/١ ، صحيح مسلم : ١٣٩٣/٢	٤

فهرس الأشعار

الصفحة	الوزن	البيت الأول في القطعة
٤٥	الرجز	بيت رقي في المعالي مسورد
٤٩	الطويل	أو الراح تجلّى في يد الرشاً الألّمي
٤٩	الكامل	والصبر أصعب ما يقاد نجائبـه
٤٩	جزء الكامل	ـ د مكلاً مثل الثمرـ
١٢٢	البسيط	لا حول للخلق بالخلاص ولاـ
١٢٣	البسيط	ـ ووارث المصطفىـ فيـنا وـنائـبـهـ
١٢٣	البسيط	ـ وقد أعدـ له جـنـاتهـ نـزـلاـ
١٢٣	البسيط	ـ قـرـتـ بـهـ عـيـنـهـ مـذـ كـاسـهـاـ نـهـلاـ
١٢٤	الكامل	ـ والنـعشـ مـثـلـ المـهـ دـ لـلـأـلـادـ
١٢٤	الكامل	ـ نـامـوـسـهـ فـرـدـ مـنـ الـأـفـرـادـ
١٢٥	الكامل	ـ إـلـاـ بـعـضـ الـضـيـفـ وـالـقـصـادـ
١٢٥	الكامل	ـ بـمـوـاـكـبـ الـأـعـرـاسـ وـالـأـعـيـادـ
١٢٥	الرمل	ـ تـرـاءـىـ فـوـقـ طـوـقـ الـبـشـرـ
١٢٥	الطويل	ـ وـيـاـ أـيـهـاـ الـأـقـوـامـ حـسـبـكـ بـشـراـ
١٢٦	البسيط	ـ أـجـلـ عـيـدـ عـلـىـ الـدـنـيـاـ سـيـاسـيـ
١٢٧	الخفيف	ـ بـلـحـاظـ قـامـتـ بـهـ الـعـصـبـيـةـ
١٢٨	الخفيف	ـ كـلـ عـضـوـ كـلـةـ حـرـيـيـةـ
١٢٨	الخفيف	ـ يـقـرـيـ عنـ ضـوـعـةـ الـمـفـرـيـةـ
١٢٩	الخفيف	ـ وـزـ هـامـ الـجـوزـاءـ بـالـفـوـقـيـةـ
١٣٣	الرجز	ـ بـوـأـتـاـ الـبـنـوـةـ النـبـوـيـةـ
١٣٤	الرجز	ـ بـحـكـمـةـ تـرـوـقـ أـرـبـابـ الـحـجـىـ
١٣٥	الرجز	ـ رـصـعـهاـ النـورـ بـأـصـنـافـ الـحـالـىـ
١٣٦	الرجز	ـ مـثـلـ مـدـبـ النـفـلـ يـسـعـىـ فـيـ الـرـبـىـ
١٣٦	الرجز	ـ رـيـانـ مـنـ مـاءـ الـعـفـافـ وـالـحـيـاـ
١٣٨	الرجز	ـ يـفـيـ لـيـ السـهـدـ وـيـخـلـفـ الـكـرـىـ
١٣٩	الرجز	ـ هـبـيـ وـعـنـ عـيـنـيـكـ فـامـسـحـيـ الـكـرـىـ
١٤٣	الرمل	ـ فـرـبـمـاـ كـانـ حـصـاـهـاـ كـالـحـصـاـ
١٤٣	البسيط	ـ وـارـفـعـ الـضـيـمـ وـجـاهـدـ لـلـبـلـادـ
١٤٤	الكامل	ـ صـمـصـامـةـ الشـامـ وـاجـلـواـ بـاسـمـهاـ الغـرـرـاـ
١٤٤	البسيط	ـ اـقـصـواـ الطـغـاةـ بـكـلـ أـبـيـضـ صـارـمـ
١٤٤	الكامل	ـ سـاحـ المـعـامـعـ فـيـ حـزـمـ وـإـقـدامـ
١٤٤	الرمل	ـ مـجـدـ الـجـدـودـ الـفـاتـحـينـ الـمـالـكـيـنـ
١٤٥	البسيط	ـ وـتـقـدـمـ فـيـ الـوـغـيـ وـاحـتـسـبـ
١٤٥	الرجز	ـ الـمـجـدـ شـيـدـهـ الـأـحـرـارـ فـاسـطـرـاـ
١٤٥	الرمل	ـ شـيـدـواـ الـصـرـحـ وـجـدـواـ لـلـعـاـىـ
١٤٥	الكامل	ـ لـمـتـيـ تـئـنـ وـلـاـ تـرـاـكـ مجـاهـداـ
١٤٦	البسيط	ـ كـمـ قـتـلـتـ وـنـفـتـ مـنـ خـيرـ أـقـوـامـ

٢٧٣	البسيط	أسعى ليك على عيني بلا مهل	١٤٢ ناديت يا أملـي أين المقام لكـي
٢٧٤	البسيط	منك الوصال فهلا جدت يا أملـي	١٤٣ بالله يا أملـي كـم بت مرتبـي
٢٧٤	الرمل	بيـن كـأسـين اصـطـبـاح واغـتـبـاق	١٤٤ ما أـرـى يا دـهـرـي إـلـاـ أـنـتـي
٢٧٥	البسيط	يـومـ النـعـيمـ وـقـدـ أـورـتـهـ الـجـوـدا	١٤٥ هـلـاـ نـظـرـتـ إـلـىـ مـنـ كـانـ يـصـبـنـي
٢٧٥	البسيط	وـالـجـسـمـ مـنـ سـقـمـ قـدـ صـارـ مـكـوـدا	١٤٦ هـذـيـ الـحـيـاـتـ بـهـ أـصـبـحـتـ مـنـ وـدـا
٢٧٥	الرمل	عـنـ ضـعـيفـ حـطـمـتـهـ أـقـويـاءـ	١٤٧ أـيـنـ عـدـلـ حـجـبـتـ آـيـاتـ مـنـ
٢٧٦	الرمل	وـأـمـانـيـ العـلـاـ دـرـ مـصـونـ	١٤٨ يـلـعـبـ الدـهـرـ بـأـمـالـ الـفـتـىـ
٢٧٦	الكامل	ةـ أـلـاـ تـرـىـ صـخـرـ الـحـيـاـتـ تـافـفاـ	١٤٩ أـظـلـ مـرـتـطـماـ عـلـىـ صـخـرـ الـحـيـاـ
٢٧٨	الكامل	ةـ أـلـاـ تـرـىـ صـخـرـ الـحـيـاـتـ تـافـفاـ	١٥٠ أـظـلـ مـرـتـطـماـ عـلـىـ صـخـرـ الـحـيـاـ
٢٧٩	الرمل	غـيـرـ أـنـ الدـهـرـ غـدارـ مـجـونـ	١٥١ وـأـرـدـتـ الـمـجـدـ أـعـلـوـ هـامـ
٢٨٠	الرمل	خـانـيـ الدـهـرـ وـخـانـتـيـ الـرـفـاقـ	١٥٢ خـانـيـ الدـهـرـ وـقـدـ أـمـلـتـ
٢٨٠	البسيط	إـلـاـ مـنـافـقـ يـزـجـيـكـ الـأـنـاشـيـدا	١٥٣ ضـلـ الزـمـانـ وـخـانـ الـصـحـبـ لـسـتـ تـرـىـ
٢٨٠	الرمل	قـدـ أحـاطـتـهـ سـجـوفـ وـفـتـونـ	١٥٤ مـاـ لـعـيشـ كـلـ النـاسـ بـ
٢٨٠	الطوـيل	مـنـ الـحـجـجـ الـبـيـضـاءـ فـيـ الـفـغـرـ وـالـسـعـدـ	١٥٥ أـمـزـقـ أـحـشـاءـ الـظـلـامـ بـلـامـ
٢٨٠	البسيط	وـاسـتـنـزـفـ الدـمـعـ مـنـ عـيـنـيـ تـرـيـداـ	١٥٦ وـهـكـذاـ الدـهـرـ يـوـلـينـيـ مـصـائـبـ
٢٨١	الكامل	كـالـسـلـحـفـةـ يـدـ بـبـيـهـ	١٥٧ مـاـ لـلـجـبـالـ التـانـكـ يـصـعـدـ فـوـقـهـ
٢٨١	الكامل	تـغـلـيـ مـنـ الضـغـطـ الـذـيـ لـمـ يـهـمـ	١٥٨ هـذـاـ التـشـبـابـ دـمـاؤـهـ كـمـراـجـ
٢٨٢	مجـزـوـءـ الـكـاملـ	كـالـنـارـ مـشـبـوـبـ اللـهـ بـ	١٥٩ أـحـشـاؤـهـ فـيـ جـوـفـ
٢٨٢	الرـمل	وـتـقـدـمـ مـعـلـناـ آـيـاتـهـ	١٦٠ قـمـ رـضـيـعـ الـحـرـبـ مـنـ سـاحـاتـهـ
٢٨٢	الرـمل	ضـحـكـ السـيفـ إـلـامـ تـسـتـكـيـنـ	١٦١ جـرـدـ السـيفـ مـنـ الـغـمـدـ كـفـيـ
٢٨٢	الرـمل	يـارـجـالـ الـمـجـدـ مـنـ خـيرـ الـجـدـودـ	١٦٢ يـاـ شـابـ الـعـرـبـ يـاـ نـسـلـ الـأـسـودـ
٢٨٣	الكـاملـ	عـنـ خـيرـ مـجـدـ لـلـجـودـ الـفـاتـحـينـ	١٦٣ بـيـزـنـتـيـاـ سـلـهـاـ وـسـلـ غـرـنـاطـةـ
٢٨٤	الـكـاملـ	أـيـنـ الـشـعـورـ الـحـيـ أـيـنـ تـتـدـدـاـ	١٦٤ أـيـنـ الـرـجـالـ وـأـيـنـ مـنـهـ يـعـربـ
٢٨٤	الـبـيـسـيـطـ	مـالـيـ أـرـىـ الـبـؤـسـ مـاجـتـ فـيـ أـحـلـامـيـ	١٦٥ مـالـيـ أـرـىـ الـدـهـرـ يـاـ قـحـطـانـ يـفـزـعـنـيـ
٢٨٤	الـكـاملـ	يـسـتـهـضـ الـهـمـ الـعـوـالـيـ مـرـحـبـاـ	١٦٦ هـارـوـحـ قـحـطـانـ أـطـلـ مـنـ الـعـلـاـ
٢٨٤	الـطـوـيلـ	فـلـاـ أـسـعـدـتـنـيـ فـيـ هـوـاـكـ يـدـ الـدـهـرـ	١٦٧ إـذـاـ لـمـ أـفـرـ يـاـ دـدـ بـالـعـلـمـ يـافـعـ
٢٨٥	الـكـاملـ	يـاـ لـلـفـوـادـ غـرـامـهـاـ أـضـنـانـيـ	١٦٨ يـاـ حـسـنـهاـ سـلـبـتـ عـقـولـ ذـوـيـ النـهـيـ
٢٨٥	الـرـمل	وـسـبـرـتـ الغـورـ فـيـ شـتـىـ الـشـئـونـ	١٦٩ كـمـ عـرـكـ الدـهـرـ فـيـ هـذـيـ الـحـيـاـ
٢٨٥	الـبـيـسـيـطـ	مـنـ بـعـدـ مـاـ أـمـلـيـ قـدـ كـانـ مـعـقـودـاـ	١٧٠ وـالـدـهـرـ يـزـعـجـنـيـ عـنـ غـاـيـةـ عـظـمـتـ
٢٨٦	الـرـمل	لـسـتـ إـلـاـ زـارـداـ جـبـ الـخـنـاقـ	١٧١ إـيـهـ دـهـرـ الغـدرـ أـقـبـلـ أـوـ فـأـدـرـ
٢٨٦	الـبـيـسـيـطـ	بـعـدـ الـظـلـماـ مـصـعـداـ إـنـ كـانـ مـورـودـاـ	١٧٢ أـمـلـتـ مـرـتـقـبـاـ وـرـدـاـ يـطـالـعـنـيـ
٢٨٦	الـبـيـسـيـطـ	مـنـ بـعـدـ مـاـ أـمـلـيـ قـدـ كـانـ مـعـقـودـاـ	١٧٣ وـالـدـهـرـ يـزـعـجـنـيـ عـنـ غـاـيـةـ عـظـمـتـ
٢٨٧	الـبـيـسـيـطـ	كـانـ النـعـيمـ بـهـ كـالـصـبـحـ مـشـهـودـاـ	١٧٤ يـاـ نـفـسـ صـبـرـاـ فـلـاـ تـأـسـيـ عـلـىـ زـمـنـ
٢٨٨	الـرـمل	شـيـدـوـاـ الـصـرـحـ وـجـدـوـاـ الـعـلـىـ	١٧٥ يـاـ حـفـيدـ الـعـرـبـ يـاـ نـسـلـ الـأـلـوـلـىـ
٢٨٨	الـرـمل	يـاـ حـالـ الـمـحـدـ مـنـ خـيرـ الـجـدـودـ	١٧٦ يـاـ شـابـ الـعـرـبـ يـاـ نـسـلـ الـأـسـودـ

المصادر والمراجع

أ. المصادر :

١. القرآن الكريم .
٢. تاريخ الأستاذ الإمام: السيد محمد رشيد رضا ، الدار الفيصلية للنشر والتوزيع والتصدير ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م.
٣. تفسير المنار: السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت.
٤. حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام: محمد رشيد رضا . تعليق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٤ م.
٥. ديوان السيد: السيد محمد رشيد رضا ، دار الطباعة الحديثة بمصر.
٦. ديوان النهضة : محمد رشيد رضا ، اختار النصوص وقدم لها أدونيس وخالدة سعيد ، دار العلم للملاتين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م.
٧. رسالة التوحيد: الأستاذ الإمام محمد عبد ، تعليق محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ، ١٩٦٠ م
٨. السيد رشيد رضا ، شبيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق - سوريا ١٩٣٦ م.
٩. مجلة المنار : السيد محمد رشيد رضا ، دار التدميرية ، الرياض ، (قرص : مكتب مارس للبرمجة ونظم المعلومات ، مصر القاهرة)
١٠. الخلافة: السيد محمد رشيد رضا ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٨ م.
١١. المنار والأزهر: السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٣ هـ.
١٢. الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية وتوحد المذاهب: السيد محمد رشيد رضا ، المكتب الإسلامي.
١٣. الوحي المحمدي: السيد محمد رشيد رضا ، دار المنار ، مطبعة محمد علي وأولاده بالأزهر بمصر ، ١٩٥٥ م

ب. المراجع

١٤. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٣ م.
١٥. الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي
١٦. الأدب الحجازي في القرن الحادي عشر: د. عائض الردادي ، مكتبة المدنى للطبع والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى.
١٧. الأدب العربي المعاصر في مصر : د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمث麗 ، الطبعة السادسة.
١٨. الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار: د. جودت الركابي ، دار الفكر ، دمشق .
١٩. أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي ، أحمد أبو سعد ، دار الشرق الجديد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١ م
٢٠. أدب عصر النهضة: د. شفيق البقاعي ، دار العلم للملائين ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ م
٢١. الأدب العربي الحديث: د. محمد صالح الشنطي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣ م.
٢٢. أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة: د. محمد مخزوم ، معهد الإنماء العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م
٢٣. أساليب التعبير الأدبي: د. إبراهيم السعافين (بمشاركة) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الإصدار الثالث ٢٠٠٠ م.
٢٤. الإسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله: عباس محمود العقاد ، دار الكتب الحديقة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٤ م
٢٥. الإسلام الأمس والغد: محمد أركون ولويس غارديه ، ترجمة علي المقداد ، دار التدوير للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣ م.

٢٦. الإسلام كبديل: د. مراد هوفمان ، ترجمة غريب محمد غريب ، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام بألمانيا الموحدة
٢٧. الإسلام والتجديد في مصر: تشارلز أدمز ،
٢٨. الإسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٥ م
٢٩. الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب: الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي ، مطبع قطر الوطنية ، الدوحة - قطر ، ١٣٩٨ هـ.
٣٠. الإسلام والغرب دراسة في قضايا الفكر المعاصر: محمد الخير عبد القادر ، دار الجيل ، بيروت والدار السوداني للكتب ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٩١ م.
٣١. أعلام الإسلام: عبد الوهاب سكر ، ص ١٠٨
٣٢. الأعلام: خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٢٦/٦ م ١٩٨٠
٣٣. الأمير شكيب أرسلان حياته وأشاره: د. سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ط ٢
٣٤. البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان: د. طلال عتريسي ، الوكالة العالمية للتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ م
٣٥. البيان والتبيين: للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٥ م.
٣٦. تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة - مصر.
٣٧. تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) د. عمر موسى باشا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ، دار الفكر ، دمشق - سوريا ، إعادة الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م
٣٨. تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند: مسعود الندوي ، نشر وتوزيع دار العربية

٣٩. تاريخ الدولة العربية الإسلامية وحضارتها ، د. حسين مؤنس (بمشاركة) ، وزارة التربية - الكويت ، الصف الأول الثانوي ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ - ١٩٦٥ م.
٤٠. التاريخ والحضارة الإسلامية في باكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربي: د. عبد الله محمد جمال الدين ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة.
٤١. تباشير النهضة الأدبية ، وليم الخازن ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م.
٤٢. تراث الإسلام: جوزيف شاخت (بمشاركة) ، ترجمة محمد زهير السمهوري (بمشاركة) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، الطبعة الثالثة.
٤٣. التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ، عبد الحي دياب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ م.
٤٤. التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة) ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م.
٤٥. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل : محمد الغزالى ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢ م.
٤٦. تراث الأعلام المعاصر في العالم الإسلامي : أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ م.
٤٧. التصوير الشعري (رؤى نقدية لبلاغتنا النقدية) : د. عدنان حسين قاسم ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م ، ص ١٤٩ - ١٥٢.
٤٨. تطور الرواية العربية الحديثة: د. عبد المحسن طه بدر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة.
٤٩. التفسير ورجاله: الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، مطبعة الأزهر ١٩٧٠ م.

٥٠. التصوير الشعري (رؤى نقدية لبلاغتنا النقدية) : د. عدنان حسين قاسم ، مكتبة الفلاح - الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م
٥١. التفكير فريضة إسلامية: عباس محمود العقاد ، دار الرشاد الحديثة ، الطبعة السادسة
٥٢. الجامع الصحيح المختصر ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ م
٥٣. جماليات الأسلوب ، الصورة الفنية في الأدب العربي: د. فايز الديمة ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م.
٥٤. الحركات الفكرية والأدبية في العالم العربي الحديث ، أبو عوض أحمد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ١٩٩٥ م
٥٥. الحركة الأدبية في دمشق ، د. إسكندر لوقا ، مطبع ألف باء - الأديب ، دمشق ، ١٩٧٦ م
٥٦. حقيقة القومية العربي وأسطورة البعث العربية: محمد الغزالى ، مطبعة حسان ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ م.
٥٧. حوار لا مواجهة: د. أحمد كمال أبو المجد ، دار الشروق ، ١٩٩٨ م
٥٨. حياة الشرق دوله وشعوبيه وماضيه وحاضرها: د. محمد لطفي جمعة ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة - مصر.
٥٩. دراسات في الشعر العربي المعاصر: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثامنة.
٦٠. دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، د. محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الأزهر ، القاهرة
٦١. دراسات ومقالات في الأدب العربي: د. أحمد بن ناصر الدخيل ، نادي المنطقة الشرقية الأدبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م.
٦٢. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ، علق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٦٣. دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي: عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات - الكويت ، ودار القلم ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ،

١٩٧٩ م ص ٥

٦٤. دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش: حسان على حلاق ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان.

٦٥. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: أكمل إحسان الدين أوغلي (بمشاركة) ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول (إرسيكا) ، ١٩٩٩.

٦٦. الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، د. قيس جواد العزاوي ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الثانية ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠٣ م

٦٧. الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط: د. علي محمد محمد الصلايبي ، دار الإيمان للطبع والنشر.

٦٨. الديوان: عباس محمود العقاد (بمشاركة) ، دار الشعب ، الطبعة الثالثة.

٦٩. ديوان ابن دريد ، وشرح مقصورته للخطيب التبريزى ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه ، راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي

٧٠. الرؤيا والتشكيل في الأدب المعاصر: د. أحمد رحماني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤ م.

٧١. رائد الفكر المصري الإمام محمد عبد: د. عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥ م

٧٢. الرحلة إلى الحجاز في الأدب العربي الحديث ، د. أحمد محمد على حنطور ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ م

٧٣. رسالة التوحيد: الأستاذ الإمام محمد عبد ، تعليق محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ، ١٩٦٠ م.

٧٤. رشيد رضا صاحب المنار ، د. أحمد الشريachi ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ، ١٩٧٠ م.

٧٥. زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ،
بيروت - لبنان.
٧٦. السلطان عبد الحميد الثاني (مذكراتي السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨) مؤسسة
الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢ م
٧٧. السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده: أورخان محمد علي ، دار
الوثائق ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م
٧٨. السلطان محمد الفاتح: د. سيد رضوان علي ، الدار السعودية للنشر
والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م.
٧٩. السيد محمد رشيد رضا: محمد أحمد درنيقة ، مؤسسة الرسالة ودار الإيمان
، الطبعة الأولى.
٨٠. الشاعر التائر ، رمضان حمودة: د. محمد ناصر ، المطبعة العربية ،
الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ م.
٨١. شرح مقصورة ابن دريد ، الأستاذ عبد الوصيف محمد ، المكتبة الشعبية
٨٢. الشعر والشعراء: لابن قتيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة
الأولى ، ١٩٨١ م
٨٣. الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية من مطلع النهضة إلى عام
١٩٣٩ م: دار الملايين ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٢ م
٨٤. شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام: د. أحمد الشريachi ، دار الجيل
بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ م.
٨٥. شكيب أرسلان مختارات نقدية في اللغة والأدب والتاريخ: جمعها وقدم لها
سعود المولى ، دار الكلمة للنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،
١٩٨٢ م.
٨٦. الشيخ رشيد رضا السلفي المصلح: محمد بن عبد الله السلمان ، جامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، إدارة الثقافة والنشر ١٩٩٣ م.
٨٧. الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل: سمير أبو حمدان ،
الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العالمي ، ١٩٩٢ م.

٨٨. صحيح مسلم ، مسلم بن الحاج ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي
٨٩. الصراع بين القديم والحديث في الأدب العربي الحديث: د. محمد الكتاني دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ م.
٩٠. صفحات مجهلة من الأدب العربي المعاصر ، أنور الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ م
٩١. العالم الإسلامي والنظام الدولي: د. محمد عمارة (بمشاركة) ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م
٩٢. عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ، مصطفى محمد حميداتو ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، قطر ، الطبعة الأولى.
٩٣. العثمانيون في التاريخ والحضارة: د. محمد حرب ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩ م.
٩٤. العرب والفكر التاريخي: عبد الله العروري ، دار التدوير للطباعة والنشر الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ م
٩٥. عصر الدول والإمارات: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة.
٩٦. العصر العثماني: نادية محمود مصطفى (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة
٩٧. العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي) : نادية محمود (بمشاركة) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م.
٩٨. العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز: د. بكر فائق الصواف ، مطابع سجل العرب ، ١٩٧٨ م.
٩٩. علم الدلالة العربي النظري والتطبيق دراسة تاريخية تأصيلية نقية: د. فايز الداية ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ م.

١٠٠. العمدة في محسن الشعر وأدابه: لابن رشيق ، قدم له وشرحه وفهرسه د.صلاح الدين الهراوي دار ومكتبة الهلال ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى.
١٠١. الغريال: ميخائيل نعيمة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤ م.
١٠٢. فجر العلم الحديث: توبى أ. هاتف ، ترجمة أحمد محمود صبحي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٧ م
١٠٣. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: د. محمد البهي ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ م
١٠٤. فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي: د. أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٩٥ م
١٠٥. الفن والأدب ، د. ميشال عاصي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م
١٠٦. فن السيرة: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان.
١٠٧. فن المقالة: أ.د. صالح أبو إصبع (بمشاركة) ، دار مجدلاني للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م
١٠٨. فن المقالة ، د. محمد يوسف النجم ، دار صادر ، بيروت ، ودار الشرق ، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م
١٠٩. فن المقال الصحفي ، د. إسماعيل إبراهيم ، دار الفجر للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م
١١٠. في الأدب الحديث: د. عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي
١١١. القاموس المحيط: الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ م.
١١٢. قضايا أدبية عامة: إيمانويل ، فريس ، (بمشاركة) ، ترجمة د. لطيف زيتوني ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٤ م.

١١٣. قضايا النقد الأدبي بين القديم وال الحديث ، د. محمد زكي العشماوي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ م
١١٤. لسان العرب ، المؤلف : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري الناشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة الأولى ، ٤٣٤/١٣
١١٥. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: الأمير شكيب أرسلان ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ م.
١١٦. ليبيا المعاصرة: د صلاح العقاد ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠ م.
١١٧. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن الندوبي ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، دار القرآن الكريم ، بيروت - لبنان ، ١٩٧٨ م.
١١٨. المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، المجلد السابع عشر ترجم وسیر ٣ ، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
١١٩. مجموعة أعلام الشعر: عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م.
١٢٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، أحمد بن محمد بن علي المقربي الفيومي ، المكتبة العلمية - بيروت
١٢١. محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ، د. شرف الدين علي الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية ، ١٩٨٥ م
١٢٢. مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ، طبعة جديدة ، ١٤١٥ - ١٩٩٥ ، تحقيق : محمود خاطر.
١٢٣. المخطوطات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف ، دار الثقافة للطباعة والزنكوغراف ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ م

١٢٤. المسلمين في تاريخ الحضارة: ستانوود كب ، ترجمة محمد فتحي عثمان ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ م.
١٢٥. المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه: محمد جاد البنا ، دار الكتاب السعودي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م.
١٢٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
١٢٧. المعاصرون: محمد كردي علي ، علق عليه محمد المصري ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبعة دار أبي بكر ، ١٩٨٠٣٣٤ م.
١٢٨. معالم الأدب الإسلامي ، د. عمر عبد الرحمن الساريس ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع - الكويت ان الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م.
١٢٩. معالم الثقافة الإسلامية: عبد الكريم عثمان ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٩ م.
١٣٠. المقدمات التاريخية للعلم الحديث ، توماس جولدشتاين ، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ٢٠٠٣ م.
١٣١. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: فهد بن عبد الرحمن الرومي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٤ هـ
١٣٢. المواقف في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان.
١٣٣. موسيقى الشعر: د إبراهيم أنيس ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة.
١٣٤. نحن والحضارة الغربية: أبو الأعلى المودودي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ١٩٨٣ م.
١٣٥. النقد الأدبي الحديث ، د. علي جابر المنصوري ، دار عمار - الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ م.
١٣٦. النهضة العربية والنهضة اليابانية: د. مسعود ضاهر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، ١٩٩٩ م

١٣٧. هيكل رائد الروية: د. طه وادي ، دار النشر للجامعات ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ م.

١٣٨. واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام: وحيد الدين خان ، ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم ، دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م.

الدوريات :

١٣٩. مجلة عالم الفكر ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، م ٢٦ ، العددان ٤ ، ٤ ، ١٩٩٨ م.

١٤٠. الاجتهد: مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي والإسلامي ، دار الاجتهد للأبحاث والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان.

الإنترنت :

www.raddadi.com . ١٤١

الأقراص المدمجة :

١٤٢. مكتبة ماس الشاملة للكتب ، إنتاج ماس للبرمجة ونظم المعلومات .

١٤٣. موسوعة مجلة المنار - الأعداد الكاملة ، إنتاج ماس للبرمجة ونظم المعلومات ، القاهرة مصر .

٤١. مكتبة الأدب العربي - الإصدار الأول ١٠٠ ، مركز التراث للبرمجيات ، الأردن .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الاستهلال :	-
أ	- الآية
ب	- إهادء
ج	- كلمة شكر
١	- المقدمة
٩	- التمهيد
١٢	الفصل الأول : عصر وحياة السيد رشيد رضا
١٢	المبحث الأول : عصر السيد رشيد رضا
١٢	المطلب الأول : الحالة السياسية في عصره
١٤	- بداية ضعف الدولة العثمانية
١٦	- محاولات الإصلاح
١٨	- أسباب فشل الإصلاحات
٢٠	- إنصاف السلطان عبد الحميد الثاني
٢١	- وضع المناطق العربية في عهد الدولة العثمانية

٢٣	- ترتیک الدولة العثمانية
٢٦	- انفصال المناطق العربية عن تركيا
٣٠	المطلب الثاني : الحالة الفكرية في عصره
٣٠	- بواعث النهضة
٣٣	- دعاء النهضة
٣٨	- الحالة الثقافية في عصره
٤٣	- حالة الأدب في عصره
٥١	المبحث الثاني : حياة السيد رشيد رضا
٥١	المطلب الأول : أسرته وسيرته
٥٢	- حول نسبه
٥٤	- مكانة عائلته
٥٥	- تصوفه
٥٧	- جهوده في الدعوة والإصلاح
٥٩	- هجرته إلى مصر
٦٦	- زواجه
٦٧	- صفاته

٧٥	المطلب الثاني : حياته العلمية
٧٥	– تعليمه النظامي
٧٥	– تعليمه غير النظامي
٧٩	– تكوينه العلمي
٨٣	– ثقافته العصرية
٨٨	– مكانته العلمية
٩٣	المطلب الثالث : حياته الفكرية
٩٣	– موقفه من الصوفية
٩٦	– موقفه من العلماء التقليديين
٩٨	– موقفه من دعوة التغريب
١٠١	– جهوده في التجديد الإسلامي
١٠٣	– دوره في نشوء الحركات الإسلامية
١٠٤	– مواقفه السياسية
١١٤	الفصل الثاني : أدب السيد رشيد رضا
١١٤	المبحث الأول : شعر السيد رشيد رضا
١١٤	– توطئة : رشيد رضا الشاعر

- ١١٥ - مصادر شعره
- ١١٦ المطلب الأول : شعره المنشور في كتبه
- ١٢٥ المطلب الثاني : المقصورة الرشيدية
- ١٢٦ - مصادر المقصورة وعدد أبياتها
- ١٢٨ - موضوعات المقصورة
- ١٣٤ - بين المقصورة الرشيدية والمقصورة الدرية
- ١٣٧ المطلب الثالث : ديوان السيد
- ١٣٨ - الوطنية
- ١٤٥ - الأزهريات
- ١٤٧ - الغزل
- ١٤٩ - الوجданيات
- ١٥٣ - الاجتماعيات
- ١٥٦ المبحث الثاني : نثر السيد رشيد رضا
- ١٥٦ المطلب الأول : رسائله
- ١٥٨ - رسائله في كتاب "السيد رشيد رضا" لشكي卜 ارسلان
- ١٥٩ - رسائله إلى أساندته

- ١٦٣ - رسائله إلى العلماء
- ١٦٤ - رسائله إلى الملوك والرؤساء
- ١٧٠ - رسائله إلى أصدقائه
- ١٧٣ - رسائله إلى طلابه
- ١٧٤ - رسائله إلى أهل بيته
- ١٧٦ المطلب الثاني : مقالاته
- ١٧٩ - مقالاته السياسية
- ١٨٠ - مقالاته الاجتماعية
- ١٨١ - مقالاته في الاستعمار
- ١٨٣ - مقالاته في الحرب العالمية الأولى
- ١٨٤ - مقالاته الدينية
- ١٨٥ - مقالاته الوصفية
- ١٨٨ المطلب الثالث : أدب رحلاته
- ١٨٨ - رحلات رشيد ويعاشرها
- ١٩٣ - الرحلة السورية
- ١٩٥ - الرحلة القسطنطينية

١٩٦	- الرحلة الحجازية
١٩٧	- الرحلة الهندية
١٩٩	- الرحلة الأوربية
٢٠٢	المطلب الرابع : ترجمة الأدبية
٢٠٢	- ترجمة الغيرية
٢١١	- ترجمته الذاتية
٢١٦	المبحث الثالث : نقد السيد رشيد رضا
٢١٦	المطلب الأول : اتجاهه النقدي
٢٢٥	المطلب الثاني : تطبيقاته النقدية
٢٤٢	الفصل الثالث : الدراسة الفنية لأدب السيد رشيد رضا
٢٤٢	المبحث الأول : الدراسة الفنية لشعر السيد رشيد رضا
٢٤٢	المطلب الأول : شعره التقليدي
٢٤٦	- الخصائص الفنية لشعره التقليدي
٢٤٦	- الروية الشعرية
٢٤٨	- المبالغة في المعاني والصور
٢٤٩	- مصادر ثقافته الشعرية

- ٢٤٩ - **الخصائص اللغوية والأسلوبية**
- ٢٥١ - **الخصائص الموسيقية**
- ٢٥٢ المطلب الثاني : شعره العصري
- ٢٥٢ - **رؤيته الشعرية**
- ٢٥٤ - **الخصائص المعنوية**
- ٢٥٤ - **أغراضه الشعرية**
- ٢٥٧ - **معانيه العصرية**
- ٢٥٨ - **الخصائص اللغوية والأسلوبية**
- ٢٥٨ - **بناء القصيدة**
- ٢٥٩ - **اللغة**
- ٢٥٩ - **الصورة الأدبية**
- ٢٦١ - **المحسنات البدعية**
- ٢٦٢ - **الخصائص الموسيقية**
- ٢٦٣ المطلب الثالث : شعره في آخر حياته (ديوان السيد)
- ٢٦٣ - **رؤيته الشعرية**
- ٢٦٤ - **خصائصه المعنوية**

- ٢٧٠ - خصائصه اللغوية والأسلوبية
- ٢٧٠ - لغة الديوان
- ٢٧٠ - بناء القصيدة
- ٢٧١ - النزعة الخطابية
- ٢٧١ - التكرار
- ٢٧٣ - الصورة الأدبية
- ٢٨٦ - الرمز
- ٢٨١ - الخصائص الموسيقية
- ٢٨٢ - مكانته الشعرية
- ٢٨٨ المبحث الثاني : الدراسة الفنية لنثر السيد رشيد رضا
- ٢٨٨ المطلب الأول : رسائله
- ٢٨٨ - أغراضها
- ٢٨٨ - أسلوبها
- ٢٩٠ - أساليب متكررة في رسائله
- ٢٩٣ المطلب الثاني : مقالاته
- ٢٩٣ - موضوعات مقالاته

- ٢٩٥ - شكل المقالة الرشيدية
- ٢٩٧ - عناوين المقالات
- ٢٩٩ - الخصائص اللغوية والأسلوبية
- ٣٠١ - بين الموضوعية والخطابية
- ٣٠٣ - المحسنات البدعية
- ٣٠٦ المطلب الثالث : أدب رحلاته
- ٢٠٦ - منهجه في كتابة الرحلات
- ٣٠٧ - أسلوبه في كتابة الرحلات
- ٢٠٩ المطلب الرابع : ترجمة الأدبية
- ٢٠٩ - الدرجة الفنية في ترجمة الأدبية
- ٣١٢ - أسلوبه في ترجمة الأدبية
- ٣١٢ - مكانة رشيد في النثر الفني
- ٣١٥ المبحث الثالث : الدراسة الفنية لنقد السيد رشيد رضا
- ٣١٥ المطلب الأول : السمات القديمة في نقده
- ٣١٥ - النقد اللغوي
- ٣١٦ - الذاتية في النقد

٣١٧	- الاعتدال في النقد
٣٢١	المطلب الثاني : السمات التجديدية في نقه
٣٢١	- تطور دلالات الألفاظ
٣٢٣	- تطور نظرة المجتمع إلى الأدباء
٣٢٤	- وعيه بأسس النقد الأدبي الجديد
٣٢٥	- نظرته إلى ثقافة الأديب
٣٢٦	- الدعوة إلى الأدب الإسلامي
٣٢٦	- ملاحظته تطور النثر في عصره
٣٢٨	- مكانة رشيد في النقد الأدبي
٣٣٠	الخاتمة
٣٣٠	- نتائج البحث
٣٣٤	- الاقتراحات
٣٣٦	- ملخص البحث
٣٣٧	الفهارس
٣٣٧	- فهرس الآيات
٣٤٠	- فهرس الأحاديث

- ٣٤١ - فهرس الأشعار
- ٣٤٥ - فهرس المصادر والمراجع
- ٣٥٧ - فهرس الموضوعات